جنوب السودان
والحروب الدائمة

النُّخبة، الإثنيّة والدولة المعطوبة

د. بيتـر أدوك نيابا

جنوب السودان
والحروب الدائمة
النُّخب، الإثنيّة والدولة المعطبة

د. بيتـر أدوك نيابا

ISBN 9789776597310

© Willows House 2021

الطبعـة الثانية: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميـع حقـوق النشـر محفوظـة للناشـر، ولا يحـق لأي شـخص أو مؤسسـة أو جهـة، إعـادة إصـدار هـذا الكتـاب، أو جـزء منـه، أو نقلـه، بـأي شـكل أو واسـطة مـن وسـائط نقـل المعلومـات، سـواء أكانـت إلكترونيـة أو ميكانيكـة، بمـا في ذلـك النسـخ أو التسـجيل أو التخزيـن أو الاسـترجاع، دون إذن خطّـيّ مـن الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جبران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
gmail.com@willowshouse3
+211927302302

جنوب السودان
والحروب الدائمة

النُّخبة، الإثنيّة والدولة المعطوبة

د. بيتـر أدوك نيابا

ترجمة: يدجوك أقويت
مراجعة الترجمة: عمار جمال

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

صدرت الطبعة الإنجليزية عن «مكوكي نا نيوتا» للنشر

Mkuki na Nyota Publishers Ltd

ص.ب 4246

دار السلام، تنْزَانِيّا

www.mkukinanyota.com

© بيتر آدوك نيابا 2018

2018 ISBN 978-9987-083-66-4

The original title:

South Sudan Endless Wars:

Elites, Ethnicity and the Stunted State

الإِهداء

إلى أبنائي وأحفادي، وبصفة خاصة شريكة حياتي، الموقرة آبوك فيتي آييك. اقتبس أغنية دون وليامز:

«أبدو أحيانًا بعيدًا عن حيث ينبغي أن أكون،

وأن الأشياء التي أنجزتُها ضئيلة.

حتى عندما شعرتُ بالضجر من النضال، وأنني غير قادر على المواصلة،

أحببتني في كل الحالات.

حُبكِ يعيد توازني عندما أقف على الحافة.

يدفعني للمواصلة وعدم التخلى عن أحلامي،

وكلما شيّدتُ جدرانًا، بنيتي جسوراً،

أحببتني في كل الأحوال».

شكر وتقدير

هـذا الكتـاب مسـاهمتي المتواضعـة للمعرفـة المتراكمـة عـن جنوب السّـودان وشـعبه عـبر الكتابـة، والتقاريـر والأبحـاث العلميـة و محتـواه أقـرب لملاحظـات كاتـب سـياسيّ أكـثر مـن كونـه بحـث أكاديمـي. لـذا، قـد يجـده بعـض الأكاديميـين الصارمـين، غـير دقيـق مـن الناحيـة النظريـة. قصـدت بالكتـاب ابتـدار حـوار بـين النخـب السياسـيّة بجنـوب السّـودان حـول أسـئلة تشـكيل الدولـة و بنـاء الأمـة، طالمـا أن الـصراع الإثنـيّ والمناطقـي بينهـم يـؤدي غالبـاً لتشـتيت الشـعب وإعاقـة عمليـة التحـول.

توفـر لي وقـت كاف للكتابـة خـلال وجـودي في صفـوف الحركـة – في المعارضـة، خاصـة مـع عـدم وجـود مهـام كبـيرة. وقـد شـاركت المسـودة الثانيـة للكتـاب مـع العديـد مـن الاصدقـاء والزمـلاء للنقـد، والتصحيـح، ومراجعـة الحجـج الـواردة فيه.

ممـتن للأسـتاذ أمـير إدريـس، أسـتاذ كـرسي دراسـات الأفارقـة والأفارقة-الأمريـكان بجامعـة فوردهـام، نيويـورك، لتكريـس وقـت لمراجعـة المخطوطـة رغـم ضيـق جدولـه الـدراسي. وقـد وصـف المخطوطـة بأنهـا «تقـدم فهـماً عميقـاً ودقيقـاً للمهتمـين بمعرفـة أسـباب فشـل نخـب جنـوب السّـودان في تشـخيص المشـكلة، وإحـداث التحـولات الاجتماعيـة والاقتصاديـة، مـع إعتراضـه عـلى اسـتخدام مصطلـح (النخبـة) مـن منظـوره الضيـق». كبـير تقديـري لشـخصه عـلى الملاحظـات القيمـة.

قـرأ الدكتـور بيـتر تنغـوا مخطوطـة الكتـاب وخـرج بتفاصيـل دقيقة وثاقبـة، قمـتُ بإدراجهـا في النـص مـع الإبقـاء عـلى توجـه وتحليـل الأحـداث. لـه عميـق شـكري وتقديـري لتجربتـه الغنيـة في أروقـة بعثـات الأمـم المتحـدة لحفـظ السـلام في ليبيريـا والصومـال.

لا يفوتنـي أن أشـكر الأصدقـاء الذيـن شـاركتهم مخطوطـة الكتـاب قبـل وبعـد إرسـاله للناشريـن. ضمنـت ملاحظـات بعضهـم حـين لـزم الأمـر، وقـرأت ملاحظـات البعـض في وقـت لم يكـن مـن الممكـن إضافـة تعليقاتهـم. كل الشـكر للدكتـور ديفيـد باسـوني، د. هـالي يورن هانسـن، وبروفيسـور إيـسي كوروموتـو عـلى الدعـم والتشـجيع.

ممـتن أيضـاً للدكتـورة كارل بيغـر عـلى التصحيح اللغـوي للمخطوطة وتقديمهـا للكتـاب، كل الشـكر عـلى المسـاهمة التي لا تقـدر بثمن.

آخـيراً، امتنـاني الخالـص للناشريـن، ولـتر غويـا وزمـلاؤه في «مكـوكي نـا نيوتـا» عـلى نـشر الكتـاب.

تصدير

المؤلف، بيتر آدوك نيابا، كاتب غزير الإنتاج وفاعل في تاريخ جنوب السّودان خلال الخمس عقود الأخيرة. وُلد في الحقبة الإستعمارية عندما كان السّودان تحت الإحتلال البريطاني، كما كان ضمن العديد من الطلاب الجنوبيين الذين دخلوا الأحراش لمحاربة هيمنة الشماليين على السّودان في ستينيات القرن الماضي، وهي الحرب التي انتهت باتفاقية أديس أبابا (1972). وبحلول منتصف الثمانينيات، كان نيابا في معسكرات التدريب داخل الأراضي الإثيوبية مقاتلاً في صفوف الجيش الشعبي لتحرير السّودان هذه المرة.

نجا نيابا من حرب ال(21) عاما، وكان حاضرًا في جوبا يوم 9 يوليو 2011 عندما رُفع علم دولة جنوب السّودان المستقلة لأول مرة. كما كان هناك يوم 15 ديسمبر 2013، يرتعد مع أسرته داخل منزله بحي الجبل، عندما نفذت قوات من الدينكا، مجزرة شاملة ضد إثنيّة النوير. في الأيام التي تلت، كما كتب نيابا، أمر الرئيس سلفاكير ميارديت جنوده بحماية نيابا، مع ابقاءه تحت الاعتقال المنزلي. نجح أدوك لاحقاً في الهرب من جنوب السّودان متحدياً الإقامة الجبرية ليعلن انضمامه للتمرد من المنفى.

ينتمي نيابا لقبيلة شلو (الشلك)، من منطقة أعالي النيل على الحدود مع السّودان شمالاً، وإثيوبيا شرقاً. وهي منطقة تقع في قلب حرب الخمس سنوات الأخيرة، والتي تسببت في نزوح الملايين وموت عشرات الآلاف. انتقل ولاء نيابا السياسي، مثل العديد من كبار

الشخصيات بجنوب السّودان، بين مختلف التنظيمات السياسيّة، في الحكومة والمعارضة، ومن الجبهة الجنوبية للحِزبْ الشّيوعي السّوداني إلى الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان، ثم الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان – في المعارضة، قبل أن يعتزل النشاط السياسيّ مؤخراً.

يناقش هذا الكتاب، الذي قد يكون المساهمة الأكثر أهمية لدكتور نيابا، الحرب الحالية من وجهة نظره الشخصية، وكيف أدت دولة الدينكا لتفشي القومية الإثنيّة في جميع أنحاء البلاد. يعترف المؤلف أيضاً إن قادة الإثنيّات والجماعات الثقافية استخدموا السياسات الإثنيّة لتحقيق طموحاتهم الشخصية. وكما يذكر في جنوب السّودان والحروب الدائمة: «تكمن نقطة ضعفنا الجمعي في عدم قدرتنا على تحرير أنفسنا من قبضة السياسات الإثنيّة السالبة».

يضيف نيابا: «يجب تنوير جماعاتنا إن السياسة الإثنيّة التي يعبر عنها مجلس أعيان الدينكا، مجلس أعيان باريّ، شلو، والنوير، والأجسام الإثنيّة الأخرى هي سياسة مضرة وأداة قهر واستغلال. فهؤلاء السلاطين، مثلهم مثل النخب العسكرية، والسياسيّة، ورجال الأعمال، ليسوا سوى مصاصي دماء يجب محاربتهم بالتعليم والوعي».

علاقتي بجنوب السّودان و السّودان قديمة، بدأت في الثمانينيات عندما كنتُ مراسلة لقناة «بي بي سي». كما عشتُ فترات طويلة خلال 2005، لإجراء أبحاث في الأنثروبولوجيا بمناطق الدينكا، وسافرت كثيراً حول البلاد. سمعت عن أدوك نيابا لبضع سنوات قبل أن التقى به أخيراً. وجدتُه رجلاً طويل القامة، بشوش ومنفتح الذهن، يستقبل بحماسة من يبتدرون معه الحديث حول تاريخ

بـلاده، رغـم إنـه غالبـاً مـا سـيواجه صعوبـة في النهـوض والوقـوف بعـد محادثـة، ويضطـر أن يتـوكأ عـلى عصـاه.

أصيـب نيابـا في معركـة جيكـو في مايـو 1987، عندمـا هاجـم الجيش السّـوداني وقـوات أنيانيـا تـو، الجيـش الشـعبي داخـل الأراضي الإثيوبية. صـدف أن كنـتُ حينهـا في مدينـة ملـكال السّـودانية، حيـث تـدار العمليـة بقيـادة ضابـط في الجيـش السّـوداني كان يوجـه بمهاجمـة الجنوبيـين في إثيوبيـا. نجـا نيابـا مـن المعركـة، لكنـه خـسر سـاقه بعـد تدخـل الفريـق الطبـي الكـوبي المتواجـد في بلـدة غامبيـلا الإثيوبيـة. إذا قابلـت أحـد قدامـى المحاربـين ممـن خـسروا أحـد أطرافهـم أثنـاء حـرب (1983-2005)، فمـن المرجـح أنـه أصيـب في محيـط بالقـرب من غامبيـلا حيـث تواجـد الفريـق الطبـي، لانـه نـادراً مـا ينجـو المقاتلـين مـن الإصابـات الخطـيرة خصوصـاً في غيـاب الرعايـة الصحيـة الأوليـة. شـهد ذلـك العـام فقـدان مقاتـل مـن الجيـش الشـعبي، مـن أبنـاء دينـكا بـور، سـاقه عندمـا انفجـرت قنبلـة أثنـاء التدريبـات في إحـدى معسـكرات بلفـام، ومثـل نيابـا أنقـذ الفريـق الطبـي الكـوبي في غامبيـلا حياتـه. هـذا الرجـل عضـو الآن في مجلـس أعيـان الدينـكا المتهـم مـن قبـل كثيريـن، بمـن فيهـم مؤلـف هـذا الكتـاب، بالمسـاهمة في تصعيـد القوميـة الإثنيّـة للدينـكا.

أشـير للتاريـخ هنـا كي أعكـس طبيعـة العلاقـة الحميمـة بـين مـن يقـودون الحـرب الاهليـة الحاليـة. كبـار الشـخصيات العسـكرية والسياسـية، الذيـن أشـعلوا فتيـل الفتنـة بـين المجتمعـات، وأطلقـوا عنـان الجنـود لطـرد القرويـين مـن مسـاكنهم، وإغتصـاب المدنيـين وقتلهـم، ويسـعون الآن للتوقيـع بالأحـرف الأولى عـلى اتفاقيـة سـلام

بأديـس أبابـا في سـبتمبر عـام 2018، كانـوا قـد قضـوا فـترة شـبابهم سـويةً في معسـكرات التدريـب، وفي حـرب العصابـات، قبـل أن يصبحـوا لاحقـاً قـادة الجيـش الوطنـي، وبرلمانيـون، وحُـكّام ولايـات في جمهورية جنـوب السّـودان حديثـة الاسـتقلال. كانـت مصائرهـم متشـابكة لأكـثر مـن أربعـين عامًـا تقريبًـا قبـل تقهرقهـم الأخـير بعـد إعـلان الإسـتقلال إلى قراهـم، وبلداتهـم، وأصلهـم الإثنـي، بحثـاً عـن الشرعيـة والسـلطة.

جنـوب السّـودان والحـروب الدائمـة: النُخَبـة، الإثنيّـة و الدَّولَـة المَعطوبَـة كتـاب بالـغ الأهميـة. يقـدم فيـه نيابـا نظـرة إنسـان مُطلـع عـلى الأحـداث الجاريـة بالبـلاد. يؤكـد المؤلـف أن جنوب السّـودان دولة فقـيرة، بنسـب أميـة عاليـة. وسـواء أتفـق القـارىء معـه أو اختلـف في أطروحتـه بخصـوص «الثـورة الوطَنيّـة الديمقراطيـة» كآليـة للخـروج مـن الوضـع الراهـن، يظـل شـيوع الأميـة واقعـاً لا يقبـل الجـدال.

يبقـى أن المجتمـع الـدولي عـلى إسـتعداد أكـثر مـن مـن أيّ وقـت مـضى لتمويـل ودعـم «بنـاء السـلام». وقـد بـذل جهـوداً أكـثر ممـن هـم في السـلطة، في وقـت لا يـزال «الإسـتقرار» غائبـاً عـن سـياق جنوب السّـودان. بإمـكان القـوى الغربيـة الإقليميـة والغربيـة دعـم خطـة تهـدف لمحـو الأميـة، ليـس فقـط في أوسـاط الشـباب، لكـن أيضـا بـين أولئـك الذيـن يُـزج بهـم في القتـال، ويفنـون حياتهـم مرتديـن الـزيّ العسـكري داخـل البـلاد، سـواء مـن الشرطـة والجيـش. وكـما يؤكـد نيابـا: التعليـم هـو الطريـق الوحيـد لوقـف الحـرب اللانهائيـة.

كارل بيغر

القاهرة، 11 سبتمبر 2018

تمهيد

مـن الـضروري الإشـارة إلى أن، بينـما يدخـل هـذا الكتـاب مرحلـة الطباعـة، فـأن محادثـات السـلام برعايـة إيقـاد في الخرطـوم، و التـي بـدأت في يونيـو عـام 2018، وصلـت طريقـاً مسـدود. فالمعارضـة الرئيسـة (الحركـة - في المعارضـة، وتحالـف المعارضـة بجنـوب السّـودان، وجبهـة الإنقـاذ الوطنـي) التـي كانـت ضـد الاتفاقيـة حتـى مطلـع سـبتمبر، وقعـوا الآن بالأحـرف الأولى عـلى قضايـا الحكـم العالقـة، في انتظـار حفـل التوقيـع المقـرر يـوم الثالـث عـشر مـن سـبتمبر في أديـس أبابـا[1]. حـدث هـذا بعـد تدخـلات الرئيـس السّـوداني عمـر البشـير، ولم يكـن التأخـير مفاجـأ. فقـد تجاهلـت إيقـاد منـذ البدايـة التناقضـات الأساسـية الكامنـة خلـف الـصراع، وانصـبّ اهتمامهـا عـلى تقاسـم السـلطة والـثروة وبعـض الإصلاحـات السـطحية، بـدلاً مـن إحـداث تحـول جـذري في البنيـة نفسـها. ونعلـم جميعنـا أن التركيـز عـلى السـلطة والـثروة لـن يخـرج البـلاد مـن أزمتـه الحاليـة.

النقطـة المفصليـة هـي تعهُّـد الرئيـس سـلفا كـير ميارديـت بعـدم العمـل مـع ريـك مشـار تنـج ضورقـون مجـدداً. سـبق وأن أسـتضيف الرجـلان مـن قبـل رئيـس الإيقـاد، رئيـس الـوزراء الإثيـوبي آبي أحمـد في أديـس أبابـا، ومـرة ثانيـة مـع الرئيـس السّـوداني عمـر البشـير في الخرطـوم وقـد فشـل كلا الاجتماعـين. مثَّـل رفـض كـير العمـل مع مشـار منـذ فـترة طويلـة سـبباً مبـاشراً في إشـعال الـصراع عـام 2013. كـما

(1) بيـان رئيـس جبهـة الخـلاص الوطنـي، الجـنرال تومـاس شريلـو سـواكا، بعنـوان «لمـاذا لم توقـع جبهـة الخـلاص الوطنـي عـلى اتفاقيـة الخرطـوم للسـلام»، بتاريـخ 1 سـبتمبر 2018.

كان عـلى مشـار تـرك قيـادة الحركـة الشـعبية-في المعارضـة لنائبـه، هـنري أودار، مـن أجـل مصلحـة الشـعب والبـلاد، والخـروج مـن مطـب تقسـيم السـلطة. إلا إن تعنـت مشـار و تغـيرات المنـاخ السـياسي إقليمياً ودوليـاً، وضعـا الحركـة الشَّـعبيّة لتحريـر السّـودان- في المعارضـة في موقـف حـرج بـلا خيـار سـوى «التراجـع» عـلى أمـل التقـدم لاحقـاً.

لا يسـمح السـياق الاجتماعـي، الاقتصـادي، والسـياسي بجنـوب السّـودان لقادتـه بالتـصرف مثـل المـرأة التـي أصرت عـلى قطـع الطفـل لجزئـين في الكتـاب المقـدس. فـكل قـادة الحركـة، الحاليـين والسـابقين، مسـؤولين عـن الأزمـة الراهنـة، بـل وصنعـوا مـن الرئيـس كـير الديكتاتـور الـذي لـن يسـمح بمشـاركة أحـد السـلطة أو تداولهـا. سـبق وقـال الرئيـس كـير للأمـين العـام للحـزب فاقـان أمـوم عـام 2013، «لـن أتـرك السـلطة لغـيري، [و] سـأجعل الوضـع صعبـاً لمـن يخلفنـي». مـن المؤسـف إن بعضنـا، لا سـيما مثقفـي الدينـكا الذيـن دعمـوا كـير لأسـباب إثنيّـة أو مناطقيـة، لم يدركـوا في العـام 2013 أنـه لـن يتنـازل عـن السـلطة أبـداً. هـذا يذكرنـا بـرد فعـل كـير عـام 2003، عندمـا أُقـترح ريـك مشـار نائبـا للدكتـور جـون قرنـق في التسلسـل الهرمـي للحركـة. يذكـر مـن حـضروا الاجتـماع أن سـلفا كـير تشـبث بالكـرسي بجـوار قرنـق كـما لـو أنـه يمنـع مشـار جسـدياً مـن الجلـوس مكانـه. ينبـع سـلوك كـير السـلطوي هـذا مـن طمـوح متطـرف غالبـاً مـا يـؤدي لتدمـير الفـرد.

يعكـس الواقـع الموضوعـي أن المعارضـة فشـلت في الإطاحـة بكـير. ورغـم أنـه لا زال الرئيـس، إلا أنـه يقـود دولـة محتـضرة. ينبغـي لوضـعٍ كهـذا أن يسـتفز الحساسـية الوطَنيّـة لـكل مواطـن جنـوب سـوداني،

وهـي فرصـة لأن نعـي أنـه لا خلـود في الدنيـا. يمكـن لشـعب جنـوب السّـودان التغـاضي عـن وتحمـل سـوء الحكـم في حـال توقفـت المعانـاة والحرمـان كـما في الخمـس سـنوات الماضيـة. في الواقـع، مـن حيـث مسـتوى عنـف الدولـة، الوضـع الحـالي مماثـل لفـترات الحكـم الـتركي-المـصري (1824-1885) والمهديـة (1885-1898) في السّـودان، عندمـا أوشـكت المجتمعـات، إن لم يكـن جميـع الجماعـات الإثنيـة، عـلى الإنقـراض. مـا يجعـل شـعبنا ملـزم بقبـول إتفاقيـة 2018 لتسـوية النزاع في جنـوب السّـودان، حتـى لـو كان ذلـك مـن أجل تفـادي انهيـار الدولة التـام. ومتـى حدث هذا سـتكون الدولة تحت رحمة السّـودان (البشـير) وأوغنـدا (يـوري موسـيفيني)، نفـس الرجلـين اللذيـن أشرفـا عـلى «إعـلان الخرطـوم»، الـذي وقعـه كـير ومشـار في 26 يونيـو عـام 2018.

أدت تجربـة كـير في الحكـم عـلى مـدى الثلاثـة عـشر عامـاً الماضيـة إلى انتشـار المـرارة والكراهيـة وسـط أطيـاف اجتماعيـة سياسـية كثـيرة، لدرجـة أن لاقـى قـرار الحكومـة تقسـيم البـلاد الى 32 ولايـة (أو أكـثر) قبـولاً كبـيراً، بـل وأعتـبر طريقـاً لتحقيـق السـلام. لم يـدرك العديـد مـن النـاس خطـر هـذا التقسـيم. فالمجتمعـات التـي خـبرت التهميـش والاضطهـاد عـلى أيـدي جيرانهـم لا يرغبـون في العـودة لنظـام العـشر ولايـات أو الثلاثـة أقاليـم، وهـذا مـا يـبرر المطالبـة بالفيدراليـة التـي يعتبرهـا البعـض الحـل السـحري للصراعـات والتوتـرات الداخليـة بـين القبائـل، رغـم أن تطبيقهـا ربمـا يفاقـم الوضـع. أفضـل خيـار بالطبـع هـو الركـون لعـادات التسـامح والمصالحـة، التـي مارسـها شـعب جنـوب السّـودان لفـترة طويلـة. أن يسـامح كل مجتمـع الآخـر، ويعمـلان سـوياً عـلى وقـف العنـف، لا سـيما ضـد الأبريـاء المدنيـين. هـذا مـن شـأنه

خلـق الـشروط اللازمـة لعـودة النازحـين واللاجئـين لقراهـم ومنازلهـم وترميـم حياتهـم.

مـن الصعـب، إن لم يكـن المسـتحيل، تجنـب العيـش معـاً طالمـا نُعـرّف أنفسـنا كشـعب جنـوب السّـودان. تتشـكّل الأمـم بعـد مشـقة، وكـدح، واقتتـال، لكـن الأهـم، هـو الإسـتعداد لتقديـم التضحيـات. مـا حـدث في جنـوب السّـودان في الخمـس سـنوات الأخـيرة لم يحـدث لنـا لوحدنـا، وكُلّي إيمـان أنـه فـور توقفنـا عـن ممارسـة العنف ضد أنفسـنا، لـن نعيـد هـذه التجربـة المريـرة مـرةٍ آخـرى. التجربـة التـي أثبتـت مفارقـة النخبـة السياسـية للنزعـة الانسـانية. لقـد قدمنـا تضحيـات جبـارة مـن أجـل هـذا البلـد، فلنعمـل معـاً دون حقـد وانقسـام مـن أجـل بنائـه.

بيتر أدوك نيابا

نيروبي، 9 سبتمبر 2018

المقدمة

«أتأسف لقول هذا مضطرًا، لكنني لم أجد نخبة لا تهتم لمصلحة شعبها مثل قادة جنوب السّودان».

الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريس[1]

عندما عمّت الفوضى جمهورية جنوب السّودان وشعبها عام 2017، كتبتُ ورقة قصيرة بعنوان «لنجعل 2018 سنة الحراك الحاسم»، تناقلتها وسائل التواصل الاجتماعي والمواقع الإلكترونية. كان جنوب السّودان قد مر لتوه بالذكرى السنوية الرابعة لمناوشات كتيبة التيقر، الحرس الرئاسي في جوبا، القتال الذي بشر ببداية الحرب الأهلية. فاتفاقية تسوية النزاع في جنوب السّودان (ARCISS)، بوساطة الهيئة الحكومية للتنمية (إيقاد) التي وقعت في أديس أبابا وجوبا، يومي 17 و26 أغسطس عام 2015، لتضع حداً للحرب. بتاريخ 29 أبريل عام 2016، شكّل أطراف الصراع حكومة الوحدة الوطَنيّة الانتقالية (TGoNU)، لكن مرّ شهران بالكاد قبل أن تنفجر الحرب مرةٍ آخرى وتنهار حكومة الوحدة الوطَنيّة واتفاقية تسوية النزاع، لتتصاعد وتيرة الحرب وتبتلع البلاد بالكامل مع ظهور معارضة سياسية ومسلحة، ودخل جنوب السّودان في أزمة إنسانية أخرى. وبحلول منتصف العام 2017، عبر أكثر من خمسة مليون لاجيء حدود البلاد إلى أوغندا، الكونغو،

(1) من كلمة للأمين العام للأمم المتحدة في الاجتماع الاستشاري الذي ضم الأمم المتحدة، وإيقاد، و الاتحاد الأفريقي بشأن جنوب السّودان في أديس أبابا، إثيوبيا، في 30 مارس 2018.

السّودان، إثيوبيا، وكينيا، كما اضطر بعضهم للاحتماء في مخيمات الأمم المتحدة لحماية المدنيين في جوبا، بور، بانتيو، واو، وملكال، أو في غابات ومستنقعات جنوب السّودان.

توفرت إذن أسباب كتابة الورقة التي دعوت فيها لاتخاذ إجراءات حاسمة لتغيير الوضع والخروج من الطريق المسدود. فقد كانت تسود حالة من السلبية واللامبالاة في صفوف المعارضة بسبب التباين والتناقض بين أهداف أكثر من عشر مجموعات مختلفة. كان وضعاً لا يبشر بالأمل، خصوصاً وأن الحكومة انخرطت في عمليات عسكرية في جميع أنحاء البلاد، واتبعت سياسة الأرض المحروقة ضد السكان المدنيين؛ هدم القرى، وحرق المحاصيل، ودفعهم إلى البلدان المجاورة، بينما ضغطت إدارة أوباما على إيقاد للاعتراف بحكومة ما بعد يوليو 2016 في جوبا. من ناحية آخرى، بددت لجنة الرصد التقييم المشتركة (JMEC) عامان من التظاهر بمتابعة وتقييم تنفيذ الاتفاق رغم علمها أن ثاني أكبر الأطراف قد تمرد. وكأنها سخرية القدر، حدث كل هذا مع شروعي تدوين في هذا الكتاب، ما زاد إصراري على توثيق ونشر وقائع ما حدث منذ اندلاع الحرب. في فبراير 2017، طلب أمير إدريس من عدد الباحثين والنشطاء السياسيين بجنوب السّودان المساهمة بمقال في كتاب عن جنوب السّودان، مع التركيز على معضلات مرحلة ما بعد الاستقلال. من جانبي أخترتُ الكِتابة عن لعنة النخبوية (إدريس، 2018: 19).

لم أقرر صدفةً ابتدار التصدير باقتباس كلمات الأمين العام للأمم المتحدة، أنطونيو غوتيريس، فهو الأنسب لوصف ما يحدث.

استخدمتُ التصدير للتأكيد على أنه لا يهُم على أي جانب يقف أيّ سياسي خلال الصراع الحالي، فكلهم بطريقةٍ أو بأخرى، مسؤولين عن هذه الحرب العبثية. كنتُ شاهداً على كل شيء، من أول رصاصة انطلقت بتاريخ 15 ديسمبر 2013 في جوبا، والقتال الرهيب الذي تلاه بين الحرس الجمهوري داخل القصر الرئاسي.

أعتبرُ هذا الكتاب جزء من نضالي الشخصي لاستيعاب أفضل لهذا الوضع المثير للشفقة في جنوب السّودان، والخروج بحلول لتغيير هذا الواقع. فنخبة جنوب السّودان نسخة هزلية لتلك المهيمنة في السّودان، والتي وصفها منصور خالد في كتاب «الحكومة التي يستحقونها». لم يكن من بُد لجنوب السّودان أن يحذو السّودان حذو النعل في رحلته كدولة مستقلة. مجرد تغيير وتصحيح بعض المفاهيم والمواقف لدى مختلف التشكيلات الاجتماعية كان كافياً لمنع هذه المأساة. لكن لا يمكن إنجاز هذا التغيير دون المعرفة العلمية وفهم العوامل الاجتماعية و السياسية التي ساهمت في الوضع الحالي، وهي معرفة يجب أن ينتجها أفراد ذوي حساسية عالية، وشجاعة كافية لمناقشة وفضح حتى دورهم في هذه المذابح الفظيعة.

تسببت الخمس سنوات الماضية من عمر الحرب الأهلية في إصابة العديد من زملائي بخدر الحواس وانعدامها لدرجة عدم اعترافهم بالدرجة التي بلغتها هذه الحرب في تجريد الشعب من إنسانيته وينطبق نفس الشيء على زملائي في الحكومة الذين وظفوا هذه الحرب لمصالحهم الذاتية الضيقة. ومن الصعب الآن تصور مدى الزمن المطلوب لإعادة غرس الأخلاق وأنسنتها. نحن ضحايا أعمالنا.

قصـدت بهـذا الكتـاب التعبـير عـن مشـاعري وأفـكاري عـن الكـرب، والمـرارات، والإحبـاط، والمعانـاة التـي عاشـها عـشرات الآلاف مـن مواطنـي جنـوب السّـودان منـذ ديسـمبر 2013 بمعسـكرات الأمـم المتحـدة لحمايـة المدنيـين في جوبـا، وبـور، وبانتيـو، و واو وملـكال. أمـا حـال المواطنـين النازحـين بمسـتنقعات لـيري بولايـة الوحـدة، وأبـروج ومملكـة شـلو في كال أقينـج بولايـة أعـالي النيـل، وغيرهـا مـن المناطـق في ولايـات الاسـتوائية وغـرب بحـر الغـزال، ممـن أطلـق عـلى حالتهـم «نـزوح داخـلي»، هـي الآخـرى تدعـو للقلـق، خصوصـاً مـع حـرص قـوات الحكومـة والميليشـيات القبليـة عـلى انتهـاك حياتهـم، ومعاملتهـم بوحشـية، وإنتشـار الاغتصابـات مـما يفاقـم مـن البـؤس. المماطلـة وتأجيـل محادثـات السـلام بأديـس أبابـا تعنـي مـوت الكثـير و سـيطرة الإحبـاط واليـأس. أنـا قلـق أيضًـا عـلى مليونـين سـوداني جنـوبي عـبروا الحـدود سـيراً عـلى الإقـدام للمـرة الثانيـة، وربمـا الثالثـة، في رحلة بحـث عـن الأمـان في دول مجـاورة مثـل أوغنـدا، الكونغـو، السّـودان، إثيوبيـا وكينيـا. وأعلـم أن الإجابـة عـلى سـؤال «متـى سـتتوقف معاناتهـم؟» متوقفـة عـلى النُخـب السياسـية في الحكومـة والمعارضـة.

خمـس سـنوات مـن الحـرب الأهليـة والمعانـاة بـلا ضـوء يلـوح في الأفـق، بينـما يجـول مـن يُطلـق عليهـم أصحـاب المصلحـة عواصـم الإقليـم للتفـاوض حـول السـلطة وتقاسـمها في وضـع لا يبعـث عـلى الأمـل. هـذا الكتـاب جـزء مـن عكـس خيبـة أمـلي في المعارضـة التـي إخـترت الإنضـمام إليهـا في يوليـو 2014، وفرصـة تأمـل وإعـادة نظـر في الواقـع بموضوعيـة. منحنـي تدويـن هـذا الكتـاب تجربـة نشـاط ذهنـي وسـط ركـود وسـلبية الوسـط السـياسي. مثـل العديـد مـن قـادة

المعارضة، بإمكاني توضيح أسباب هذا الركود، رغم إنه ليس من السهل إحداث التغيير اللازم للخروج من هذا المستنقع نتيجة غياب أيديولوجيا مشتركة، واختلاف التصورات حول المشكلة الرئيسة، وطبيعة الهدف الموضوعي للحرب. إن عدم الوضوح فيما إذا كانت حركة تحرير أم ثورة اجتماعية كان مصدر إزعاج للقيادة وعمّق أسباب الشقاق. وعلى الرغم من العديد من الصعوبات، بما في ذلك العسكرية واللوجستية ونقص الدعم، تحلى الجنود بالشجاعة وحرصوا على إستمرار النضال.

تأتي هذه الكتابة النقدية كمحاولة تفكير خارج الصندوق السياسي الذي وضعنا أنفسنا فيه. عندما تكون البيئة السياسية الداخلية خانقة وقامعة للممارسة الديمقراطية، تكون الكتابة أفضل طريقة للتنفس ومخاطبة السلطة بالحقائق على أمل يفهموا الواقع بشكل أفضل. الكتابة وسيلة أيضاً لمخاطبة الآخرين على الضفاف الأخرى، ممن اضطروا للمغادرة بسبب رئيس لا يفعل شيئاً غير تعيين وإعفاء حتى المقربين. كما في كتبي السابقة، حاولتُ الإلتزام بالموضوعية في تحليل الواقع، وأقدر لجمهوري من القراء، ومثقفي جنوب السّودان، بصفةٍ خاصة، تناول الكتاب بفهم مغاير، طالما يحدوني أمل محاورتهم بشكل مباشر.

أنا أكثر قناعة من أي وقت مضى أن مشكلة جنوب السّودان ليست بسبب المستعمر البريطاني أو الأنظمة المتعاقبة على الحكم في الخرطوم منذ 1956. فالقهر السياسي، والاستغلال، والتمييز والحروب جزءا من التاريخ الإنساني وليس حكراً على شعب جنوب السّودان. عانت دول عديدة في أفريقيا جنوب الصحراء والشرق

الأوسط من الحروب ونفس المشاكل. حرصت هذه الدول بعد استقلالها على انتشال مجتمعها من الواقع الاجتماعي والسياسي السلبي، ومخاطبة أسباب البؤس، وهذا هو الفرق بين الدول التي تعمل على تغيير واقعها وتلك التي تعيد إنتاج الأزمة. في العام 2011، إنتظر العالم بفارغ الصبر أن يبدأ شعب جنوب السّودان إعادة بناء حياته ودولته الوليدة بسلام، ووئام، وأمان؛ وأن يبنون اقتصادًا نابضًا بالحيوية يرتكز على الزراعة وتوظيف أموال النفط لتدوير عجلات الاقتصاد وبناء دولة ومجتمع على أسس القانون والنظام، واحترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية وإقتصاد حيوي يبرر 21 عاماً من الحرب.

للأسف، لم تقابل النوايا الدولية الحسنة هذه باستعداد وطني موازي لبناء دولة ناجحة، بل بدأ القادة في تصفية حساباتهم الشخصية وتعويض ما فات عليهم أثناء النضال، بينما أسهم قتالهم هذا في تأليب الجماهير البريئة على بعضهم. لا يعرف العالم عن جنوب السّودان الآن غير أخبار الحرب، والموت، والتشرد، والجوع. اتضح الآن أن معاناة جنوب السّودان من فعل نُخبها السياسية، والعسكرية، والتجارية. ففي ظرف عشرة سنوات، تحولت النخبة التي تشكلت في سياق النضال من أجل الحرية، والعدالة، والإخاء، والرخاء، إلى مجموعة ضباع تلتهم الناس وموارد البلاد، بل وتكرر نفس ممارسات الأنظمة السّودانية منذ عام 1956، بمساعدة أصدقائهم الأجانب. يحدث كل هذا لسبب بسيط، وهو طبيعة المثقفين الجنوب سّودانيين أنفسهم، إذ يعاني كثيرهم حالة فقدان ذاكرة جماعية وضمور عقلي وهم كالخنازير و ذاكرتهم صغيرة

جـداً. السـبب الآخـر هـو امتناعهـم عـن ممارسـة التعليـم، والنقـد الـذاتي، والقـراءة لتعلـم أو تجـاوز الأفـكار والمفاهيـم التـي عفـا عليهـا الزمـن. نتيجـة كل مـا ذُكـر، سرعـان مـا يعيـدون إنتـاج الظـرف الـذي دفعهـم للنضـال.

هـذا كتـاب عـن جمهوريـة جنـوب السّـودان، البلـد الـذي أُسـتقبل لحظـة ميـلاده بفرحـة كبـيرة مـن مواطنيـه وشـعوب العـالم، لدرجـة أن أعـترف مجلـس الأمـن التابـع للأمـم المتحـدة بإسـتقلال جنـوب السّـودان يـوم 8 يوليـو 2011 قبـل إعلانـه دولـة بطريقـة رسـمية، ورفع علمهـا أمـام عـشرات الالاف مـن المرابطـين تحـت أشـعة الشـمس عنـد ضريـح الدكتـور جـون قرنـق. منـذ ذلـك الحـين لم تتواتـر أخبـار إيجابية باسـتثناء الـثروات التـي حققهـا الكابويـات وهـؤلاء الذيـن قدمـوا للسـلب والنهـب بينـما لم تختـبر عـدد كبـير مـن المناطـق في جنـوب السّـودان السـلام أبـداً. مـع التوقيـع عـلى إتفاقيـة السـلام الشـامل عـام 2005، تجـددت النزاعـات القديمـة التـي طفتهـا حـرب التحرِيـر. بـدأت حـرب بالوكالـة بـين لـواش وباوينـج كانعـكاس للتنافـس بـين ابنائهـم في الجيـش الشـعبي، صراع بـين عشـيرتي آقـوك وآفـوك في قوقريـال، نزاعـات بـين عشـائر آقـار فيـما بينهـم، وضـد جيرانهـم قـوك في رومبيك. نفـس الأمـر بـين شـيج، آتـووت وألياب في مسـتنقعات يـرول. في ولايـة جونقـلي ظهـرت المناوشـات بـين لـو نويـر، والمـورلي، والدينـكا، أمـا بالقـرب مـن العاصمـة جوبـا، فقـد تخانـق باري ومنـداري حـول الأرض.

في العـام 2009، بلغـت حـروب الرئيـس سـلفا كـير مملكـة شـلو (الشـلك)، وبعـد عامـين بلغـت شـمال جونقـلي. في الاسـتوائية، تحديـداً في يـاي، حيـث عاشـت القبائـل هنـاك في اسـتقرار ووئـام لسـنوات

خلت، تسبب الرعاة المسلحين من الدينكا والهاربين من هجمات نهب الأبقار في مناطقهم في نزاعات مع السكان المحليين غالباً نتيجة تعديهم على محاصيل المزارعين المحليين في مندري (2005)، يامبيو (2005)، مريدي (2015)، وياي (2016). معلوم أن معظم الأبقار التي يرعاها شباب مسلحين مملوكة لكِبار ضباط الدينكا بالجيش الشعبي لتحرير السّودان وتنطبق نفس الأسباب على نزاعات غرب بحر الغزال. أجزاء كبيرة من جنوب السّودان في حالة فتنة دائمة نتيجة إنتشار الأسلحة النارية على نطاق واسع، ومعلوم أن مصدر معظم الأسلحة هو مخازن الجيش الشعبِي لتحرير السّودان.

يناقش هذا الكتاب ويدرس فشل النُخبة السياسية بجنوب السّودان في محاولة تحديد الأسباب التي أوصلت الدولة لهذه المرحلة. يجبرنا فشل هذه النخب على التساؤل عن كيف نجحوا في إقناع الجماهير بتقديم هذه التضحيات الكبيرة وخوض الحرب الأهلية. عكس العديد من المساهمين في التدوين عن جنوب السّودان، أكتب، بطريقة أو بأُخرى، من موقع الفاعل والمشارك في الوضع الراهن. فهذه الكتابة مدفوعة برغبتي لتحريك الخطاب السياسي نحو حلّ الصراع ورسم خارطة التطور الإجتماعي، والاقتصادي، والسياسي لجنوب السّودان، كل هذا باستصحاب تجارب المدرسة السياسية التي أومن بأفكارها، والتي غالباً ما قاومها العديد من مثقفي البلاد.

وصلت لاستنتاج مفاده أن الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان لم تخض حرب التحرير الوطني لتحقيق الإستقلال، بل

لتعيد على الجماهير نفس المصير الذي طالما كافحوا ضده، وضحوا بحياتهم من أجله، وفقدوا فُرص التنمية الاقتصادية والاجتماعية بسببه. فالهدف من تبني الماركسية اللينينية ومثلها العليا من الحرية، والعدالة، والإخاء والرخاء، مع إنتاج ممارسات ومفاهيم معاكسة، قُصد منه، كما اتضح جلياً، ازدراء وكراهية الأيديولوجيا الاشتراكية. يظهر هذا التأثير في مقاومة العديد من مثقفين جنوب السّودان للتفكير الثوري، مع عدم القدرة على فهم أسباب التخلف الاجتماعي والإقتصادي من منظور علمي ومعرفي. هذا هو حال القادة الحاليين من الضباط والمقاتلين السابقين بالجيش الشعبي لتحرير السّودان ممن خضعوا للتدريب السياسي في إثيوبيا وكوبا وهم من أتوجه إليهم بالنقد هنا. في الواقع، أشعر بالاشمئزاز من زملائي الذين يعتقدون أنهم ضد النظام الإثني الكليبتوقراطي، بينما يمارسون ذات الأيديولوجيا في تنظيماتهم السياسية. لقد تسبب ضعف المعارضة في إطالة حياة النظام، وبالتالي إستمرار الكوارث الإنسانية بجميع أنحاء البلاد.

هذا الكِتاب ليس نقداً من أجل النقد فقط، بل رغبة صادقة في تحفيز وإبتدار نقاش صادق بهدف بلوغ معرفة علمية للأزمة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في البلاد، وتوضيح التأثير السلبي للوضع الحالي على حياة الناس، ووضع خارطة لإحداث التحول المنشود. وتأتي إشارتي للحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان في سياق الكتاب، بغرض توضيح تطور الخوف، واللامبالاة، والتآمر، وعدم الصبر على التغيير طويل المدى، وازدواج الخطاب السياسي، وكلها صفات لازمت الحركة في مسيرتها النضالية. فمن الضرورة

محاربة هذه الثقافة لتحرير أنفسنا من الجشع والأنانية اللتان منعا المثقفين من التصدي لمسئوليتهم التاريخية، وهي رفع وعي الجماهير. تشكلت هذه الثقافة لأن دافع معظم من إنضموا للحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان حينذاك لم يكن التطوع ونكران الذات، بل البحث عن فُرص لم يكن تحقيقها ممكناً. لم يكن من المدهش أن عمل الرفاق في الحركة على الحيلولة دون بلوغ بعضهم قمة التسلسل الهرمي للسلطة، كما حرصوا على توريط بعضهم في مشاكل عميقة. السلوك الساخر الذي كان يُعبر عنه في جملة «دعه يرتكب مزيد من الأخطاء» أثناء النضال يثبت ذلك. كان يتم تجاهل الفرد حتى تتراكم أخطاءه، ومن ثم يتعرض لمساءلة القيادة، واعتقاله وتوجيه التُهم في نهاية المطاف.

ويبدو أن هذا السلوك مرده الحكمة الشَّعبية في أوساط الدينكا والنوير «لا تنصح الفرد عند البداية، أنصحه عندما يعود» حتى يتثنى للفرد الإستفادة من أخطاء أو فشل الآخرين. وهو سلوك ينُم عن نفسية اجتماعية رجعية تشجع التأمر والحسد - أن لم أستفد مما تفعل، سأحرص على أن لا تفعله - وبالتالي، يعيق تقدم المجتمع. ولا عجب أن ظلت المجتمعات الجنوبية في حالة ركود طوال المائتين عاماً الماضية. وهي نفس ثقافة الصمت الذي قد تفسر لماذا لم يتجرأ أحد من دائرة المقربين من الرئيس سلفا كير، ولا سيما كِبار ضباط المخابرات والأمن و أعضاء مجلس كِبار أعيان الدينكا (JCE)، على مصارحة الرئيس بحقيقة ما يجري في الدولة. يخشي هولاء أن الديكتاتور كير قد لا يريد سماع أي شيء سلبي، بل قد يتضرر فقط من يجاهر بالحقيقة.

طريقة تعامل إيقاد وقادة المنطقة مع الحرب الأهلية بجنوب السّودان والكوارث الإنسانية الناتجة عنها، تعيد إلى الأذهان حكاية أفراس النهر في ملكال. في أحد أيام العام 1976، إشتبك فرسا نهر في معركة غاضبة على ضفة النهر، غافلين عن خطورة الوضع على كليهما. تسبب قتالهما في لفت نظر الصيادين الذين أطلقوا عليهم النار وقتلوهم لتوفير الطعام. بإسقاط الحكاية أعلاه على الوضع، نجد أن اقتصادات البلدان المجاورة قد استفادت من الحرب الحالية، وهي نفس الدول التي تنشط في لعب دور وساطة محادثات السلام الفاشلة التي تجري حالياً. فالحكومة عضوة في الإيقاد ويحضر ممثلوها اجتماعات مجلس وزراء الإيقاد عن الصراع بجنوب السّودان، وهي اجتماعات تمكن ممثل الدولة من التعبير عن تأثير الحرب والإعتراض على أي تقارير سلبية. موقف إيقاد يثير شكوك أن بعض القادة الإقليميين، لا سيما الذين يدعمون الرئيس سلفا كير علناً، سبب في تأجيج النزاع بغرض تحقيق مصالحهم الإقتصادية.

كتبتُ من قبل عن مراكز البحث الدينكاوية - معهد سود ومركز إيبوني – اللذان انضما للجوقة عبر وضع سياسات عجلت لاحقاً بانحدار البلاد لهذا المستوى. أنتج المعهدان ثلاث دراسات مررها الرئيس كير لاحقاً كقرارات رئاسية أدت لتأزيم الوضع السياسي أكثر من ذي قبل. كان أولها القرار الرئاسي 36/2015، الذي أنشأ بموجبه 28 ولاية، لتتحول الدولة لبقع إثنيّة دون أي أساس اقتصادي لضمان بقائها، وكان القرار بمثابة تأخير عملية بناء الأمة. أدت الدراسة الثانية لتكوين لجنة «الحوار الوطني»، والتي

لم تكن في الحقيقة سوى حوار النظام مع نفسه، خصوصاً وإنه لا يمكن إجراء حوار وطني والحرب مستعرة في البلاد. أما الدراسة الثالثة والأخيرة، كانت مقترح «توحيد» فصائل الحركة الشَّعبيّة المتناحرة: الحركة الشَّعبيّة في الحكومة (سلفا كير ميارديت)، والحركة الشَّعبيّة في المعارضة (ريك مشار تنج ضورقون)، والحركة الشَّعبيّة - المعتقلين السابقين (باقان أموم). ونظراً لمستوى العداء بين هذه الفصائل، كانت محاولات توحيدهم مستحيلة وأشبه بمطاردة السراب.

يتكون هذا الكتاب من مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة، تعكس تجربتي الشخصية في العمل السياسي بالحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان بالمعارضة. وكلي أمل أن يجد مثقفو ونخب جنوب السّودان الوقت الكافي لقراءة واستيعاب هذه السطور.

جاء التكوين الاجتماعي الحالي لجنوب السّودان وشعبه ثمرة تطورات تاريخية في منطقة وادي النيل خلال الألف أو الألفين سنة الماضية. شهد القرنان الماضيان أحداثًا دراميةً، مثل التدخل الأوروبي، والاستعمار والاحتلال، وتشكيل الدولة السّودانية التي لم تكن سهلة بأيّ شكل من الأشكال. أما جنوب السّودان بشكله الحالي، فهو نتيجة عمليات الهندسة الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية للدولة السّودانية. حيث بدأ اختلال السلطة وأبعادها السياسية والاقتصادية منذ الحقبة الاستعمارية، واستمر بعد الاستقلال، وطوال فترات الحكومات السيادية.

يناقش الفصل الأول الازدواجية الاجتماعية والسياسية. وأعرفها «بالمواقف، السلوكيات، والمتلازمة النفسية-الاجتماعية السلبية

التـي نشـأت عـن ظـروف الحرمـان السـياسي، السـلطوي، والمعـرفي، والتـي تتمظهـر في سياسـات الإقصـاء السـياسي، والإهـمال أو التهميـش الاقتصـادي، والتمييـز الاجتماعـي القائـم عـلى أسـس العـرق، واللغـة والثقافـة».

ظـلّ جنـوب السّـودان وشـعبها دائمـاً عـلى هامـش السّـودان. أعتُـبر عـلى المسـتوى الإقليمـي كجـزء قـصيّ عـن البـلاد يقطنـه مجتمعـات وثنيـة. كـما عـانى الإقصـاء السـياسي، والتمييـز الاجتماعـي، والتهميـش الاقتصـادي. حـدّد السـلوك العنـصري المـوروث ووصمـة عـار الـرق (العبيـد) شـكل العلاقـة بـين الجنوبيـين ونظرائهـم الشـماليين، مـما دفع الجنوبيـين إلى التقوقـع داخـل إثنياتهـم، واجندتهـم الضيقـة، والمواقـف، والسـلوكيات السـلبية التـي تعيـق التفكـير الإيجـابي بخصـوص الدولـة التـي ينتمـون إليهـا. مـن هنا جـاءت بدايـة خصوصيـة جنوب السّـودان وشـعبها، التـي دفعتهـا للميـل نحـو الإنفصـال وتفضيـل المعاملـة كحالةٍ خاصـة. ومـع مـرور الوقـت بـدأ الجنوبيـين في اسـتبطان التصـورات النفسـية الدونيّـة، عـن كونهـم أقليّـة، وموضعـة أنفسـهم خـارج نطـاق الثقافـة والتاريـخ السّـودانيين.

أعـاق و أحبـط هـذا الموقـف السـلبي، أو الازدواجيـة الاجتماعيـة السياسـية، تشّـكُل الوعـي القومـي بجنـوب السّـودان. فالوعـي القومـي الجنـوبي، وبالتـالي النضـال مـن أن أجـل نيـل الاسـتقلال، ينطلـق مـن نقطـة سـلبية: هـي عـداء الجنـوب للشـمال كعـدو. وأصبـح هـذا العدو القاسـم المشـترك للإحسـاس بالأمـة الـذي تشـترك فيـه أربـع وسـتون إثنيـة. ومـع انتفـاء العـدو المشـترك مـع الإسـتقلال، وغيـاب نقطـة انطـلاق إيجابيـة لمشـوار بنـاء الأمـة، ولّـدت الازدواجيـة الاجتماعيـة

السياسية ظروف نمو السياسة الإثنيّة، والهيمنة الاقتصادية لإثنية واحدة، لتبلغ الأزمة ذروتها في الحرب الأهلية. موقف وسلوك النخبة الإستوائية بتفضيل الإنفصال عن بقية جنوب السّودان لاعتقادهم في استحالة مقاومة هيمنة وتسلّط الدينكا، كما حدث في الثمانينيات أثناء حادثة «كوكرا»[1]، يعكس نفسية الجنوبيين. وهي ذات النفسية التي يتأسس عليها الخطاب السياسي للمعارضة ومجموعات غير الدينكا في مطالبتهم بتطبيق الفيدرالية.

الفيدرالية ليست حلاً سحرياً لأمراض جنوب السّودان السياسية. والإقصاء السياسي، والتمييز الاجتماعي، والتهميش الاقتصادي التي نراها الآن هي نتيجة مباشرة لوجود هذا النظام القمعي. لن تزول هذه المشاكل بتقسيم البلاد لثلاث أو حتى عشرة أقاليم. لن تكون الفيدرالية في ظل النظام الحالي سوى تعميم التجربة الديكتاتورية على كل قرى جنوب السّودان. فالخيار الموضوعي هو تعبئة، وتنظيم وتوحيد الشعب لإسقاط هذا النظام كشرط لتحقيق وبناء الأمة على أسس العدالة، والحرية، والإخاء، والرخاء وهذا هو جوهر مفهوم السّودان الجديد. بدون تغيير جوهري في النهج والافتراضات الأساسية، لن يكون بمقدور شعب جنوب السّودان وقف القهر وترسيخ وحدة البلاد وشعبه. فالميل لإنشاء المزيد من الولايات سيمكن هذا النظام الغاشم من شراء ذمم القادة وإعادة إنتاج نفسه، كما أن عدد الولايات الكبير حالياً هو أحد معوقات بناء الدولة والأمة.

(1) كوكرا هو مصطلح يستخدم للإشارة لاضطرابات سياسية بين القادة الجنوبيين في سبعينات القرن الماضي، حين طالب بعض القادة بالفصل بين الأقاليم. لفظة كوكرا في الأصل كلمة من لغة باريّ وتعني التقسيم (المترجم).

كان تشـكيل الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، الـذي ينشـد أعضـاءه وجنـوده شـعارات سـودان جديـد إشـتراكي، أمـراً صعـب التصديـق لكثـير مـن السياسـيين اليسـاريين. ليـس لأنـه لا يمكـن لحركـة يسـارية أن تخـرج مـن الجنـوب، بـل لأن المجتمـع الجنـوبي كان لا يـزال يعيـش حالـة تخلـف عـلى مسـتوى الوعـي الاجتماعـي والسـياسي، زائـد الضعـف الملازم لقـواه المُنتجـة. تزامـن التحـول الأيديولوجـي مـن الثـورة التحرريـة إلى الليبراليـة وتبنـي المفاهيـم اليمينـة مـع إنهيـار المعسـكر الاشـتراكي، وأدى ذلـك إلى تحـول في الموقـف السـياسي مـن رؤيـة ومفهـوم السّـودان الجديـد للمطالبـة بحـق تقريـر مصـير جنـوب السّـودان، الأمـر الـذي مهّـد الطريـق لرحلـة تفـاوض عـلى سـلام ليـبرالي بلـغ ذروتـه باتفاقيـة السـلام الشـامل (CPA) في عـام 2005، ثـم الاسـتقلال وميـلاد جمهوريـة جنـوب السّـودان في يوليـو 2011.

يناقـش الفصـل الثـاني ثـورة الحركـة الشَّـعبيّة لتحريـر السّـودان، ويصفهـا بالثـورة الزائفـة. حيـث يعتقـد قادتهـا أنهـا ثـورة حقيقيـة رغـم ممارسـاتهم المخالفـة للـروح الثوريـة. فقـد افتقـرت للأيديولوجيـا السياسـية، وتجنّـب قادتهـا التدريـب الأيديولوجـي، والتنويـر السـياسي للجماهـير، وتنظيـم مؤسسـات وأدوات السـلطة الشـعبية، لينحصر الأمر في النهايـة إلى مجـرد مؤسسـة عسـكرية. فهـي لم تكـن مؤسسـة تحريـر لأنهـا عملـت عـلى قمـع الوعـي الاجتماعـي والسـياسي عـلى حسـاب النزعـة العسـكرية وعبـادة الزعيـم الفـرد التـي تمظهـرت في شـخصنة الحركـة بـدلاً عـن مأسسـتها. تسـبب طغيـان النزعـة العسـكرية، الـذي يضعـف الوعـي، بجانـب عبـادة القائـد الفـرد، في بـزوغ القوميـة الإثنيّـة للدينـكا، وظهـور نخبـة مغتربـة عـن الجماهـير، ومفارقـة لـروح

التحرير. بينما صرفت هموم السلطة والمحافظة عليها الحركة عن قضايا التنمية الاجتماعية والاقتصادية حتى في المناطق التي كانت واقعة تحت سيطرتها العسكرية. وقد كان السعي للهيمنة أحد المسببات الرئيسة للخلافات السياسية الداخلية التي أدت لانقسام الحركة، وتسببت في القتال الداخلي من فترة لأخرى أثناء مسيرة حرب التحرير. أسهمت الانشقاقات والحروب الناتجة عنه في تأخير حرب التحرير وإعاقة وضع أجندة عملية تساعد في القضاء على السياسات والميول الإثنيّة والمناطقية.

واصلت الحركة على نفس نهجها في حرب التحرير حتى بعد توقيع إتفاقية السلام الشامل، وأدى هذا إلى تنشيط ظروف نشوب الحرب الأهلية. الصراع الحالي في جوهره هو انعكاس للفشل السياسي والإقتصادي للحركة الشَّعبيّة كقوة ثورية بجنوب السّودان. ومع إتفاقية السلام الشامل وجدت الحركة نفسها في وضع غير مألوف يتطلب مهارات في إدارة الحكومة و الدولة، وهي مهارات افتقر إليها قادتها.

يناقش الفصل الثالث أسباب إندلاع الحرب الأهلية في عام 2013، والصراع المدفوع بالايديولوجيات الإثنيّة. ومن الضرورة الإشارة لواقع أن فشل الحركة في وضع السياسات وبناء المؤسسات أثناء حرب التحرير أسهم في شخصنة السلطة التي تسببت لاحقاً في تغذية الخلافات الداخلية في الحزب. تضافرت الروابط بين سلطة الدولة، والأيديولوجيات الإثنية، والتراكم البدائي للثروة في خليط متفجر حول النظام إلى ديكتاتورية إثنية، كليبتوقراطية، وشموليّة. وجدت هذه الديكتاتورية الدعم من قبل الرأسمالية الكومبرادورية

الإقليمية والدولية الساعية لاستخراج ونهب موارد جنوب السّودان الطبيعية.

كان يمكن تجنب الحرب ما لم يضعف الرئيس سلفا كير مؤسسات الدولة والحزب المنوطة بالتدخل على مختلف مستوياتها الدستورية لوقف تصاعد الأزمة السياسية في الحركة الشَّعبيّة والتي أدت لإندلاع الحرب. هذا بجانب عمله على تفريغ مؤسسات الحزب من أدوارها كحزب حاكم، بينما تنازلت الجمعية التشريعية أيضاً عن دورها الرقابي، وتحولت بفعل السياسة الإثنيّة إلى لعبة في يد السلطة التنفيذية. اما السلطة القضائية، فقد خسرت إستقلاليتها خصوصاً و ان رئيسها عضواً في مجلس كبار أعيان الدينكا ورئيس مجتمع أقوك، عشيرة الرئيس كير، لدرجة أن صارت السلطة القضائية غير قادرة على الطعن في قرارات الرئيس الدستورية. يشرح الكتاب أيضاً كيف أبتزّ الرئيس كبار ضباط الجيش الشَعْبِي بالسماح لهم بسرقة المال العام لدرجة صمتهم عن تجنيده وتسليحه جيشه الخاص تحت اسم «لنحمي الرئيس» Dotku Beny كجيش موازي للقوات التي يرأس قيادتها العامة. فقد كان بإمكان الجيش منع الحرب بإعتقال الرئيس والتحفظ عليه بتهمة الخيانة.

كان اتفاق تسوية النزاع بجمهورية جنوب السّودان (ARCISS) بوساطة الإيجاد معيبًا منذ بدايته بسبب طريقته في التفاوض. خلق الانقسام داخل الوساطة ثغرات لعدم التنفيذ، ما أدى إلى خلق ظروف إعادة إحياء الحرب، وبالتالي انهيار حكومة الوحدة الوطنية الإنتقالية (TGoNU) والإتفاقية. ليس من الواضح ما إذا

كانت محاولات تنشيط الاتفاق ستؤتي ثمارها على الإطلاق، خاصة مع ضعف المعارضة وتعنت الرئيس كير والعناصر المتشددة في نظامه.

كان بإمكان المنتدى رفيع المستوى لتنشيط إتفاقية السلام القيام بما هو أكثر من معالجات سطحية لضمان تقاسم السلطة والثروة وإبقاء مسببات الصراع. فدون تغيير راديكالي في الطبيعة القمعية للنظام، لن تؤدي الإنتخابات المقررة مع نهاية الفترة الانتقالية إلا لنتيجة واحدة وهي تجدد الحرب وإعادة البلاد للمربع الأول. وسط دوامات الحرب و السلام هذه يبقى سؤال البديل ماثلاً.

في الفصل الرابع أناقش مسألة الثورة الوطَنيّة الديمقراطية NDR كخيار أمثل لمخاطبة الأزمات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية في جنوب السّودان. تقوم هذه الثورة على فرضية أن سبب التناقض الأساسي في جنوب السّودان هو قرون من التخلف الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي، تميز بالفقر، والجهل، والأمية، وانتشار الخرافات. تستولي هذه الشروط على وعي الجماهير وتمنعها الإدراك الصحيح للواقع. أناقش أيضاً الأساس البرامجي للثورة، محاولاً تقديم إجابات على المخاوف التي تعيق قادة التيارات اليمينية والتقليدية من فهم طبيعة الثورة الوطَنيّة الديمقراطية.

يتمتع جنوب السّودان بإمكانيات هائلة من الموارد الطبيعية، لذا ستكون أولى مهام الثورة الوطَنيّة الديمقراطية تطوير وتحرير القوى الوطَنيّة المنتجة من كافة أشكال السيطرة والهيمنة الخارجية. ولإشعال هذه الثَّوْرَة، لابد من تحالف جميع القوى

السياسية والاجتماعية الديمقراطية التقدمية للعمل معاً وبناء الدولة الوطَنيّة الديمقراطية التنموية في جنوب السّودان. دولة تخاطب قضايا التخلف الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي. فالبرنامج الوطني الديمقراطي أداة لمجابهة الفقر، والجهل، والأمية في المجتمع؛ والتصدي للسياسات الإثنيّة التي تمارسها النخب لإستغلال الجماهير وضمان بقائها في السلطة. الثورة الوطَنيّة الديمقراطية هو نموذج إرشادي للتنمية الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، تناسب هذه المرحلة التاريخية للتنمية في جنوب السّودان.

الغرض من هذا الكتاب هو تحفيز النقاش الجاد حول الخطاب السياسي بين أبناء الوطن في الداخل والديسابورا، ودفعهم للتفكير حول مستقبل البلاد ومصير شعبه. فأبناء جنوب السّودان يحبون بلادهم على الرغم من الصعوبات التي سببتها النخبة السياسية في سعيهم وطموحهم الأناني للسلطة والثروة. هو شعب مرن، وصامد، ومتسامح و سيتمكن يوماً ما بوجود حكومة مسؤولة ونظام عادل من إعادة بناء حياته.

منبع الضعف الجماعي لشعب جنوب السّودان هو عدم قدرته على تحرير نفسه من مخالب الإثنيّة السلبية. يتضح هذا من سلوك الذين هاجروا بأعداد كبيرة لدول أخرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وأستراليا حاملين معهم فيروس القبلية، وشكّلوا مجتمعاتهم هناك على أسس الإثنيّة والعشائرية، والتفاعل بنفس تحيزات وعداوات أقاربهم في الوطن . تعزز انقسامات أبناء جنوب السّودان في الديسابورا الصراعات داخل الوطن، وتخلق دائرة مفرغة من التدمير الذاتي. أنصح هؤلاء الذين يعيشون في

الديسـابورا بالاندمـاج والاسـتفادة مـن مجتمعـات الـدول المضيفـة في مجـالات المعرفـة والتكنولوجيـا مثلـما يفعـل الآسـيويون والأوروبيـون، حتـى تسـتفيد منهـم جمهوريـة جنـوب السّـودان مسـتقبلاً.

الفصل الأول

النُخَب، السياسات الإثنيّة، الدولة المعطوبة

لا يمكن فهم الفرحة العارمة، بل والهستيرية، التي وسمت احتفال استقلال جنوب السّودان في 9 يوليو 2011، إلا من خلال النضال الجماعي الذي امتد لما يقرب من ستة عقود. لشعب جنوب السّودان الحق في أن يبتهج. ذرف الكثيرون الدموع عند رُفع علم الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان وإنزال العلم السّودانيّ الذي ظل يرفرف فوق تراب جنوب السّودان منذ مطلع يناير 1956. أجتاز شعب جنوب السّودان طريقًا مضطربًا نحو الاستقلال، وأتى كفاحه الدؤوب، المستوحى من أحلام الحرية، والعدالة، والأخوة، والازدهار ثماره أخيرًا، ومنحه السيطرة الكاملة على مصيره. حظيت ولادة جمهورية جنوب السّودان بحسن نية شعبها، وأعضاء المجتمع الدولي الذين ساعدوا في النضال من خلال التدخل الإنساني الدولي المكثف، وكذلك الأصدقاء الإقليميون والأفارقة الذين قدموا الدعم العيني خلال حرب التحرير[1].

من الصعب أن تتمكن منطقة خارجة من حرب أهلية لعقود مثل جنوب السّودان من التصدي لمهمة بناء دولة. لا تزال الهشاشة بائنة في جميع جوانب الحياة البشرية في جنوب سودان ما بعد الحرب، ولا زال قادة التحرير يعانون من نفسية الحرب. إن ثقافة السلام وبناء الدولة، من حيث مؤسسات وأدوات السلطة، لم تتغلغل بعد وتنعكس على المهارات الإدارية للدولة الجديدة.

(1) كان أول الداعمين للحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان هم: حكومة وشعب إثيوبيا، والقائد الليبي العقيد معمر القذافي، واليمن الجنوبي.

عـلاوة عـلى ذلـك، كان فـن الحُكـم والحكـم الرشـيد في هـذا الشـأن تحديًـا للعديـد مـن قـادة وكـوادر الحركـة الشَّـعبيّة لتحريـر السّـودان، إذ إنضـم بعضهـم لحـرب التحـرر الوطنـي في طـور المراهقـة السياسـية. لم تكـن لتشـكل هـذه الحقيقـة تحديـاً إن حرصـت الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان عـلى تدريـب وتطويـر كوادرهـا معرفيـاً. تفتقـد بعـض قـادة الدولـة الوليـدة للوطنيـة والإحـترام، وهـم في ذلـك أسـوأ مـما كانـوا عليـه عندمـا انضمـوا للنضـال. تتطلـب المهمـة العاجلـة أمامهـم مهـارات وأخـلاق مختلفـة تمامـاً عـن سـلوك حـرب التحريـر الوطنـي. كانـت إدارة السُـلم مختلفـة، لـذا شـهدت الدولـة الوليـدة انفصـالًا اجتماعيًـا و سياسـيًا نتيجـة سـعي القـادة لإدارة الدولة بالطريقـة الهشـة نفسـها التـي قـادوا بهـا حـرب التحريـر الوطنـي، مـا أدى لـوأد فرحـة الاسـتقلال وانـزلاق الدولـة للحـرب بعـد أقـل مـن عامـين عـلى اسـتقلالها، الحـرب التـي أكـدت شـكوك مـن حاججـوا بعـدم قـدرة السّـودانيين الجنوبيـين عـلى حُكـم أنفسـهم.

قـد يختلـف الأكاديميـون والباحثـون والسياسـيون في تحديـد مسـببات هـذه الأزمـة، إلا أننـي عـلى قناعـة بـأن الأمـر لا يتعلـق بفشـل شـعب جنـوب السّـودان في حكـم نفسـه؛ بـل بفشـل القيـادة السياسـية في تلبيـة تطلعـات الشـعب، ففـن الحكـم شيء يكتسـب مـن خـلال التعلـم والتجربـة.

ينبـع فشـل النخبـة السياسـية في تلبيـة التطلعـات التنمويـة، الاجتماعيـة والاقتصاديـة، مـن عاملـين أساسـيين: العامـل الأول هـو الافتقـار إلى أيديولوجيـا سياسـية مـن شـأنها أن تمكـن مـن فهـم طبيعـة التخلـف الاجتماعـي، والاقتصـادي، والثقـافي، ومناهـج التغيـير. ارتبـط

ذلـك برفـض تنظيـم وبِنـاء المؤسسـات السياسـية الديمقراطيـة وأدوات القـوة اللازمـة لإدارة عمليـات التحريـر قبـل ان تتحـول هـذه العوامـل لقنبلـة موقوتـة تهـدد بالاضطرابـات الاجتماعيـة والسياسـية في جنـوب السّـودان. في هـذا الصـدد، لا تتعلـق القيـادة بالفـرد الموجـود عـلى رأس التنظيـم فحسـب، بـل بحركـة التحـرر الوطنـي نفسـها. تتعلـق بالحـزب الحاكـم: أيديولوجيتـه، وأهدافـه السياسـية، ومؤسسـاته، وأدوات النفوذ والسـلطة الشـعبية التـي بناهـا القـادة أو لم يبنوهـا خـلال عقديـن مـن النضـال. أيّ بمعنـى آخـر، الفشـل في تحويـل الحركة/الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان مـن حركـة جماهيريـة عفويـة يقودهـا أفـراد في سـياق النضـال مـن أجـل النضـال إلى حركـة تحـرر وطنـي حقيقيـة ذات أهـداف سياسـية اسـتراتيجية محـددة، تسـعى لإحـداث تغيـير في بنيـة التخلـف الاجتماعـي، والاقتصـادي، والثقـافي لجنـوب السّـودان.

اعتقدنـا أن حـرب التحريـر الوطنـي كانت نفيًـا للنظام الراسـخ الذي يكـرس الإقصـاء السـياسي، والتهميـش الاقتصـادي، والتمييـز الاجتماعـي، الـذي سـاد في السّـودان. كان مـن المقـرر أن تكـون الحركة/الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان حـلاً ثوريًـا للتناقـض المتأصـل في تاريـخ السّـودان الاسـتعماري ومـا بعـد الاسـتعماري. أيّ ضرورة أن تؤسـس نظامًـا اجتماعيًـا واقتصاديًـا وسياسـيًا مختلـف تمامًـا عـن نظـام حـزب المؤتمـر الوطنـي (NCP)، والأنظمـة التـي سـبقته في حكـم السّـودان. هنـا يكمـن الفشـل السـياسي الـذي تحـول الآن إلى حـرب أهليـة، وأزمـة اجتماعيـة، وإقتصاديـة، وسياسـية متفاقمـة. فهـذه الأزمـات نتيجـة طبيعيـة لمحـاولات القيـادة لإعـادة سياسـات الأنظمـة السـابقة.

كان السّـودان، وبالتـالي جنـوب السّـودان، بنيانًـا اسـتعماريًا في

ظل ظروف غاية العنف، لا زالت بقاياها حتى يومنا هذا ترشد وتشكّل مواقف وسلوكيات وعلاقات الشعب السّودانيّ، سواء في الجنوب، الغرب، الوسط، الشرق، أو الشَمال. أقصد بالبناء الإستعماري أن تطور السّودان ووعيه الاجتماعي ظل مرتبط ارتباطًا جوهريًا بالسياسة الاستعمارية، وعمليات الهندسة السوسيو سياسية المهيمنة آنذاك، والآثار النفسية الناتجة عنها. لذلك على كل باحث التنقيب في السياق الحالي لجنوب السّودان عبر دراسة التاريخ السّوداني الحديث والمعاصر طالما أن جنوب السّودان كان حتى عام 2011 جزءًا لا يتجزأ من السّودان. ترتبط النضالات في الجنوب، التي توجت في النهاية بانفصاله عن السّودان، ارتباطًا وثيقًا بالتطورات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية في السّودان منذ عام 1821، في أعقاب الغزو التركي-المصري لشمال السّودان. يمكن إرجاع المواقف والسلوكيات الاجتماعية والثقافية والسياسية في الجنوب اليوم لذلك التاريخ، لذا ينبغي النظر إلى تطور الجنوب كمفهوم سياسي، وانفصاله في نهاية المطاف كدولة مستقلة، في سياق السياسة الإستعمارية البريطانية.

في هذا الصدد، من الضروري بادىء ذي بدء مراجعة بعض المفاهيم والتصورات التي توجه تطور الوعي الاجتماعي في جنوب السّودان باعتباره جزء من كل يختلف عن ويتعارض مع الوعي القومي السّوداني السائد في شمال البلاد الذي يهيمن عليه العروبة والإسلام. يتفق كل من النخبة الجنوبية والشَمالية على أن التوصيف غير الشامل، المشار إليه باسم «مشكلة الجنوب»، سيطر على العلاقات بين جنوب السّودان والسّودان بعد الاستقلال. إن مفهوم

«مشكلة الجنوب « بحد ذاته يعبر عن تصور يميني غير قادر على فهم الطابع الاجتماعي والاقتصادي، والسياسي للسودان، ومثَّلت قراءة خاطئة للواقع الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي للسودان الأنجلو-مصري. فالتناقض الأساسي الذي لا زال السّودان يعانيه (كلا جمهورية السّودان وجمهورية جنوب السّودان) هو المشكلة العامة للتخلف الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي للشعب السّودانيّ.

رغم إن حالة التخلُّف الاجتماعي والاقتصادي والثقافي عامة في جميع أنحاء السّودان، كان الوضع مُفرطاً بشكل خاص في الجنوب بسبب سياسات التنمية الاجتماعية والاقتصادية الاستعمارية غير المتكافئة، الساعية لنهب خيرات الأرض والأرباح. كان هناك قدر من التنمية في بعض أجزاء شمال السّودان، وخاصة في الجزيرة والخرطوم. أدى هذا التطور الانتقائي المُبني على المصالح الاقتصادية الاستعمارية إلى ظهور قطاع اقتصادي صغير مرتبط بالدولة الاستعمارية، الرقعة التي سُميت لاحقاً بـ»مثلث حمدي»، تاركًا باقي البلاد مصدراً للعمالة الرخيصة في مشروع الجزيرة ومشاريع زراعية آلية أخرى على نطاق واسع في مناطق النيل الأبيض والقضارف[1]. وتجدر الإشارة إلى أن إعادة الاحتلال البريطاني للسودان جاء في سياق التدافع الأوروبي على إفريقيا. حكم السّودان أمراء الحكم الثنائي البريطاني-المصري بموجب المعاهدة الأنجلو المصرية المشتركة لعام 1899. من المهم أيضًا ملاحظة الأهداف السياسية الثلاثة

(1) أعتقد الاقتصادي عبد الرحيم حمدي، وزير مالية حكومة المؤتمر الوطني، أن النخبة الحاكمة في كيان الشمال يجب أن تركز على الرقعة التي تقع بين عطبرة شمالا، الأبيض غربا، سنار جنوبا، و كسلا، والقضارف و بورتسودان من الشرق؛ وتجاهل جنوب واقصى شمال السّودان و دارفور.

الرئيسة التي دفعت بريطانيا لإعادة احتلال السّودان ودحر المهدية[1]. أولًا، معاقبة وهزيمة المهدية على قتل تشارلز جوردون، الحاكم العام للسودان التركي- المصري؛ ثانياً، إعادة السّودان للتاج المصري؛ وثالثاً، القضاء على العبودية في وادي النيل والبحر الأحمر، ووضع حد لتجارة الرقيق في السّودان. حقق البريطانيون أهدافهم، لكنهم رفضوا إعادة السّودان إلى التاج المصري. كان السّودان الأنجلو-مصري خاضعًا للإدارة البريطانية بشكل أساسي، بينما يدفع المصريون فاتورة الإدارة. أدى هذا إلى حدوث إحتكاكات سياسية بين القوتين في تنفيذ معاهدة الملكية المشتركة، ونتجت عن فتور العلاقة السيادية هذه ثورة اللواء الأبيض التي قامت بها عناصر سودانية في جيش الإحتلال المصري في السّودان.

جاء رد الفعل البريطاني على ثورة اللواء الأبيض متوقعاً: العقاب الجماعي لمن تحدوا قوة وسلطة الاحتلال. نجحت السلطة الاستعمارية البريطانية في قراءة التهديد الذي قد يشكله الأفارقة المتأسلمون والمستعربون على مصالحها الاستعمارية. ويكفي القول إن قادة ثورة اللواء الأبيض - الملازم علي عبد اللطيف وعبد الفضيل الماظ - كانا سودانيين أفارقة سُود في الجيش المصري. قررت الإدارة البريطانية عزل الجنوب، وجبال النوبة، وجنوب النيل الأزرق - مناطق تواجد الأفارقة غير المسلمين - عن بقية البلاد والعالم المتحضر، وسنّت قانون المناطق المقفولة، وأسست «سياسة الأقاليم الجنوبية» التي قسمت الجنوب لأقاليم بحر الغزال، الاستوائية، وأعالي النيل، على أن تُدار بشكل منفصل عن باقي البلاد. كما

(1) الدولة ونظام الحكم التي تأسست في السّودان بعد الثورة المهدية التي هزمت الدولة التركية المصرية عام 1885.

فرضت الإدارة البريطانية تصاريح سفر للعبور إلى هذه المناطق.

تمثّل الجانب السلبي في السياسة البريطانية في الأقاليم الجنوبية، بصرف النظر عن إهمالها التنمية الاجتماعية والاقتصادية، تسليم الجنوب للمبشرين المسيحيين وترك مهمة التعليم في الجنوب للكنائس. لم يكن لدى المبشرين المسيحيين أي صِفة أخرى غير التبشير، وكان الهدف من التعليم المحدود والمتدني المستوى الذي قدمه المبشرون هو تخريج كتبة مبتدئين، ومحاسبين، ومعلمين في مدارس القُرى، وموظفين لخدمة الإدارة الاستعمارية. كان تعليمًا مصممًا بشكل متعمد لغرس الكراهية المتطرفة لشمال السّودان بشكل عام، والعرب والإسلام بشكل خاص. كما غرس في نفوس شعب الجنوب عقدة الدونية والخوف من السلطة، وخلق منهم ذوات غير سياسية، وأحبط التخلف الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي المشاعر المناهضة للاستعمار والروح القومية. نجح هذا التعليم المتدني في تحويل انتباههم عن تخلفهم إلى كراهية السّودانيّين الشَماليين. وهكذا، ودون وعي، وجد الجنوبيون أنفسهم في جانب الاستعمار البريطاني فيما يخص قضايا التحرر الوطني، مدفوعين باعتقاد خاطئ أن البريطانيين سيطورون الجنوب إلى المستوى الذي يمكنه من حكم نفسه يوماً ما.

كان الوضع في شمال السّودان مختلف. أدى قربه من مصر والشرق الأوسط إلى سهولة الحصول على مرافق التعليم الحديثة حتى المستوى الجامعي؛ كان هناك وعي اجتماعي وسياسي مرتبط بالعقيدة الإسلامية، ساعد في نشوء الأندية الاجتماعية والمؤسسات المدنية في شمال السّودان، ووضع الأسس الاجتماعية

والسياسية للحركة القومية المناهضة للاستعمار[1]. إن الصحوة الاجتماعية والوعي السياسي هما حجر الأساس للحركات القومية المناهضة للاستعمار، كما أنهما من نواتج تطور قوى الإنتاج الوطنية، وبالتالي يعكسان مستوى التنمية الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والسياسية. يلعب التعليم ومعرفة العمليات الاجتماعية والسياسية دورًا محوريًا في تطور الوعي الاجتماعي السياسي. لذلك، فإن السياسة الاستعمارية البريطانية بشأن قانون المناطق المقفولة و»سياسة الأقاليم الجنوبية» - المفروضة على محافظات الجنوب وجبال النوبة وجنوب النيل الأزرق - حكمت على أهل جنوب السّودان بالجهل، والأمية، والخرافة المتأصلة في بيئة إثنيّة وحياة قبلية مغلقة على ذاتها.

الجانب الآخر من السياسة البريطانية للمقاطعات الجنوبية المرتبطة بإعادة فتح أهداف التبشير المسيحي، كان النية غير المعلنة لفصل المقاطعات الجنوبية من السّودان وضم المنطقة إلى شرق إفريقيا البريطانية، بمزاعم وقف إنتشار الإسلام في وسط إفريقيا. وهي حجة مضللة لأن الإسلام وصل وسط إفريقيا من ساحل المحيط الهندي قبل فترة طويلة من الاحتلال الأوروبي للسودان. ومع ذلك، أدت الحقائق السياسية التي أثارتها الحركات المناهضة للاستعمار في عالم ما بعد الحرب إلى عكس هذه السياسة للسماح بإعادة توحيد الأجزاء التي كانت تدار بشكل منفصل في السّودان. جاء هذا التحول بعد حوالي ثلاثة عقود من التطور الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي المنفصل والمتفاوت بين شمال

(1) الإسلام دولة، ودين، وثقافة. جميعها مترابطة، وبالتالي تشكل الوعي الاجتماعي والسياسي.

السّودان وجنوبه، أفرزت حساسيات وخصوصيات سياسية مختلفة، قادت في النهاية إلى مشاكل اجتماعية وسياسية في علاقة الطرفين. علاوة على ذلك، لم تفعل الإدارة البريطانية الكثير من حيث التنمية الاجتماعية والاقتصادية لتحسين الظروف المعيشية، وبالتالي تهدئة مخاوف الجنوب بشأن بناء علاقات متوازنة مع أخوتهم في الشمال. فقد اتى مخطط مشروع تطوير الزاندي بعد فوات الأوان كمحاولة لمعالجة الاختلالات.

في الشمال ، وعلى عكس الإقليم الجنوبي، كانت هناك تجمعات اجتماعية وسياسية. نشأت أحزاب سياسية منظمة مرتبطة بالطوائف الدينية والتكوين الفكري العلماني مثل مؤتمر الخريجين، الذي قاد الحركة الوطنية المناهضة للاستعمار في الشمال، وعكس مستوى عالٍ من الوعي الاجتماعي السياسي. أما في المقاطعات الجنوبية، فقد رسخت السياسة الاستعمارية الظروف الاجتماعية والثقافية التي حالت دون تطور وعي قومي سياسي مشترك بين الجنوبيين. ونظرًا لعدم وجود أحزاب سياسية منظمة، لم يتمكن السياسيون الذين تصدوا لتمثيل شعب الجنوب من جذب الجماهير إلى برنامج ديمقراطي وسياسي ذي صلة بالحركة الوطنية المناهضة للاستعمار في الشمال. اما (لجنة الرفاه) التي عكست المطالب الاجتماعية والاقتصادية للجنوب، وحاولت الضغط على الإدارة الاستعمارية، لم تتشكل إلا بعد مؤتمر جوبا (1947).

إن التخلُّف الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي الفتّاك في الجنوب، والأصولية القبليّة، والغياب التام لطبقة قومية عمالية أو برجوازية، لا تزال عائقاً أمام تشكيل دولة وطنية حقيقية تحقق التكامل

الوطنـي والإسـتقرار. لم يتغـير الوضـع حتـى بعـد إسـتقلال السّـودان في خمسـينيات القـرن المـاضي. وهـذا يعـود في جانـب لاعتقـاد القـادة السياسـيين الجنوبيـين أن الإدارة الإسـتعمارية سـتعمل عـلى حمايـة الجنـوب مـن الشَـمال، لدرجـة أن أعتـبر الشَـماليون الجنوبيـين وكلاء أو دُمـى في يـد القـوة الإسـتعمارية. مثّـل فقـر الصحـوة الاجتماعيـة والوعـي السـياسي أرضًـا خصبـة للقوميـة الإثنيّـة وأيديولوجيـا التفـوق الإثنـيّ، وتغلـب عـلى محـاولات تشـكيل أيديولوجيـا تحريـر وطنيـة تقدميـة مـن شـأنها توحيـد الجماعـات الإثنيّـة في الجنـوب كـما سـاشرح في الفصـل الثـاني.

تطور العمل السياسيّ في الجنوب

جاءت الجهود المحمومة للإدارة الاستعمارية البريطانية لتوحيد شطري السّودان مع اقترابها من الاستقلال على شكل مؤتمر. على الرغم من إنه بدا وكأنه منتدى للرأي الجنوبي حول الوحدة المقترحة مع الشَمال، جاء مؤتمر جوبا لعام 1947 في أعقاب تغيير السياسة البريطانية بشأن المقاطعات الجنوبية (1946). عقد السكرتير المدني الاستعماري، السير جيمس روبرتسون، مؤتمر جوبا للتأكيد على هذا التغيير السياسي الذي سيضع حدّاً لثلاث عقود من فصل شمال السّودان عن جنوبه. لم يكن المؤتمر سوى خديعة للتلاعب بممثلي الجنوب لقبول الوحدة مع شمال السّودان. لاحقاً أعترف السير جيمس روبرتسون:

اعتبرتُ المؤتمر مجرد وسيلة لاكتشاف قدرات الجنوبيين، وكان من غير الدقيق القول لاحقًا أن مؤتمر جوبا شهد موافقة ممثلي الجنوب الإنضمام للشَمال. لم يكن من المتاح اتخاذ أي قرار في المؤتمر، طالما أعضائه لم يتلقوا أي تفويض من شعوبهم. القرار الوحيد الناجم عن المؤتمر اتخذتُه بنفسي[1].

كشف مؤتمر جوبا مدى ضرر السياسة البريطانية على الجنوبيين، تاركًا إياهم في ربقة التخلف الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي مقارنة بالشَماليين. لاح خوف ممثلي الجنوب من هذا التفاوت الاجتماعي والسياسي بينهم وشمال السّودان، و عندما طلب

(1) حوار مع والتر كونجوك ايوكير، طالب دكتوراة بجامعة أكسفورد في 1970. مقتبس من كتاب دوغلاس جونسون (2015، South Sudan Past Notes and Records).

بعضهم من الحكومة الاستعمارية السماح للجنوب بالبقاء تحت الحكم البريطاني لحين استعدادهم لحكم نفسها، كان يأسًا ناجمًا عن شعور الجنوبيين بالدونية والاغتراب عن الشَماليين. لذا من الصعب النظر إلى الطلب على أنه رغبة أو إرادة حقيقية لشعب الجنوب. وبغض النظر عن التوصيات التي خرج بها مؤتمر جوبا، لا بد من مراعاة أنه في حين أنه مثّل شمال السّودان خريجي القانون، والاقتصاد، والعلوم الإنسانية الأخرى، فقد مثل الجنوبيين زعماء القبائل، وصغار الكتبة، وغيرهم من الموظفين في الإدارة الاستعمارية الذين لا يعبرون عن أيّ رأي سياسي بحكم وظائفهم. ومن هذا المنطلق، احتج السيد إدوارد أودوك ديديغو في المحضر أنه لا يمثل شلو لأن ذلك من اختصاص الملّك.

حقق مؤتمر جوبا هدف الإدارة الاستعمارية المنشود لاسترضاء المسؤولين البريطانيين في الجنوب، وكانوا قد عارضوا المؤتمر الإداري لعام 1946 الذي أوصى بضم أعضاء جنوبيين إلى الجمعية التشريعية في الخرطوم، ما يمهد لوحدة السّودان كدولة مُستقلة. ويذكر أن المؤتمر قد أسهم في ترسيخ شكوك الجنوب تجاه الشَمال، لا سيما في ضوء المواقف العنصرية الصريحة لبعض النخبة السياسية الشَمالية و نبه المؤتمر سكان الجنوب إلى عملية لم تخطر على بالهم من قبل. لقد حفّذ وعيهم وعلقت آمالهم على العملية المؤدية إلى الاستقلال، الأمر الذي بشر ببدء النشاط السياسي الجنوبي. لم يكن الحراك وعيًا مستندًا على جوهر السياسة، ما صعّب من دمج وتوحيد الحركة السياسية الوليدة في الجنوب مع الحركة القومية المناهضة للاستعمار في شمال السّودان، بغض النظر عن حقيقة أن

السّـودان قريبًـا عـلى وشـك أن تصبـح دولـة مسـتقلة واحـدة.

أدت التطـورات القوميـة والسياسـية في مـصر إلى تسريـع عمليـة اسـتقلال السّـودان. جديـر بالذكـر أن الإطاحـة بالنظـام الإقطاعـي كان لـه أثـر عميـق عـلى السـلطة الثنائيـة، فقـد أرادت الحكومـة القوميـة الجديـدة في القاهـرة اسـتقلال السّـودان في إطـار وحـدة حـوض النيـل. ونصّـت اتفاقيـة القاهـرة الأنجلـو المصريـة في فبرايـر 1953 عـلى تقريـر مصـير الشـعب السّـودانيّ، وسرعـت مـن عمليـة الحكـم الـذاتي وتشـكيل حكومـة لقيـادة البـلاد نحـو الاسـتقلال. كان لـدى النخبـة السياسـية الشَـمالية مواقـف متعاليـة وأبويّـة تجـاه نظرائهـم في جنـوب السّـودان (كـما ينعكـس في اتفاقهـم مـع النظـام المـصري الجديـد دون إشراك الجنوبيـين). خلـق هـذا نظـرة مختلفـة لـدى الجنوبيـين تجـاه وحـدة مـا بعـد اسـتقلال السّـودان، وعـزّز فكـرة الاتحـاد الفيـدرالي مـع الشَـمال.

إن التخلُّـف الاجتماعـي، والاقتصـادي، والثقـافي السـائد، والحيـاة القبليـة والريفيـة الخالصـة في الجنـوب هـي ظـروف تمنـع تطـور الصحـوة الاجتماعيـة والوعـي السـياسي، ناهيـك عـن ثقافـة العمـل السـياسي المُنظّـم. تـؤدي الصحـوة الاجتماعيـة، والوعـي السـياسي، والنشـاط السـياسي المُنظّـم إلى تنشـيط وتعزيـز التفكـير النقـدي وتطويـر النشـاط السـياسي، مـما يترجـم في مهـارات تنظيميـة أكـثر دقة. بـدأت السياسـة في الجنـوب، وخاصـة النضـال مـن أجـل الحقـوق، في أواخـر خمسـينيات القـرن المـاضي. وكـما ذكرنـا سـابقًا، تخلـت السياسـة البريطانيـة في المقاطعـات الجنوبيـة عـن مسـألة التعليـم وأسـلمته للمبشريـن المسـيحيين الذيـن قمعـوا الوعـي السـياسي، وبالتـالي شـلّوا

قـدرة الجنوبيـين عـلى التنظيـم السـياسي. كان الحـزب الليـبرالي (1954 - 1958) أول حـزب سـياسي أصيـل أنشـئ في جنـوب السّـودان. وبـدءًا مـن مؤتمـر جوبـا عـام 1947، كانـت جميـع الشـخصيات المؤثـرة التـي ظهـرت في تاريـخ النضـال السـياسي في جنـوب السّـودان، دون اسـتثناء، مــن تيــارات اليمــين، أو ليبراليــين، أو محافظــين تقليديــين ترسّــخت معتقداتهـم في الحيـاة القبليـة الحصريـة.

تكمـن مشـكلة السياسـيين اليمينيـين والتقليديـين في الجنـوب، كـما هـو الحـال في كل مـكان، في افتقارهـم إلى الفهـم العلمـي لأسـس تنميـة المجتمـع. وهـو مـا يفـسر تجاهلهـم التناقـض الأسـاسي بـين الشـعب السّــودانيّ والإمبرياليــة، وبالتــالي ضرورة نضــال اجتماعــي وســياسي مشــترك ومنسّــق مــن أجــل الاســتقلال والســيادة. بــدلاً مــن ذلــك، أبــرزوا وزادوا حــدّة التناقضــات الثانويــة بــين الجنوبيــين والشَــماليين مـن أجـل تعزيـز النزعـات الانفصاليـة في عملهـم السـياسي مـما أدى إلى خلـق بيئـة سياسـية يسـودها عـدم الثقـة المتبادلـة، والشـك، والتلاعـب، والخـداع في سياسـات الخارطـة السّـودانية التـي تتميـز بخلـل كبـير في توزيـع السـلطة والـثروة.

نشأة الازدواجية الاجتماعية والسياسية

نقصد بالازدواجية الاجتماعية السياسية المواقف، والسلوكيات، والمتلازمات النفسية التي تظهر في بيئة سياسية تتميز بعدم تكافؤ مُفرط في السلطة. تحدد السلطة، في الصعيدين السياسي والاقتصادي، العلاقات بين المجموعات الاجتماعية والسياسية، وبالتالي تحدد الاستقرار الاجتماعي والسياسي في البلاد من عدمه. تتجلى الازدواجية الاجتماعية والسياسية في الخداع السياسي، والنكوص عن العهود، والإقصاء السياسي، والتهميش الاقتصادي، والتمييز الاجتماعي على أساس العرق، أو الدين، أو اللغة، أو الجنس؛ وكذلك في متلازمات الدونية، والتفوق، والهيمنة، والسيطرة، ومواقف مثل «وُلِدْنا لنحكُم».

إن متلازمة الازدواجية الاجتماعية والسياسية التي نلاحظها بين النخبة السياسية في الجنوب، هي نتاج العلاقات التي أشعلت الحربين الأهليتين في السّودان، وأدت في النهاية إلى استقلال البلاد عام 2011. وهي متلازمة من صميم الشخصيات المُضطَهدة، كما تخبرنا مؤلفات فرانز فانون «معذبو الأرض» (1963) وباولو فريري «تعليم المقهورين» (1975). تتبدى هذه المتلازمات في مأزق جنوب السّودان الحالي المؤلم، وتتمظهر في شكل الادعاء الفارغ، وخيانة الأمانة، وازدواجية الخطاب، وهوية وطنية غير متماسكة، والتعالي على الجماهير ومعاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية، ودفعهم لشعور الدونية، بجانب التعتيم على الفكر والممارسة السياسية الرشيدة.

هـذه العوامـل الاجتماعيـة، والنفسـية، والسياسـية موروثـة مـن تكويـن الدولـة الاسـتعمارية في السّـودان. وبالتـالي فهـي بنيـات اجتماعية-سياسـية رسـخها العنـف المرتبـط بتشـكيل الدولـة، ومـا تـلى مـن تطـور اجتماعـي - اقتصـادي -سـياسي غـير متكافـئ في السّـودان. كان طرفـا السّـودان عـلى مسـتويات مختلفـة ومتفاوتـة مـن التنميـة الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والثقافيـة عندمـا غـيرت الإدارة الاسـتعمارية البريطانيـة سياسـتها تجـاه المقاطعـات الجنوبيـة بهـدف توحيـد البـلاد قبـل الاسـتقلال.

أدى الضعـف الواضـح لقـوى اليسـار في الحركـة القوميـة في شـمال السّـودان إلى ترسـيخ هيمنـة التيـار اليمينـي والقـوى السياسـية الدينيـة والطائفيـة عـلى ممارسـة السياسـة في الدولـة السّـودانيّة الناشـئة. إن الـدور الثانـوي المنـوط بالسياسـيين الجنوبيـين، المسـتلهم مـن المواقـف المتعاليـة لشـمال السّـودان تجـاه الجنـوب بشـكل عـام، ووصفهـم بالعبيـد، و»أبنـاء المبشريـن»، مـن بـين كلـمات أخـرى مهينـة، أضعـف الأجنـدة القوميـة لوحـدة الشـعب السّـودانيّ، وزاد عـزم الجنوبيـين في الوقـوف ضـد توحيـد البـلاد. كان السـؤال عـن أيّ حـزب طائفـي، حـزب الأمـة التابـع لطائفـة الأنصـار أم الحـزب الوطنـي الاتحـادي التابـع لطائفـة الختميـة، سـيرفع علـم الاسـتقلال عامـلاً مهـماً في انتخابـات المجلـس التأسـيسي (1954)، الـذي قـاد إلى إعـلان الحكـم الـذاتي. فـاز إسـماعيل الأزهـري بأكـبر عـدد مـن المقاعـد وصـار أول رئيـس وزراء. اسـتطاع الأزهـري أن يحصـل عـلى أصـوات سياسـيي الجنـوب بعـد وعدهـم بمناصـب في الحكومـة. افتقـر سياسـيو الجنـوب إلى جماعـة سياسـية منظمـة، مـا جعلهـم يكتفـون بلعـب دور ثانـوي في الخلافـات

على السلطة المُسيطر عليه من قبل حزبي الأمة والشعب الديمقراطي المعروفين معًا باسم كيان الشَمال.[1]

لم يعامل أعضاء كيان الشَمال السياسيين الجنوبيين بنديّة، مما زاد من الشكوك المتبادلة التي تصاعدت إلى مغامرات سياسية من الجانبين في سودنة الدولة الاستعمارية. قادت سياسة الكلام المزدوج والوعود الفارغة إلى العمل العسكري الذي قام به ضباط وجنود الفيلق الجنوبي في توريت في 18 أغسطس 1955. في الواقع، لو تعامل كيان الشمال بحكمة وحساسية تجاه حساسيات الجنوبيين أثناء إدارتهم سودنة الوظائف، لكان من الممكن دحر مؤامرة تقسيم البلاد. حتّمت محاولتهم قمع المعارضة العماليّة في مدينة إنزارا، والنقل القسري للفيلق الجنوبي التابع لقوات دفاع السّودان إلى شمال السّودان، تمرد توريت واندلاع «الاضطرابات الجنوبية» في أغسطس 1955.

لم تؤدي هيمنة الأيديولوجيات اليمينية والليبرالية الجديدة على سياسات الدولة الوليدة فقط إلى تشويه الحركة القومية المناهضة للاستعمار وتقسيمها، بل لعبت دورًا واضحًا في الأحداث السياسية التي أدت إلى تمرد توريت، والتداعيات اللاحقة، وحملة الانتقام. جاء التمرد انعكاسًا لنقص التطور السياسي بين الجماعات السياسية في الجنوب، واستغلالها من قبل عناصر من المؤسسة

(1) لم يشارك أي قيادي من الجنوب في محادثات اتفاق القاهرة لعام 1952. فقد اقتصرت المشاركة على الأحزاب السياسية الشمالية والنظام المصري الجديد وقد نصت هذه الاتفاقية على ممارسة حق تقرير المصير. أصبح هذا الاقصاء أساس حجة الحركة الشعبية لتحرير السّودان خلال مفاوضات اتفاق السلام الشامل، على ارضية أن سكان الجنوب، عكس نظرائهم في شمال السّودان، لم يمارسوا حقهم في تقرير المصير.

الاستعمارية البريطانية. على الرغم من أن شعب جمهورية جنوب السّودان يحتفل بيوم 18 أغسطس 1955 باعتباره إيذانا ببداية المقاومة المسلحة للمؤسسة السياسية في شمال السّودان، إلا أن ذلك جاء كفكرة لاحقة وكذبة روجتها الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان في أعقاب حرب التحرير الوطني.

لم تكن أهداف التمرد مرتبطة بالحركة القومية المناهضة للاستعمار بهدف تسريع عملية الاستقلال. كان التمرد في الواقع نقيضًا للاستقلال، وجاء نتيجة صراع على السلطة بين الجماعات السياسية المتنافسة في الجنوب (Garang, 1961)، وتعتيم مارسته عناصر في الإدارة الاستعمارية البريطانية أرادت إدامة الحكم الاستعماري بدعوى انفصال الجنوب، وضمه إلى شرق إفريقيا البريطانية. لم يكن لدى هذه العناصر البريطانية أي مساعدة تقدمها عندما حانت ساعة صفر التمرد، مما أجبر المتمردون على الاستسلام للقوات التي نُقلت جواً من شمال السّودان. لم يؤد التمرد (وما تلاه من سياسة) إلى زيادة تلوث العلاقات بين الشَمال والجنوب فحسب، بل حرم أيضًا الجنوبيين من الاستفادة من الدور الوطني الذي لعبوه في التصويت بالإجماع على استقلال السّودان في الجمعية التأسيسية في 19 ديسمبر 1955. تعامل كيان الشمال، بعدما سيطر كُليّة على الدولة، مع الجنوبيين كمواطنين من الدرجة الثانية في بلدٍ ولدوا فيها. أدى التمرد والاضطرابات في المحافظات الجنوبية، حيث ذكرت المؤسسة السياسية أن التمرد قد اجتاح كل الجنوب، إلى تفاقم العلاقات الضعيفة أصلًا بين شمال السّودان وجنوبه مع اقتراب البلاد من الاستقلال.

سيطر كيان الشَمال على الدولة ومثّل الكيان المصالح الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية للعرب في السّودان، رغم أنه أقلية ديمغرافية. لم يقتصر الأمر على احتكار القوى السياسية والاقتصادية للدولة الوليدة، بل قاموا أيضًا بتحديد هوية السّودان على مقياس الإسلام والثقافة العربية، معتبرين الإنسان السّوداني في مرحلة انتقال إلى الاندماج في الأمة العربية. خلق تعريف السّودان وفق المعايير العربية والإسلامية واقعًا اجتماعيًا، واقتصاديًا، وسياسيًا زائفًا، كما سيتضح لاحقًا، وفشلت النخبة السياسية المهيمنة في الجنوب في المقاومة السياسية، و بدلاً من ذلك استعدت للانضمام إلى النظام. تسببت الجماعات النيلية المُستعربة، يشار إليها مجتمعة باسم كيان الشمال، وهم الحكام الفعليين للسودان، في استياء السّودانيّين الأفارقة، ممن تم تصنيفهم حسب مناطقهم «غرابة»، و»شرقيين»، و»جنوبيين».

ادعاء شمال السّودان عروبته له صلات بالتاريخ الإسلامي للمنطقة. واعتاد حكام المنطقة تصوير أنهم أقرباء الرسول أو أحفاده، ما يعزز افتراض أهليتهم للحُكم تلقائيًا، ويدعم الافتراض الخاطئ أن الإسلام والثقافة العربية هما السمتان السائدتان في السّودان. في ظلّ هذا التكوين الاجتماعي والسياسي للسودان، كان من الصعب على المسلمين غير العرب، ولا سيما أهل دارفور وشرق السّودان، أن يُحاججوا ضد هذا الظُلم. وحتّم على الجنوبيين وحدهم، بمن فيهم المسلمون، أن ينافسوا ويحاربوا هذا الظُلم في شكل حربين أهليتين. من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، هندسة التضامن والوحدة بين المستبعدين سياسيًا، والمهملين اقتصاديًا، والذين يعانون من التمييز الاجتماعي. وتشكل الأخويات

والطوائـف الدينيـة قـوة مُضـادة أقـوى مـن التضامـن الطبقـي. ظهـر هـذا في سرعـة تـلاشي دعـم فكـرة اتحاد فـدرالي لإقليـم جنوب السّـودان وسـط الكتلـة الأفريقيـة (البجـا والنوبـة) في الجمعيـة التأسيسـية 1956.

في هــذا الصــدد، كان مــن الأســهل عــلى كيــان الشَــمال حشــد وتحريــك الإثنيــات الأفريقيــة المســلمة في شــمال السّــودان (بمــا في ذلـك الفـور، والزغـاوة، والمسـاليت، والنوبـة، والفونـج) عـلى أسـاس التضامـن الدينـي. وبالفعـل، لم يتمكـن هـؤلاء الأفارقـة، الغارقـون في الفقـر والجهـل، مـن إدراك تشـابه شروطهـم الاجتماعيـة والاقتصاديـة مـع تلـك السـائدة في المقاطعـات الجنوبيـة. لذلـك خـاض أبنـاء تلـك المناطـق الحـرب (1955-1972) في الجنـوب كجنـود مشـاة بقيـادة ضبـاط مـن كيـان الشَـمال عـلى فقـه (أضرب العبـد بالعبـد)، مـما يشـير إلى أن عـرب النهـر لم يثقـوا في المسـلمين الأفارقـة في الشَـمال.[1] يأخـذ هـذا الموقـف - الغرابـة مقابـل أولاد البحـر - دلالـة أخـرى في سـياق التناقـض العنيـف الـذي ظهـر بـين خليفـة عبـد اللـه التعايـشي والأشرف (أقـارب المهـدي) بعـد وفـاة محمـد أحمد المهـدي عـام 1885، وأدى إلى تمـرد الأخيريـن عـلى حكـم الخليفـة في المحافظـة الشـمالية.[2]

(1) نـال الجنـوب الحكـم الـذاتي بعـد اتفاقيـة أديـس أبابـا (1972)، بينـما خـاض جنـود المشـاة مـن دارفـور، وجبـال النوبـة، وجنـوب النيـل الأزرق الحـرب بحـماس وتعصّـب، وقامـوا بتدمـير القـرى، واغتصـاب، وقتـل الجنوبيـين دون تمييـز وبـلا رحمـة، ثـم عـادوا إلى قراهـم ليتحملـوا مـرارة كيـان الشـمال. عندمـا اندلعـت الحـرب مـرة أخـرى في عـام 1983، حمـل هـؤلاء الأفارقـة السـلاح للقتـال مـن أجـل حقوقهـم.

(2) في هـذا السـياق، اعتـبر، عـرب نهـر النيـل، الأشراف، أنفسـهم الورثـة الشرعيـين للدولـة المهديـة مـن حيـث السـلطة والـثروة. ظهـر هـذا التناقـض في توحيـد غـرب السّـودان كمعقـل للأنصـار، بينـما كان شرق السّـودان معقـل الختميـة. مـع صعـود الحركـة الأصوليـة الإسـلامية النخبويـة، أصبحـت قاعدتهـا الاجتماعيـة في دارفـور وكردفـان، بينـما قيادتهـا مـن أولاد البحـر، وهـذا هـو التناقـض الـذي قـاد إلى حـرب دارفـور.

تشرذمت الهوية السّودانيّة والوعي القومي في حقبة ما بعد الاستعمار على أسس عديدة. فمن ناحية، كانت هناك الهوية العربية الإسلامية وتركيز الثروة السياسية والاقتصادية في يد كيان الشَمال الذي يسيطر الآن على المرك؛ ومن ناحية أخرى، الجماهير الأفريقية المضطهدة، الفقيرة، والمستبعدة سياسيًا في الغرب، والجنوب، والشرق. وُضعت السياسة الوطنية للحفاظ على هذا التكوين الاجتماعي السياسي، وولدت عدم تكافؤ مريع في توزيع السلطة والثروة، وخلق انقسامات بين الحكام والمحكومين على أسس إثنيّة واضحة.

كان العرب هم الحكام والأفارقة هم المحكومين. نتج عن هذا الوضع صور التفوق والدونية في النفسية والوعي الاجتماعي للحكام والمحكومين، ومنع ظهور قيم مشتركة مثل الوعي القومي والالتزام بهوية وطنية. كانت هذه الهوية المنقسمة شديدة الوضوح بالنسبة للسودانيين الجنوبيين، على عكس مواطنيهم الأفارقة الآخرين حيث أسهم عامل الدين الإسلامي في إخفاء بعض التناقضات.

تُظهر مراجعة سريعة للفترة من الاستقلال (1956) والانقلاب العسكري اليساري في مايو 1969 نمطًا من المواقف والسلوك تسود الطبقة السياسية والمثقفين الجنوبيين، أكدت لا تكافؤ القوة بين الشمال والجنوب، و بين والعرب والأفارقة في السّودان. ظهرت سمات مماثلة في التطور الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، لجمهورية جنوب السّودان المستقلة، والتي تدعم التعميم النظري لفكرة الازدواجية الاجتماعية والسياسية في الفكر السياسي للنخبة السياسية في جنوب السّودان. بحيث يمكننا القول إن عوامل الازدواجية الاجتماعية-السياسية التي أشعلت فتيل المواجهة بين

شـمال وجنـوب السّـودان، والحـرب الأهليـة الدائمـة و بلغـت ذروتهـا في تقطيـع أوصالـه، لا تـزال تعمـل في جنـوب السّـودان، وتعيـق انتقالـه إلى دولـة وأمـة متماسـكين.

وتجـدر الإشـارة إلى أن الجيـل الأول مـن سياسـيي الجنـوب (1940-1965) اتسـموا بطموحـات عاليـة مـن حيـث وعيهـم السـياسي، وتنظيمهـم وتعبئتهـم الجماهيريـة لأغـراض سياسـية، وهـم مـن هندسـوا مشـاعر القوميـة الجنوبيـة، كتعبـير أفضـل لوصـف المشـاعر البدائيـة اللاشـعورية التـي تطـورت نتيجـة تنفيذ السياسـة الاسـتعمارية البريطانيـة في المقاطعـات الجنوبيـة. فقـد وحّـدت هـذه الغرائـز شـعب الجنـوب، وخاصـة الطبقـة المثقفـة. كانـت المـدارس سـاحة إثـراء تلـك المشـاعر، وظهـر خلالهـا الجيلـين الثـاني والثالـث مـن القـادة السياسـيين والناشـطين. كانـت السـمة اللافتـة في هـؤلاء السياسـيين الأوائـل هـي الافتقـار الواضـح للنـزوع الإثنـيّ في تعاملاتهـم السياسـية، والـذي لم يظهـر إلا لاحقًـا في سـياق تنظيـم الأحـزاب السياسـية وتعبئتهـا.

أنتـج الجنـوب، مـن منظـور التطـور السـياسي والتمـرُّس في العمـل السـياسي، قـادة سياسـيين مـن الجيـل الثـاني (1956-1983)، والجيـل الثالـث (1983-الآن) دون تفـوق ملمـوس، رغـم توفـر مرافـق تعليميـة وفـرص أفضـل لتطويـر مهاراتهـم السياسـية والتنظيميـة. ولأي سـبب كان، حـدث أن هـؤلاء القـادة السياسـيون الناشـئون، عـلى الرغـم مـن عملهـم في بيئـة سياسـية ودبلوماسـية وطنيـة ودوليـة أفضـل، لم يكونـوا قادريـن بمـا يكفـي عـلى الاسـتفادة مـن تلـك البيئـة ويعود هذا لسـبب بسـيط. أدت السـلبيات المتأصلـة في علاقاتهـم مـع كيـان الشَـمال إلى تغييـب وعيهـم وحجـب التفكـير النقـدي والاسـتراتيجي، مـما دفعهـم

إلى أجندة وحساسيات ضيقة الأفق. إحدى هذه السلبيات هي الازدواجية الاجتماعية-السياسية التي أعاقت وعرقلت هندسة المفهوم العلمي للوعي القومي لجنوب السّودان من وجهة نظر إيجابية، كما حالت دون تبني مفهوم ورؤية للسودان الجديد كمحركات لفكرة التحرير واستبدلوها بمفهوم لجنوب السّودان كدولة وطنية يتأسس على مرجعية سالبة، وتستند على النضال وخصومة «العدو». أصبح العدو هو القاسم المشترك للشعور القومي، وهكذا، وبمجرد اختفاء هذا القاسم المشترك - سواء بالهزيمة أو الاستقلال - لم يولد الافتقار إلى نقطة انطلاق إيجابية لتشكيل الأمة سوى المزيد من الازدواجية الاجتماعية والسياسية.

في محاولة لتوضيح هذه الظواهر المتكررة دعونا ندرس الاحتلال التركي المصري لشمال السّودان الذي أسس نظام فاسد وقمعي متمركز في الخرطوم. وكان أن وحد الإحتلال التركي المصري الشعب السّودانيّ في ثورة يقودها محمد أحمد المهدي. لم تؤد هزيمة تركيا إلى قيام دولة مهدية عادلة وديمقراطية في السّودان تعكس تطلعات الشعب السّودانيّ الذي توحد ضد القهر ونهب ثرواته الطبيعية. أعادت الدولة المهدية (1881-1898) إنتاج نظام قمعي، ثم تمرد عرب النهر ضد حكم خليفة عبد الله. أدى التمرد والخلاف داخل حكم الخليفة إلى تسهيل وتسريع هزيمة المهدية وإعادة احتلال السّودان، وقيام الدولة الأنجلومصرية في السّودان (1898-1956).

ظهرت الحركة القومية المناهضة للاستعمار أولاً في شمال السّودان، حيث تطورت الصحوة الاجتماعية والوعي السياسي مستفيدة من التطور اللامتكافئ اجتماعيا، واقتصاديا، وسياسيا

بسبب سياسة الحكم الاستعماري، فضلاً عن قرب شمال السّودان من مصر والشرق الأوسط. ومع ذلك، استغلت النخبة السياسية الشَمالية التي يهيمن عليها العرب ذلك لإلحاق الضرر بالجنوب. حفزت المواقف المهينة والمتعالية التي يتخذها الشَماليون تجاه الجنوبيين الميول الانفصالية في الجنوب. ومع ذلك، لم تشجع هذه الحركات الانفصالية في جنوب السّودان توقعات طبيعة الصحوة الاجتماعي والوعي السياسي الذي يمكن استخدامه بهدف تشكيل وتعبئة أسس دولة جنوب السّودان الناشئة، بل شرعت بدلًا من ذلك في إثارة الذوات والحساسيات اللاواعية، مما أدى إلى نشوب صراع أهلي وإحباط عملية تشكيل الدولة وبناء الأمة.

أظهرت تجربة تكوين الدولة وبناء الأمة في السّودان التي دامت قرابة ثلاثة عقود (1956-1983) مدى صعوبة محو صور العبودية وتجارة الرقيق السلبية من العقل الباطن للنخبة العربية ، والتي مارسها أسلافهم على الأفارقة خلال القرن التاسع عشر. أدى الاستخدام الشائع لكلمة عبيد، ويقصد به تذكير الجنوبيين بالدونية، إلى توسيع الصدع بين الشَماليين والجنوبيين طوال هذه الفترة. مارس الحزب الليبرالي، الجماعة السياسية الجنوبية الرئيسة، معظم أنشطته السياسية في الخرطوم وبلدات ومدن شمال السّودان الأخرى بسبب حالة الطوارئ القائمة في الجنوب. أنهى الانقلاب العسكري في 17 نوفمبر 1958 العمل السياسي في البلاد، وشدد حالة الطوارئ في المقاطعات الجنوبية، ونتج عنه حلّ الحزب الليبرالي وتوجه معظم قادته إلى المنفى لمواصلة النضال من الخارج، على عكس الأحزاب السياسية الشَمالية التي استمرت في النضال السرّي من داخل البلاد.

إن عـدم قـدرة الجنوبيـين عـلى العمـل الـسرّي نابـع مـن افتقارهـم إلى التنظيـم السـياسي، لـذا كان مـن الإسـتحالة حشـد وتنظيـم الأنشـطة السياسـية في الجنـوب إلا مـن خـلال دوائـر مغلقـة وحصريـة عـلى المعـارف والاقـارب، أو عـلى أُسـس إثنيّـة، أو علاقـات ضيّقـة توفـر الثقـة للتواصـل داخـل دائـرة آمنـة.

أدى عـدم وجـود أحـزاب سياسـية منظمـة وراسـخة في الجنـوب إلى اسـتحالة تنفيـذ برنامـج التثقيـف السـياسي، والتنظيـم، والتعبئـة، وتدريـب القـادة والكـوادر السياسـية مـن الشـباب. لم يكـن هـذا هـو الحـال في شـمال السّـودان: فقـد كانـت الأحـزاب السياسـية المنظمـة والراسـخة موجـودة لفـترة طويلـة قبـل بداية الحركـة القوميـة المناهضة للاسـتعمار، وذلـك بسـبب العوامـل المذكـورة آنفـاً. كانت الثـورة المهدية التـي هزمـت الدولـة التركيـة المصريـة جـزءًا مـن هـذا الوعـي السـياسي بينـما حوّلـت الأحـزاب المـدارس إلى سـاحات تجنيـد وتطويـر الكـوادر والنشـطاء السياسـيين. مـن الجوانب السـلبية والضـارة بالفعل للسياسـة البريطانيـة أنهـا عـززت اللامبـالاة السياسـية، ويعنـي أن الجنوبيـين كانـوا يتطلعـون فقـط إلى إيجـاد عمـل داخـل الخدمـة المدنيـة، وركـزوا عـلى إظهـار الاجتهـاد مـن أجـل الترقيـة الوظيفيـة. نتيجـة ذلـك أن الجنوبيـين لم ينخرطـوا في العمـل السـياسي إلا بعـد تقاعدهـم المهنـي.

عـادة مـا يكـون قـد فـات الأوان للحاق بمن بدأوا نشـاطهم السـياسي في سـنّ مبكـرة. يتقـن المـرء السياسـة والنضـال السـياسي مـن خـلال الممارسـة، وبدونهـا وجـد الجنوبيـون أنفسـهم في كثـير مـن الأحيـان عـلى طـرف المتلقـي في علاقاتهـم مـع الشَـماليين. يكتسـب النـاس المعرفـة والمهـارات السياسـية مـن خـلال التفـاني في التعلّـم والممارسـة،

وليس من بديل لهذا الطريق. وهذا ما يفسر لماذا كان السّودانيّون الشَماليون أكثر تنظيماً ومهارة في فنّ السياسة. استغرق الأمر حتى ثورة مايو عام 1969، عندما تم التخلص التدريجي من الجيل الأكبر سنًا من السياسيين في الجنوب ، بعضهم بالتقدم في السن، وآخرين بسبب تعقيد عمليات الهندسة الاجتماعية والسياسية للدولة، والتي تتطلب سياسيين أصغر سنًا وأكثر تعليماً.

في بيئة يسودها الخوف من شرطة الدولة وعناصر الأمن في المحافظات الجنوبية، كان من الصعب البناء على خبرة الجيل الأكبر سناً من القادة السياسيين من خلال التجمعات السياسية، أو المؤتمرات الحزبية، أو الاجتماعات الرسمية. لذلك كان الحشد من أجل التمرد والعمل العسكري أسهل بكثير من الاحتجاجات والمظاهرات السياسية. نشأ معظم القادة والنشطاء السياسيين من الجيلين الثاني والثالث في الجنوب، باستثناء من التحقوا بالمدارس الشَمالية والحركة الطلابية، وتطوروا في هذه البيئة السياسية القمعية، وأجبر كثير منهم على الانضمام إلى جيش أنيانيا. أثّرت ظاهرة التطور المتأخر لثقافة العمل السياسي المنظم، تسبّب بها أولًا البريطانيون من خلال تعليم دون المستوى وإجراءات أخرى، بشكل سلبي على تطور الصحوة الاجتماعية والوعي السياسي والأيديولوجي، وكذلك تنمية المهارات السياسية لدى مثقفي الجنوب، مما وضعهم في وضع غير جيّد مقارنة بنظرائهم في الشمال.

تسبب الفقر العام وعدم القدرة على توفير الموارد المالية اللازمة للنشاط السياسي وتمثيل شعوبها في وضع النخبة الجنوبية في واقع سيء، وجعلهم عرضة للتلاعب والابتزاز من قبل الطبقة

السياسية الشَمالية. كانت حالة نموذجية لاكتساب الحرية السياسية والاستقلال ولكن بدون قوة اقتصادية مقابلة. في الواقع، لم يعترف كيان الشَمال أبدًا بالجنوبيين كمواطنين متساوين، وكثيراً ما أشاروا إليهم على أنهم عبيد لتذكيرهم بدونيتهم، وبالتالي لا ينبغي لهم المطالبة بالمساواة في الأمور المتعلقة بحكم السّودان. كان هذا لتنفير الجنوبيين، وجعلهم شركاء غير متكافئين في السّودان المستقل الناشئ، ومُضاعفة إحساسهم بالدونية، وهو ما تم توظيفه في العديد من المواقف عندما خدعهم السياسيون الشَماليون (أبيل ألير، 1990).

صار هذا الخداع السياسي سمة ملازمة للعلاقات بين الشَمال والجنوب، ولا سيما خلال فترات الأنظمة الديمقراطية المتقطعة بين سنوات 1956 و1989. وبسبب قوتهم الاقتصادية والسياسية غير المتكافئة، وجد السياسيون في الجنوب أنهم مواطنين من الدرجة الثانية عندما يتعلق الأمر بالسلطة وحكم البلاد. الفترة القصيرة للحكومة الانتقالية التي أعقبت أكتوبر 1964 هي الوحيدة التي تعامل فيها كيان الشَمال مع الجنوب بإنصاف في توزيع الحقائب الوزارية. ولأول مرة شغل جنوبي حقيبة سيادية (وزارة الداخلية) وحقيبتين خدميتين، بالإضافة إلى عضو في المجلس الأعلى للدولة. كما كانت هذه هي المرة الأولى التي يتولى فيها السيد لويجي أدوك، ممثل الجنوب في المجلس الأعلى للدولة، الرئاسة الدورية للمجلس (مارس 1965)[1]. منذها اقتصر تعيين الجنوبيين في وزارات أقل أهمية مثل العمل أو الموارد الحيوانية.

(1) كان أن صادف دورة السيد لويجي آدوك زيارة ملكة بريطانيا للسودان، الواقعة التي أغضبت السياسيين الشماليين الذين اعتبروا أنه لا يجوز لسياسي جنوبي إستقبال الملكة. وكانت النتيجة إجراء تعديلات دستورية بإلغاء الرئاسة الدورية و تسمية الأزهري رئيساً دائماً.

طـال الأمـر حتـى الفـترة التاليـة لسـقوط نظـام مايـو في عـام 1985 ليتمكـن الجنوبيـون، ومعظمهـم مـن السياسـيين الشـباب حديثـي التخـرج، مـن المنافسـة جنبـاً لجنـب مـع نظرائهـم الشَـماليين في صراع السـلطة. ومـع ذلـك، أثنـاء التفـاوض عـلى الانتقـال إلى نظـام متعـدد الأحـزاب في أبريـل 1985، وفي خطـوة مذهلـة لتأكيـد وجودهـم، ظهـر مـن العـدم السياسـيون الأكـبر سـناً، وأعاقـوا هؤلاء السياسـيين الشـباب، واكتفـوا بمـا قدمـه أسـيادهم الشَـماليون لهـم مـن مطلـب متواضـع مـن خـلال المنسـق السـياسي في المجلـس العسـكري. أراد السياسـيون المثقفـون الأصغـر سـناً حقيبـة رئيـس الـوزراء لشـخص مـن الجنـوب، طالمـا أن شـخصًا مـن الشَـمال كان رئيسًـا للدولـة مـن خـلال رئاسـته للمجلـس العسـكري. في مواجهـة موقـف جنـوبي منقسـم، وافـق المنسـق العسـكري عـلى طلـب الاتحـاد السـياسي لجنـوب السّـودان (SSPA) إنشـاء منصـب جديـد، هـو نائـب رئيـس الـوزراء، سيشـغله شـخص جنـوبي إلى جانـب حقيبـة وزاريـة وقـد سـاهمت هـذه الخطـوة في حـل الـصراع الـوزاري بـين المتنافسـين الشَـماليين عـلى منصـب رئاسـة الـوزراء[1].

بسـبب مـن مسـتوى التنظيـم السـياسي العـالي والقـوة الاقتصاديـة، ظهـر كيـان الشَـمال كقـوة سياسـية مهيمنـة في البـلاد ووريثـة للدولـة الاسـتعمارية. لم يكـن للسـودانيين مـن الجنـوب، والغـرب، والوسـط،

(1) مجموعـة مـن السياسـيين الذيـن عملـوا سـابقًا في مـا كان يُطلـق عليـه الإقليـم الجنـوبي. تشـكلت هـذه المجموعـة للمشـاركة في النظـام الجديد، بطريقـة تذكرنا تكوين الجبهـة الجنوبية (SF) بـدلاً مـن إحيـاء الحـزب الليـبرالي بعـد الإطاحـة بالنظام العسـكري الذي حظـر الأخير. على عكـس الأحـزاب السياسـية الشَـمالية التـي اسـتمرت في العمل سراً في ظـل الأنظمـة الديكتاتورية والشـمولية، حـلّ السياسـيين الجنوبيـين أحزابهـم طواعيـة لتسريـع اندماجهم في النظـام الجديد.

والـشرق سـوى مشـاركة هامشـية، ومُنحـوا دورًا مـن الدرجـة الثانيـة في الهندسـة الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية للدولـة. أضافـت وصمـة العبيـد عـلى الجنوبيـين، غـض النظـر عـن وضـع الشـخص منهـم الاجتماعـي، والاقتصـادي، والسـياسي، معانـاة مُضاعفـة، وجعلتهـم أسـوأ حـالًا مـن الآخريـن. ففـي علاقاتهـم مـع الشـماليين تـم قهرهـم، بـكل مـا تحملـه الكلمـة مـن معنـى، في الأمـور المتعلقـة بصنـع القـرار وتخطيـط السياسـة، مـما يكشـف عـن عـدم توزيـع سـافر للسـلطة.

كان مـن المرجـح أن يتقـدم المواطـن الشَـمالي في الوظيفـة العامـة بشـكل أسرع لـيرأس زميلـه الجنـوبي الأقـدم في التسلسـل الهرمـي، حتـى لـو تخرجـا سـوية في نفـس الدفعـة الجامعيـة. وفي بعـض المهـن والخدمـات، كان يتـم تكليـف الجنوبيـين بمهـام فنيـة بينـما ينخـرط الشَـماليون في الجوانـب الإداريـة، مـما يمنحهـم فرصـة اكتسـاب مهارات صنـع القـرار وتخطيـط السياسـات. وهـذا يطبـع صـورة نفسـية عـن السّـودانيين الشـماليين بوصفهـم متفوقـين وقـادة في جميـع جوانـب الحيـاة، سـواء في التجـارة، أو الصناعـة، أو الإدارة، أو سياسـة الدولـة. في الواقـع، تـم الترويـج للعلاقـات المبنيـة عـلى مثـل هـذه المفاهيـم الخاطئـة، أو البنـى الاجتماعيـة المشـوهة، بشـكل متعمـد وفعّـال لتولـد في الجنـوب متلازمـات الدونيـة، وعـدم الكفـاءة، وكراهية الـذات، وعدم الالتـزام، والاغـتراب، وعـدم الأمانـة، والتمـرد؛ وباختصـار، الازدواجيـة الاجتماعيـة والسياسـية التـي تلخـص كل هـذه السـلوكيات والمواقـف.

أبـرز نقـاط ضعـف مثقفـي الجنـوب هـو عـدم قدرتهـم عـلى تنظيم أو الانخـراط في أنشـطة سياسـية منظمـة يمكـن أن توحـد نضالهـم عـبر الخطـوط الإثنيّـة والإقليميـة، عـلى الرغـم مـن أن هـذا إرث اسـتعماري

مرتبط بشكل خاص بالتعليم التبشيري المسيحي[1] وهو نظام تعليم يستهجن السياسة بشكل عام ويغرس التبعية للسلطات الرسمية. نتيجة ذلك، إلى جانب قمع الحكومة للأنشطة السياسية في المقاطعات الجنوبية، لم يكن من السهل على جيل السياسيين الجنوبيين تحرير أنفسهم من هذا الإرث. واتخذ التحريض والتعبئة السياسية لمقاومة سياسات التعريب والأسلمة (1958-1964) شكل تجمعات إثنيّة سرية، يُجرى فيها التواصل باللغات المحلية لتجنب مخبري الشرطة السرية وعناصر الأمن والذين غالباً ما يكونوا من الشمال.

بدأت الجمعيات الإثنية والإقليمية في المدارس في البداية كإجراء احترازي ضد عناصر الأمن ومُخبري الشرطة؛ ومع ذلك، فقد ترسخت، كإجراء أمني، في مواقف وسلوكيات الانتلجنسيا الجنوبية. وأصبحت، كما سأشير في الأقسام التالية، وسيلتهم الوحيدة للتنظيم وزعزعت وحدة هدفهم. جاء تدخل الإثنية والجهوية في سياسات نضال الجنوبيين ضد الأنظمة السّودانيّة في أعقاب انشقاق الاتحاد الوطني الأفريقي السّوداني (سانو) عام 1964، وعودة وليام دينق نيال إلى مسقط رأسه للانخراط في السياسة تحت نفس اسم التنظيم. تزامن هذا مع المعارك المريرة في غابات الجنوب بين مقاتلي الحرية في حركة أنيانيا، الذين وصفهم رولف شتاينر إنهم «يتصرفون «بجبن» عندما يتعلق الأمر بمواجهة القوات الحكومية،

(1) تم توحيد أنظمة التعليم بين جنوب وشمال السّودان مع إدخال المنهج الجديد في عام 1970. قبل ذلك الوقت، كان المنهج الجنوبي مختلفًا في المحتوى والنطاق عن المناهج القومية؛ على سبيل المثال، لم تقدم موضوعات مثل تاريخ السّودان والتربية المدنية، والتي كان بمقدورها رفع الوعي الاجتماعي والسياسي لدى الطلاب. بدلاً من ذلك، عُرضت مواضيع أكثر حيادية مثل الجغرافيا وتاريخ أوروبا.

وبـضراوة فيـما بينهـم، متناسـين قضيتهـم المشـتركة[1]. كان الـصراع ضـد بعضنـا البعـض، في مواجهـة عـدو مشـترك، نموذجيًـا للنخبـة السياسـية في الجنـوب، ويـأتي مـن منظـور يعطـي الأولويـة للتناقضـات الثانويـة عـلى التناقضـات الأوليـة ويشـوه أو يقمـع تصورهـم للعـدو المشـترك.

أدى عـدم القـدرة عـلى تنظيـم النشـاط السـياسي في مواجهـة القمـع الحكومـي المتزايـد في الوطـن إلى اللامبـالاة واليـأس لـدى الجنوبيـين، وأدى إلى الرفـض الكامـل لـكل مـا هـو سـياسي. أتذكـر بوضـوح تلـك الأمسـيات في نـادي الطـلاب بجامعـة الخرطـوم، عندمـا كان طـلاب الجنـوب يلعبـون الـورق بينـما زملائهـم - ممـن سـيكونون مثلهـم القـادة السياسـيون المسـتقبليون - ينخرطـون في مناقشـات سياسـية حـول الوضـع في البـلاد. تـم خـوض كفـاح مريـر لتغيـير اسـم جبهـة رعايـة الطـلاب (SWF) إلى الجبهـة الوطنيـة الإفريقيـة (ANF)، لمنحهـا محتـوى سياسـيًا ظاهـري وربطهـا بالنضـال السـياسي والمسـلح الـذي كانـت تخوضـه أنيانيـا في غابـات الجنـوب. وحتـى مـع التـذرع بالخصوصيـات السياسـية للافروعموميـة، لم يؤثـر هـذا عـلى الفكـر السـياسي اليمينـي المهيمـن في المنظمـة. ولم يمـض وقـت طويـل قبـل أن تتآمـر العنـاصر الرجعيـة في قيـادة الجبهـة الوطنيـة الأفريقيـة لإخـراج التقدميـين مـن الحـزب. كان عليهـم تشـكيل مجموعـة بديلـة (تقدميُّـو جنـوب السّـودان) لتحـدي قيـادة الجبهـة الوطنيـة الإفريقيـة، التـي يرعاهـا المجلـس التنفيـذي الأعـلى، في سياسـات الحركـة الطلابيـة للجنـوب.

(1) كان شـتاينر مرتزقًـا ألمانيًـا سـاعد في تدريـب قـوات أنيانيـا في الاسـتوائية. قبـض عليـه عمـلاء الحكومـة السّـودانية في أوغنـدا، ونقلـوه جـواً إلى الخرطـوم لمحاكمتـه. أطلقـوا سراحـه لاحقًـا، عـلى الأرجـح بعـد تدخـل حكومـة ألمانيـا الغربيـة.

العديد من القادة السياسيين والعسكريين الحاليين هم نتاج تلك الحقبة من التطور السياسي في جنوب السّودان. لقد تلقوا تعليماً أفضل من القادة السياسيين في حقبة الاستقلال، وأتيحت لهم فرصة الاختلاط والتفاعل على قدم المساواة مع زملائهم في شمال السّودان؛ لم يكن لديهم سبب للشعور بالنقص. معظمهم حقق أداء أكاديمي جيد، وحصلوا على درجات عالية، دخلوا الجامعات، بل وأصبحوا جزءًا من هيئات التدريس. لقد مارسوا العمل السياسي خلال النظام السياسي الشمولي القائم - الاتحاد الاشتراكي السّودانيّ (SSU) - لكن دون الاندماج الكامل في السياسات المؤيدة للعروبة أو القومية العربية. بسبب هذه القيود، لم يتمكنوا من رسم مسار أيديولوجي أو سياسي لحركة بان أفريكانز حقيقية واضطروا في النهاية لتأييد السياسات التي كانوا يقفون ضدها. حرم هذا التطور الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، الجنوب من السياسة اليسارية والثورية. لم تكن البيئة الاجتماعية والسياسية في الجنوب مواتية لأنشطتهم بأي حال من الأحوال. نشأ الماركسيون والديمقراطيون الثوريون القلائل وتطوروا داخل النقابات العمالية والحركات الطلابية في الشمال، ولم تتح لهم أبدًا فرصة التأثير على الأحداث في الجنوب. لم تحل فرصة بزوغ سياسة يسارية في الجنوب إلا مع انقلاب عام 1969 العسكري في الخرطوم، ونظام مايو الذي تلاه، مما أدى إلى تغيير المشهد السياسي. فقد حظر النظام الجديد الديمقراطية الليبرالية اليمينية ومكّن السياسيين اليساريين والنشطاء السياسيين من اعتلاء المسرح السياسي.

أقر المجلس الثوري، في بيان له، بالتفاوت الاجتماعي،

والاقتصادي، والثقافي بين جنوب السّودان وشماله، ودعا إلى برنامج سياسي لسد الفجوة. خلق هذا بيئة للقوى الاجتماعية اليسارية والديمقراطية في الجنوب للتنظيم والمشاركة في العمل السياسي. ورغم احتدام الحرب، أدى إنشاء وزارة شؤون الجنوب وتعيين جوزيف أوكيل قرنق لرئاسة هذه الوزارة إلى تغيير الحياة السياسية في الجنوب تمامًا. لكن الفترة القصيرة، بين مايو 1969 ويوليو 1971، شهدت اضطرابات سياسية وأيديولوجية في المعسكر الثوري وقلبت المد الثوري في الجنوب. حدث انقسام داخل الحزب الشيوعي السّودانيّ في عام 1970، مع فصيل يطالب بحله في حركة ديمقراطية جماهيرية تضم فصيل القومية العربية والجماعات اليسارية الأخرى. وقد أصبح أعضاء هذا الفصيل نواة نظام مايو ومنظري الاتحاد الاشتراكي السّوداني. تلا ذلك تحالفًا مضادًا للثورة من الجناح اليميني السياسي تحت مظلة الجبهة الوطنية والمقاومة المسلحة في أم درمان والجزيرة أبا في مارس 1970. وبعد عام واحد فقط شهدت البلاد انقلاب اليسار المناهض للنميري، وانقلاب النميري المضاد، في 19 و21 يوليو 1971، على التوالي[1]. وبلغت هذه التطورات السياسية ذروتها بانعكاس كامل للثورة، ووضع السّودان تحت قيادة الرئيس جعفر محمد النميري.

كانت أحداث يوليو 1971 كارثة للقوى الديمقراطية والثورية

(1) كانت أحداث مثيرة على مدى ثلاثة أيام، ولها أبعادها الوطنية والدولية. قاد الرائد هاشم العطا انقلابًا غير دموي أثناء نهار 19 يوليو، واعتقل النميري والعديد من ضباطه، وأعلن ثورة وطنية ديمقراطية. بدأت مؤامرة إمبريالية في لندن، وعلى إثرها أمر العقيد الليبي معمر القذافي بهبوط طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية، واعتقل من على متنها المقدم بابكر النور والرائد فاروق عثمان حمد الله. أدى هذا الإجراء إلى انقلاب مضاد في الخرطوم وإعادة جعفر محمد النميري إلى الرئاسة.

في السّـودان لا يمكـن إصلاحهـا. أعـدم النمـيري كبـار قـادة الحـزب الشـيوعي، الأمـين العـام عبـد الخالـق محجـوب، نائـب رئيـس الاتحـاد الـدولي لنقابـات العـمال الشـفيع أحمـد الشـيخ، والمحامـي جوزيـف أوكيـل قرنيـق عضـو اللجنـة المركزيـة للحـزب. تـرك هـذا الحـزب الشـيوعي والحركـة الثوريـة والديمقراطيـة بأكملهـا في البـلاد في حالـة مـن الصدمـة والارتبـاك التـام. كان لإعـدام قرنـق تأثـير كبـير عـلى تطـور الحركـة الديمقراطيـة والثوريـة الوليـدة في الجنـوب. وتزامنـت الحملـة عـلى الأنشـطة السياسـية اليسـارية مـع التحـول الأيديولوجـي للنظـام إلى اليمـين، ودفعهـا إلى اتفـاق مـع حركـة تحريـر جنـوب السّـودان الانفصاليـة (SSLM)، الجنـاح السـياسي للأنيانيـا، في مـارس 1972، في أديـس أبابـا. خلقـت اتفاقيـة أديـس أبابـا بيئـة سياسـية في جنـوب السّـودان مواتيـة لتنفيـذ النسـخة المشـوهة مـن إعـلان 9 يونيـو الـذي نـص عـلى الحكـم الـذاتي الإقليمـي.

أوضحـت طبيعـة القـوى التـي توسـطت في اتفـاق أديـس أبابـا أن الإقليـم الجنـوبي سـيقع في قبضـة القـوى الرجعيـة المضـادة للثـورة. ومثّـل فرصـة سـائغة للسياسـيين اليمينيـين الجنوبيـين البائديـن، الذيـن احتشـدوا في الاتحـاد الاشـتراكي السّـوداني المُنشـأ حديثًـا مـن أجـل إعادة التنظيـم السـياسي وإدارة الحكـم الـذاتي الإقليمـي. لم يضـم الاتحـاد أي شـخصية ذات ميـول اشـتراكية مـن حيـث الأيديولوجيـة أو البرنامـج السـياسي باسـتثناء اسـم التنظيـم. قـام نمـيري بإلغـاء تأميـم الـشركات والصناعـات، وشرع في مسـار رأسـمالي للتنميـة الاجتماعيـة، والاقتصادية، والسياسـية تحـت وصايـة البنـك الـدولي وصنـدوق النقـد الـدولي.

أنهـت اتفاقيـة أديـس أبابـا الحـرب التـي اسـتمرت 17 عامًـا، لكنهـا

لم تعالج التناقضات الأساسية التي مثّلت أساس الحرب. وبسبب ربط التنمية الاجتماعية والاقتصادية في السّودان بإملاءات صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، ولا سيما فرض برنامج التكيف الهيكلي المخيف، ضاع على الإقليم الجنوبي والاتحاد الاشتراكي السّودان فرصة معالجة التخلف الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في الجنوب. كان جوهر الحكم الذاتي الإقليمي هو تمكين سكان جنوب السّودان من أجل تغيير حالة الفقر، والجهل، والأمية، والخرافة التي دامت قرونًا، وذلك تحت قيادة القوى الديمقراطية والثورية المنفذة لبرنامج الثورة الوطنية الديمقراطية. قام نظام مايو وفصيله في الإقليم الجنوبي بتخدير الجماهير بشعار «الوحدة الوطنية» لدرجة عدم التفاتهم للطابع القمعي والمتلاعب للنظام.

لقد أظهر التاريخ أن الفصيل اليميني من البرجوازية الصغيرة لم يكن أبدًا وفيًا للجماهير، بل يستغلوا توق الجماهير إلى التحرر من الفقر والجهل من أجل غاياتهم السياسية الأنانية. وهو ما يوضحه أميلكار كابرال (1966)، أنه كي تقود البرجوازية الصغيرة الجماهير في النضال من أجل التحرر، يجب عليها أن تنتحر طبقيًا وتُبعث مرةٍ أُخرى في شكل مثقفين ثوريين. دون هذا التحول الأيديولوجي، ستعود هذه الطبقة إلى السعي وراء مصالحها الاقتصادية والسياسية الضيقة. في هذا الصدد يمكننا افتراض أن إملاءات المصالح الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية الطبقية أجبرت النخبة السياسية، التي خاضت الحرب الأهلية الأولى التي دامت 17 عامًا في الجنوب، على خيانة الجماهير والتخلي عن مسؤولية تحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية. انضم سياسيو النظام القديم والقادة السابقون لحركة

تحرير جنوب السّودان إلى الاتحاد الاشتراكي السّوداني، والذي كان مظلة واسعة قاموا من خلالها برعاية المصالح الإثنيّة الضيقة أثناء مشاركتهم في صراع عنيف على السلطة. لم يكن بإمكانهم تصور معالجة تلك المصالح الضيقة في مجمل الإقليم الجنوبي دون تقسيم الجماهير على أسس إثنيّة وإقليمية بالضرورة. أدى هذا الصراع على السلطة في النهاية إلى تدمير الإقليم الجنوبي نفسه. لقد كان نمطًا سياسيًا نموذجيًا لليمين، يوصل التناقضات الضيقة أو الثانوية لمراحل خطيرة، ويجعل التسوية و إعلاء المصالح الوطنية العليا مستحيلة.

ضمّت أجهزة الحكم الذاتي الإقليمي في الجنوب الجهاز التنفيذي، تحت اسم المجلس التنفيذي الأعلى (HEC)، والجهاز التشريعي، تحت اسم مجلس الشعب الإقليمي (PRA). ومثّل إنشاء هذه المكاتب انتصارًا كبيرًا لشعب إقليم جنوب السّودان. على الرغم من الطبيعة الشمولية وغير الديمقراطية لنظام مايو، والتي تسبّبت في نهايته، إلا أن تشكيل الحكومة الإقليمية وضع أسسًا راسخة لتحقيق المزيد من المكاسب الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية. لكن هيمنة العناصر اليمينية على الاقتصاد السياسي للأقاليم جعلت من المستحيل تحويل هذه المكاسب السياسية إلى مكاسب اجتماعية واقتصادية للشعب. بدلاً من ذلك، اندلع الصراع على السلطة والهيمنة. إن تشكيل جمعيات إثنيّة مثل وحدة الدينكا، واتحاد لوو، والمجموعات الإقليمية مثل اللجنة المركزية للاستوائية ((ECC كقوة دافعة لهذا الصراع على السلطة داخل دوائر الاتحاد الاشتراكي، أعطى الحزب الحاكم مظهرًا من الشرعية. استغل النميري هذه الخلافات غير المبدئية ليس فقط في تقسيم هؤلاء السياسيين

وإضعاف موقفهم المشترك بشأن قضايا الحدود، ومكان مصفاة النفط، بل لتفكيك الإقليم الجنوبي و إلغاء اتفاقية أديس أبابا[1].

نعرف أن كل بنية اجتماعية تحمل في داخلها بذور تدميرها أو تحولها. أنتج النظام الاستعماري قوى اجتماعية وسياسية في السّودان طردت الإدارة الاستعمارية. أدت سياسات الإقصاء السياسي، والتهميش الاقتصادي، والتمييز الاجتماعي ضد غير العرب وغير المسلمين في السّودان المستقل إلى ظهور قوى في أطراف السّودان أدت إلى تقطيع أوصاله في عام 2011. الوضع الحالي في جنوب السّودان هو حالة نفي النفي. إن جمهورية جنوب السّودان مليئة بالتناقضات الاجتماعية والسياسية، والتي ستؤدي إما لتفتيت جنوب السّودان أو إصلاحه ليصبح بلدًا مستقرًا، ومسالمًا، ومزدهرًا. ومن المرجح أن يؤدى إستمرار الوضع إلى ظهور نمط جديد/ أو علاقات إنتاج غير متوافقة مع الظروف السائدة.

ليس هناك تطور ملموس في القوى المنتجة في جنوب السّودان . ظلت البلاد غارقة في التخلُّف الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي، على الرغم من الموارد الطبيعية الهائلة التي لم تستثمر بعد بسبب الحرب الأهلية. يجدر بالذكر أن شكوك شمال السّودان في النوايا الإنفصالية لجنوب السّودان كان السبب الرئيسي وراء ابتعادهم عن تمويل المشاريع التي أظهرت دراسات الجدوى أنها ذات نفع اقتصادي، وشمل ذلك مشروع الاستوائية، سكر منقلا، مشاريع ملكال، مصائد الأسماك، وصناعات تعليب الفاكهة. الغريب أن هذا

(1) وقف المجلس التنفيذي الأعلى ومجلس الشعب الإقليمي بحزم ضد قرارات النميري لبناء مصفاة النفط في كوستي، وتغيير حدود الإقليم الجنوبي من أجل جعل موقع حقول النفط داخل إقليم كردفان.

المنطق المعوج أدى للانفصال لأن إنجاز هذه المشاريع كان سيشكل بداية مختلفة للثقة، خصوصاً وأن افتقار جنوب السّودان للتنمية كان الدافع الرئيس للحركات الانفصالية في جنوب السّودان. وبعد خمسة وخمسين عامًا من استقلال السّودان، ولدت جمهورية جنوب السّودان من رحم نصف قرن من الصراعات والحروب، فُقدت فيه الأرواح والموارد. لكن للأسف، فإن فشل دولة جنوب السّودان الحديثة في الانتقال إلى دولة وقومية يشبه في واقع الحال انهيار دولة سودان ما بعد الاستعمار.

ما أعقب تاريخ 1 يونيو 1983 يشكل موضوع هذا الخطاب: الازدواجية الاجتماعية والسياسية في الفكر والعمل السياسي لجنوب السّودان. هذه الازدواجية هي نتاج انعدام التزام حقيقي بأي مسار، سواء نحو البلد، أو الشعب، أو الأرض؛ بجانب الميل لإعلاء المكاسب الشخصية في التدافع على السلطة والثروة. انخرط السياسيون الجنوبيون في هذه اللعبة السياسية مع المؤسسة السياسية الشَمالية منذ خمسينيات القرن الماضي، عندما عززوا وحدة السّودان من أجل شراء مصالح سياسية شخصية عبر الترويج لقضية جنوب السّودان التي لم يلتزموا بها حقًا[1]. وكان أن أجادوا اللعب، بلا خجل أو ذنب، على التناقض بين طرفي الهوية الجنوبية الأفريقية، والثقافة السّودانية التي تدعي أنها إسلامية وعربية.

في أقل من عشر سنوات (1972-1981)، انقسمت النخبة السياسية للحكومة الإقليمية إلى جماعات قوة معادية لا تستند إلى

(1) عينّ نميري وزيرًا للإعلام والثقافة في جنوب السّودان من أجل دعم وحدة البلاد وتعزيز الثقافة العربية، في الوقت الذي كان الإقليم الجنوبي يعمل بجد ليُبرز هويته الأفريقية.

الأيديولوجية بل على الشخصيات، وبالتالي على طول الخط الإثني والمناطقي. لقد كانوا غافلين تمامًا عن الخطر الكامن وراء سياساتهم الخلافية، ولم يتمكنوا من إدراك تلاعب النميري بخلافاتهم. اعتبر السياسيون الجنوبيون المتطرفون أن أبيل ألير زعيماً ضعيفاً لن يعبر عن إحباط الجنوب من إهمال النميري للتنمية الاجتماعية والاقتصادية للجنوب. بدأ النضال، الذي تركز على عزل أبيل ألير من منصب رئيس المجلس التنفيذي الأعلى، مع انتخابات عام 1978 التي أعادت الجنرال جوزيف لاقو إلى منصب رئيس المجلس التنفيذي الأعلى، فيما أطلق عليه شعبياً «رياح التغيير». وقد دفع هذا على الفور إلى تدخل نميري المباشر في العملية الديمقراطية في الإقليم الجنوبي، بالتزامن مع اكتشاف شركة شيفرون لرواسب بترولية ضخمة في غرب أعالي النيل. لا يمكن أن يكون هذا خطأ فادحًا في التقدير، فقد أدى اكتشاف ودولارات البترول إلى تحويل تركيز الجنوبيين عن التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

مثّل النميري ونظامه المصالح الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية لكيان الشَمال الذي يفرض ضمنياً إبقاء الجنوب معتمداً كلياً على الشَمال ومنع إنفصاله. ومن المؤكد أن اكتشاف النفط في الجنوب حفز أفكارًا للتنمية الاجتماعية والاقتصادية، وبالتالي كان مناقضًا لهذه القاعدة الضمنية. وجاءت فكرة النميري بإختيار مدينة كوستي موقعًا لمصفاة النفط، وفقًا لما تمليه المصالح الاقتصادية لشركة شيفرون، متناسبًا وأهداف كيان الشَمال. ومع ذلك، فقد أدى ذلك إلى خلافات داخل الإقليم الجنوبي: تحدت الحكومة الإقليمية ومجلس الشعب الإقليمي خطة نقل مصفاة النفط

المقترحة من بانتيو إلى كوستي، وانتهى الأمر إلى مواجهة سياسية مع نميري والحكومة المركزية. قام النميري، في إستراتيجية ذكية، بتحويل هذه المواجهة السياسية من خلال تقسيم المعارضة الجنوبية، واستغلال الصراع على السلطة في الإقليم الجنوبي بين الإستوائيين بقيادة الجنرال جوزيف لاقو، والدينكا بقيادة أبيل ألير.

بحلول نهاية عام 1980، كان الجنرال جوزيف لاقو قد نجح في إفساد «رياح التغيير» داخل الاتحاد الاشتراكي السّوداني التي أوصلته إلى رئاسة المجلس التنفيذي الأعلى. كان لاقو قد جاء من خارج السياسة الواقعية العملية لإقليم جنوب السّودان. وأدت محاولاته ضم أعضاء من معسكر أبيل ألير إلى حدوث أزمة سياسية، وانتهى الأمر بعزله بتهم ملفقة. أعيد انتخاب أبيل ألير رئيساً للسلطة الإقليمية على أساس إثني، ورفضت الكتلة الاستوائية التصويت لصالح الدينكا. شكّلت محاكمة لاقو وإعادة انتخاب أبيل ألير نقطة تحول في العلاقات الاجتماعية والسياسية في الإقليم الجنوبي، وخدم هذا أهداف واستراتيجيات النميري السياسية لتطوير واستغلال حقول النفط في غرب ولاية أعالي النيل، والتي أعاد تسميتها ولاية الوحدة للتأكيد على رسالته القوية ضد النزعات الانفصالية الجنوبية.

كان للصراع الضاري على السلطة بين السياسيين الجنوبيين إنعكاس على الاستقرار السياسي والأمن القومي في السّودان، وبالتالي، كان يمكن للنميري التدخل المباشر في الإقليم الجنوبي من خلال مرسوم دستوري. وهكذا، عندما امتد الصراع على السلطة إلى قضية مصفاة النفط، اتحدت الحكومة الإقليمية ومجلس الشعب الإقليمي وتضامنت ضد نقل المصفاة من بانتيو. استغل الرئيس

نميري الانقسامات السياسية التي أحدثها انتخاب أبيل ألير رئيساً للجنة العليا وأصدر مرسومًا بحل الحكومة الإقليمية، وتشكيل إدارة عسكرية مؤقتة لتجهيز المنطقة لانتخابات مبكرة. تصعُب الممارسة الديمقراطية في بيئة شموليّة تمزقها الحساسيات الإثنية والإقليمية، بل وتفتقد المباشرة لأن القضايا ليست محددة بوضوح. كانت عناصر الإنفصال السلبي بين الجنوبيين حاضرة: التنافس على السلطة الشخصية المتجذرة في الإثنية والريفية، ووجود ديكتاتور انتقل إلى المعسكر الإمبريالي في سياق التنافس الأيديولوجي وسباق القوى العظمى في القرن الأفريقي.

وسط هذا الوضع المعقد، ظهر معسكرين متعارضين في الإقليم الجنوبي للتنافس على انتخابات مجلس الشعب الإقليمي في أوائل عام 1982. الأول هو مجلس وحدة جنوب السّودان (CUSS)، الذي يضم جميع نخب الجبهة الجنوبية بقيادة أبيل ألير؛ والثاني هو معسكر إعادة التقسيم، الذي يضم اللجنة الإستوائية المركزية (ECC)، وأعضاء سانو، وأفرادًا غير منظمين. نتج عن تحالف المعسكر الثاني إعادة انتخاب المهندس جوزيف جيمس طمبرا رئيساً للمجلس. لكن هذا التحالف انطلق من خداع السياسي وإزدواج المعايير تمثّل في تعيين ضول أشويل أليو نائبًا للسيّد طُمبرا. لم توافق قيادة حزب سانو، في شخصية صموئيل بول أرو، على تفكيك الإقليم الجنوبي، ويبدو أن ضول أشويل وماثيو أوبور أيانق صوتوا للسيد طُمبرا مقابل الحصول على مناصب شخصية، وليس بسبب مصالح أيديولوجية طويلة الأجل تربطهم بالتحالف. بدأت الانقسامات داخل التحالف عندما أصرت لجنة تنسيق

الطـوارئ، مـن خـلال الجـنرال جوزيـف لاقـو، عـلى تنفيـذ إعـادة تقسـيم أجنـدة الإقليـم الجنوبيـة، وأدى ذلـك إلى اعتقـال واحتجـاز قـادة مجلـس وحـدة جنـوب السّـودان، والسـيد ماثيـو أوبـور أيانـق، رئيـس مجلـس الشـعب الإقليمـي، ونائبـه ضـول أشـويل اليـو. أسـهمت الخطـوة في خلـق ارتبـاك تـام بـين السياسـيين وتعقيـد الوضـع. لم يمتلـك الرئيـس نمـيري زمـام المبـادرة السياسـية فحسـب، بـل كان المحـرك الرئيـسي للدُمـى السياسـية، وسـحب كل الخيـوط التـي ربطـت فصائـل الجنوبيـين وربطهـا بهدفـه السـياسي الاسـتراتيجي للبقـاء في السـلطة.

أعمـت المصالـح الذاتيـة الضيقـة وطموحاتهـا في السـلطة، النخبـة السياسـية الجنوبيـة - سـواء كانـت مـن الدينـكا أو الاسـتوائية أو النويـر أو الإثنيـات الصغـرى - عـن حيـل نمـيري السياسـية لتدمـير الحكـم الـذاتي الإقليمـي الـذي تحقـق بشـق الأنفـس. لـو أنهـم وقفـوا بحـزم وركـزوا عـلى قضيـة التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة لإقليـم الجنـوب، لكانـت احتـمالات تراجـع نمـيري عـن إجهـاض الإتفاقيـة مقابـل دعـم الإقليـم الجنـوبي لـه ضـد منتقديـه في الشَـمال وارداً. وعـلى الرغـم مـن تحالفـه الجديـد مـع د. حسـن الـترابي مـن الجبهـة الإسـلامية القوميـة، كان بإمـكان النخبـة السياسـية الجنوبيـة تذكـير الرئيـس نمـيري بخطـاب الأب سـاتورنينو الشـهير أمـام البرلمـان عـام 1958، لمنـع الإنقسـام وحسـم جـدل «إعـادة تقسـيم» أو «وحـدة» الإقليـم، وتركيـز النقـاش عـلى التخلُّـف الاجتماعـي والاقتصـادي في الإقليـم الجنـوبي.[1]

(1) «ليس للجنوب نية للانفصال عن الشـمال. أما لو أراد ذلك، فليس من شيء على وجه الأرض يمكـن أن يمنـع المطالبـة بالانفصـال. وهـو حـق يمنـح للشـعب الحـرّ في تقريـر مصيره. سـينفصل الجنـوب في أي لحظـة عـن الشـمال، عندمـا يقرر الشـمال ذلك، بشـكل مباشر أو غـير مباشر، من خـلال القهـر الاجتماعـي، والاقتصـادي، والسـياسي للجنـوب». مـن وقائـع البرلمـان، مـارس 1958.

يُظهر الوضع الاجتماعي والسياسي في إقليم جنوب السّودان، عشية قرار النميري إلغاء الأساس الدستوري للحكم الذاتي الإقليمي، الافتقار التام للقيّم المشتركة بين النخبة السياسية الجنوبية. لقد رفعوا سيوفهم ضد بعضهم البعض بلا خجل، ولم يكن سوى نميري هو وسيطهم في كل ما يربطهم بالجنوبيين. نسوا بسرعة قضيتهم المشتركة وحرب السبعة عشر عامًا التي خاضها الشعب لتحقيق الحكم الذاتي. في غضبهم تجاه بعضهم البعض تغاضوا عن الخطر الذي يمثله نميري والمؤسسة العربية على وجودهم كشعب، وكانوا مستعدين للتقهقر في مناطقهم في بحر الغزال، والاستوائية، وأعالي النيل. جاءت أقوى أصوات المقاطعات في الغالب من الاستوائية، التي تحركت بشدة من أجل «كوكرا» (تُرجمت بشكل فضفاض إلى «اللامركزية» أو «الفيدرالية»). ومضى سياسيّ شديد الحماس من أعالي النيل إلى أقصى حدّ للمطالبة بـ «منطقة أعالي النيل بدون دينكا بور».

من المحتمل أن تكون الأحداث التي أدت إلى تمرد الجيش في بور قد عجلت بإلغاء نميري لاتفاقية أديس أبابا، لكن يمكننا افتراض أن نميري هو من خطط هذه الأحداث من خلال اللواء الصادق البنا، قائد الفرقة الجنوبية للقوات المسلحة السّودانيّة، واختلاس الأموال لتهيئة ظروف تفكيك الإقليم الجنوبي. يثير هذا الشك في الادعاء الوارد في بيان الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان (1983) بوجود منظمة سرية لضباط أنيانيا السابقين وخطط تمرد كمقدمة لعصيان مسلح ضد شمال السّودان الذي يهيمن عليه العرب. حقق النميري هدف تقسيم الإقليم الجنوبي، وإن كان بتكلفة

باهظة. كان قادرًا على سحق التمردات في بور، وفشلا، وأيود، لكنه لم يتوقع قيام الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان كقوة هائلة. وما أن عطلت حركة «أنيانيا تو» أنشطة شيفرون في حقول النفط في فبراير 1984 حتى انتقل السياسيون في الحكومة الإقليمية البائدة من أعضاء الاتحاد الاشتراكي إلى الخرطوم لإعادة تفعيل نفس الألعاب السياسية منذ الستينيات، حيث يلعب كل منهم ضد الآخر.

ساهمت حرب الجنوب في سقوط نظام مايو في 6 أبريل 1985 فيما بدا وكأنه إعادة لإسقاط نظام عبود العسكري عام 1964 بكل أبعاده الاجتماعية والسياسية. فقد أدى التمرد في الجنوب، والانتفاضة الشعبية في الخرطوم، والمدن الشَمالية الأخرى إلى استسلام الدكتاتورية العسكرية. من الضروري ملاحظة الدور المتغير للنخبة السياسية الجنوبية في بداية عودة نشاط الأحزاب السياسية في النظام السياسي الديمقراطي الليبرالي الجديد بعد سقوط نظام مايو. كانت النخبة السياسية الجنوبية على استعداد لإعادة نفس الدور الذي كانت تلعبه في عام 1965، رغم الطابع المتغير للتمرد الجنوبي. تفوق هؤلاء السياسيون الجنوبيون على أنفسهم داخل جماعاتهم السياسية البائسة في التنافس لكسب تأييد مختلف عناصر كيان الشَمال. ومع ذلك، في عرض نادر للنزاهة والمبدأ، انسحب المؤتمر السّودانيّ الأفريقي من حكومة الصادق المهدي احتجاجًا على حرق قرى في أعالي النيل وقتل الجنوبيين في الضعيّن جنوب دارفور. استمرت الأحزاب السياسية الأخرى في الحكم غير متأثرة بالجرائم البشعة التي ارتكبتها القوات الحكومية في دوائرها

الانتخابيـة، وتظاهـر بعضهـم لاحقًـا بأنهـم كانـوا أعضـاء سريـين في الحركـة، يقدمـون المعلومـات إلى المقـر العـام للجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان أثنـاء خدمتهـم في حكومتـي الصـادق المهـدي وعمـر البشـير.

شـهدت حقبـة مـا بعـد النمـيري تطـورات سياسـية مثـيرة للاهتـمام. اصطفـت النخبـة السياسـية في الجنـوب عـلى جانبي الانقسـام السـياسي لأول مـرة، وإن كان ذلـك بشـكل مـزدوج، مـن أجـل وحـدة السّـودان. لم يـثر أي حـزب سـياسي، سـواء في الحكومـة الائتلافيـة الصـادق المهـدي (1986-1989) أو في المعارضـة «مشـكلة الجنـوب»، كـما كان يُطلـق عليهـا في عهـد الجمهوريـة الثانيـة. فقـد تحطّمـت مظاهـر الوحـدة بـين السياسـيين الذيـن كانـوا جـزءًا مـن إنشـاء الحكـم الإقليمـي الـذاتي في الجنـوب بشـكل لا يمكـن إصلاحـه، وظلـوا مرتابـين مـن بعضهـم البعـض. الأمـر الـذي خـدم كيـان الشَـمال، وسـاعد الصـادق المهـدي في المماطلـة في قيـام المؤتمـر الدسـتوري المتفـق عليـه في كـوكادام، حتـى نفّـذت الجبهـة القوميـة الإسـلامية انقلابًـا أطـاح بحكومتـه في 30 يونيـو 1989[1]. الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، عـلى الرغـم مـما جـاء في أدبياتهـا أنهـا حركـة تحريـر وطنـي، جـاء أغلـب تكوينهـا وقيادتهـا مـن جنـوب السّـودان. ومـع ذلـك، فقـد دعـت إلى سـودان جديـد اشـتراكي موحـد يقـوم عـلى الحريـة، والعدالـة، والأخـوة، والديمقراطيـة. مـا يعكـس أن الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، مثلهـا مثـل الأحـزاب السياسـية الأخـرى المتمركـزة في الجنـوب، قـد تنازلـت عـن إنفصـال الجنـوب لصالـح وحـدة السّـودان.

(1) عقـدت الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان والقـوى الاجتماعيـة والسياسـية للانتفاضـة الشـعبية التـي أطاحـت بالنمـيري مؤتمـرا لمناقشـة مسـتقبل البـلاد في مـارس 1986 في كـوكا دام، إثيوبيـا. كان مـن بـين القـرارات عقـد مؤتمـر دسـتوري.

وهـذا يتطلـب مناقشـة في ضـوء التحـول مـن مفهـوم ورؤيـة السّـودان الجديـد إلى تقريـر المصـير وانفصـال جنـوب السّـودان المنصـوص عليهما في اتفاقيـة السـلام الشـامل 2005.

عنـد مناقشـة مواقـف وسـلوكيات النخبـة السياسـية الجنوبيـة في الظـروف السياسـية المختلفـة سـواء في السّـودان أو بعـد الاسـتقلال في عـام 2011، نجـد أنفسـنا في مواجهـة سـؤال ملـح عـمّا إذا كانـت لقيادة الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، التـي كانـت في الغالـب جنوبيـة، وأغلبهـا مـن الدينـكا، رغبـة حقيقيـة في وحـدة السّـودان؟ إن كانـت الإجابـة نعـم، فمتـى ولمـاذا تغيرت إلى أقـصى درجـات مطالبـة سـكان الجنـوب بممارسـة حقهـم غـير القابـل للتفـاوض في تقريـر المصـير؟ هـل أدى انهيـار حكومـة الديـرغ في إثيوبيـا وإعـلان النـاصر لهـذا التغيـير المفصـلي؟[1] كيـف يعقـل أن تدعـم الأحـزاب السياسـية، التـي شـكلت ميليشـيات قبليـة لدعـم حـرب الخرطـوم ضـد الجيـش الشـعبي ممارسـة حـق تقريـر المصـير، لدرجـة أن بلـغ التصويـت عـلى اسـتفتاء تقريـر المصـير 98.7 في المائـة لصالـح الانفصـال؟ وهـل توقـع أحـد أن يصـوت عضويـة حـزب المؤتمـر الوطنـي والأحـزاب الأخـرى المتمركـزة في شـمال السّـودان لصالـح وحـدة السّـودان؟ كيـف نفـسر الحـرب الأهليـة الجديـدة التـي تمـزق جنـوب السّـودان وشـعبه، في وقـت كان ينبغـي أن توجـه الجهـود نحـو تعزيـز حريـة واسـتقلال الأمـة الجديـدة؟ وكيـف يعقـل بعـد حربـا دامـت سـتة عقـود أن يعتمـد جنـوب السّـودان عـلى المنظـمات الإنسـانية الدوليـة ويصبـح

(1) في معظـم خطاباتـه المسـجلة، يقـول جـون قرنـق بفخـر أن رصاصتـه الأولى كانـت ضـد مـن أرادوا أن تقاتـل الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان مـن أجـل انفصـال جنـوب السّـودان.

مستعمرة اقتصادية لكل من أوغندا وكينيا؟ هذا تناقض خطير، نشأ من موقف الازدواجية الاجتماعية - السياسية وهي قول شيء يدّعي خدمة مصالح أوسع، و القيام بشيء آخر مختلف ينبع من مصلحة ضيقة وشخصية.

كانت الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان بمثابة بناء سياسي أنجزه الجيل الثاني والثالث من النخبة السياسية في الجنوب، والذين هم أنفسهم نتاج ثقافة الازدواجية الاجتماعية والسياسية التي ميزت السياسة الجنوبية طوال العقود الثلاثة من فترة ما بعد الاستقلال في السّودان. تعلم العديد من هؤلاء السياسة ومارسوها أداةً للبقاء والمنفعة الشخصية والاجتماعية. وهي تستند على حقيقة أن التذاكي والخداع يمكن أن تكونا استراتيجيات بقاء مفيدة في حالات اختلال القوة. عندما تنتظم السياسة وممارستها على أساس معايير تستبعد أو تميّز المواطنين الآخرين سيلجأ الناس إلى ممارسات تشوه واقعهم. قد تكون هذه الممارسات فعالة على المستوى الشخصي أو بغرض تحقيق أهداف محدودة للغاية؛ غير أن لتحويلها إلى عمليات هندسية اجتماعية وسياسية أوسع، وتبنيها داخل حركة التحرر الوطني، عواقب وخيمة.

إستغرب كثير من الشماليين، وخاصة ممن ينتمون إلى اليسار السياسي، ظهور الحركة الشَّعبيّة وتبنيها شعار الاشتراكية في سودان موحّد. كان قرار بعضنا، من أعضاء الحزب الشيوعي السّودانيّ، بالانضمام إلى صفوف الحركة، مسألة نضال أيديولوجي ذاتيّ جاد داخل الحزب. حرص الحزب الشيوعي السّوداني، في أدبياته السرية والعلنية، على تشجيع أعضاءه والقوى الديمقراطية الأخرى لدعم

الحركة. ومع ذلك كانت الخطوة مدفوعة فقط بنية التحالف ضد عدو مشترك. أما إحتمال قيام ثورة في جنوب السّودان فقد كان بعيد المنال، خصوصاً وإنه من أكثر الأجزاء تخلفاً في السّودان، حيث لم يتم حشد أي طبقة عاملة صناعية لبناء الاشتراكية، ولم يكن بوسع قيادة الحزب الشيوعي، حتى نظرياً، تصور قدرة الفلاحون والرُعاة على تعبئة وتنظيم أنفسهم سياسيًا لبدء الثورة، رغم أن الثورات الصينية، والكوبية، والفيتنامية كانت كلها ثورات فلاحين.

ومع ذلك، يمكن القول أن انضمامنا إلى صفوف الحركة كان خطأ: لم تكن «الحركة» ثورة، وتحولت إلى أن تكون تعبيرًا آخر عن الازدواجية الاجتماعية والسياسية للنخبة السياسية الجنوبية. تعاملت هذه النخبة مع مواطني الشمال بنفس الخداع والغطرسة السياسية الذي مارسته نخبة الشمال ضدهم. كان شعار السّودان الاشتراكي المُوحّد حيلة سياسية، وفشلت قيادة الحركة في تحويل الشعار إلى واقع اجتماعي وسياسي في شكل برنامج. وهذا ما يفسر انهيار التجمع الوطني الديمقراطي الذي عبّر في جوهره عن هذه الوحدة، وإلا كيف يمكن للحركة أن تبني الوحدة والاشتراكية دون مشاركة متساوية لقوى اجتماعية وسياسية من أجزاء أخرى من السّودان؟ كانت عناصر البرجوازية الصغيرة في كل من جنوب السّودان وشماله متساوية في لعبة الغطرسة السياسية.

القيادة السياسية هي نتاج سياق اجتماعي، اقتصادي، وسياسي بينما تظهر القيادة الثورية في سياق الوضع الثوري. لكن قد يظهر بعض القادة المشبعين بالفكر الثوري قبل أن ينضج الوضع الثوري، وبالتالي يتصرفون بطريقة تؤدي إلى إجهاض أو تخريب الثورة. وفي

معظم الحالات يطغى الواقع الموضوعي على الثورة، ويغمر هؤلاء القادة ويجبرهم على التخلي عن الثورة على غرار «إن فشلت في إلحاق الهزيمة بهم أو كسبهم إنضم لهم». إن تصاعد القومية الإثنيّة للدينكا في سياق حرب التحرير الوطني بقيادة الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان لا يمكن أن تجد تفسيرًا إلا في هذا الوضع الثوري المجهض في جنوب السّودان. ومن خلال تجنب الوعي السياسي والأيديولوجي، شجعت قيادة الحركة، عن قصد أو لا، على ظهور أيديولوجيات إثنيّة أعاقت تطور الثَّوْرَة.

تمثّل أيديولوجيات الهيمنة والسيطرة الإثنيّة نفيًا حقيقيًا للتحرر والتحرير الاجتماعي وتعبيرًا عن الازدواجية الاجتماعية والسياسية للنخبة. عندما بدأ بعض عناصر بحر الغزال في ترديد شعار الدينكا «Awich ku aich ku» (نعرف ما نريد) في الأيام الأخيرة من حرب التحرير الوطني، كانت هذه إشارة واضحة أن الخيانة قد حدثت. وأقصد هنا خيانة التحرير، لأن المقولة تشير إلى أن الدينكا فقط - من بين جميع الإثنيات الـ 64 المشاركة في عملية التحرير - يعرفون ما كانت وآلت إليه الأمور. نتج عن ذلك تشكيل مجلس حكماء بحر الغزال (BGE)، تمهيدًا لمجلس حكماء جينق (JCE) لدعم قيادة سلفا كير لإقليم جنوب السّودان، فور اعتلاءه المنصب بعد وفاة الدكتور جون قرنق دي مابيور في يوليو 2005. أدى هذا إلى تحويل سياسة الحركة لمشاجرة جشعة على السلطة والثروة، بلغت ذروتها في اندلاع أعمال العنف في ديسمبر 2013.

النُخبة، والازدواجية الاجتماعية والسياسة، وتحديات الانتقال

يعيش جنوب السّودان حربًا أهلية حطمت آماله في الانتقال من الحرب إلى السلام. إذا كان هناك عامل واحد ساهم بشكل كبير في فشل الانتقال من الحرب إلى السلام وإقامة الدولة وتشكل القومية، فهي النخبة السياسية وموقفها تجاه السلطة والثروة و تضم النخبة السياسية قادة حرب التحرير الوطني الذين تجمعوا في جوبا بعد إبرام اتفاق السلام الشامل. إن الجشع الذي يتم التعبير عنه في صيغة «أنا وعشيرتي/إثنيتي أو لا شيء»، ووضعه فوق الأجندة الوطنية، يؤكد سلوك بعض هؤلاء القادة ممن أشعلوا فتيل الحرب الأهلية الحالية.

هذا الموقف هو نتاج حراكين مرتبطين بحرب التحرير الوطني: إعلان الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان في غابات الجنوب؛ و الإنقاذ، وأقصد به نتائج ثورة الإنقاذ لعام 1989، في الخرطوم ومدن الجنوب المُحصّنة. ففي سياق هاتين العمليتين، تطور الولاء العقائدي والطاعة الآنية للسلطة، وتجلت في الولاء للإنسان لا للمنطق، ولشهوة الثروة والسلطة، والفساد السياسي والأخلاقي. تجمّعت هذه الآثام وصارت ثقافة عامة جردت النخبة السياسية، والعسكرية، والتجارية من غرائزها القومية ووطنيتهم، وأدت إلى تدمير القيم الأساسية المجتمعية المتمثلة في النزاهة واحترام الممتلكات العامة.

كان الهدف السياسي الاستراتيجي لحرب التحرير الوطني، بصرف النظر عن الاستقلال والسيادة، هو تطوير قوى الإنتاج الوطنية وتحريرها من جميع أشكال السيطرة والهيمنة الأجنبية. يتطلب إنجاز هذه المهمة قيادة سياسية، وطنية، متحررة من الإرث الاستعماري والعبودية الإثنيّة / القبلية، وهي خصائص لا تتطور من تلقاء نفسها، بل تُغرس ضمن عملية تعلم وممارسة. وهنا يكمن فشل الحركة في بناء ثقافة تحرّر تضع الجماهير في مركز عمليات الهندسة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية و هذا هو سبب عدم قدرة جنوب السّودان على تجاوز ثنائية الحرب والسلام.

أنهت حرب الأرض المحروقة أي أمل لدى سكان الجنوب من نظام الإنقاذ. فقد عمل القادة السياسيون الجنوبيون بعد خروجهم من مؤسسات الإنقاذ وانضمامهم إلى الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان على ضمان فشلها. كما لم تبني الحركة جدران حماية ثورية أو أخلاقية قوية لحماية أنظمتها من فيروسات الإنقاذ. تداخل هذان النظامان وتَمفصلا في البنية الأكثر فسادًا في تاريخ إقليم جنوب السّودان؛ وهي بنية تتجاهل أو تتغاضى عن المزايا، والمؤهلات والخبرة لصالح الولاء السياسي والأيديولوجية الإثنيّة. ونتج عن ذلك أن انضم جيل من القادة الشباب الأمين، والفاسدين، والمتعطشين للسلطة إلى المسرح السياسي، وأرسلوا إلى مزبلة التاريخ القادة الأكثر خبرة ممن أنتجهم السّودان في ميادين السياسة والخدمة العامة.

ليس في يد النخبة السياسية التي برزت على سُدَّةُ السلطة في جمهورية جنوب السّودان سيطرة على وسائل الإنتاج، وتنبع

قوتهـم مـن السـيطرة عـلى الدولـة ومؤسسـاتها. تديـر هـذه النخبـة اقتصـادًا قائمًـا عـلى الاسـتهلاك بـدلاً مـن الإنتـاج، و يعتمد بشـكل كامل عـلى عائـدات النفـط. تنبـع قـوة وتأثـير هـذه الطبقـة مـن علاقتهـا الطفيليـة بجهـاز الدولـة؛ وزراء، وبرلمانيـون، ومقاولـون، ومتربّحـون، ووسـطاء تجاريّـون، ووظائـف وسـيطة أخـرى. مكّنـت السـيطرة عـلى الدولـة ومواردهـا هـذه الطبقـة الطفيليـة مـن إعـادة إنتـاج نفسـها في أجـزاء مختلفـة مـن جنـوب السّـودان وهـي نخبـة مفلسـة أيديولوجيّـاً، لـذا ليـس بمقدورهـا وضـع تصـور ينقـذ البـلاد مـن حالـة التخلُّـف الاجتماعـي، والاقتصـادي، والثقـافي.

يبـدو أن قسـمًا كبـيرًا مـن هـذه النخبـة السياسـية عـلى درجـة عاليـة مـن التعليـم. يحمـل العديـد منهـم درجـات أكاديميـة في الاقتصـاد، والقانـون، والحوكمـة، والطـبّ، والهندسـة، والفنـون؛ لكنهـم مـع ذلـك متخلفـون وبدائيـون في فكرهـم السـياسي. وأغلبهـم، لا سـيما مـن ينحـدرون مـن المجتمعـات الرعويـة، بالـكاد تحـرروا مـن الحيـاة القبليـة ومـا يلازمهـا مـن ضيـق الأفـق والشـوفينية. يظهـر هـذا بوضوح في الطريقـة التـي أداروا بهـا الدولـة الوليـدة كـما لـو كانـت نظامًـا قرويًـا، تتأسـس بشـكل كامـل عـلى العلاقـات الاجتماعيـة ويعتمـد التعيـين في مؤسسـات الدولـة عـلى العشـيرة، أو المجموعـة الإثنيـة، أو المقاطعـة، بطريقـة تتغـاضى عـن الجـدارة التعليميـة، والمؤهـلات و/أو الخـبرة، والاجتهـاد. وجـد أفـراد يقتـصر أفقهـم الفكـري عـلى قريتهـم أنفسـهم يتعاملـون مـع الملفـات الوطنيـة، والإقليميـة، والدوليـة في أروقـة سـلطة الدولـة وأصبـح بعـض مـن عـادوا إلى ديارهـم مـن الديسـابورا في الولايـات المتحـدة، وكنـدا، وأسـتراليا، وأوروبـا - حيـث

عملـوا في نظافـة الشـوارع، ونـوادل، وحمّالـين، وعـمّال في محطـات الوقـود - وزراء في حكومـة جنـوب السّـودان وحكومـات الولايـات بعـد فـترة وجيـزة مـن اتفاقيـة سـلام 2005.

عـاد كثـيرون مـن الديسـابورا وهـم يحملـون شـهادات أكاديميـة مـزورة، لكـن ذلـك لم يمنـع أبنـاء قبائلهـم مـن تعيينهـم في مناصـب عليـا في الخدمـة المدنيـة، وأسـهموا في إفسـاد المعايـير البيروقراطيـة المتدهـورة بالفعـل. أسـاس الدولـة هـو بيروقراطيـة تتألف مـن موظفين متعلمـين تعليـماً عاليـاً ومدربـين وفعالـين يتـم تعيينهـم عـلى أسـاس الاجتهـاد والجـدارة و يمثّـل البيروقراطيـون الذاكـرة المؤسسـية للـوزارات والإدارات الحكوميـة. لـذا فـأي تدخـل سـياسي في عمـل البيروقراطيـة يؤثـر عـلى الموظفـين، ويجعلهـا غـير مهنيـة، وغـير فعالـة، وعاجـزة بحيـث يتعطـل تنفيـذ السياسـات الحكوميـة ويتوقـف النظـام. يُتخـذ القـرار البيروقراطـي مـن أسـفل إلى أعـلى مـن قبـل أفـراد مدربـين عـلى اتخـاذ القـرارات ويـؤدي غيـاب التدريـب أو فـرض موظفين غـير الأكفاء إلى تعطيـل وخلـل النظـام. وهـذا مـا حـدث عندمـا تشـكلت حكومـة جنـوب السّـودان في عـام 2005، التـي جـاء معظـم وزرائهـا، لا سـيما في الجيـش والمجتمـع المـدني مـن شـخصيات بـلا سـابق خـبرة في الحوكمـة.

لقـد أهمـل نظـام الإنقـاذ البيروقراطيـة في الولايـات الجنوبيـة وقوّضهـا. كان مجلـس جنـوب السّـودان، الـذي تـم تشـكيله بعـد اتفاق الخرطـوم، نسـخة هزليـة مـن الحكومـة الإقليميـة البائـدة. بـدأت حكومـة جنـوب السّـودان فعليًـا مـن الصفـر بـلا نقطـة مرجعيـة، في وقـت لم تجتهـد الحركـة الشَّـعبيّة لتحريـر السّـودان في وضـع نظـام جديـد، وهـو مـا يفـسر افتقـار حكومـة جنـوب السّـودان لسياسـة

عمليـة في أي مجـال، رغـم تفاخـر نشـطاء الحركـة الشَّـعبيّة لتحريـر السّـودان بوجـود مـا يطلقـون عليـه «الإطـار الاسـتراتيجي للانتقـال مـن الحـرب إلى السـلام»، وهـي وثيقـة اجتماعيـة واقتصاديـة طُرحـت عـلى عجـل بعـد حفـل توقيـع اتفاقيـة السـلام الشـامل في 9 يناير 2005. لم تواجـه الحركـة صعوبـة في وضـع الأفـكار والبرنامـج. كانـت الصعوبـة الحقيقيـة هـي عـدم وجـود مؤسسـات بيروقراطيـة وأجهـزة تنفيـذ السياسـات. ومنبـع هـذا الفشـل مرجعـه للرفـض المسـتمر لأيّ تنظيـم و بنـاء مؤسـسي داخـل حركـة التحريـر.

يتكـرر نفـس تقاعـس السـلطة التنفيذيـة في الـذراع التشريعـي للحكومـة؛ المجلـس التشريعـي لجنـوب السّـودان، المكلـف بوظائـف الإشراف والرقابـة. ومـن الجديـر بالذكـر أن الصوابيّـة السياسـية والقبلية أصابـت البرلمـان بالشـلل، وحالـت دون قيامـه بعملـه. وأصبـح مـن الطبيعـي أن تتغـاضى بعـض لجـان البرلمـان المتخصصـة عـن إخفاقـات المسـؤولين مـن أفـراد قبيلتهـم، وعـدم محاسـبتهم عـلى أفعالهـم وتقاعسـهم في الفـرع التنفيـذي للحكومـة. أدت هـذه السياسـات إلى تشـكيل توجهـات إثنيّـة داخـل المجلـس، وحـدث انقسـام في مركـز السـلطة السياسـية والاقتصاديـة، بتحريـك مـن القوميـة الإثنيّـة الدينـكا، يعـبر عنهـا مجلـس كِبـار أعيـان الدينـكا، الـذي نـأي بنفسـه وصـار المتحكـم في ميـزان القـوى حـول الرئيـس سـلفا كـير مياردِيـت. جلـب هـذا السـلوك نفـس الازدواجيـة الاجتماعيـة - السياسـية لمفهـوم «الحـكام والمحكومـين» الذي سـيطر عـلى النظام السـياسي السّـودانيّ إلى سـياق جنـوب السّـودان الناشـئ، يتـولى فيـه الدينـكا دور كيان الشَـمال فيـما يتعلـق بموقفهـم مـن الإثنيـات الـ63 الأخـرى في جنوب السّـودان.

تزامن ظهور مجلس كِبار أعيان الدينكا مع التحول السياسي للرئيس سلفا كير من زعيم وطني إلى زعيم إثنيّ، مما وضع سلطته كرئيس للحركة، وجمهورية جنوب السّودان تحت أهواء مجلس الدينكا. صار الرئيس سلفا كير يتغاضى عن هياكل الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان ومؤسسات جنوب السّودان، ويعتمد في إدارة البلاد على مراسيم رئاسية وجهاز الأمن والاستخبارات القومي، الذي جاء تصميمه على غرار جهاز المخابرات والأمن الوطني التابع لحزب المؤتمر الوطني. أدى هذا إلى تهميش، بل إخصاء، الأجهزة السياسية، والتنفيذية، والتشريعية التي وضعها دستور جنوب السّودان الانتقالي (2011). كان صعود مجلس كِبار أعيان الدينكا في أروقة السلطة بمثابة استيلاء إثنيّ على الدولة، مع نية مُعلنة لبناء دولة قوميّة الدينكا في جنوب السّودان[1]. وكما ذكرنا في مكان آخر من هذا الكتاب، كان تشكيل المجلس أسمى تعبير عن القومية الإثنيّة للدينكا، حيث أدى تدشينه إلى ظهور نظام شمولي كليبتوقراطي يمثل المصالح الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية للطبقة الرأسمالية الطفيلية التي تسيطر الآن على الدولة الوليدة[2].

أقامت هذه الطبقة الرأسمالية الطفيلية تحالفًا وثيقًا مع الرأسمالية الكومبرادورية الإقليمية (شرق إفريقيا) والدولية، بهدف استخراج ونهب الموارد الطبيعية لجنوب السّودان. وفي هذا الصدد،

(1) قام بعض قادة مجلس أعيان الدينكا، دون خجل أو إحساس بالذنب، بمقارنة هيمنة الدينكا السياسية والاقتصادية في جنوب السّودان بهيمنة نخبة كوكيو في الحياة الاقتصادية والسياسية في كينيا.

(2) The Sentry Report, 2015.

قـد نفهـم بشـكل أفضـل سـبب زجّ الرئيـس كـير بجنـوب السّـودان في مجموعـات اقتصاديـة إقليميـة متعـددة الأطـراف مثـل مجموعـة شرق أفريقيـا (EAC)؛ ومنظـمات أمنيـة مثـل المؤتمـر الـدولي لمنطقـة البحـيرات الكُـبرى. كان طلـب جنـوب السّـودان وقبولـه في عضويـة مجموعـة شرق أفريقيـا بمثابـة خطـوة لحمايـة المصالـح الاقتصاديـة للطبقـة الرأسـمالية الطفيليـة، وضـمان بقـاء النظـام عـبر الإنتـماء لهـذه الهيئـات الإقليميـة. سـبق وتقـدم جنـوب السّـودان بطلـب للانضـمام إلى جامعـة الـدول العربيـة مـن أجـل الاسـتفادة مـن مواردهـا العسـكرية، وبسـبب علاقتـه المتناميـة مـع مـصر، حيـث يقـع المقـر الرئيـسي للجامعـة العربيـة، وهـي خطـوة مُخجلـة خصوصـاً مـع مراعـاة أن السّـودانيّون الجنوبيـون كافحـوا لعقـود مـن أجـل الانفصـال عـن السّـودان، ليـس فقـط لأن كيـان الشَـمال صبـغ السّـودان بالإسـلام والثقافـة العربيـة، ولكـن أيضًـا لأنهـم رأو في القوميـة السّـودانيّة خطوة أولى في دمـج جنـوب السّـودان الأفريقـي في الأمـة العربيـة.

تزامـن انضـمام جمهوريـة جنـوب السّـودان إلى المؤتمـر الـدولي لمنطقـة البحـيرات الكُـبرى مـع أعظـم أزمـة اجتماعيـة، واقتصاديـة، وسياسـية تمـر بهـا البـلاد. وافـق النظـام الحاكـم عـلى بروتوكـول ميثـاق عـدم الاعتـداء والدفـاع المتبـادل الصـادر عـن المؤتمـر الـدولي لمنطقـة البحـيرات الكُـبرى، المـادة ((106، كجـزء مـن اسـتراتيجيته للبقـاء. حيـث تعمـل أداة لتمكـين النظـام مـن تلقـي الدعـم السـياسي، والأمنـي، والعسـكري مـن الإقليـم والإدارة الأمريكيـة، تحـت غُطـاء إحلال السـلام والأمـن في جنـوب السّـودان. وكانـت أهـم توقعـات النظـام الحاكـم من هـذا الدعـم الإقليمـي هـو أن يعلـن المؤتمـر جميـع المجموعـات التـي

تعارض سلفا كير ونظامه «قوى سلبية». كما يسمح البروتوكول للرئيس موسيفيني بالاحتفاظ بجنود قوات الدفاع الشعبية الأوغندية (UPDF) في الاستوائية تحت ستار مكافحة الإرهاب العالمي، بينما هدف تواجدهم هو قطع ونهب أشجار التيك والماهوجني في ياي، ومريدي، و يامبيو، بالإضافة إلى صيد الفيلة ووحيد القرن.

لا تسمح المرحلة الحالية من التنمية الاجتماعية والاقتصادية في جنوب السّودان بالانخراط في التجارة والتبادل التجاري مع دول مجتمع شرق إفريقيا بشروط عادلة ومتساوية، لأننا نفتقر القدرة على التصنيع، بينما زراعتنا على مستوى الكفاف في أحسن الأحوال. يجعل الوضع الحالي جنوب السّودان مستعمرة اقتصادية لدول مجموعة دول شرق إفريقيا، ولا سيما كينيا وأوغندا، اللتان تتخلصان من منتجاتها الزراعية في سوق جنوب السّودان. وهذا هو سبب إبقاء النظام على سريّة المعلومات حتى تفاجأ الناس بجنوب السّودان عضواً في مجموعة شرق إفريقيا. كانت الصدمة الأولى في هذه العملية الصامتة هي استبعاد أعضاء برلمان شرق إفريقيا الذي عينهم الرئيس كير في عام 2017.

أطلق محامٍ من جنوب السّودان صافرة الإنذار، ما أدى لقيام برلمان جنوب السّودان بانتخاب تسعة أشخاص بطريقة إجرائية لتمثيل جنوب السّودان في برلمان شرق أفريقيا. جاء قبول جمهورية جنوب السّودان في مجموعة شرق أفريقيا سريعًا، حتى قبل أن تتمكن من تحقيق الشروط أو تكون مستعدة للتنافس على قدم المساواة مع الدول الأعضاء، وهو عمل ينم عن سوء نية سياسية

مـن جانـب بعـض القـادة الإقليميـين. فقـد خـدم الإنضـمام في تسريـع غسـل الأمـوال المسروقـة مـن قبـل الطبقـة الرأسـمالية الطفيليـة ونقلها نقـدًا لإيداعهـا في بنـوك دول شرق إفريقيـا.

أدى قـرار نخبـة جنـوب السّـودان القـاضي بانضـمام البـلاد إلى مجموعـة دول شرق إفريقيـا، في هـذه المرحلـة المبكـرة مـن التطـور الاجتماعـي، والاقتصـادي، والسـياسي، لجنـوب السّـودان، إلى تحويـل الدولـة الفتيـة إلى مكـبّ نفايـات المنتجـات الزراعيـة والصناعيـة الرخيصـة المُنتجـة في شرق إفريقيـا. تقـوم أوغنـدا وكينيـا منـذ عـام 2005 بتزويـد أسـواق المـواد الغذائيـة في جوبـا، ومـدن جنوب السّـودان الرئيسـية الأخـرى، بسـبب عـدم بـذل حكومـة جنـوب السّـودان جهـدًا كافيًـا لتوفـير وسـائل النقـل لمناطـق إنتـاج الأغذيـة الفائضـة في مريدي، ويامبيـو، ويـاي. ظلـت الطـرق المؤديـة إلى هـذه المناطـق في حالـة يـرثى لهـا، وجعـل اسـتيراد السـلع الغذائيـة، بمـا في ذلـك الخُـضر والأسـماك، مـن أوغنـدا وكينيـا، أرخـص. لم تـولي النخبـة السياسـية أي اهتـمام بتطويـر القـوى الإنتاجيـة الوطنيـة، وفضّلـت جعـل شـعب جنـوب السّـودان، وهـو أساسًـا شـعب مزارعـين و رعـاة، يعتمـد في بقائـه عـلى مزارعـي أوغنـدا وكينيـا.

يتضـح التبايـن بـين جمهوريـة جنـوب السّـودان ودول الإقليـم الأخـرى في مسـائل التجـارة والتبـادل التجـاري في تهريـب العمـلات الأجنبيـة، ولا سـيما الـدولار الأمريـكي، مـن جنـوب السّـودان إلى دول مجموعـة شرق إفريقيـا في أوغنـدا وكينيـا. يدفـع جنـوب السّـودان بعملـة قابلـة للتحويـل بـدلاً مـن جنيـه جنـوب السّـودان مقابـل السـلع المنتجـة والمُباعـة بعمـلات دول شرق إفريقيـا، لا لـشيء إلا

لأنـه لا يُصـدّر شيء بالمقابـل. وهـذا يعنـي أن مـا يـتراوح بـين 5-4 مليـار دولار أمريـكي، الدخـل السـنويّ لجنـوب السّـودان مـن النفـط، لم يكـن ذو تأثـير إلا عـلى اقتصـادات أوغنـدا، وكينيـا، وإثيوبيـا. يفضـح هـذا الطبيعـة الجاهلـة، والفاسـدة، وغـير الوطنيـة للنخبـة السياسـية في جنـوب السّـودان. لقـد أصبـح مـن الواضـح أن المخـاوف الأنانيـة وحمايـة الـثروة المخزنـة في بنـوك وعقـارات كينيـا وأوغنـدا كانـت الدافـع الرئيـسي للانضـمام إلى مجموعـة شرق أفريقيـا.

يتطلـب التحـول الاجتماعـي والاقتصـادي لمجتمـع مُفقـر متعـدد الإثنيـات مثـل جنـوب السّـودان أكـثر مـن مجـرد مـوارد طبيعيـة. إنـه يتطلـب قـادة ملمـين ليـس فقـط بنظريـة التحـول الاجتماعـي، ولكـن أيضًـا قادريـن عـلى دمـج هـذه النظريـة بممارسـتهم في سـياق الهندسـة الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية للبلـد. هـذا يعيـد إلى الأذهـان مـا قالـه موماليمـو جوليـوس نيريـري ذات مـرة:

درس المتعلمـون عـلى حسـاب شـعبنا. يشـبه اي منهـم شـابًّا في قريـة جائعـة يعطيـه النـاس آخـر مـا يملكـون حتـى يجلـب للقريـة مـوارد إضافيـة مـن قريـة بعيـدة. وسـيكون خائـن إذا فشـل في إحضـار الطعـام للنـاس[1].

خانـت النخبـة السياسـية في جنـوب السّـودان شـعبها بسـبب إخفاقهـا في تحقيـق التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة، وتكديسـها الأمـوال في أراضٍ أجنبيـة. أظهـرت النخبـة السياسـية في خيانتهـا لشـعبها بطـرق متعـددة، مـما يثـير تسـاؤلات حـول سـبب دفـع هـذه النخبـة

(1) Quoted from We Must Run While They Walk: A Portrait of Africa's Julius Nyerere by William E. Smith (New York: Random House, 1976).

للشعب في الصفوف الأولى للنضال الطويل من أجل الإستقلال. لم يكن استقلال جنوب السّودان من قبيل الصدفة التاريخية، لكنه سيكون خطأ تاريخيًا لا يغتفر إذا ظلت دولة جنوب السّودان ميتة بسبب إخفاقات أبنائها وبناتها. ترتبط هذه الإخفاقات بما وصفته سابقًا بالازدواجية الاجتماعية والسياسية التي أظهرتها النخبة السياسية المهيمنة في الهندسة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية لدولة جنوب السّودان الوليدة. إنها تنبع من السياسة المزدوجة المستخدمة لتخليص أنفسهم من حالة عدم توازن القوة في السّودان، وإدعاء الهوية السّودانيّة أمام الشَماليين، بينما يتبنون مشاعر انفصالية قوية في حضور الجنوبيين.

يتجلى هذا الافتقار إلى الشجاعة والنزاهة، في أن يكون الفرد على حقيقته، في ذرائع مثل السعي وراء أجندة وطنية لجنوب السّودان بينما يروجون عمليًا لأجندة هيمنة إثنيّة ضيقة الأفق، كما في حالة مجلس كِبار أعيان الدينكا. علاوة على ذلك، وفي إطار إيديولوجيا الدينكا الإثنيّة التي يتبعها أعضاء المجلس، يحدث أن تنحدر هذه الإيديولوجيا إلى دعم النزاعات والصراعات العشائرية. يشمل ذلك حالة مقاطعات آقوك وأفوك من دينكا ريك في قوقريال عاصمة ولاية واراب، وعشائر لوش وباوينج من دينكا فدانق في ولاية جونقلي. يكشف تحليل موقف وسلوك النخبة أن الدافع الأساسي ليس الإثنيّة أو التضامن مع ابناء القبيلة، بل الطموح الشخصي للسلطة والثروة. على سبيل المثال، لم تدفع المذبحة الإثنيّة ضد النوير في جوبا بين 19-16 ديسمبر 2013، والتي ارتكبها جيش خاص من الدينكا، إلى إيقاظ ضمير الجنرال جيمس هوث ماي،

وينحـدر مـن قبيلـة النويـر، والـذي كان آنـذاك رئيـس أركان الجيـش! فقـد كان منشـغلاً بحمايـة سـلطته وامتيـازه بينـما فُتحـت أبـواب الجحيـم وبـدأت رحلـة جنـوب السّـودان مـن هشاشـة الدولـة إلى فشـلها وانهيارهـا.

ونظـرًا لعـدم وجـود شـخص يعلـن الانهيـار، ضغطـت النخبـة المهيمنـة والحاكمـة في اتجـاه اسـتمرار إنتـاج النفـط، للإبقاء عـلى دوران عجـلات الحـرب؛ حـرب عبثيـة جعلـت جنـوب السّـودان جرحًا نسـيجه الصدمـة، والوحشـية، والإرهـاب، والفقـر، والاغـتراب، وسـوء التغذيـة - كل هـذا تحـت أنظـار أعضـاء بعثـة الأمـم المتحـدة في جنـوب السّـودان (UNMISS)، والمفوضيـة المشـتركة للرصـد والتقييـم (JMEC)، وآليـة مراقبـة وقـف إطلاق النـار والترتيبـات الأمنية الانتقاليـة (CTSAMM)، مـن بـين أجسـام أخـرى. ومثـل حـرس قديـم لا يبـالي في منجـم سـطحي مهجـور، بـاشرت هـذه المنظـمات مهامهـا بإصـدار تقاريـر تحمّـل جميـع الأطـراف مسـئولية انتهـاك اتفاقيـة وقـف الأعـمال العدائيـة التـي توسـطت فيهـا إيقـاد. انعـدام الأمـل كان واضحًـا للعيـان، حتـى أن مستشـار رئـاسي للشـؤون العسـكرية طلـب مـن شـعبه نسـيان أمـر جوبـا لأنـه «لا توجـد حكومـة في جنـوب السّـودان». بينـما يسـتمر الرئيـس في تعيـين وإعفـاء المسـؤولين، والمشـاركة في جـولات عقيمـة لإعـادة توحيـد فصائـل الحركـة الشَّـعبيّة لتحريـر السّـودان المتناحـرة بـدلاً مـن اسـتعادة السـلام في البـلاد.

أؤمـن بمـا لا يـدع مجـالاً للشـك، أن الفشـل في بنـاء الدولـة بـدأ قبـل فـترة طويلـة مـن تـولي الرئيـس كـير منصـب الرئاسـة، عـلى الرغـم مـن أن قيادتـه أدت إلى تفاقـم تشـوّه التحـرر الوطنـي عـبر الازدواجيـة

الاجتماعية والسياسية، كما نوقش أعلاه. يتمثل الخطر الأكبر الذي يواجه شعب جنوب السّودان في صعود القومية الإثنيّة بين أكبر قوميتين: الدينكا والنوير. إنّ تشكيل مجلس أعيان الدينكا، ويمثل المصالح الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية للدينكا، وميله الواضح للهيمنة، أثار استجابة موازية وسط النوير. لجأ النوير إلى أسطورة نبوءة نقوندينق التي روج لها الدكتور رياك مشار ومثقفو النوير المتعطشون للسلطة. ومعروف أن الدينكا والنوير هما أكبر وثاني أكبر إثنيّتين في جنوب السّودان، وكلاهما لم يعرف فكرة الزعيم الواحد وتقاليد الدولة في بنيتهما التقليدي. وتشكل المنافسة بين نخب المجموعتين، القائمة على الغطرسة الإثنيّة، عقبة أمام ظهور برجوازية وطنية قادرة على توحيد البلاد. والسبب بسيط، وهو أنها نخبة تتكون من أشخاص جهلة ومفلسين سياسياً، لا يفقهون كيف تُدار سياسة واقتصاد الدولة الحديثة. اعتناقهم للأيديولوجيّات الإثنيّة هو جزء من مفهوم بناء الدولة في جنوب السّودان على أسس ثقافة وأبويّة الدينكا، ما يدفعهم إلى السعي وراء مصالح ضيقة، وشخصية، وإثنيّة، ومحليّة على حساب أهداف وطنية أوسع. إنهم يفضلون الأجندة الإثنية على الوطنية، وبذلك أصبحت الأجندة الوطنية والإثنيّة في تضاد يؤدي إلى إرباك العديد من الأشخاص، ولا سيما الأجانب والجنوب سودانيون المنحدرين من مجتمعات ذات تقاليد قوية في ما يخص مفهوم الدولة التقليدية. من الملاحظ أن العديد من قادة مجلس أعيان الدينكا يجمعون بين المناصب التنفيذية الرسمية في الحكومة وقيادة عشائرهم / مجتمعاتهم، مما يشير إلى أن وجودهم التنفيذي بهدف تمثيل مجتمعاتهم. وهذا ما يفسر تمثيل الدينكا بشكل كبير في كل

حكومة شهدتها جنوب السّودان منذ العام 2005.

لم يخف الرئيس كير ميوله الشوفينية الدينكاوية منذ توليه قيادة جنوب السّودان، ولا عزمه التمكين السياسي والاقتصادي لدينكا بحر الغزال، وخاصة المنحدرين من واراب وأويل. شمل التمكين السياسي تعيين أشخاص من واراب في منصب محافظ البنك المركزي، ورئيس القضاة، ومفتش عام الشرطة، ومدير عام جهاز المخابرات الوطني، ومدير عام دائرة الهجرة، ومدير ومسؤولي مكتب الرئيس. على الصعيد الاقتصادي، قام بتمكينهم من خلال منح انتقائي لعقود الحكومة الكبيرة في مجال الإنشاءات، ولا عجب أن تصدر أقرباؤه وشركاؤه في العمل، قوائم الاحتيالات المالية التي كُشفت حتى الآن[1].

في عام 2009، وفي محاولة للتوفيق بين عشيرتي لواش وباوينج المتناحرتين، منح الرئيس كير هذه العشائر أراضٍ تابعة للشلك، وتسبب في اندلاع حرب أهلية في مملكة شلو[2]. وفي محاولة يائسة لإفشال اتفاقية تسوية النزاع في جنوب السّودان، التي توسطت فيها إيقاد، أصدر كير قرار رئاسي رقم 36/2015، قسّم وفقا له جنوب السّودان إلى 28 ولاية. حصل الدينكا بمقتضاها على 14 ولاية. بدت الخطوة وكأنها محاولة لتمكين الشعب من خلال

(1) Sentry Reports 2015, 2016 and 2017.

(2) كان هذا تحريفًا للعدالة بهدف شراء الولاء السياسي. في عام 1980، قررت لجنة عينها رئيس اللجنة التنفيذية العليا أن المطالبات بالأرض التي قدمها جون جيجانج أوول ومايكل مي اكول، الرئيسان الأعلى والتنفيذي لمجتمع أطار، لا أساس لها من الصحة. بعد زيارة ومسح حدود منطقتي كودوك وفنجاك ، خلصت اللجنة إلى أنه: «لم تعبر أي نقطة على طول حدود كودوك / فنجاك كلا من نهر النيل ونهر السوباط في النقطة المرجعية، مما يشير إلى أن ادعاء ممثلي أطار ليس له أساس من الصحة.

أيلولة السلطة إليهم، بينما هي في الحقيقة تركّز السلطة في يد الرئيس في العاصمة جوبا. على الرغم من أن الهدف كان شراء ولاء الدينكا، إلا أن هذا المخدر الفعال استحوذ على خيال الجماهير الفقيرة، وعزز عن غير قصد غطرسة الدينكا الإثنيّة وافتتانهم بالسلطة. ناهيك عن أنّ تقسيم الولايات الجديدة لم يوفر أي فرصة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية، وستستفيد منه النخبة السياسية المحلية فقط عبر التعيينات في حكومات الولايات.

كان القرار الخاص بزيادة عدد الولايات غير حكيم، وقاد إلى نشوب نزاع بين القبائل وزيادة التوترات حول الحدود، لا سيما في واراب. أما في أعالي النيل، فقد تسبب القرار الذي فرضه الرئيس كير بمنح أرض الشلك – كامل الأراضي على امتداد الضفة الشرقية لنهر النيل، من تونجا في الجنوب إلى ملوط في الشَمال – لدينكا فدانق. لم يأت هذا القرار استجابة لنداء مفاجئ من سكان فدانق في شكل استيطان استعماري في اراضي الشلك، بل خُطة طويلة الأمد تهدف لسيطرة نخبة مجلس كِبار أعيان الدينكا على الأرض من أجل الزراعة التجارية الآلية وتربية الماشية. وهناك روايات غير مؤكدة أن بعض أعضاء المجلس أخذوا مبالغ طائلة من بعض المضاربين في دول الخليج لاستئجار أراضٍ في أعالي النيل[1].

ناقشتُ في دراسة نُشرت مؤخرًا (أمير إدريس، 2018) الدور الذي لعبته النخبة السياسية في فشل انتقال جنوب السّودان إلى

(1) حدث وضع مماثل في عام 2007، عندما ادعى شخص أمريكي أن فاولينو ماتيب باعه جزءًا كبيرًا من ولاية الوحدة؛ وادعى مواطن أمريكي آخر أنه دفع مالاً للرئيس المحلي في وندوربا بولاية وسط الاستوائية مقابل استئجار مساحة كبيرة من الأراضي، تضم عديد من القرى. لم تُحل هذه الحالات إلى الآن.

دولـة قوميـة. أحـد هـذه الأسـباب، والـذي يؤكـد تخلـف النخبـة، هـو تجريدهـا مـن ثرواتهـا:

أقامـت نخبـة البـلاد نظامًـا كليبتوقراطيًـا يسـيطر عـلى جميـع قطاعـات الاقتصـاد، وأهـدرتْ فرصـة تاريخيـة لتطويـر دولـة فعّالـة. تلعـب هـذه الشـبكات الاقتصاديـة المفترسـة دورًا رئيسـاً في الحـرب الأهليـة الدائـرة، لأن جـزءًا كبـيرًا مـن الـصراع مدفـوع مـن قبـل نُخـب تحـاول إعـادة التفـاوض عـلى حصتهـا في ميـزان القـوة السياسـية والاقتصاديـة باسـتخدام العنـف[1].

يلخـص هـذا التقريـر كل شيء. وهـو بمثابـة لائحـة اتهـام لقـادة وكـوادر الحركـة. لم يكـن التزامهـم بالتحريـر وراء التحاقهـم بصفـوف الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، بـل البحـث عـن الـثروة. يتعـارض هـذا السـلوك مـع صورتهـم كمتطوعـين في حـرب التحريـر الوطنـي. ويثبـت أن الطبقـة الحاكمـة في جنـوب السّـودان هـي مجموعـة جاهلـة، ومتخلفـة، وغـير وطنيـة.

مـع تأسـيس حكومـة جنـوب السّـودان قبـل الإنفصـال، لم يكـن لـدى قـادة الحركـة الشَّـعبيّة لتحريـر السّـودان أي فكـرة عـن اسـتخدام عائـدات النفـط التـي تُقـدّر بمليـارات الـدولارات. توجـد دراسـات جـدوى قديمـة ترجـع لمشروعـات التنميـة منـذ عهـد الحكومـة الإقليميـة البائـدة، كان مـن الممكـن أن تشـكل نقطـة بدايـة التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة في جنـوب السّـودان. شـملت هـذه الدراسـات

(1) «الفسـاد والـصراع في جنـوب السّـودان»، تقريـر نشرتـه سـنتري في يوليـو 2015، وهـي مبـادرة مـن مـشروع Enough Project مـع شركائهـا الداعمـين، مركـز دراسـات الدفـاع المتقدمـة.

مشـاريع أسـمنت بورتلانـدي في كبويتـا، وتوليـد الطاقـة الكهرومائيـة في نمـولي، ومجمـع صناعـي زراعـي في منقـلا، ومصنـع قصـب السـكر في ملـوط، وتعليـب الفاكهـة في واو، وزراعـة الكنـاف في تونـج، ومـشروع الشـاي في تالانقـا، والمجمـع الصناعـي الزراعـي في أنـزارا. هـذه دراسـات جـدوى لمشـاريع تتطلـب التمويـل فقـط، ولـن تكلـف النخبـة الحاكمـة الكثـير مـن الجهـد لبـدء تنفيذهـا. ومـن المفارقـة أن جمهوريـة جنـوب السّـودان تُخطـط الآن لاسـتيراد الكهربـاء مـن أوغنـدا وإثيوبيـا، بينـما كان بإمـكان المبالـغ المنهوبـة والمخبـأة في أوغنـدا بنـاء مـشروع للطاقـة الكهرومائيـة.

اجتـذب جهـل، وجشـع، وافتقـار هـذه النخبـة للـروح الوطنيـة، إلى جنـوب السّـودان جميـع أنـواع المجرمـين الدوليـين، بمـن فيهـم خـبراء مؤسسـات بريتـون وودز. بحلـول أوائـل عـام 2013، بـدأت جنـوب السّـودان تظهـر علامـات الإفـلاس. ارتكبـت النخبـة الحاكمـة أخطـاء فادحـة عـلى مـدى ثمـاني سـنوات مثـل فشـل التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة، وشـن حـرب حدوديـة عـلى السّـودان. غـذّت هـذه الأخطـاء صراع القـوى داخـل الفصائـل الناشـئة. وسرعـان مـا أغرقـوا جنـوب السّـودان في حـرب أهليـة مدمـرة، وعطّلـوا الانتقـال مـن حالـة الهشاشـة إلى الدولـة والأمـة. لا يوجـد فـرق أيديولوجـي كبـير بـين هـذه الفصائـل المتصارعـة - فصيـل الحكومـة بقيـادة الرئيـس كـير وفصيـل المعارضـة بقيـادة الدكتـور ريـاك مشـار - لإحـداث حـرب أهليـة باسـتثناء الغـرور المتضخـم والطمـع في السـلطة.

أنتجـت ظـروف اختـلال السـلطة بـين جنـوب السّـودان وشـماله مواقـف وسـلوكيات اجتماعيـة تسـببت في نشـوب حـروب أهليـة.

أمضى الجنوبيون ستة عقود في محاربة تجليات هذه العلاقات غير المتكافئة، واستمر في ذلك حتى انفصلوا عن بقية البلاد. بدلاً من تحرير أنفسهم والمضطهدين، أعادوا إنتاج الاختلال مرةٍ أُخرى. يشبه الوضع الحالي للنخبة السياسية في جنوب السّودان، سواء في الحكومة أو المعارضة، ما كتبه كلّ من فرانز فانون في «بشرة سوداء وأقنعة بيضاء» وباولو فيراري في «تعليم المقهورين»، عن كيف يتسبب السلوك والموقف من الاضطهاد، والحرمان، والتمييز إلى اجترار التجربة. إنّ دافع النخبة الحاكمة للسيطرة على الآخرين، ومعاملة الآخرين مثل البيادق، وتجميع الثروة بأي وسيلة متاحة، هو انعكاس لحاجة داخلية للتعويض عمّا فاتها، ليس بالضرورة في الواقع المادي فقط، بل قد يكون جزءا لا يتجزأ من العقل الباطن.

خلقت الحرب الأهلية الحالية، والطريقة العنيفة المتسارعة التي نفذها بها أبطالها، كراهية لا يمكن تصورها بين الناس. يعتقد البعض أن دولة جنوب السّودان لن تستطيع الوقوف على قدميها موحّدة. تساهم عدة عوامل في ظهور هذا الميل. العامل الأكثر إيلامًا هو البعد الإثنيّ، والطريقة التي تصاعدت بها إلى حرب الجميع ضد الجميع، ما جعلها أكثر تعقيدًا وصعوبة في الحل، حتى بعد عزل جوانبها السياسية على نحو ما حددت محادثات السلام الحالية بوساطة الإيقاد. هذا بسبب أن أغلب تكوين الجيش وقوات الأمن من قبيلة الدينكا، ما يجعلها حرب الدينكا ضد بقية الإثنيات. هذا بفضل رئاسة كير لجنوب السّودان والدعم السياسي والعسكري الذي يتلقاه من الرئيس الأوغندي

يـوري موسـيفيني. أدى هـذا إلى شـدّ انتبـاه الجميـع إلى أعـين مـارد الغضـب والمـرارة، والـذي متـى مـا لم يجـد نصيبـه مـن المراقبـة، سـيجعل إنهـاء الحـرب مسـتحيلاً.

الوضـع الإنسـاني المتدهـور، والتعنّـت، وعـدم العنايـة بالشـعب الـذي أظهـره الرئيـس كـير، والجهـل والأميـة السياسـية، وعـدم نيـة أعضـاء مجلـس كبـار أعيـان الدينـكا التوقـف عـن الرحلـة بـلا رجعـة لتأسـيس دولـة الدينـكا في جنـوب السّـودان، جميعهـا أسـباباً قويـة مـن المرجـح أن تديـم الـصراع بعـد أي اتفـاق سـلام يتـم التوصـل إليـه. أدت الحـرب إلى نـزوح، وتشريـد، وتعطيـل سـبل عيـش النـاس. صـاروا غـير قادريـن عـلى حراثـة الأرض لإنتـاج طعامهـم، ويعتمـدون الآن بشـكل كامـل عـلى المسـاعدات الإنسـانية الدوليـة. لـن يحـدث أي فـرق دون تغيـير في الفكـر السـياسي للنخبـة. وبمـا أن نخـب الحكومـة والمعارضـة منغمسـة في الـصراع عـلى السـلطة، فهـذا يعنـي أن أي خلافـات، خاصـة خـلال الانتخابـات بعـد أي فـترة انتقاليـة، سـتؤدي بالتأكيـد إلى إشـعال العنـف. ولهـذا السـبب، ينبغـي أن تكـون أولويـة مبعـوث إيقـاد الخـاص إلى جنـوب السّـودان إحـداث نقلـة نوعيـة تمكـن هـذه النخـب مـن التفكـير خـارج الصنـدوق السـياسي، ومناقشـة مسـار التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة، وليـس السـلطة وتقاسـمها، لأن هـذا مـن شـأنه أن يغـير التناقضـات الأساسـية التـي تقـود الـصراع؛ أي الفقـر، والجهـل، والأميـة.

الضعـف السـياسي والعسـكري للمعارضة، ولا سـيما الحركـة/ الجيش الشـعبي لتحريـر السّـودان- في المعارضـة، هـو عامـل آخـر يديـم حالـة الـلا سـلام الراهنـة. إن تشـكيل وانتشـار مجموعـات معارضـة مسـلحة

وسياسية مختلفة ما كان ليحدث لو كان لدى الحركة - في المعارضة قراءة سياسية صحيحة للوضع. بحيث يتمكن قادتها من رسم أهداف واستراتيجيات سياسية واضحة لمحاربة سلفا كير ومجلس كِبار أعيان الدينكا. لقد أدى فشل رياك مشار في تحويل الحرب الأهلية إلى ثورة - ثورة وطنية ديمقراطية - إلى تشتت المعارضة واضعافها خارج البلاد وداخلها، بينما أدى سجنه في جنوب إفريقيا إلى إضعاف المعارضة لدرجة أصبح استمرار المعارضة السياسية في المنطقة غير وارد، خصوصاً مع حرص المنطقة استدامة الوضع الراهن في جنوب السّودان تحت قيادة الرئيس سلفا كير ميارديت.

وقد دفع هذا ببعض جماعات المعارضة، ولا سيما قادة الحركة الشعبية لتحرير السّودان المعروفين الآن باسم «المعتقلين السياسيين السابقين»، إلى اقتراح شكل من أشكال الإشراف على جنوب السّودان من قبل الأمم المتحدة أو الاتحاد الأفريقي. إن التنازل عن السيادة، الذي يشير إليه هذا الاقتراح، هو سمة من سمات فقر الجماعة السياسي والأيديولوجي. لقد تناسوا أن اقتراحهم هذا يتماشى مع الهراء الشهير لما يُطلق عليه «الحلول الأفريقية للمشاكل الأفريقية». فلا يمتلك الاتحاد الأفريقي حتى القدرة المادية لهذا الإشراف، في حين قد يتحول إشراف الأمم المتحدة إلى وضع دائم، على غرار مهمته في الكونغو التي امتدت حتى الآن إلى خمسة عقود. لا ينبغي التفكير في فكرة الإشراف: ستخلق وضعاً قد يؤدي إلى تفكك جنوب السّودان.

يقع حل الحرب والصراع على عاتق النخبة السياسية. إن الأزمة الاجتماعية والاقتصادية التي أدت إلى إفقار الجميع، بما في ذلك

مرتكبو الفساد ونهب موارد البلاد، إلى جانب عدم وجود مساحة ديمقراطية والسلوك الديكتاتوري للرئيس كير، أجبرت الكثيرين على إعادة النظر في موقفهم السياسي. فشل ما يسمى بـ «الحوار الوطني» في تحقيق النتائج المرجوة أو المتوقعة، وألقى لوم الحرب على الحكومة. إنها تخلق مناخًا سيجعل المصالحة والأساليب التقليدية الأخرى لحل النزاعات أكثر جاذبية من السلام الليبرالي الذي تسعى إليه إيقاد والمجتمع الدولي. قد يكون من الضروري التفكير في اللجوء إلى الطريقة التقليدية لحل النزاع، والتي تمت تجربتها بنجاح في معاهدة سلام ونليت بين الدينكا والنوير (1999)[1]، لتسوية النزاعفي جنوب السّودان. قد يكون هذا بديلًا أفضل لاتفاقية إيقاد لعام 2018، التي اقتصرت فقط على تقاسم السلطة والإصلاحات السطحية للنظام.

وبعيدًا عن إشعال شرارة ثورة وطنية ديمقراطية لبناء دولة وطنية ديمقراطية في جنوب السّودان، يجب أن تكون النخبة السياسية مبتكرة وتولد أفكارًا وبرنامجًا سياسيًا لإخراج جنوب السّودان من هذا العذاب الذاتي. سنناقش أدناه أنّ الثورة الديمقراطية الوطنية - تشمل جميع تشكيلات جنوب السّودان

(1) تحول الانقسام في الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان بعد إعلان الناصر (1991) إلى صراع إثني، صاحبته انتهاكات وتجاوزات جسيمة وواسعة لحقوق الإنسان في جميع أنحاء المناطق المحررة لصالح العدو المشترك. نتج عن مؤتمر السلام التقليدي الذي ترعاه الكنيسة في ونليت، بحر الغزال، وشارك فيه قطاعي الدينكا والنوير المتورطين في الصراع، ميثاق ونليت للسلام، وتأسيس عملية سلام بين الشعبين. تبع ذلك عمليات مماثلة في جميع أنحاء جنوب السّودان. أصبح السلام والمصالحة عاملاً محفزًا لإعادة توحيد الفصائل المتحاربة في الحركة، فضلاً عن مفاوضات السلام التابعة لإيقاد، والتي أسفرت عن اتفاق السلام الشامل لعام 2005 بين حكومة السّودان والحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان.

الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية - لديهـا القـدرة عـلى معالجـة ليـس فقـط قضايـا التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة، ولكـن أيضًـا التناقضـات المتأصلـة في تعدديـة الإثنيـات والقوميـات. الحـل الجماعـي لهـذه التناقضـات هـو الطريقـة الوحيـدة التـي يمكـن لجنوب السّـودان مـن خلالهـا الانتقـال مـن حالـة الانهيـار الحالية إلى السـلام، والاسـتقرار، وإقامـة دولـة قابلـة للحيـاة. ليـس هـذا مجـرد شرط ضروري لبنـاء أمـة تضـم تعدديـة إثنيّـة، ودينيـة، وثقافيـة، ولغويـة مثـل جنـوب السّـودان؛ هـو أيضًـا شرط الحريـة، والعدالـة، والأخـوة. مـا مـن شـأنه تمكـين «الوحـدة في التنـوع» وبنـاء ثقافـة وطنيـة.

حـان وقـت تحقيـق مـا قالـه أميلـكار كابـرال، في أن تنجـز النخبـة السياسـية، وهـي جـزء مـن البرجوازيـة الصغـيرة، انتحـارًا طبقيًـا لـكي تحيـا مـن جديـد تحـت سـتار الفلاحـين، والمثقفـين الثوريـين. وهـو مـا سـيمكن هـؤلاء السياسـيين مـن تخليـص أنفسـهم مـن ضيـق الأفـق الإثنـي، والازدواجيـة الاجتماعيـة والسياسـية، وخطـل الثنائيـات، التـي أغرقـت دولـة جنـوب السّـودان الناشـئة وشـعبها في الهاويـة.

الفصل الثاني

الثورة الزائفة

الثورة ليست مجرد اسم يُطلق على أي حدث . تُعرف الثورة من طبيعة قيادتها، سواء خرجوا من رحم المجتمع أو صُنعوا في أنبوب إختبار.

- ريجيس دوبريه[1]

تعيش جمهورية جنوب السّودان، أحدث دول العالم، حالة يرثى لها و يؤكد الهواجس التي أعرب عنها العديد من المنتقدين، سودانيون وغيرهم، بشأن قدرة الجنوبيين على حكم أنفسهم. إن قدرة الشعب على حكم نفسه هي دالة لعدة عوامل. يمكن للشعب نفسه بناء بعضها اجتماعيًا وسياسيًا. لم يحدث في تاريخنا المعاصر، قبل استقلال 2011، أن مارس الجنوبيون السلطة السيادية. وتأتي التنبؤات بعدم قدرة شعب جنوب السّودان على الحكم الذاتي من الواقع الاجتماعي والسياسي، الناجم تاريخيًا عن التهميش، والقمع، والاستغلال، والتمييز. تتجاهل هذه السردية الحقائق الاستعمارية لجنوب السّودان، والقمع السياسي الذي عاناه الجنوبيون في ظل السيطرة القمعية للشماليين. أنتج هذا في نفوسهم تعقيدات نفسية من عقدة دونية، وعنف، وكره الذات. وهي نفس الدوافع التي تطبع وتحرّك المواقف والسلوكيات السياسية في الوضع الراهن.

ظهرت القيادة الحالية من السياسيين في سياق النضال من أجل التحرر الوطني ضد قمع الدكتاتورية العروبيّة في السّودان. كان

(1) Quoted from Régis Debray, A Critique of Arms (Penguin, 1978).

معظم هؤلاء القادة نتاجً لحرب التحرير، بل كانوا بالفعل قادة في تلك الحرب. لم يكن لدى معظمهم خبرة سابقة في السياسة والحكومة. وبما أنهم ثمرة الحركة الشعبيّة / الجيش الشعبي لتحرير السّودان، فإنّ عدم الكفاءة، والجشع، والغرور، وانعدام الروح الوطنية التي اظهروها في إدارة جمهورية جنوب السّودان الفتية يجب أن تجد جذورها في تكوينهم الطبقي خلال عملية التحرير نفسها. لا توجد مقارنة بين قادة حقبة التحرير هؤلاء والقادة السياسيين والتكنوقراط الذين أداروا العشر سنوات من تجربة الحكم الذاتي في الإقليم الجنوبي (1983-1972)، سواء من حيث المساحة السياسية أو الموارد المالية والاقتصادية المتاحة لهم. عملت قيادة القادة الإقليم الجنوبي في بيئة سياسية واقتصادية صعبة، ومع ذلك حققوا بعض النجاح، وإن كان ذلك في ظل نظام سياسي شمولي طغى على دورهم في الفشل المنهجي. ولمعرفة سبب فشل قادة التحرير في تأسيس الدولة الفتية على قواعد صحيحة بهدف تشكيل الدولة وبناء الأمة، وتسببهم في الحرب الأهلية الحالية والاضطراب الاجتماعي والإنساني الرهيب، لا بدّ من مناقشة افتقار الحركة الشعبية / الجيش الشعبي لتحرير السّودان للأيديولوجيا السياسية أثناء حرب التحرير الوطني.

من الضروري في هذه المرحلة ذكر القليل عن تطور العمل السياسي المنظم في الجنوب. تاريخيًا، على الأقل بعد عام 1947، لم يكن هناك تقليد لعمل سياسي منظم يعبر عن تطلعات الشعب. كانت مقاومة الاستعمار والاحتلال الاستعماري مادية وعنيفة في طبيعتها وليست فكرية وسياسية. تطور النشاط السياسي في جنوب

السّودان وانتشرت تحت الوصاية السياسية والاقتصادية للمؤسسة السياسية الدينية والتقليدية في شمال السّودان. كان الحزب السياسي الوحيد الأصيل في جنوب السّودان في أعقاب انتخابات الجمعية التأسيسية لعام 1954 هو الحزب الليبرالي، ودعا إلى اتحاد فيدرالي مع شمال السّودان. وجاء قادته السياسيين المؤسسين من المحافظين اليمينيين أو الليبراليين الذين نظروا إلى السياسة من منظور السلطة الاستعمارية.

حدد مؤتمر جوبا (1947) مصير الجنوب ليكون جزءًا من السّودان، ما يشير إلى أن النخبة السياسية في الجنوب ستلعب منذ الآن دورًا في سياسات الجسم الوطني على قدم المساواة مع نظيرتها الشَمالية. لكن تسبب التعليم دون المستوى لأعضاء النخبة، وافتقارها إلى ثقافة سياسية، والضعف المالي في جعل العملية السياسية غير مستقرة مع عشية استقلال السّودان، وأدى في النهاية إلى تمرد الفيلق الجنوبي لقوات الدفاع السّودانيّة بتاريخ 18 أغسطس 1955. اندلاع العنف في جنوب السّودان، وما أعقبه من تداعيات، مهدت الطريق لما أصبح يعرف «المشكلة الجنوبية». طالب الجنوبيون باتحاد فيدرالي وتقرير المصير، وطرحوا جميع أنواع المطالب السياسية لمزيد من الحماية الدستورية.

تغير هذا الوضع في مايو 1969، عندما أطاح ضباط يساريون في القوات المسلحة السّودانيّة بالحكومة الليبرالية متعددة الأحزاب. أدى اعتراف نظام مايو بالتفاوت الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي بين جنوب السّودان وشماله، وبالتحديد في إعلان 9 يونيو، إلى خلق الظروف السياسية والأيديولوجية لظهور شخصيات تنتمي لليسار

وسط الجنوبيين المهمشين وأغلبهم من النشطاء السياسيين. وبدأت فكرة الحكم الذاتي الإقليمي، المطروحة لحل المشكلة الجنوبية، تلاقي القبول؛ وكان الأمل معقوداً على القيادة التقدمية لتسهم في إدارة الحكم الذاتي الإقليمي، وتنفيذ برنامج التنمية الاجتماعية والاقتصادية، ومعالجة التفاوت الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي بين شطري البلاد. كان هذا التطور السياسي قصير الأجل. حيث حدث تحول أيديولوجي داخل المعسكر الثوري السّودانيّ نحو اليمين، وتقهقر النظام إلى السياسات الليبرالية المحافظة.

دفع الانقلاب الرجعي المضاد، في يوليو 1971، الجنرال جعفر نميري للتخلي عن برنامج الثورة الديمقراطية الوطنية، بما في ذلك دعم الحكم الذاتي الإقليمي. وبدأ نميري في التفاوض على السلام مع حركة تحرير جنوب السّودان، القيادة السياسية لجيش حرية الأرض في أنيانيا، تحت رعاية مجلس الكنائس العالمي وحضور الإمبراطور الإثيوبي هيلا سيلاسي. أدت هذه المفاوضات إلى توقيع اتفاق أديس أبابا في 3 مارس 1972، الذي منح الحكم الذاتي الإقليمي للمقاطعات الجنوبية في بحر الغزال، والاستوائية، وأعالي النيل. جاءت اتفاقية أديس أبابا، المُدمجة في دستور جمهورية السّودان، نسخة مشوهة من الحكم الذاتي الإقليمي المنصوص عليه في إعلان 9 يونيو 1969.

أنهت اتفاقية أديس أبابا الحرب في جنوب السّودان، لكنها لم تحل الأزمة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية للنظام. أدى اندماج النظام في فلك النفوذ الإمبريالي وتطبيق سياسات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي إلى تأجيج الأزمة و تحول النظام إلى

ديكتاتورية استبدادية تحت قيادة رجل واحد يقمع الاضطرابات الاجتماعية والسياسية الناجمة عن سياساته الاقتصادية غير المدروسة. أدت دورات الأزمة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية في النهاية إلى زوال النظام في انتفاضة شعبية في أبريل 1985. لم يسلم الإقليم الجنوبي من هذه الأزمات، حيث أقامت النخبة السياسية نظامًا فرعيًا ديمقراطيًا شبه ليبراليًا، كان بمثابة مجموعة فرعية هامشية للنظام الشمولي. أثار الافتقار إلى التنمية الاجتماعية والاقتصادية في الأقاليم الجنوبية اضطرابات سياسية في المقاطعات، وبدأت الجماعات المسلحة في العمل ضد الحكومة[1]. أدى الصدام بين النظام الشمولي في وسط البلاد والنظام الديمقراطي شبه الليبرالي في الأقاليم الجنوبية إلى قيام النميري بإلغاء اتفاقية أديس أبابا وتفكيك الحكومة الإقليمية (يونيو 1983)، وفرض الشريعة الإسلامية (سبتمبر 1983) على جميع أقاليم السّودان.

كان إلغاء اتفاق أديس أبابا وتفكيك الإقليم الجنوبي خطوات إستراتيجية متجددة نحو أسلمة السّودان. جدير بالذكر أن الانقلاب اليساري في مايو 1969 كان قد أجهض مشروع الدستور الإسلامي، لذا جاء إلغاء اتفاق الحكم الذاتي ثمنًا توجب على نميري دفعه مقابل إدراج الجبهة الإسلامية الوطنية (NIF) في النظام[2]. كان الهدف من فرض قوانين الشريعة الإسلامية، وخاصة تطبيق ما

(1) قاومت بعض عناصر قوات أنيانيا التي تم استيعابها في القوات المسلحة السّودانية وتمردت على أوامر نقلها إلى شمال السّودان. حدث هذا في أويل (1975)، وأكوبو (1976)، وجوبا (1977). وانتهى بهم الأمر إلى تأسيس أنيانيا تو، للقتال من أجل تحرير كامل لجنوب السّودان.

(2) اتفقت الأحزاب السياسية اليمينية الشمالية (حزب الأمة، والحزب الاتحادي الديمقراطي وجبهة الميثاق الإسلامي) مع نميري في فبراير 1977 (اتفاقية بورتسودان) للانضمام إلى نظام مايو بشرط أن يلغي نميري اتفاقية أديس أبابا وتفكيك الحكم الإقليمي في الجنوب.

يسمى بـ «العدالة الناجزة»، هو قمع معارضة النظام وسط تنامي الاغتراب الشعبي حيث انجرف النظام أكثر إلى الفلك الإمبريالي.

أدت الاستثمارات الاقتصادية الأمريكية واكتشاف شركة شيفرون الأمريكية للنفط في مقاطعة غرب أعالي النيل، تغيرت لاحقًا إلى مقاطعة الوحدة، إلى بروز اسم السّودان في السياسة الخارجية الأمريكية. أثار اكتشاف النفط حماس النخبة الجنوبية، متوقعة أن يساهم في تنمية المنطقة. لكن قرار الرئيس نميري في عام 1980 ببناء موقع مصفاة النفط في كوستي بدلاً من بانتيو، بما يتناسب مع مصالح شيفرون الاقتصادية ومصالح الطبقة الرأسمالية الطفيلية في شمال السّودان، أثار اضطرابات سياسية في الإقليم الجنوبي. أقرّ مجلس الشعب الإقليمي اقتراحا ضد القرار، مما أثار استياء نميري. بدأت المجموعات المحلية المسلحة، أصبحت فيما بعد أنيانيا تو، تتشكل في المنطقة مُعارضة التنقيب عن النفط. ومع تدهور الوضع السياسي، شرع نميري في إستراتيجية اللامركزية الإدارية في السّودان كوسيلة لكسر السلطة السياسية لحكومة الإقليم الجنوبي. استغل نميري عزل مجلس الشعب الإقليمي للجنرال جوزيف لاقو في عام 1979، وعودة أبيل ألير إلى رئاسة المجلس التنفيذي الأعلى (HEC)، وقام بإعفاء أبيل ألير من منصب نائب رئيس الجمهورية وتعيين الجنرال جوزيف لاقو بديلاً له .أدى هذا إلى زرع بذور الانقسامات السياسية داخل الإقليم الجنوبي على طول خطوط الصدع الإثنيّة والإقليمية. كما عجلت بتطبيق خطط نميري اللامركزية، حيث لجأ إليها العديد من السياسيين خارج دائرة أبيل ألير، بهدف تقسيم الإقليم الجنوبي لأسباب سياسية تخصهم.

كان الإقليم الجنوبي خارج الاضطرابات التي أثّرت على نظام النميري في الخرطوم وشمال البلاد لبعض الوقت، جزئيًا بسبب الطبيعة الانفصالية للجنوب. ومع ذلك، كان الصراع على السلطة بين النخبة السياسية في جنوب السّودان جزءًا من أزمة النظام العامة، وأدى بالفعل إلى الدعوة لإعادة تقسيم الإقليم الجنوبي والتعبئة اللاحقة للحرب ضد النظام. ستختلف الآراء بالتأكيد حول مدى ارتباط الأحداث، التي أدت إلى تمرد الكتيبة (104) للقوات المسلحة السّودانيّة في بور بتاريخ 16 مايو 1983، بصراع السلطة في جوبا. لم يكن هناك ارتباط سياسي مباشر بين العمل العسكري والصراع على السلطة الذي أدى في مارس 1983 إلى اعتقال اثنين من أعضاء مجلس وحدة جنوب السّودان، الرئيس ماثيو أوبور أيانق ونائب رئيس المجلس التنفيذي الأعلى ضول أشويل اليو.

توجه سياسيون آخرون إلى الأدغال بعد ما ألغى نميري اتفاقية أديس أبابا وأصدر المرسوم الجمهوري بتفكيك الإقليم الجنوبي في 1 يونيو 1983. وكان من بينهم جوزيف أودوهو، وصمويل قاي توت، وأكوت أتيم، ووليم عبد الله شول، وبنيامين بول أكوك، ومارتن ماجير. كان هناك شعور بالإحباط بين القادة السابقين لحركة تحرير جنوب السّودان (SSLM) بشأن تنفيذ اتفاق أديس أبابا وتدخل نميري في العملية الديمقراطية في الإقليم الجنوبي. وكان تهريب الأسلحة في أعالي النيل وبحر الغزال، الذي صاحب انتخابات المجلس التنفيذي الأعلى في أوائل عام 1982، دليلاً على أن السياسيين قرروا عودة الحرب في الجنوب. جدير بالذكر أن عناصر من جماعة أنيانيا تو كانت تنشط بالفعل وتشتبك مع

القـوات المسـلحة في شرق أعـالي النيـل وشـمال بحـر الغـزال.

أمـا الروايـة القائلـة إنّ التمـرد في بـور كان مخططًا لـه كجـزء مـن تشـكيل الحركـة، كـما يزعـم منفسـتو الحركـة الشـعبية، فهـو يتطلـب التحقـق مـن مصداقيتـه للأسـباب التاليـة. أولاً، نُشر المنفسـتو بعد قرابة ثلاثـة أشـهر مـن أحـداث بـور وأيـود. مـا ينفـي أن تكـون تمـردات بـور وأيـود مقدمـة لتشـكيل الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان. وكان مـن المفـروض، مثلـما يحـدث في هـذه المواقـف، أن يخـرج بيـان في وسـائل الإعـلام يعلـن بـدء التمـرد قبـل الحـدث بوقـت طويـل. مـا يجعلنـا نقـول إن منفسـتو الحركـة زيّـف تأريـخ تأسيسـه؛ ثانيـاً، ارتبطـت أحـداث بـور بعـدم الانضبـاط الإداري واختـلاس المرتبـات مـن قبـل الضابـط القائـد، الرائـد كاربينـو كوانـين، وبالتـالي كان ذا طبيعـة إجراميـة. وهـي جريمـة ذات أسـباب شـخصية لا علاقـة لهـا بـأي صراع سـياسي؛ ثالثًـا، كان كروبينـو ضابطًـا سـابقًا في أنيانيـا، لكنـه شـارك في محاربـة تمـرد أنيانيـا تـو في شرق أعـالي النيـل.

مـن الـوارد أن الأحـداث التـي أدت إلى تمـرد بور من عمـل المخابرات العسـكرية المرتبطـة بالقيـادة السياسـية للبـلاد، وذلـك مـن خـلال قائـد القيـادة الجنوبيـة للقـوات المسـلحة السّـودانيّة، اللـواء الصـادق البنـا، الـذي عمـل وعُـرف صديقًـا للرائـد كاربينـو، وجمعتهـم علاقـات وديـة تجـاوزت الواجـب والمهنـة. في ضـوء هـذه الحقيقـة، مـن الـضروري التحقيـق في تمـرد بـور في سـياقه الخـاص، كحـدث مرتبـط بالانضبـاط العسـكري وكبـار ضبـاط الجيـش في الخرطـوم بـدلاً مـن كونـه جـزءًا مـن الـصراع عـلى السـلطة في الإقليـم الجنـوبي. سـأنظر إلى هـذه الفـترة مـن منظوريـن.

يتعلق السيناريو الأول باستراتيجية نميري للتحريض على الاضطرابات السياسية وإثارة الاضطرابات في الإقليم الجنوبي من أجل تسريع إلغاء اتفاق أديس أبابا وتفكيك الإقليم الجنوبي. فقد سمح اندلاع أعمال العنف لنميري بالالتفاف على العملية السياسية لتعديل الدستور وإلغاء اتفاقية أديس أبابا وتفكيك الإقليم الجنوبي، ولم يكن يعلم أن إلغاء الاتفاق سيؤدي لحرب تعجل في النهاية بسقوط نظامه وتغيير نظام الحكم السّوداني.

السيناريو الثاني يتعلق بوجود العقيد الدكتور جون قرنق في بور، وهو ضابط كبير في القوات المسلحة السّودانيّة. كانت الحكومة على علم بالوضع المتقلب في بور، وكالعادة في مثل هذه الحالة، لن يسمح كبار ضباط الجيش لضابط كبير بالعطلة في مكان مضطرب مثل بور. لا بد أن نميري كان يعتمد على تخصص قرنق في مكافحة التمرد لقمع الاضطرابات بين متمردي بور عند الموافقة على طلب قرنق السفر إلى بور. كان من الممكن أن يتصرف قرنق مثل المسؤولين البريطانيين الذين وثق فيهم المتمردون الجنوبيون واستسلموا لهم خلال تمرد توريت في أغسطس 1955، لمنع تحول التمرد إلى حركة راديكالية وربطه بالقوى المناهضة للإمبريالية في القرن الأفريقي.[1]

يتحدث بيان الحركة عن حركة تحرير وطني «تشنّ كفاحًا مسلحًا طويل الأمد[2]» من أجل «تحويل الحراك الجنوبي من

(1) كان هذا مصدر قلق الإدارة الأمريكية ووكالة المخابرات المركزية (CIA)، التي ظلت تراقب تنافس القوى العظمى في الإقليم والشرق الأوسط.

(2) SPLM Manifesto, Chap. 8, Art. 23(a), in PaanLuel Wël (ed.), The Genius of Dr. John Garang (2013).

حركة يقودها رجعيون معنيون فقط بالجنوب والوظائف والمصالح الذاتية إلى حركة تقدمية يقودها الثوار ومُكرسة لإنجاز الاشتراكية في كل أجزاء البلاد»[1]. من منظور أيديولوجي، ومن واقع السّودان الموضوعي، يبدو أن هذا المنفستو تكتنفه التكهنات والأحلام، يستوجب تحقيق نقدي يفصل الأسطورة عن الواقع.

أشار المنفستو إلى أن بقايا الكتيبة 104 (بور) والكتيبة 105 (أيود) شكلت الحركة. إذا كان هذا هو الحال، فهو يتناسب مع التحليل القائل إنّ تشكيل الحركة كان ذو صلة بأفكار الدكتور جون قرنق الثورية السابقة حول الثورة الأفريقية، والتي استلهمها من فكرته حول وجود قومية عربية قمعية في السّودان. جاء إيجاز هذه الأفكار في رسائله إلى دومينيك أكيج محمد في فبراير 1972، وإلى الجنرال جوزيف لاقو ولجنة مفاوضات حركة تحرير السّودان (SSLM) خلال محادثات السلام في أديس أبابا يناير 1972[2].

كان تمرد بور ووجود العقيد جون قرنق متصلين بتشكيل الجيش/ الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان، ولكن فقط في سياق ضيق. وهذا يعني أن جون قرنق كانت لديه منذ عام 1972 فكرة شنّ حرب مطولة بدلاً من التفاوض مع نظام نميري المحتضر، حيث كتب أن «شرط الثورة الدائمة لم تُخلق بشكل كاف داخل منطقتنا». وهذا ما يفسر ازدرائه لقيادة أنيانيا كما يظهر في المنفستو، ووصفهم بأنهم مجرد موظفين، رجعيين، أنانيين.

(1) Ibid, Chap. 7, Art. 22.

(2) January 1972, quoted in The Genius of Dr. John Garang, vol. 2 (2013): pp. 20 and 23.

مـن الصعـب الربـط بـين فكـرة بنـاء سـودان جديـد اشـتراكي، كـما أرادت قيـادة الحركـة، ومظـالم جنـوب السّـودان. بعـد الانقـلاب المضـاد لثـورة يوليـو 1971، كان الجنـوب مناهضًـا للشـيوعية، وانفصاليًـا بشـكل عميـق. جـاء منفسـتو الحركـة الشَّـعبيّة لتحريـر السّـودان ذروة للنفـاق والشـعبوية الخادعـة، وعـبّر عـن آراء بعـض المثقفـين اليسـاريين العائديـن مـن الغـرب بمعرفـة نظريـة سـطحية للماركسـية، وفشـلوا في تضمـين أيّ تحليـل موضوعـي لواقـع الجماهـير.

ليسـت الاشـتراكية شـيئا يفرضـه شـخص، سياسـيًا أو إلهيًـا، مثلـما قـال الـرب في سـفر التكويـن «ليكـن هنـاك نـور». الاشـتراكية هـي بنـاء اجتماعـي سـياسي في سـياق التطـور المتقـدم لقـوى الإنتـاج الاجتماعيـة والماديـة. وهـذا يعنـي أن الحديـث عـن الاشـتراكية بنـاء السّـودان الجديـد الاشـتراكي، في سـياق المنفسـتو كان وسـيلة تحايـل، في وقـت تميـزت فيـه التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة في السّـودان بتـدني مسـتوى تطـور قواهـا الإنتاجيـة. لا يـزال السّـودان في المرحلـة التـي يصنفهـا الماركسـيون عـادة عـلى أنهـا مرحلـة الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة. وهـي مرحلـة تـسرع فيهـا القـوى التقدميـة في تطويـر القـوى المنتجـة لمعالجـة التناقضـات الأساسـية في الدولـة والمجتمـع. لذلـك، كان ينبغـي أن يكـون دور الحركـة هـو تحريـر الجماهـير مـن الفقـر، والجهـل، والأميـة، والخرافـات، وترسـيخ الاسـتقلال الوطنـي والأخـوة بـين الجماهـير.

شـمل الطيـف السـياسي والأيديولوجـي السّـودانيّ الحـزب الشـيوعي السّـوداني في أقـصى اليسـار، وهـو حـزب عـمّالي ماركـسيّ لينينـيّ، وفي أقـصى اليمـين تجـد الأصوليـين الإسـلاميين، بالإضافـة إلى

تشـكيلات سياسـية ليبراليـة يسـارية، ويمينيـة، ومحافظـة. مـا هـو موقـع الحركـة في هـذا المطيـاف؟ وهـل كانـت جـزءًا مـن القـوى الثوريـة الوطنيـة الديمقراطيـة السّـودانيّة؟. مـن منظـور ماركـسي، فـإن الأيديولوجيـة الاشـتراكية التـي طرحهـا قـادة الحركـة الوليـدة لم تنبـع مـن واقـع اجتماعـي أو قناعـة حقيقيـة بالمُثـل الاشـتراكية، بـل كانـت خطـوة انتهازيـة لتلقـي الدعـم السـياسي، والدبلومـاسي، والعسـكري الخارجـي. وهـذا يعنـي أن قيـادة الحركـة تظاهـرت بالمُثُـل الاشـتراكية فقـط كاسـتراتيجية خادعـة لربـط نفسـها بإثيوبيـا والأخـوة الاشـتراكية بغـرض التـماس الدعـم السـياسي والعسـكري، وهـذه نقطـة سـأعود إليهـا بعـد الانتهـاء مـن الإجابـة عـلى الشـكوك التـي أعـرب عنهـا الآخـرون بشـأن قـدرة الجنوبيـين عـلى حكـم أنفسـهم.

تعتمـد قـدرة شـعب عـلى حكـم نفسـه، بشـكل حاسـم، عـلى القيـادة التـي أنتجهـا أو يواصـل في إنتاجهـا. لكـن هؤلاء القـادة لا يأتون مـن العـدم، هـم ثمـرة تجـارب حيـاة النـاس ويعكسـون تطلعاتهـم التاريخيـة. في هـذا الصـدد، فـإن الفـوضى الاجتماعيـة والسياسـية التـي يمـر بهـا جنـوب السّـودان ليسـت متأصلـة في جنـوب السّـودان وشـعبه، بـل لهـا مسـببات خارجيـة، وهـي ثمـرة التشـويش الـذي أدخلتـه الحركـة في عمليـة التحريـر. ينتـج عـن تخطـي مرحلـة مـن التطـور الاجتماعـي والاقتصـادي للمجتمـع أو الاندفـاع إليهـا عواقـب سـلبية غـير مقصـودة. وقـد سـجل التاريـخ إرتفـاع معـدلات الانتحـار بـين المجريـين في السـبعينيات والثمانينيـات في حـوادث مرتبطـة بالتحـول الاجتماعـي والاقتصـادي المفاجـئ مـن حيـاة فلاحـين إلى بروليتاريـا صناعيـة بعـد الإصلاحـات الزراعيـة الجذريـة والانتصـار عـلى الثـورة

المضـادة في عـام 1956.

يخبرنـا التاريـخ إن سـكان إقليـم جنـوب السّـودان، في مختلـف تشـكيلاته الاجتماعيـة، حكمـوا أنفسـهم بالطريقـة التـي تناسـبهم. امتلكـت المجتمعـات الإثنيّـة، مهـما كانـت بدائيـة أو منظمـة بشـكل بـدائي، أنظمـة حكـم أصليـة خلقـت علاقـات متناغمـة مـع جيرانهـا، حتـى أدى التدخـل والاحتـلال الاسـتعماري الأوروبي في القـرن التاسـع عـشر إلى تعطيـل نظامهـم الاجتماعـي. منـذ ذلـك الحـين لم يـدم السـلام والوئـام فيـما بينهـم. لذلـك، فـإن الوضـع الحـالي، الـذي يدفـع البعـض إلى الشـكّ في قـدرة جنـوب السّـودان، هـو نتـاج تجربـة الحركـة وإدخالهـا سـمات، ومواقـف، وسـلوكيات لم تكـن غريبـة عـلى مجتمـع الجنـوب، بـل و عـلى عمليـات التحريـر في العـالم. توجـد مواقـف مماثلـة في العـالم الحديـث والمعـاصر. يمكـن مقارنـة تجربتنـا بجمهورية نيجيريـا في السـتينيات والسـبعينيات، عندمـا أغـرق القـادة النيجيريـون، مدفوعـون بالجشـع والطمـوح، الدولـة الأفريقيـة الغنيـة بالنفـط إلى نشـهده اليـوم مـن صـورة كاريكاتوريـة عـن نفسـها قبـل الاسـتقلال. انتهـى الأمـر بمـوارد نيجيريـا في أيـدي عـدد قليـل مـن أفـراد أثريـاء، تسـببوا في اضطـراب اجتماعـي وسـياسي لمنـع تحـول نيجيريـا إلى دولـة أفريقيـة قويـة سياسـياً واقتصاديـاً (أتشـيبي، 1983).

مـن حيـث تعرضـه للمؤامـرات والتنافـس الإقليمـي والـدولي لتخريـب التقـدم والتنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة وازدهـار شـعبه، يمكـن مقارنـة جنـوب السّـودان بدولـة الكونغـو البلجيكيـة، التـي تغـير اسـمها إلى جمهوريـة الكونغـو، ثـم زائـير، وأخـيراً جمهوريـة الكونغـو الديمقراطيـة، رغـم أنهـا لا جمهوريـة ولا ديمقراطيـة، ولا توفـر لشـعبها

الرخاء رغم الثروات الطبيعية الهائلة. أما من ناحية القيادة، فلا يمكن أن نقارن جنوب السّودان بعد الموت المأساوي للدكتور جون قرنق دي مابيور، و تسنم خلفه الرئيس سلفا كير ميارديت للرئاسة بغتة، إلا بالشخصية الفريدة للزعيم الكمبودي بول بوت. إن القائد والقيادة الجيدة أمران حاسمان لتحقيق الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية للشعب في أيّ بلد. الواقع الماثل، والبيئة الاجتماعية والسياسية التي تحيط بجنوب السّودان، ورئاسة كير، تعيد إلى الأذهان مشهدًا من مذكرات الكاتب الكيني نغوجي واثيونغو «محتجز: مذكرات سجن كاتب» (1981)، عندما يروي ملاقاته لزميل اعتقل وأرسل للسجن، حيث يقول له ساخرًا: «إن حريتنا وخروجنا من سجن كاميتي المُشدد يتوقف على وفاة كينياتا».

يعتقد العديد من مواطني جنوب السّودان، بمن فيهم الذين دعموا الرئيس كير على أساس التضامن الإثنيّ، أنه تحول الآن إلى كابوس لدرجة أن موته فقط هو ما سيجلب الراحة لشعب جنوب السّودان. من المروع بشكل لا يصدق أن يرتبط مصير شعب بوفاة زعيمه، ناهيك أن يكون عضوا بارزا في حركة تحرير قادت النضال من أجل استقلال البلد. يمنحنا هذا فكرة حقيقية عن اليأس في ضوء التوقعات المحبطة والكارثة الإنسانية. ومع ذلك، فإن زوال كير، سواء عبر موته أم بطريقة أخرى، لن يوقف الانزلاق الحتمي لجنوب السّودان إلى الهاوية، لأن أيّ انقلاب عسكري سيجعل الوضع أسوأ، وقد يؤدى إلى صوملة الدولة. الطريقة الوحيدة لإنقاذ جنوب السّودان هي العمل الجماعي لمن خاب أملهم في هذا النظام الاستبدادي الكليبتوقراطي.

يعيش جنوب السّودان حالة من الانهيار الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي. ولا يمكن أن يكون الجشع الجامح للثروة والكراهية المتبادلة بين القادة، إلى حد التضحية بشعبهم من أجل النفعية السياسية، إرثًا لثورة اشتراكية، حتى في ظلّ قيادة يمينية. قد نجد تفسيراً ما يحدث الآن من خدعة قيادة الحركة شعب السّودان والمنطقة بشأن طرحها نفسها حركة يسارية بينما سعت في الحقيقة لثورة مضادة. فظروف حقبة الحرب الباردة، والتنافس الأيديولوجي بين القوى العظمى في القرن الأفريقي والشرق الأوسط، بالإضافة لضعف التأهيل الأيديولوجي للديرغ الإثيوبي، حال دون التدقيق في الخلفية الماركسية لقادة الحركة الشعبية لتحرير السّودان.

كان لحكومة الديرغ الإثيوبية الحق في الإشراف على ما تفعله قيادة الحركة من خلال الدعم المادي الذي تلقته منها ومن الدول والأحزاب الاشتراكية الأخرى على أساس التضامن، إلا إنها لم تفعل ذلك. عملت الحركة بطريقة تناسب أهدافها السياسية، وكان شعب السّودان وحده القادر على محاسبتها وقيادتها، لكن تُركت الأمور للتاريخ ليدينها أو يبررها. لذا علقت قيادة الحركة في شبكة من المؤامرات والخداع الإقليمي والدولي، فضلاً عن التحولات الأيديولوجية التي سببتها الحرب الباردة.

أعلن منفستو الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان (1983) بشكل صحيح أن التخلُّف الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي في جنوب السّودان يلخص الوضع العام في أطراف السّودان. واستمر في تحديد الأعداء الحقيقيين والمحتملين للحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان، وخلص في الفصل 11 إلى أن:

الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان مؤمنة بصحة توجهها الاشتراكي. ويرتكز برنامجها على الحقائق الموضوعية للسودان، كما يقدم حلاً لأزمة الهوية والمسائل الدينية في سياق السّودان الاشتراكي الموحد لمنع البلاد من التفكك الحتمي.

أصدر الحزب الشيوعي السّودانيّ، الحزب العمّالي الرائد للحراك الثوري في السّودان، تقريره العام في عام 1967، والذي اعتمده المؤتمر الرابع للحزب[1]. أوضح هذا التقرير، بعبارات أيديولوجية واضحة، المعالم البارزة للوضع الإقليمي والدولي في ذلك الوقت. وحلل الوضع السياسي السّودانيّ والحركة الجماهيرية، وآفاق تشكيل الجبهة الوطنية الديمقراطية كوسيلة لتصعيد الحركة الجماهيرية، باعتبار أن السّودان لا يزال في مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية.

نظر المجتمع السياسي السّوداني إلى منفستو الحركة وكأنه صدى التقرير العام للمؤتمر الرابع للحزب الشيوعي. في الواقع، تجاوزت الحركة في بيانها، الإعتراف بالحزب الشيوعي السّوداني، أو أي قوى يسارية، أو ثورية أخرى في البلاد. وافتقر في نقاش الواقع الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي للسودان بشكل عام، وجنوب السّودان بشكل خاص، إلى التحليل العميق، مما يشير إلى أن الأفكار الواردة في المنفستو قد تم استيرادها من واقع غير واقع السّودان.

شهد التاريخ حالات قام فيها المثقفون الثوريون، ربما بنفاد صبرهم من النضال السياسي البطيء ولكن المتسق الذي تخوضه الطبقة العاملة، أو أجبرتهم الظروف السياسية الموضوعية، بالنضال المسلح ضد البرجوازية الوطنية القمعية لإحداث تغيير اجتماعي.

(1) الماركسية وقضايا الثورة السّودانية (الخرطوم: دار الوسيلة للنشر، 1967).

كان هـذا صحيحًـا بشـكل خـاص بعـد انتصـار الحـزب الشـيوعي الصينـي في عـام 1949 وتأسـيس جمهوريـة الصـين الشـعبية. كانـت الثـورة الكوبيـة، بقيـادة حركـة 26 يوليـو، أحـد الأمثلـة التـي هـزم فيهـا المثقفـون الثوريـون النظـام القمعـي بينـما بقـي الحـزب الشـيوعي الأصيـل، ليقـود الـصراع الطبقـي في المـدن والبلـدات. اتبعـت حـركات التحـرر الوطنـي ومناهضـة الاسـتعمار في المسـتعمرات الإسـبانية والبرتغاليـة السـابقة في إفريقيـا نفـس الكفـاح المسـلح الثـوري. وبالعـودة إلى الـوراء، حـذت الحركـة حـذو هـذه الحـركات فيـما بـدا أنـه ثـورة اجتماعيـة في السّـودان قـام بهـا فلاحـون ريفيـون ورعـاة وليـس بروليتاريـا صناعيـة. لسـوء الحـظ، فشـلت قيـادة الحركـة في فهم أن الفلاحـين والرعـاة، كطبقـة اجتماعيـة، لا يطمحـون لبنـاء الاشـتراكية. في معظـم الحـالات، يكافـح الفلاحـون مـن أجـل الإصلاحـات الزراعيـة، لا سـيما للحصـول عـلى حقـوق الأرض مـن اللـوردات الإقطاعيـين. لكـن لا وجـود في جنـوب السّـودان للعلاقـات الإقطاعيـة. الأسـباب التـي دفعـت الحركـة إلى تعبئـة الفلاحـين ورعـاة الماشـية لخـوض كفـاح مسـلح طويـل الأمـد تـأتي في سـياق آخـر غـير بنـاء السّـودان الاشـتراكي الموحـد. وهـو مـا تعالجـه الصفحـات التاليـة.

كان غـرض الخطـاب هـو ترسـيخ الأهليـة الثوريـة للحركـة. وهـو مـا نقـرأه في المنفسـتو، ومنشـوراتها اللاحقـة، وخطـب رئيسـها للقـوات في أوقـات وأماكـن مختلفـة. لم يكـن الحركـة حزبـاً سياسـياً أو منظمـة اختـارت الحـرب الثوريـة وسـيلة للنضـال ضـد نظـام الأقليـة القمعـي في الخرطـوم. لقـد انطلقـت كقـوة عسـكرية، بينـما جـاءت الصيغـة السياسـية لاحقًـا. إن أهـم العوامـل الحاسـمة في أي حـرب

ثوريـة، والتـي ترافـق بالفعـل التعبئـة للحـرب، هـي الوعـي السـياسي والأيديولوجـي للقـادة، والكـوادر، والمقاتلـين، والجماهـير. يتـم تحديـد الثـورة مـن خـلال ايديولوجيتهـا السياسـية وبنيتهـا التنظيميـة، والتـي بدورهـا تحـدد علاقاتهـا الداخليـة، وكذلـك العلاقـات مـع الجماهـير. كـما تتحـدد أيضًـا مـن خـلال شـخصية قيادتهـا، سـواء كانـت القيـادة الأساسـية رجـلًا أم امـرأة، ومـا إذا كانـت القيـادة خارجـة مـن رحـم المجتمـع أم لا.

تنحـدر قيـادة الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان مـن طبقـة الضبـاط العسـكريين الرجعيـين للقـوات المسـلحة السّـودانيّة. لقـد نشـأت وتبنـت أجنـدة ثوريـة وطنيـة (السّـودان)، وانتهـى بهـا الأمـر إلى كيـان إقليمـي (جنـوب السّـودان) بقيـادة سـلفاكير ميارديـت الـذي اتبـع أجنـدة إثنيّـة ضيقـة الأفـق، مـا ينـم عـن انتهازيـة بحتـة. تجـلى ذلـك فـور تشـكيلها في شـكل صراع عـلى السـلطة هـزّ الحركـة الوليـدة، ورفـض التدريـب الأيديولوجـي، والتربيـة السياسـية، وتنظيـم المقاتلـين. ليـس نـوع البنـادق التـي يحملهـا المقاتلـون هـو أعظم سـلاح في الحـرب الثوريـة، ولكـن مسـتوى وعيهـم الأيديولوجـي السـياسي. وقد ألقـى غيـاب هـذا التثقيـف السـياسي بظـلال مـن الشـك عـلى الحركـة باعتبارهـا حركـة تحـرر وطنـي حقيقيـة.

يجـب أن تُـروى قصـة جمهوريـة جنـوب السّـودان بصـدق، ولـو من بـاب التقديـر والاحـترام للـدور الـذي لعبتـه شـعوب جنـوب السّـودان، والنوبـة، والفونـج في حـرب التحريـر الوطنـي. وكلي ثقـة أن في كل مـرة نخـدش فيهـا سـطح قصـة عـذاب شـعبنا ومعاناتـه التـي لا تنتهـي - سـببها قـادة طائشـون متعطشـون للسـلطة - سـنفهم حقيقـة كيـف

وأيـن حـدث الخطـأ؟ لا بـد أيضًـا أن نـروي القصـة لتوعيـة النـاس حتـى يحـرروا أنفسـهم، وتحفيزهـم عـلى العمـل حتـى يتمكنـوا مـن تحويـل الواقـع القمعـي الـذي يغمرهـم. حتـمًا سـتتوقف الديماغوجيـة الإثنيّـة عـن تحريـك حيـاة النـاس وتوجيههـا، ولـن يمـر وقـت طويـل قبـل أن يـدرك الجماهـير أن الدعـم غـير المـشروط الـذي طالمـا قدمـوه لقادتهم، لإعتبـارات إثنيّـة أو مناطقيـة، هـو مصـدر فقرهـم وجهـل أمتهـم.

دبّـج السياسـيون والباحثـون والطـلاب مـن جنـوب السّـودان ونـشروا الكتـب، والأوراق البحثيـة، والمقـالات الصحفيـة حـول كفـاح شـعب جنـوب السّـودان مـن وجهـات نظـر أيديولوجيـة متباينـة، بينـما كتـب بعـض السّـودانيين الجنوبيـين مذكـرات تـؤرخ لأدوارهـم في الـصراع الطويـل. أحـدث إصـدار هـو كتـاب هيلـدا ف. جونسـون حـول مأسـاة شـعب جنـوب السّـودان بعـد الاسـتقلال[1]. وقـد كانـت محقـة في عـدة أجـزاء، خاصـةً فيـما يتعلـق بروايتهـا للأحـداث التـي أدت إلى انـدلاع العنـف في ديسـمبر 2013. ومـع ذلـك، فإنهـا ومثـل العديـد مـن الدبلوماسـيين وموظفـي الخدمـة المدنيـة الدوليـين، ممـن عملـوا في جنـوب السّـودان، تجـاوزت الدكتـورة هيلـدا مسـؤوليتها ودورهـا كممثـل خـاص للأمـين العـام للأمـم المتحـدة، لتطـور علاقـات شـخصية مـع الجهـات الرئيسـة الفاعلـة في حكومـة جمهوريـة جنـوب السّـودان. لا بُـد أن التجربـة علمتهـا أن علاقـات الصداقـة القائمـة عـلى التضامـن مـع قضيـة سياسـية غالبـاً مـا تكـون هلاميـة ولا تتجـاوز الأفـراد والزمـان والمـكان. فقـد كان الدكتـور جـون قرنـق دي مبيـور قائـدًا مختلفًـا عـن سـلفا كـير ميارديـت والكُتلـة التـي تولـت قيـادة

(1) 37 South Sudan: The Untold Story from Independence to the Civil War (London: L.B Tauris, 2016).

الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان وحكومة جنوب السّودان بعد رحيله المأساوي العام 2005.

مثل رصفائهم السّودانيين، أتقن القادة السياسيون في جنوب السّودان فنون التظاهر باللطف، وإخفاء سلوكهم عن الدبلوماسيين الأجانب والبيروقراطيين الدوليين. ولهذا وقع العديد من الدبلوماسيين الأجانب ضحية الدخول في علاقات صداقة شخصية أثناء قيامهم بمهامهم الرسمية، وكانت النتيجة هي الفشل في رفع تقارير موضوعية لبلدانهم عن الوضع في جنوب السّودان. يفسر هذا مرور احتمال اندلاع أعمال العنف في جوبا في 15 ديسمبر 2013 على الحكومات ذات التمثيل دبلوماسي في جنوب السّودان، ولا سيما الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، والنرويج، فضلاً عن الدول الجارة مثل إثيوبيا وكينيا، بإستثناء جمهورية أوغندا التي كانت جزءًا من فريق تخطيط النظام. فمن خلال التظاهر بالكياسة والتهذيب عند التعامل مع أقرانه ومبعوثيهم الدبلوماسيين، تمكّن الرئيس كير التهرب من الفحص النقدي في قراراته وأفعاله في البلاد.

في حفل أقيم بتاريخ 26 أغسطس 2015 لتوقيع اتفاقية تسوية النزاع في جنوب السّودان (ARCISS)، قدم الرئيس نفسه ضحية عدوان إقليمي ودولي وهمي ضد نظامه. رفض كير رفضًا قاطعًا اتفاق السلام التوفيقي، واعتبره جزءًا من مخطط لتغيير النظام. لم يتساءل أي من رؤساء الدول والمسؤولين الحكوميين التابعين للإيقاد، الذين حضروا الحفل، عن سبب إلحاق الرئيس 26 تحفظًا على الاتفاقية، على الرغم من أنه حضر قمة الإيقاد في أديس

أبابـا في 17-16 أغسـطس، والتـي فرضـت اتفـاق التسـوية. تُرجمـت التحفظـات في النهايـة إلى انتهـاكات صارخـة لاتفـاق السـلام. توضـح الطريقـة التـي يعامـل بهـا الدبلوماسـيين الرئيـس كـير إلى أن علاقاتهـم تتجـاوز الأعـراف الدبلوماسـية العاديـة، خاصـة مـن لديهـم أعـمال إسـتثمارية مزدهـرة في جنـوب السّـودان، أو مـن يعـودون إلى بلدانهـم مـع مظاريـف ذات لـون كاكي ممتلئـة بالنقـود[1]. يشـجع هـذا الرضـا والدعـم الضمنـي مـن جانـب المحاوريـن الإقليميـين والدوليـين سـلفا كـير عـلى التـصرف خـارج الدوائـر الدسـتورية، ويمكّنـه مـن إضعـاف السـلطة التشريعيـة، والقضـاء، والخدمـة المدنيـة، وكذلـك الحركـة الشَّـعبيّة لتحريـر السّـودان الحاكمـة.

يتكـون جنـوب السّـودان مـن 64 مجموعـة إثنيّـة، هـي ثمـرة التاريـخ والديموغرافيـا. إنـه مزيـج فريـد مـن تشـكيلات اجتماعيـة قروسـطية، جنبًـا إلى جنـب مـع أخـرى حداثيـة، في نمـط معقـد، يؤكـد طبيعـة مأزقهـا الحـالي ككيـان سـياسي. يحتـوي المزيـج عـلى مكونـات اجتماعيـة ثقافيـة ذات قـدرات هائلـة تعيـق وتقـوض تقـدم الجميـع، ويدعـم فشـل تشـكيل الدولـة وبنـاء الأمـة في جنـوب السّـودان. إن مقارنـة جنـوب السّـودان بطفـل صغـير يبلـغ مـن العمـر سـت سـنوات، هـو في حقيقـة الأمـر تبخيـس، إن لم يكـن تسـمية خاطئـة توحـي أن العـالم يجـب أن يغفـر لقـادة هـذا البلـد جنوحهـم وسـلوكهم غـير المهـذب والطفـولي.

في متاهـة السـخافات هـذه، قـد نواجـه أيضًـا البراعـة المتناقضـة

(1) يسـتخدم مصطلح «الكاكي» للإشـارة إلى رشـوة الدبلوماسيين. وقد استخدمت حكومة جنوب السّـودان آخر مبالغ مالية تملكها البلاد لرشـوة زعماء الإقليم، وشراء الدعم السـياسي والعسـكري.

التـي أظهرهـا بعـض قـادة جنـوب السّـودان. سـلوك يميـل لتفضيـل الحكمـة التقليديـة لدرجـة أن تجـد حامـل شـهادة دكتـوراه في الاقتصـاد يحيـط نفسـه ليـس بمثقفـين مـن نفـس مسـتواه، بـل بوحـوش الجيـش السّـودانيّ الأميـين وظيفيًـا، ممـن حولـوا حركـة التحـرر الوطنـي إلى نقيضهـا. خلقـت هـذه البراعـة قيـادة لم تعرفهـا الأوسـاط اليسـارية السّـودانيّة مـن قبـل؛ قيـادة أعلنـت ثـورة اشـتراكية في أيـام احتضـار النظـام الاشـتراكي العالمـي بقيـادة الاتحـاد السـوفيتي. يمكـن للمـرء أن يغفـر لليسـاريين السّـودانيين اعتقادهـم أن الحركـة خدعـة إمبرياليـة و جـزء مـن الحـرب البـاردة: لقـد كانـوا عـلى حـق. لم تكـن الحركـة مـشروع ثـورة بالمعنـى الفعـلي للكلمـة.

سـنتطرق في السـطور التاليـة لتأثـير الحركـة عـلى البيئـة الاجتماعيـة والسياسـية في السّـودان، وبشـكل أدق في إقليـم الجنـوب حيـث نشـأت. وتهـدف هـذه المناقشـة لتنـاول شـقين: تفكيـك أسـطورة أن الحركـة كانـت قـوة تحـرر وطنـي تقـود ثـورة اشـتراكية، حيـث أهـدف مـن تفكيـك هـذه الأسـطورة إلى توعيـة الجماهـير، لا سـيما الشـوفينيون الإثنيّـون مـن الدينـكا الذيـن يديـرون مجلـس أعيـان الدينـكا (JCE) بصفتهـم سـماسرة سـلطة يلتفـون حـول رئاسـة سـلفا كـير ميارديـت. إن أسـطورة التحريـر، التـي يؤمنـون بهـا، ليسـت سـوى حيلـة تبريـر امتيازهـم ودعـم أيديولوجيـا الهيمنـة الإثنيّـة للدينـكا التـي أوصلـت جنـوب السّـودان لمرحلـة الأزمـات الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية الراهنـة. أمـا الهـدف الآخـر، فهـو التحقيـق في أصـل فكـرة «السّـودان الجديـد الاشـتراكي»، والتحـوّل الأيديولوجـي لليمـين الـذي حـدث لقـادة الحركـة بعـد حـرب الخليـج الأولى.

كانت الحركة ريفية من حيث العضوية (معظمهم من الفلاحين)، يتسم أعضائها بتدني مستوى الوعي الاجتماعي والسياسي و تكشف فكرة بناء سودان جديد «اشتراكي» في بيئة ريفية متخلفة، عن انفصال واضح بين النموذج والواقع. تبنت القيادة خطابات مختلفة بينما مارست نقيضها. لقد تجاهلوا ديالكتيك حرب التحرير الوطني، وبالتالي أسسوا نسخة أخرى من النظام الذي ناضلوا ضده. طرحتُ في الفصل الختامي من كتاب «سياسة التحرير في جنوب السّودان: نظرة من الداخل» (نيابا، 2000: 198)، سؤالًا بلاغيًا، «ما هي الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان وأين هي؟». إذا طرحتُ نفس السؤال اليوم، ستكون الإجابة أن الحركة كانت أعظم خدعة. لقد تعاملت قيادتها مع الشعب السّودانيّ في الشَمال والجنوب بمكر. فالحركة اليوم ليست حتى صورة كاريكاتورية لما كانت عليه في عام 1983، بل جسم مبني على أكاذيب تحولت إلى حقيقة من كثرة تكرارها.

سيحكي شعب جنوب السّودان لأجيال ويعيدوا سرد قصة الحركة كجزء من تاريخهم. سيتحدثون عن القادة السياسيين والعسكريين، وكيف اشتهروا خلال حرب التحرير الوطني. تروي حكاية شائعة في جمهورية المجر الشعبية خلال الحرب الباردة أن روسيّاً سأل عن كيف تمكن الأتراك من حكم المجريين المتمردين بطبعهم لما يقرب من 500 عام. كان رد التركي: «لم نفعل شيئًا لتذكير المجريين بوجودنا طوال هذه السنوات». بنفس الكيفية، ومن خلال صراعاتهم على السلطة وجشعهم للثروة، سيبقى قادة الحركة حاضرين في أذهان شعب جنوب السّودان كلما استدعوا

الظلـم، والفسـاد، والقسـوة. إنـه لأمـرٍ مـروّع إذا كانـت هـذه هـي الطريقـة التـي سـيتذكر بهـا النـاس قـادة الحركـة، وهـذا مـا يُعضـد مـا كتبتـه سـابقاً عـن الشـك في دورهـا كحركـة تحـرر وطنـي. يتجـلى دليـل هـذا الفشـل في الواقـع الحـالي، وفي تنظيـم الحركـة الداخـلي ومؤسسـات وأدوات سـلطتها وقيادتهـا، وفي الطريقـة التـي أدارت بهـا الحـرب، وفي علاقـات عضويتهـا، وبينهـا و الجماهـير.

هل كانت الحركة الشَّعبيّة نسخة جديدة عن حزب سانو؟

إذا اردنا الحكم على الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان باعتبارها مهندس الواقع الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي الحالي لجنوب السّودان، فلا مناص من الرجوع إلى منفستو 1983. يُظهر التقييم السياسي والأيديولوجي النقدي للمنفستو عن زيف سردية أصول الحركة في طرح نفسها كحركة تحرر وطنية. ليس بسبب الطبيعة الانقلابية لقيادتها، بل بسبب افتقار الوضوح الأيديولوجي بطريقة تؤكد مخاوف كثيرين من اليسار السياسي السّوداني عندما قالوا إن الحركة كانت حصان طروادة يميني في حظيرة الاشتراكية.

تعكس الخلفية الاجتماعية والتدريب الأيديولوجي لقيادتها ميولهم اليمينية والنيوليبرالية بجلاء. لا يمكن أن ينتج عن تسيّد قيادة يمينية على حركة تحرير سوى ثورة مضادة. وفي سياق جنوب السّودان، انبثق التعبير عن الثورة المضادة من خلال الأيديولوجية الإثنيّة التي حلّت مكان الهيمنة السياسية التاريخية للعرب في شمال السّودان. ورغم محاولات مواراتها، ظهرت الميول الإثنيّة بوضوح في المنفستو السياسي في شكل عبارة تقول «الحسم المبكر للعمل على منع اختطاف الحركة». بتحليل هذا الإقتباس، يتضح أن الحركة عانت من الفكر الحتمي الذي عُبر عنه بشعارات شعبوية وليس بمصطلحات الصراع الطبقي.

تظهر هذه الحتمية بوضوح في سيرورة اجتماعية وسياسية قادت

إلى بلـوغ الدكتـور جـون قرنـق هـرم الحركـة الناشـئة؛ إذ لـولا تدخـل الديـرغ العسـكري لحـلّ الـصراع عـلى السـلطة، لمـا أصبـح قرنـق قائـداً للحركـة. لم يكـن الدعـم الإثيـوبي لقرنـق قائمًـا عـلى أسـس أيديولوجيـة، بـل عـلى مؤهلاتـه العسـكرية والأكاديميـة. مثّـل هـذا القـرار الانقـلابي، مـع عمـل كبـار ضبـاط الجيـش الإثيـوبي للتوسـط في نـزاع السـلطة داخـل الحركـة الناشـئة ودعـم قرنـق - «حتميـة قيادتـه المبكـرة للحركة « - بدايـة الاسـتيلاء العسـكري وتشـويه تطورهـا كحركـة تحـرر وطنـي حقيقـي. حيـث كان التركيـز عـلى السـلطة ومـن يسـيطر عليهـا وليـس عـلى الثـورة والبرنامـج السـياسي الـذي تنجـزه. أغلقـت هـذه الخطـوة البـاب أمـام الحـوار السـياسي مـع قـوات أنيانيـا تـو، والتـي كانـت في أساسـها مـن النويـر، وذلـك لتهيئـة الأرضيـة لمواجهـة عسـكرية بـين الحركتـين، متجاهلـين الانعكاسـات الاجتماعيـة والسياسـية المحتملـة لهـذه الخطـوة عـلى الحركـة الناشـئة.

أدى انسـحاب أنيانيـا تـو للسـودان وتحالفهـا مـع النظـام القمعـي في تعزيـز الهيمنـة العدديـة للدينـكا داخـل الحركـة الناشـئة؛ بينـما أسـهم أثننـة (ethnicization) الاختلافـات السياسـية والأيديولوجيـة بـين الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان أنيانيـا تـو في خلـق بيئـة سـلبية وإقصـاء متبـادل. وشـاع بـين قيـادة الحركـة نعـت أبنـاء النويـر بمصطلـح خائـن (nyagat)، الـشيء الـذي أثـر عـلى ترقيـة وتعيين الجنـود مـن النويـر في صفـوف الحركـة وفاقـم التوتـرات الإثنيـة بـين الدينـكا والنويـر. ليـس هـذا فحسـب، بـل رسّـخ الشـعور بالتفـوق العسـكري في أوسـاط الدينـكا وعزمهـم عـلى حمايـة هـذا الامتيـاز. كان السـعي المبكـر لحمايـة قيـادة الدينـكا للحركـة الناشـئة مـبررًا بـضرورة

منع الجماعات الإثنيّة أو الأيديولوجية الأخرى من اختطافها، وهذا ما سأعود له بالتفصيل في الأجزاء التي تناقش إقصاء الديمقراطيين الثوريين، وتصاعد القومية الإثنيّة للدينكا داخل الحركة.

من المهم هنا تسليط الضوء على بعض المعلومات الأساسية بخصوص الصراع السياسي في جنوب السّودان من أجل توضيح مواقف وسلوك بعض القادة. ينطلق زعيم الحركة، الدكتور جون قرنق دي مابيور، من نفس المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها معلمه وليم دينق نيال، وهي تمجيد القومية الإثنيّة للدينكا وأيديولوجيا الهيمنة والسيطرة على الأقليات الإثنيّة الأخرى. تقول هذه المدرسة أنه بدون قيادة الدينكا لن يتحرر الجنوب أبدًا من الشمال. وهو ما دعى وليم دينق لمغادرة شرق إفريقيا عام 1965، تاركاً زملائه أقري جادين، وجوزيف أودوهو، وآخرين، ويعود إلى السّودان. كان هؤلاء القادة قد أسسوا معًا حزب الاتحاد الوطني الأفريقي السّوداني (SANU) في عام 1961. وبعد انهيار مؤتمر المائدة المستديرة حول مشكلة الجنوب في مارس 1965، بقي دينق نيال في البلاد لتأسيس وقيادة فصيل الداخل وممارسة السياسة من الخرطوم، قبل أن تغتاله المؤسسة السياسية الشَمالية التي يهيمن عليها العرب في عام 1968. فقد تسببت أفكار دينق السياسية، وتعاونه مع الصادق المهدي وحسن الترابي في «مؤتمر القوى الجديدة»، بإثارة المؤسسة السياسية الإقطاعية التقليدية والدينية، مما دفعهم لاغتياله في مايو 1968 في رومبيك.

اتحد قرنق مع كير داخل الحركة في أيديولوجيا الدينكا الإثنية هذه. في الواقع، كان الاثنان يمثلان طرفين مكملين لأيديولوجيا

الهيمنة الإثنيّة للدينكا على الحركة؛ طرفان يمتدان من أكسفورد عبر الخرطوم إلى يايّ، حيث وقعت ما أصبح يُعرف بـ»أزمة يايّ» في عام 2004. وهي الأزمة التي نخرت الحركة حتى النخاع. كان واضحاً أن شخصنة السلطة، بدلاً عن مأسستها وتنظيم السلطة الشعبية، سيقود إلى أن تقود خلافات قرنق وكير إلى تدمير الحركة. بدأت الأزمة عندما تردد أن قرنق على وشك ترقية نيال دينق نيال لموقع الرجل الثاني في التسلسل الهرمي لقيادة الحركة كبادرة احترام لمعلمه الراحل وليم دينق نيال من جانب، والتأكد من عدم خروج السلطة من دائرة أخوية الدينكا، خاصة بعد عودة الدكتور ريك مشار والدكتور لام أكول غير الموثوقين عند قرنق، رغم معرفته ببراعة الاثنين مقارنة بسلفا كير أو جيمس واني إيغا. بعد بقائه لفترة طويلة في خانة الرجل الثاني وإخلاصه لقرنق، لم يقبل كير ترقية نيال دينق. وكان كير قد أصبح بمثابة قائد منطقة بحر الغزال في الجيش، وهو نفوذ يدفعه لرفض تعيين نيال دينق الذي يصغره في التسلسل الهرمي العسكري نائباً قرنق. تمسك كير، ووجد دعمًا من ضباط جنود الجيش الشعبي المنحدرين من واراب وأويل، في تحد لقيادة الدكتور جون قرنق. وقد تطلب الأمر تدخل أصدقاء الحركة لنزع فتيل الأزمة واستعادة الانسجام. كانت هذه مخاطرة جسيمة ليس بمقدور كير تحمل عواقبها. كان هذا في عشية التوقيع على اتفاقية السلام الشامل، التي أمضى قرنق وعلي عثمان طه وقتًا طويلاً في التفاوض حولها في ضاحية نيفاشا الكينية. ومع ذلك، نجا كير وورث دفة القيادة وتنفيذ مشروع التمكين الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي للدينكا.

لم تدحض الحركة، خلال أكثر من عقدين منذ تكوينها، تصورات كثير من اليساريين، داخل وخارج الحركة، بأنها حصان طروادة يميني داخل المعسكر الثوري. يعرف الثوار بعضهم البعض من خلال الأيديولوجيا، والتنظيم، والتركيز على التربية السياسية وتنظيم الجماهير بهدف تنمية الوعي الاجتماعي السياسي. كان الديرغ الإثيوبي قد تردد في دعم أنيانيا تو، حتى على أساس المعاملة بالمثل ضد الحكومة السّودانيّة، لأنها منظومة انفصالية. لذا رفضت الحكومة الإثيوبية دعم قيادة أنيانيا تو الرجعية، خشية أن تتسبب الخطوة في إنتحارها سياسياً ودبلوماسياً. ومع ذلك، اختاروا دعم قرنق، بناءً على اتصالات مع الخرطوم[1]. والجدير بالذكر أن مروحية تابعة للقوات الجوية الإثيوبية كانت قد اقلت العقيد جون قرنق من منطقة أدورا داخل السّودان.

قررت قيادة الديرغ دعم قيادة الحركة الجديدة. وكان الثوار السّودانيين الذين تجمعوا في إيتانق، غرب إثيوبيا، لإطلاق الحركة الجديدة، التي ستقود الآن الحرب الثورية للتحرر الوطني، هم فقط من أيدوا هذا القرار. أثار إعلان العقيد الدكتور جون قرنق دي مبيور رئيسًا وقائدًا عامًا للحركة / الجيش الشَّعبيّة لتحرير السّودان إستياء السياسيين الذين أرادوا فصل القطاعين السياسي والعسكري. وهذا ما يفسر قلة الوقت الذي خُصص لمناقشة الموضوع، وتدخل الجنود الإثيوبيون في مسرح الأحداث لطرد الجزء الأكبر من أنيانيا تو التي دعمت قيادة صموئيل قاي توت، وهو

(1) اتصلت خلية من مثقفي الدينكا التقدميين في الخرطوم بالسفارة الإثيوبية في العاصمة السّودانية، وأبلغتها باندلاع القتال في بور. وذكروا أن ضابطا تقدميا اسمه جون قرنق في طريقه إلى غامبيلا، ويحتاج مساعدة من الرفاق في الديرغ.

مـن مجموعـة نويـر لـو. لم يسـهم التدخـل الإثيـوبي في معالجـة بـذور الشـقاق والحـرب بـين الحركـة حديثـة التكويـن وأنيانيـا تـو، والتـي أُجـبرت عـلى التحالـف مـع حكومـة السّـودان، بـل شـوهت التطـور السـياسي والأيديولوجـي للحركـة، وعـززت طابعهـا العسـكري، ومهـدت الطريـق لشـخصنة السـلطة، بـدلاً مـن إضفـاء الطابـع المؤسـسي، وهـو الأمـر الـذي لا يـزال يلقـي وبالـه عـلى شـعب جنـوب السّـودان.

بمجـرد حـل أزمـة التنافـس عـلى القيـادة مـع أنيانيـا تـو، توقـع البعـض أن تسـتقر قيـادة الحركـة للاضطـلاع بمهامهـا السياسـية والتنظيميـة اللازمـة لحركـة التحريـر الناشـئة. كانـت المهمـة العاجلـة هـي اسـتكمال التنظيـم والهيـكل، وسـيادة القيـادة السياسـية عـلى الجيـش. كان مـن شـأن هـذه الخطـوة تحديـد الأدوار والمسـؤوليات المختلفـة للأجهـزة والأفـراد الذيـن يمارسـون تلك السـلطات؛ ثـم الإنتقال للمهمـة التاليـة، وهـي تحديـد الأهـداف الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية للحـرب، وذلـك لضرورتهـا في وضـع الأهـداف السياسـية، والاسـتراتيجيات، والتكتيـكات المطلوبـة لتحقيقهـا. هـذه هـي الخطوات التـي عـلى كلّ زعيـم ثـوري إنجازهـا مـن أجـل تأسـيس سـلطة تنطلـق مـن الشـعب، وكفـاح مسـلح يهـدف لتغيـير الواقـع القمعـي.

حدثـت بـدلاً عـن ذلـك، أشـياء مريبـة خـلال تشـكيل قيـادة الحركة وبـصرف النظـر عـن حقيقـة تألفهـا مـن ضبـاط سـابقين في القـوات المسـلحة السّـودانيّة، فقـد جـاء أغلبهـا مـن الدينـكا. كان قرنـق الرئيـس والقائـد العـام؛ يتبعـه الرائـد كاربينـو كوانـين في المرتبـة الثانيـة نائبًـا للرئيـس والقائـد العـام؛ والرائـد وليـم نيـون بانـج رئيـس الأركان العامـة للجيـش؛ والنقيـب سـلفا كـير ميارديـت مديـر الاسـتخبارات العسـكرية؛

بينـما تمتـع الرائـد أروك طـون أروك بعضويـة القيـادة السياسـية العسـكرية العليـا دون تـولي منصـب معـيّن. بصفتـه قائـد الاسـتخبارات العسـكرية، أصبـح كـير قائـدًا لمراكـز تدريـب الجيـش في بونجـا وبلفـام، حيـث قامـوا بزراعـة وغـرس النزعـة العسـكرية والطاعـة التامـة بـين صفـوف المجنديـن.

هنـاك جانـب غريـب في علاقـة قرنق-كـير أقوى مـن الرابطـة الإثنية. أسـهم التدريـب العسـكري للرجلـين في تسـهيل تحـول الحركـة/ الجيـش مـن حركـة تحـرر وطنـي إلى شـبكة مُحاباـة سياسـية وراثيـة، وأخـيراً إلى ديكتاتوريـة إثنيّـة شـمولية. تـدرب كـير كضابـط اسـتخبارات في الجيـش السّـودانيّ، وترقـى إلى رتبـة نقيـب وقـت تشـكيل الحركـة؛ فيـما التحـق قرنـق، وهـو خريـج جامعـي بشـهادة في الاقتصـاد، بالجيـش برتبـة نقيـب وترقـى إلى رتبـة عقيـد[1]. تخصـص قرنـق في مكافحـة التمـرد - الحـرب الإسـتراتيجية الأمريكيـة ضـد حـركات التحـرر في إفريقيـا وأمريـكا اللاتينيـة وآسـيا خـلال الحـرب البـاردة. هـذا يطـرح السـؤال الـبريء حـول قـدرة ضابـط مكافحـة تمـرد عـلى قيـادة تمـرد ناجـح.

حـاز قرنـق عـلى كل مـا يحتاجـه مـن مـوارد بشريـة، ولوجسـتية، وعسـكرية لاقتنـاص السـلطة في جوبـا أو حتـى الخرطـوم. سـأتناول هـذه المسـألة هنـا في سـياق مـدى ملاءمـة ضابـط مكافحـة التمـرد في قيـادة تمـرد، ناهيـك عـن تمـرد ثـوري. كانـت الاسـتراتيجيات التـي اتبعها قرنـق في إدارة الحـرب بـين عامـي (-1983 1987) أشـبه بشـنّ تمـرد مضـاد اسـتنفد مـوارده البشريـة والماديـة أكـثر منـه تمـردًا ضـد عـدو،

(1) انضـم قرنـق إلى أنيانيـا تـو في عـام 1970، بعـد تخرجـه مـن جامعـة دار السـلام، ثـم إلى القـوات المسـلحة السّـودانية برتبـة رائـد، بعـد اتفـاق أديـس أبابـا في عـام 1972.

وكانت النتيجة أن خسرت الحركة/ الجيش آلاف المقاتلين في معارك تكتيكية قليلة الأهمية، لا سيما في مناطق جيكاو، وملوال، ويابوس وغيرها. شملت الخسارة ضباطًا أقوياء كان بإمكانهم التنافس على مناصب قيادية في الحركة الناشئة. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل من المحتمل أن يؤثر تدريبه المهني كضابط في مكافحة التمرد على طريقة إدارته للحرب؟ السؤال مُبرر بواقع أن انتصارات الجيش الشعبي كانت باهظة الثمن عادة، وفي تعارض مع قوانين حرب العصابات: تدمير العدو والمحافظة على القوات.

من المهم ملاحظة أن الدكتور جون قرنق دي مبيور وسلفا كير ميارديت أقاما شراكة عمل لسنوات. وقد شهدت تلك العلاقة السيطرة على قيادة الحركة ، وإزاحة بعض من الأعضاء الدائمين في المجلس العسكري؛ وبالتحديد كاربينو كوانين بول، ووليم نيون بانج، وأروك طون أروك؛ وتصفيات غير مُبررة لبعض القادة السياسيين، بمن فيهم بنجامين بول أكوك، ومارتن ماجير قاي، وجوزيف أودوهو، وجوزيف ملاس، وضباط عسكريون أكفاء مثل مارتن ماكور آليو، ومارتن كاجيفورو، وغيرهم. معظم هؤلاء الضباط لم يسقطوا في المعارك، بل تم إعدامهم سرياً في ظروف مريبة.

طرح هؤلاء الضباط السابقون في القوات المسلحة السّودانيّة أنفسهم، سواء في تعاملاتهم وتصريحاتهم العامة، كقادة لحركة التحرير الوطني وثوار يشاركون الولاء للقضية الثورية. لكن في الخفاء، ومن خلال التلاعب والتداول، كانت شراكة تخريب للثورة. كانت شراكة بين العملاء الإمبرياليين والطبقة الرأسمالية الطفيلية المزدهرة التي تطلع إليها نظام نميري العسكري. كان مشروعًا

بالـغ التعقيـد: سـمح نمـيري لقرنـق بقيـادة تمـرد في جنـوب السّـودان حتـى يتسـنى لـه اسـتكمال مشروعـه الإسـلامي في السّـودان. كان الأمـر أشـبه بـضرب عصفوريـن بحجـر واحـد. وتمثّـل الهـدف الاسـتراتيجي في منـع تحـول التمـرد في جنـوب السّـودان إلى حركـة راديكاليـة عـن طريـق منعـه مـن الانضـمام إلى الانتفاضـة الشـعبية ضـد نمـيري في السّـودان والقـوى الثوريـة المناهضـة للإمبرياليـة في القـرن الأفريقـي والـشرق الأوسـط. وتمكـن نمـيري وأصدقـاؤه الإمبرياليـون مـن اسـتغلال العلاقـات المتينـة بـين الحركـة/ الجيـش والداعمـين الإثيوبيـين.[1]

شـهدت السـبعينيات والثمانينيـات تغـيرات اجتماعيـة وسياسـية عميقـة في منطقـة القـرن الأفريقـي الكـبرى. فقـدت الولايـات المتحـدة قاعدتهـا العسـكرية في إثيوبيـا بعـد الانقـلاب الـذي أطـاح بالإمبراطـور هيـلا سـيلاسي في عـام 1974، واقـترب الديـرغ أكـثر مـن الاتحـاد السـوفيتي وكوبـا بعـد هزيمـة سـياد بـري في أوجاديـن. عـبر خليـج عـدن كانـت جمهوريـة اليمـن الديمقراطيـة الشـعبية في منطقـة النفـوذ السـوفياتي. أمـا في السّـودان، فقـد كان الجـنرال جعفـر نمـيري قـد عـاد لتـوه بعـد فشـل الانقـلاب اليسـاري، وأعـدم القيـادة العليـا للحـزب الشـيوعي السّـودانيّ، وتقـدم ببـطء نحـو علاقـات أكـثر متانةٍ مـع الإدارة الأمريكيـة. خلقـت كل هـذه العوامـل مناخًـا مكـن مجلـس الكنائـس العالمـي مـن التوسـط في اتفاقيـة أديـس أبابـا للسـلام بـين النمـيري والجـنرال جوزيـف لاقـو يانقـا، زعيـم حركـة تحريـر جنـوب السّـودان (SSLM)، تحـت رعايـة الإمبراطـور هيـلا سـيلاسي.

(1) كانـت الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان تعتمـد كليًـا عـلى الحكومـة الإثيوبيـة، في الوقـت الـذي كانـت تخـوض فيـه حروبًـا في إريتريـا وإقليـم تيقـراي. كان لهـذا آثـار سـلبية عـلى النظـام الإثيـوبي.

في أوائل الثمانينيات، كان القرن الإفريقي، الذي يضم السّودان وإثيوبيا والصومال، في قلب التنافس الجيوسياسي الأيديولوجي والاستراتيجي بين القوى العظمى. شهدت المنطقة اضطرابات اجتماعية وسياسية كُبرى. كان الإريتريون يقاتلون من أجل الانفصال عن إثيوبيا. وفي السّودان، واجه نميري، صديق إدارة ريغان حينها، مشاكل سياسية واقتصادية خطيرة، أدت إلى إضرابات ومظاهرات ضد النظام في الشَمال. في الإقليم الجنوبي، اندلع نوع مختلف من الاضطرابات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، وإن لم يرتبط بشكل مباشر بأحداث الشَمال. شهد الجنوب تحديات سياسية خطيرة مرتبطة باكتشاف النفط في غرب أعالي النيل، وقرار النميري بترسيم الحدود، وبالتالي تعيين حقول النفط داخل اقاليم شمال السّودان.

لم تغفل الإدارة الأمريكية عن أهمية موقع السّودان الاستراتيجي كحلقة وصل بين إفريقيا والشرق الأوسط، وحدودها الطويلة مع إثيوبيا. كان لشركة شيفرون استثمارات تزيد عن مليار دولار أمريكي في حقول نفط الجنوب مما سيجعل من أيّ تمرد أو ثورة مهددا بإغلاق أو وقف عمليات شيفرون، وبالتالي، تهديد الأمن القومي للولايات المتحدة. ستحاول وكالة المخابرات المركزية إذن منع مثل هذا الأمر. وهذا ما يدعم فرضية أنه ربما كانت هناك استراتيجية جيوسياسية في الحرب الباردة لتخريب الثورة في الجنوب. تخريب الثورة أمر وارد، ويعلمنا التاريخ عن فشل العديد من الثورات في تحقيق أهدافها، سواء بسبب الضعف الداخلي للثورة أو التدخل الخارجي.

عـلى الرغـم مـن هشاشـته السياسـية المضطربـة، كان الإقليـم الجنـوبي أقـل مـكان في المنطقـة مـن حيـث جاهزيـة إنطـلاق ثـورة اشـتراكية، عكـس مزاعـم منفسـتو الحركـة الشَّـعبيّة لتحريـر السّـودان. لم تكـن الظـروف الموضوعيـة والعوامـل الذاتيـة كافيـة لانـدلاع الثـورة، لأن الثـورة الاشـتراكية تحتـاج بروليتاريـا صناعيـة لقيادتهـا. ينبـع اسـتحالة الثورة الاشـتراكية في الجنـوب مـن غيـاب حركـة طبقـة عاملـة متقدمـة. عُـرف الجنـوب بهيمنـة المحافظـون والسياسـيون اليمينيـون منـذ الاسـتقلال في العـام 1956، ومـن الطبيعـي أن يفشـل هـؤلاء في تحفيـز أيّ عمـل ثـوري في أوسـاط الجماهـير بسـبب طبيعتهم وفشـلهم في اسـتيعاب التناقضـات الأساسـية المتأصلـة في التخلُّـف الاجتماعـي، والاقتصـادي، والثقـافي.

أضـف إلى ذلـك أن الموقـع الجغـرافي الاسـتراتيجي للسـودان يعـرّض أي حركـة ثوريـة في المنطقـة للتخريـب. ففي سـياق الجغرافيا السياسـية والتنافـس بـين القـوى العظمـى في الحـرب البـاردة في القـرن الأفريقـي، لـن يتسـامح الأمريكيـون مـع حركـة ثوريـة لهـا القـدرة عـلى العمـل مـع النظـام الإثيـوبي أو القـوى الثوريـة الأخـرى في الـشرق الأوسـط، لان مثـل هـذه الخطـوة سـتمثل أزمـة كبـيرة للإمبرياليـة. لذلـك كان مـن الـضروري القضـاء عليهـا في مهدهـا، مـن خـلال توظيـف الخـبرة المهنيـة لقرنـق وكـير لمهـام متقطعـة حاذقـة معاديـة للثـورة. كان الهـدف هـو منـع تطورهـا إلى حركـة تحـرر وطنـي حقيقيـة، ينمـو داخلهـا الوعـي السـياسي والأيديولوجـي يربـط المقاتلـين والجماهـير.

لقـد ناقشـت العوامـل الخارجيـة المرتبطـة بتنافـس القـوى العظمى في القـرن الأفريقـي. هـذه العوامـل في حـد ذاتهـا لـن تنجـح في تخريـب

الحركـة وتحولهـا إلى حركـة تحريـر بـدون عوامـل داخليـة مقابلـة. كان هنـاك عامـل داخـلي مرتبـط بالواقـع الموضوعـي لإقليـم الجنـوب، وهـو طمـوح قرنـق للسـلطة. لـولا هـذه السـمة الشـخصية لما تمكـن قرنـق مـن بنـاء الحركـة بجيـشٍ ضخـم يضـم السّـودانيين المهمشـين، ممـن وثقـوا بـه وانضمـوا بعـشرات الآلاف للقتـال مـن أجـل الحريـة، والعدالـة، والأخـوة. فالعلاقـة بـين الحركـة كجسـم تحـرري، ومـشروع السـلطة الشـخصية دقيقـة ويصعـب أحيانًـا ملاحظتـه. وقـد تـوفي قرنق بشـكل مأسـاوي قبـل أن يتمكـن مـن ممارسـة السـلطة التـي عمـل طويـلاً عـلى تحقيقهـا.

سيطرة العسكرتاريا: ثقافة الخوف والأنانية

مـن مأثـورات مـاو تـسي تونـغ أن «القـوة تخـرج مـن فوهـة البندقيـة»، وتعنـي أنّ كلّ مـن يرغـب في السـلطة يجـب أن يبنـي جيشًـا مواليًـا لـه فقـط. كان الجيـش أداة مهمـة في التحـرر الوطنـي في منطقتـي القـرن والبحـيرات الكـبرى في إفريقيـا، وخاصـة مـع نهايـة الحـرب البـاردة، سـواء بهـدف الثـورة الاجتماعيـة، أو الإطاحـة بطاغيـة، أو خدمـة أجنـدة شـخصية. حيـث أُسـقطت أنظمـة قبـل مطلـع القـرن المـاضي في كل مـن السّـودان، وإثيوبيـا، والصومـال، وأوغنـدا، ورواندا، وزائـير، وجمهوريـة إفريقيـا الوسـطى، وتشـاد. أمـا تأثـير حـركات / جبهـات التحريـر / المقاومـة هـذه على الوضـع الاجتماعـي، والاقتصادي، والسـياسي، في فضاءاتهـا، فهـي مسـألة أخـرى خـارج نطـاق الكِتـاب.

ظهـرت الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان في سـياق تفكيـك «السّـودان القديـم» وبنـاء «السّـودان الجديـد. مـا قـد يعنـي المسـاومة وتقاسـم السـلطة مـع حـزب المؤتمـر الوطنـي. فشـلت الحركة في تحقيـق أهدافهـا السياسـية، واسـتقرت بـدلاً مـن ذلـك في جنـوب السّـودان، مـما أثـار اسـتياء النوبـة، والفونـج، وغيرهـم مـن المهمشـين في شرق وشـمال السّـودان. هـدف هـذا القسـم هـو مناقشـة تحـول الحركـة مـن جيـش ثـوري (راديـكالي) إلى جماعـة رجعيـة (عسـكرية) تخـدم أجنـدة قائدهـا الشـخصية في حيـازة السـلطة.

كان الدكتـور جـون قرنـق دي مبيـور أحـد المثقفـين الأفارقـة القلائـل الذيـن انبهـروا باسـتخدام الأسـاليب العسـكرية في عمليـة

التحـرر الوطنـي. انضـم لحركـة أنيانيـا فـور تخرجـه مـن جامعـة دار السـلام عـام 1969، قبـل اسـتيلاء الجـنرال نميري عـلى السـلطة في ذلـك العـام بانقـلاب عسـكري يسـاري وضـع السّـودان عـلى طريـق الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة، وإن كان لفـترة قصـيرة جـدًا. لم يكـن مـن قبيـل المصادفـة أن يختـار ثـوري مؤمـن بأفـكار البـان أفريكانـزم الإنضـمام لحركـة أنيانيـا الرجعيـة بـدلاً مـن العـودة للمشـاركة في بنـاء حركـة ديمقراطيـة في الجنـوب بعـد ثـورة مايـو. والسـؤال الـذي يطرحـه النـاس هـو مـا إذا كان قرنـق قـد اسـتخدم معرفتـه بمكافحـة التمـرد لإخفـاء نيتـه في الانضـمام إلى المتمردين في بـور.

جـاءت سـهولة تشـكيل الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، مـن حيـث توفـر المـوارد البشريـة والماديـة، لتكـون وبـالًا ومصـدر صعوبـة عـلى شـخصٍ مهتـم بالسـلطة الشـخصية. ودفـع إلى ضرورة «التحديـد المبكـر للقيـادة»، واتخـاذ تدابـير أمنيـة صارمـة أدت إلى تطـور التنظيـم إلى جيـش مغلـق، وسري، ومـليء بالمكائـد. اعتمـدت الحركـة/ الجيـش نفـس كـود الأمـن والاسـتخبارات الـذي اعتمـده الجيـش السّـودانيّ. وهكـذا، ومنـذ البدايـة، تشـكّل الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان عـلى غـرار الجيـش السّـودانيّ الرجعـي مـن حيـث التدريـب، والعقيـدة العسـكرية، والتوجيـه المعنـوي، والعلاقـات بـين الضبـاط والجنـود. ومالـت أكـثر نحـو العسـكرة، مـما جعـل التسلسـل الهرمـي (السـلطة) أكـثر أهميـة مـن الأفقيـة (الرفاقيـة) في تشـكيل وتكييـف العلاقـات بـين الرفـاق. تـم فـرض هـذا التسلسـل مـن خـلال شـبكة ضبـاط اسـتخبارات عسـكرية ومخبريـن، تمثلـت مهمتهـم في غـرس الخـوف ونـشر الشـائعات.

ولّد هـذا الوضـع ثقافـة الشـك والخـوف، وأصبـح النـاس مهووسـين بحـبّ النفـس والقيـل والقـال. انتـشرت اللامبـالاة وانعـدام الثقـة أو التضامـن بـين القـوات والضبـاط. ظـلّ الرفـاق متشـككين في بعضهـم البعـض، وحافظـوا عـلى ولائهـم لشـخص واحـد فقـط: الرئيـس والقائـد العـام. كان مناخًـا لعبـادة القـادة، والتملـق، والـصراع ؛ حيـث يقبـل النـاس كلّ مـا يقولـه القائـد مهـما كانـت فظاظتـه ومفارقتـه للـذوق؛ لقـد أراد الجميـع محبـة القائـد. كان وضعـاً مليئًـا بالنفـاق، يناقـش الرفـاق فيـه القضايـا الخاصـة والعامـة بالهمـس، خاصـة مـا يتعلـق بمواقـف وسـلوك ضبـاط الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، ومسـؤولي القيـادة العامـة، والحـراس الشـخصيين. كانـت بيئـة محكومـة بالخـوف والمنافسـة عـلى الرتـب العليـا. نتـج عنهـا التجسـس عـلى الرفـاق، والنميمـة، والتسـلق، وشـهادات الـزور في صفـوف الحركـة التحرريـة. كانـت العسـكرتاريا دواءً فعـالاً لإجبـار النـاس عـلى الخضـوع؛ أيّ نقيضـاً مبـاشرًا للتحريـر.

عندمـا يعمـل المـرء عـلى تحقيـق السـيطرة الفرديـة نـادرًا مـا يدفـع الآخريـن للترقـي نحـو القيـادة. وكقاعـدة عامـة، يـولي القائـد عنايـة فائقـة لضـمان وجـود غـير الأكفـاء في المناصـب العليـا. تـصرف العديـد مـن القـادة العظـماء عـلى هـذا النحـو، ولوحـظ تلاعبهـم وتجاهلهـم للجـدارة. ويوحـي تصريـح جـاك ماليـه دو بـان القائـل أن «الثـورة تـأكل بنيهـا» حرفيـاً بـأن القائـد يدمـر أفضـل العقـول مـن حولـه، أو مـن يشـتبه في رغبتهـم في القيـادة. كانـت هنـاك كثـير مـن حـالات المـوت غـير المـبررة، وحـالات اختفـاء، واعتقـالات طويلـة الأمـد لقـادة وكـوادر الحركـة بـين سـنوات 1984 - 1996. كان مـن الصعـب، في بيئـة

محكومة بالخوف وغريزة البقاء، معرفة السبب الحقيقي لموت و إختفاء بعض القادة.

يتطلب بناء سلطة الفرد في حركة تحرر وطنية، قمع الوعي السياسي الأيديولوجي، وخلق كتلة تفتقر ملكة النقد. الجدير بالذكر أن الأبويّة الاحتكارية والمحسوبية السياسية طغت على أي روح ثورية داخل الحركة، وسهّلت على القائد التلاعب بالمقاتلين من خلال توظيف التناقضات الإثنيّة. وبما أن اللعب على أوتار الخطاب الإثنيّ لم يكن كافيا، كان من الضروري تعزيز النزعة العسكرية لسببين: فرض عبادة شخصية القائد، ومحاربة ثقافة المساواة الأصيلة عند الدينكا، والتي لا تقبل الاستبداد وعبادة الشخصية. والجدير بالذكر أن غالبية المقاتلين كانوا من إثنية الدينكا المنحدرين من شمال بحر الغزال.

عمل قمع الوعي الإيديولوجي والسياسي، وتعزيز النزعة العسكرية داخل حركة التحرر الوطني، على دعم عبادة شخصية القائد، وخدمتْ أغراضاً متعددة مرتبطة بطموحات قرنق في السلطة. أولاً، كانت الفكرة هي استدعاء الولاء المطلق والشخصي لقيادة الدينكا، ممثلة في شخص قرنق، واعتباره تجسيدًا للقائد وليم دينق نيال وخليفته في قيادة الدينكا[1]. ترتبط هذه الصورة بظهور قرنق في قيادة حرب التحرير، وهو الدور المفترض لدينق نيال في حركة أنيانيا، لذلك، كان مجندي الدينكا يقضون ساعات طويلة بمعسكرات التدريب في تأليف الأغاني الحماسية في مدح

(1) كان الراحل وليم دينق نيال هو الزعيم المطلق لدينكا بحر الغزال، وسيطر حزبه على جميع مناطق الدينكا في بحر الغزال، باستثناء بعض المناطق في رمبيك وقوقريال.

قرنـق ودينـق نيـال بـدلاً عـن الثـورة.

ثانيًـا، ظهـر بعـض قـادة الدينـكا مـن بحـر الغـزال مثـل كاربينـو كوانـين (قوقريـال)، وبنيامـين بـول أكـوك، وكـواش مكـوي (أويـل)، في سـياق التعبئـة السياسـية لحـرب التحريـر الوطنـي. شـكك هـؤلاء وتحـدوا قيـادة قرنـق، لأنـه ينحـدر مـن أقليـة دينـكا بـور في أعـالي النيـل وليـس مـن دينـكا بحـر الغـزال. لـذا كان مـن الـضروري إحبـاط طموحاتهـم القياديـة مـن خـلال غـرس أيديولوجيـة الدينـكا الإثنيّـة، التـي تتغـاضى عـن الاختلافـات الطفيفـة بـين الطوائـف أو العشـائر داخـل أمـة الدينـكا. ففـي ضـوء هـذا المنطـق، ينبغـي عـلى مقاتـلي الدينـكا التظاهـر باللامبـالاة وعـدم الانحيـاز في الـصراع عـلى السـلطة بـين قرنـق ونائبـه كاربينـو كوانـين بـول، أو أي زعيـم آخـر مـن زعـماء الدينـكا. ليـس هـذا فحسـب، بـل يجـب عليهـم أيضًـا الوقـوف إلى جانـب قرنـق في أي صراع عـلى السـلطة مـع زعيـم ينتمـي إلى إثنيـة أخـرى، مثـل صموئيـل قـاي تـوت. وقـد أتى ذلـك ثمـاره عندمـا أمـر قرنـق باغتيـال بنجامـين بـول أكـوك، واعتقـال القائـد أروك طـون أروك الـذي كان قـد كسـب ولاء معظـم ضبـاط وجنـود الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان المنحدريـن مـن بـور.

أمـا الهـدف الثالـث، فـكان لرفع قرنق لمسـتوى الإله في السـيكولوجيا الاجتماعيـة للدينـكا، وغـرس شـعور الـولاء والإخـلاص لشـخصه فـوق كل شـخص غـض النظـر عـن خلفيتـه الاجتماعيـة. نجحـت حيلـة إبـراز أيديولوجيـا الدينـكا الإثنيّـة مـن خـلال شـخصية قرنـق بشـكل جيـد للغايـة، كـما نجـح قرنـق في إعـدام بعـض أبـرز قـادة الدينـكا السياسـيين والعسـكريين بتهـم واهيـة مثـل اختطـاف الحركـة. لم يكـن

لـدى هـؤلاء القـادة فرصـة طـرح قضيتهـم لأن أيديولوجيـة الدينـكا الإثنيّـة شـلّت أو تغلبـت عـلى حقوقهـم الفرديـة في اسـتجواب القائـد الـذي حظـي باحـترام كبـير مـن جميـع الدينـكا مثـل المسـيح تقريبًـا.

كان المهـم هـو هيمنـة المجموعـة (الدينـكا) عـلى السـلطة، وفي سـبيلها يمكـن التضحيـة بأفـراد مـن نفـس المجموعـة. خفـف هـذا مـن رد فعـل أفـراد دينـكا ملـوال عندمـا قُتـل زعيمهـم الكاريزمـي بنيامـين بـوك أكـوك في عـام 1984 بـدمٍ بـارد؛ و دينـكا تويـج عندمـا احتجـز كاربينـو كوانـين عـام 1987، وأروك طـون أروك في عـام 1988، وكلاهـما أعضـاء في القيـادة العليـا. جـاءت واقعـة سـجن القائـد أروك طـون أروك أكـثر دراماتيكيـة، إذ لم ينقـذه أيّـاً مـن أفـراد الحركة/الجيـش المنحدريـن مـن بـور، حتـى نجـح في الهـرب مـن سـجن قرنـق بفضـل الخلـل الأمنـي الـذي حـدث مـع إعـلان النـاصر في عـام 1991. يُذكـر أن أيديولوجيـة الدينـكا الإثنيّـة رفعـت قرنـق لمسـتوى رئيـس الدولـة، حيـث تمتـع بمعاملـة الرؤسـاء والسـجادة الحمـراء في عواصـم الإقليـم، في وقـت كان لا يـزال زعيـم متمردين في غابـات جنـوب السّـودان.

التخريب السياسيّ والأيديولوجي للثورة

ليس من الضرورة أن يكون الفلاحون، الذين شكلوا قاعدة الحركة ، ماركسيين أو قادرين على استيعاب الفلسفة الماركسية. لكن كان من المستحيل عليهم الانخراط، دون حد أدنى من التوجيه الأيديولوجي والتدريب، في ثورة تهدف تغيير حياتهم. كانت الدعوة إلى «سودان اشتراكي موحد»، وهو شعار يعبر عن أيديولوجيا يسارية، تفترض مسبقًا معرفة بالنظرية الثورية. الأمر الذي أثبت بالفعل أن جنوب السّودان كان في حالة دنيا من التطور الاجتماعي والاقتصادي، ويفتقر ثقافة العمل السياسي اليساري المنظم. تنحدر قيادة هذه الحركة الوليدة من هذه البيئة - الجزء الأكثر تخلفًا اجتماعيًا، واقتصاديًا، وثقافيًا في السّودان، حيث انعدمت الظروف الموضوعية لقيام ثورة اشتراكية.

أبسط وسيلة لخداع الفقراء، في حالات الجهل والفقر، ليتبعوا مسارًا من هذا النوع هو وعدهم بحياة سماوية حيث يتدفق الحليب والعسل. يضمن كل من الإسلام والمسيحية حياة أفضل بعد الموت لمعتنقي تعاليمها واتباعها، لكن لم يعد أحد من هناك ليخبرنا ما إذا كانت هذه هي الحقيقة. أما الاشتراكية، فهي على الأقل تعد بحياة أفضل قبل الموت، وقد شهد كثيرون كيف حسّنت الاشتراكية حياة ملايين الصينيين. هذه هي صورة «الاشتراكية» كنظام اجتماعي اقتصادي، تحفز أذهان المضطهدين وتدفعهم إلى العمل. اجتذبت الحركة الاشتراكية التي وعدت بالحرية، والعدالة، والازدهار (بقيادة

شخص من الجنوب) آلاف الأتباع، لا سيما من أطراف السّودان في أقصى الشَمال، والشرق، والغرب، والوسط. لقد رأوا في الحركة مُخلِّصًا وانضموا بعشرات الآلاف في تجاوز للإنتماءات الإثنيّة والإقليمية.

يمكن لمنفستوا الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان أن يُقبل بسهولة كقطعة من الأدب اليساري المتطرف. لقد كان دقيقًا وقاطعًا، بشكل مفاجئ، لسياسات الائتلاف المميزة للحركات التحررية أو القومية، واستخفّ ووجه انتقادات لاذعة لقيادة أنيانيا، التي صُعقت من هول هذا الازدراء الشخصي. يكشف فحص محتوى المانفستو عن فراغه الأيديولوجي. لقد كان وثيقة بلا طعم مزخرفًا برطانة وشعارات الاشتراكية، بعضها حتى لا يناسب ظروف السّودان أو إقليم الجنوب. لا بدّ أن قلة، أو ربما مثقفًا واحدًا، على دراية بالأدب والعبارات اليسارية، قد صاغه بهدف وحيد هو الحصول على مساعدة سياسية وعسكرية، لكنه افتقر إلى اللمسة الأيديولوجية التي ترافق عادة الأدب اليساري. لم يضع المنفستو برنامجًا يعالج التناقضات الأساسية التي فرضت النضال الذي زعم أنه يتزعمه. إن مفهوم ورؤية «السّودان الجديد» معلقة في مكان ما بين الخيال السياسي والخداع.

تسبق أي ثورة اشتراكية أمرين مهمين: الطبيعة الطبقية للنضال، ومستوً عالٍ من الوعي السياسي في صفوف المقاتلين والشعب. إن شريحة المجتمع القادرة على خوض صراع طبقي هي الطبقات العاملة وقسم من البرجوازية الصغيرة، وذلك بحكم امتلاكها الأدوات الأيديولوجية والسياسية اللازمة للنضال. يتيح هذا الوعي السياسي إدراكًا صحيحًا للواقع من خلال النظرية

(التفكير) والممارسة (الفعل). لا وجود لثورة اشتراكية دون نظرية ثورية، كما يقول المأثور الماركسي؛ ويجب أن يكون لكل حركة تحرير ايديولوجيا تلخص تحليلها النظري للسياق، وبرنامج عملي لتحقيق هذا الهدف. وعلى حدّ تعبير أميلكار كابرال، فإن النضال من أجل التحرير هو بالضرورة تعبير عن التناقضات الداخلية في الواقع الاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، والتاريخي. وهو الأمر الذي ينطبق على السّودان وجنوب السّودان. ما يعني أن على حركة التحرر الوطني أن تفسح المجال للمعرفة الملموسة لهذا الواقع الأساسي عند صياغة أهدافها وبرنامجها السياسي الهادف لتغيير ذلك الواقع.

كان أول ما فعلته قيادة الحركة هو تشويه سمعة التعليم والمعرفة. جاء ذلك في إحدى خطابات قرنق أمام مجندي الجيش الشعبي لتحرير السّودان، ومعظمهم من رعاة الماشية الأميين في مركز تدريب بونجا:

أخبروا هؤلاء [أي الضباط والطلاب السابقين] بالتخلص من شهاداتهم، إذ ليس لها فائدة هنا. سيأتي منكم (الفلاحون والرعاة) المدراء والإداريين، ولن يكون هؤلاء [أي الضباط والطلاب السابقين] سوى سكرتيرين يعملون تحت أمرتكم.

أي نوع من الثورة الاشتراكية أو الحكومة الثورية يديرها أميّون جاهلون[1]؟ كانت هذه بداية الشعبوية، وسرُعان ما تُرجمت إلى

(1) يتناقض هذا مع فكرة كابرال عن أن القلم أهم من السلاح في مسيرة التحرر الوطني في غينيا بيساو، ومقولة توماس سانكارا «أن الجندي بلا تدريب ايدلوجي مجرد مجرم محتمل».

حظـر التدريـب والتثقيـف السـياسي المنظـم والمنهجـي للمقاتلـين. لا يجـوز الانخـراط في النضـال السـياسي، ناهيـك عـن الكفـاح المسـلح الثـوري، دون حـد أدنى مـن التثقيـف السـياسي والمعرفـة، تطبـع وتتوسـط العلاقـات الاجتماعيـة والسياسـية بـين المقاتلـين، وبينهـم والجماهـير التـي يتفاعلـون معهـا في سـياق حـرب التحريـر.

لا يمكـن فهـم حظـر التثقيـف السـياسي، خاصـة مـع انخفـاض مسـتوى الوعـي الاجتماعـي والمعرفـة الضحلـة فيـما يخـص العمـل السـياسي المنظـم وسـط فلاحـين ورعـاة الجنـوب، إلا بالرغبـة في منـع تطـور الوعـي الثـوري بـين قـادة الحركـة، وكوادرهـا، والمقاتلـين، وكذلـك وسـط الجماهـير. لـذا، فـإن مـا بـدا عـلى أنـه فشـل في إحـداث تطـور للوعـي الثـوري الجماهـيري، كان في الواقـع مصمـمًا بشـكل متعمـد لتقويـض الثَّـوْرَة. كان الهـدف هـو إنتـاج كتلـة غـير نقديـة سـهلة الانقيـاد. يتضافـر هـذا - غيـاب الوعـي الثـوري - مـع التركيـز عـلى النزعـة العسـكرية والروتـين العسـكري، ليخلـق لنـا مـا نـراه مـن علاقـات تربـط القـادة، والكـوادر، والمقاتلـين، والجماهـير.

إن غـرس الوعـي الثـوري والوعـي السـياسي في حـرب التحريـر الوطنـي أهـم مـن البنـادق التـي يحملهـا المقاتلـون. وكـما قـال تومـاس سـانكارا ذات مـرة، «الجنـدي دون تدريـب سـياسي أو أيديولوجـي هـو مجـرم محتمـل». يجـب أن تخلـق الثـورة الوعـي الثـوري، وتدفـع المقاتلـين في جيـش الثـوار إلى التـصرف بشـكل مختلـف عـن عنـاصر جيـش النظـام القمعـي. دون الوعـي الثـوري لـن يكـون هنـاك فـرق بـين أفـراد يرتـدون الـزي الرسـمي ومجرمـين يحملون السـلاح. لقـد كان انحرافًـا جذريًـا عـن الـروح الثوريـة عندمـا خاطـب قرنـق مجموعـة

مـن مقاتـلي الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان في مركـز تدريـب بونجـا: «أن الكلاشـنكوف هـو وسـيلتكم للحصـول عـلى مـا تريـدون - الطعـام والنسـاء». كان بمثابـة إشـارة لجنـود الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان لنهـب، واغتصـاب، وقتـل مـن يُفـترض أنهـم حملـوا السـلاح مـن أجلهـم.

كانـت معسـكرات تدريـب الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان يديرهـا معلمـون رجعيـون تلقـوا تدريبهـم في القـوات المسـلحة السّـودانيّة. غـرس هـؤلاء في صفـوف المجنديـن وأعـادوا إنتـاج ثقافـة العسـكرة والطاعـة العميـاء للأوامـر والتعليـمات. أدى هـذا إلى حـدوث انقسـام في مواقـف وسـلوك المقاتلـين في تواصلهـم مـع النـاس في قراهم. بينـما ردد ضبـاط وجنـود الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان شـعارات الحريـة، والعدالـة، والمسـاواة، والحكـم الديمقراطـي، والازدهـار للجميـع، انخرطـوا في أعـمال تتعـارض مـع هـذه القيـم. ولّد هـذا ارتباكًا في أذهـان النـاس. لا عجـب أن احتـج بعـض النـاس في منطقـة أليـاب بولايـة البحـيرات عندمـا وصفهـم مقاتلـو الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان بأنهـم «رفـاق»، إذ ظنـوا أن «الرفيـق» هـو شـخص يتـصرف بشـكل سيء، ويـضرب الأبريـاء، ويـسرق مـواشي الآخريـن. تسـبب منـع التعليـم السـياسي والتدريـب الإيديولوجـي في وجـود مقاتلـين غـير مسيسـين، يفتقـرون الحساسـية في مراعـاة مخـاوف البسـطاء، الذيـن سرعـان مـا أدركـوا الفـرق بـين الأقـوال والأفعـال.

هنـاك أمـر خبيـث في تعمـد عـدم تسـييس مقاتلـين حركـة تحـرر وطنـي، يتعلـق بطبيعـة علاقـات السـلطة بـين ضبـاط وجنـود حـرب التحريـر مـن جانـب، والحركـة والسـكان المدنيـين مـن جانـب آخـر.

يفـرض الوعـي السـياسي والأيديولوجـي معرفـة السـياق الاجتماعـي والسـياسي للنضـال. ويكتسـب النـاس هـذه السـمات مـن خـلال التعلـم والتجربـة، مـن خـلال التفكـير والعمـل، أثنـاء سـيرورة تكـوّن الوعـي، إذا أعدنـا صياغـة عبـارة باولـو فيريـري (1974). يتعلـم القـادة والشـعب، ويعملـون معًـا لتغيـير الواقـع القمعـي الـذي طمـر وعيهـم. يقولـب هـذا الوعـي الأيديولوجـي المثقـف الثـوري والمـزارع في الفكـر والسـلوك، حتـى يسـتوعب المفاهيـم والقيـم الجوهريـة، ويحفـز تغيـير الموقـف الـذي يتيـح الإدراك الصحيـح للواقـع. تـأتي ضرورة الثـورة مـن ضرورة إحـداث تغيـير في المواقـف والتصـورات، وتصحيـح الواقـع القمعـي، مـن أجـل إطـلاق دوافـع تقـود لإحـداث التحـول.

منحـت الحكومتـان الأثيوبيـة والكوبيـة فرصًـا وتسـهيلات للحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان مـن أجـل التثقيـف السـياسي والأيديولوجـي لقـادة وكوادر ونشـطاء الحركة الناشـئة، سـواء في مدرسـة يكاتيـت السياسـية الثانيـة في أديس أبابا، أو مدرسـة في جزيرة خوفينتود في كوبـا. مثلـت هـذه فرصـة كبـيرة للحركـة، خاصـة كوبـا حيـث أرسـل العديـد مـن حـركات التحريـر في إفريقيـا، وأمريـكا اللاتينيـة، والـشرق الأوسـط كوادرهـا. كانـت هـذه فرصـة للتعلـم المشـترك، ومقارنـة وتبـادل الخـبرة بـين الممارسـات الثوريـة. تعمّـدت الحركـة الشَّـعبيّة لتحريـر السّـودان إرسـال أفـراد بالـكاد قـد يسـتفيدوا، سـواء مـن حيـث أميتهـم أو إرادة تلقـي الأفـكار التقدميـة، وعـادوا مـن الـدورات التدريبيـة في كوبـا وأديـس أبابـا مشـبعين بأفـكار الثـورة المُضـادة.

هنـاك علاقـة مبـاشرة بـين حظـر العمـل السـياسي والأيديولوجـي داخـل الحركـة/ الجيـش - خنـق الوعـي والتأكيـد عـلى العسـكرة -

وعبـادة شـخصية قرنـق. جـاء دعـم الديـرغ للحركـة الناشـئة عـلى أسـاس التضامـن الأيديولوجـي، وهـو مـا يفـسر احجامهـم عـن دعـم حركـة أنيانيـا تـو، التـي نشـأت بعـد تمـرد أكوبـو في عـام 1975. هـذا الموقـف التضامنـي، بالإضافـة إلى الدعـم اللوجسـتي العسـكري، يفـترض مسـبقًا تطـور الموقـف الأيديولوجـي والتنظيـم السـياسي داخـل الحركة. سيُسـاعد الأيديولوجيـون الإثيوبيـون في تحديـد واختيـار المرشـحين المحتملـين مـن الحركـة للخضـوع للتدريـب السـياسي والأيديولوجـي ليصـيروا مفوضـين سياسـيين، ويتولـون بعـد ذلـك التوجهـات السياسـية والمعنويـة داخـل الجيـش. لسـوء الحـظ لم يكـن هذا هـو الحـال. قامت قيـادة الحركـة/ الجيـش باختيـار ضبـاط لم يتمكنـوا مـن اسـتيعاب جوانـب مـن الفلسـفة الماركسـية والاقتصـاد السـياسي، ثـم ممارسـة تلـك التعاليـم. بالـكاد اسـتوعبوا المفاهيـم الأساسـية، ولم يتمكنـوا مـن تفسـير أو نقـل معانيهـا الصحيحـة للمقاتلـين أو الجماهـير.

جـاءت الواجهـة الاشـتراكية التـي طرحتهـا الحركـة مـن قبـل خيـال العديـد مـن أصحـاب التفكـير التقدمـي واليسـاريّ، بمـا في ذلـك بعـض أعضـاء الحـزب الشـيوعي السّـودانيّ. كان بمقـدور هـؤلاء الرفاق تشـكيل نـواة كـوادر اشـتراكية داخـل الحركـة، ويصبحـوا مفوضـين سياسـيين أكـثر معرفـة وجاهزيـة. مـن الحكمـة دائمـا نـشر كـوادر ذات سـمات قياديـة جيـدة، ومعرفـة بالسياسـات الثوريـة، وتسـتوعب التناقضـات التـي تـبرر حـرب التحـرر الوطنـي، للقيـام بالعمـل السـياسي، لا سـيما عـلى المسـتويات الدنيـا مثـل الجنـود و السـكان المدنيـين. مـن شـأن هـذا العمـل السـياسي والأيديولوجـي أن يتوسـط العلاقـات بـين الجيـش والجماهـير، ويسـاعد في توضيـح الطابـع الطبقـي للحـرب، وتحديـد

الأعـداء أو الأصدقـاء. كـما سـينشر التصـور الموضـوع للدولـة والمجتمـع التـي سـعت الحركـة إلى بنائهـا أثنـاء وبعـد حـرب التحريـر.

للأسـف لم يكـن هـذا هـو الحـال. اختـصرت القيـادة العمـل السـياسي في مجـرد ترديـد الشـعارات مـن قبـل المقاتلـين والجماهـير. وهـذا مـا يفـسر سـبب قيامهـا بتحديـد أفـراد معينـين مناسـبين لهـذا النـوع مـن العمـل السـياسي، مـا أدى في النهايـة إلى تربيـة محتالـين ومجرمـين تحـت سـتار اسـم مفوضـين سياسـيين وثـوّار. وهكـذا، وفي طريقهـا لدحـر العـدو، خلّفـت وحـدات الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان آثـار دائمـة لحـالات الاغتصـاب، والقتـل، والوحشـية، وتجريـد المدنيـين مـن إنسـانيتهم، وخاصـة النسـاء والفتيـات (نيابـا، 2000: 51). صـار مـن زعمـت الحركـة حمـل البنـادق مـن أجلهـم ضحاياهـا. كان مـن الواضـح أن هـدف منـع مقاتـلي الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان وكوادرهـا مـن أي انشـغال بالسياسـة هـو إنتـاج وتعزيـز ثقافـة التملـق واللامبـالاة، وتشـجيع الانشـغال بالتسلسـل الهرمـي والرتـب، وضـمان طاعـة عميـاء للأوامـر. خلقـت هـذه الثقافـة رجـال آليـين يحملـون الكلاشـنكوف، ومدربـين عـلى ممارسـة القتـل، بمـن في ذلـك أصدقائهـم.

ليـس هـذا فحسـب. عملـت هـذه الثقافـة عـلى الحـطّ مـن قـدر الفكـر وسـعة الاطـلاع. أخـبرني أحـد المدربـين (تعلمجـي) في معسـكر تدريـب كتيبتنـا (كتيبـة سـونكي): «شـهادة الدكتـوراه التـي بحوزتـك لن تفيـدك هنـا. يمكنـك اسـتخدامها في لـف التبـغ». كان يسـتعرض سـلطته عـبر احتقـاري منطلقـاً مـما قالـه قرنـق سـابقًا في إحـدى محاضراتـه للمجنديـن. أثـارت هـذه الإهانـة حفيظتـي، ودون اهتـمام بالعواقـب

رددتُ متحدياً: «الدكتوراه ليست ورقة، بل معرفة كامنة في عقلي». عوقبت بأن أمضيتُ أسبوعًا في تدريبات إضافية. عرفتُ بعضًا من خريجي الجامعات أصبحوا أمين بعد ستة أشهر في مركز تدريب الجيش الشعبي لتحرير السّودان في بونجا. وهو المركز الذي عُرف لاحقًا باسم معهد الحرب والدراسات الثورية، رغم انعدام كل ما هو ثوري في مناهج المعهد ليبرر الاسم.

لم يكن من الصعب استنتاج أن المعاملة الوحشية التي يتعرض لها كوادر ومقاتلي الجيش الشعبي لتحرير السّودان، وتجريدهم من إنسانيتهم، كانت تهدف إلى إنتاج قوة عسكرية سهلة الانقياد. وهي نفس طريقة التعامل مع السكان المدنيين عندما يكون الجيش الشعبي خارج قواعده ويتصرف كجيش احتلال. ارتكب أفراد الجيش الشعبي انتهاكات ليس بمقدورهم توقع حدوثها في بيوتهم، مثل اغتصاب الفتيات، والأمهات المرضعات، وحتى النساء المُسنّات. يذكر الجيش الشعبي لتحرير السّودان وشعب الديدنقا (في شرق الاستوائية) باعتزاز، قائد كتيبة النحل مارتن مانييل أيويل، على مهنيته العسكرية التي أظهرها عندما طلب من القائد العام أن يأمر بعودة الكتيبة إلى بحر الغزال وتجنب صراع وشيك مع شعب الديدنقا، الذين قضوا على فصيلة من الجيش الشعبي لتحرير السّودان قوامها 51 رجلاً، بعد تنفيذ الكتيبة عمليات اغتصاب وحشية في قرى الديدنقا.

حرب التحرر الوطني هي عملية هدفها تحرير المجتمع من جميع أنواع المشاكل الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والنفسية. كان ينبغي أن يكون هذا هو الردّ على السؤال البلاغي

«تحرير مِن من؟»، الذي طرحه مدافع عن الاتحاد الاشتراكي السّودانيّ عندما هيمن الجيش الشعبي لتحرير السّودان على عناوين الصحف في عام 1984. من المؤسف أن أعتقد العديد من مقاتلي الجيش الشعبي أن التحرير يعني حمل بندقية كلاشنكوف، وإطلاق النار على جنود العدو، واحتلال مواقعهم. من هنا جاء شعورهم باستحقاق شغل المناصب الحكومية، والحصول على رتب في القوات النظامية، وقبل كل شيء الامتياز والثروة بحلول نهاية الحرب. وهذا ما حدث. «نحن من حرّر الوطن»، ليبدأ بعدها ترهيب المنافسين المحتملين، خاصة من ظلوا في مناصب الوظيفة العمومية في ظل نظام الشَمال القمعي بعد ثورة الإنقاذ.

لم يأتِ هذا الموقف وشعور الاستحقاق من فراغ. هو نتاج تطور الحركة/ الجيش ، والطريقة التي أدارت بها حرب التحرر الوطني خارج سياقها السياسي والأيديولوجي. إنها النتيجة المباشرة للتخلي عن التدريب الأيديولوجي والتنوير السياسي للقادة، والكوادر، والمقاتلين، الأمر الذي وضع البحث عن الريع بدلًا عن التضحية غير الأنانية والعمل التطوعي الذي دفع في البداية المجندين إلى صفوف الحركة /الجيش. قلتً في وقت سابق أن الأيديولوجيا هي أحد العناصر الأكثر أهمية في حرب التحرر الوطني ضمن عناصر أخرى مثل التنوير السياسي، والتنظيم، والمأسسة.

من الخطر دعوة الناس إلى حمل السلاح دون منحهم التربية السياسية. والأخطر من ذلك هو تأجيل العمل السياسي للتحرر الوطني إلى مراحل لاحقة بسبب أولوية المواجهة العسكرية المباشرة مع العدو. يرقى هذا الفعل إلى قطع العلاقات الديالكتيكية بين

وظيفتيّ التحرير الوطني. فالجيش فعال وضروري فقط في سياق هدف سياسي. بدأت الحركة في تنظيم وبناء الجيش الشعبي قبل الكادر السياسي. في الواقع، لم يكن القطاع موجوداً إلا في لحظات التقلبات والارتباك، حيث يظهر الجسمان في علاقة جدلية. بينما هيمن الفصيل العسكري على الفصيل السياسي في جميع الأمور العملية للحركة. لا بد أن المواجهة الأولية بين السياسيين والضباط العسكريين، التي منعها التدخل الإثيوبي، دفعت قيادة الحركة إلى نبذ العمل السياسي بشكل عام، والتنظيمي بشكل خاص. وبما أن كل شيء يحدث لسبب، فقد كانت هيمنة الجيش على الحركة الوليدة بهدف مركزة وحصر قوة وسلطة الحركة.

جدير بالذكر أنه بعد حسم الخلافات القيادية، لم تتمكن القيادة المكونة من السياسيين والضباط العسكريين من الاتفاق على الهيكل التنظيمي الذي من شأنه أن يمنح السلطة للقيادة السياسية وليس القيادة العسكرية. من الواضح أن التأثير المفرط الذي مارسه مبعوث الديرغ على هؤلاء القادة أدى لحسم التنافس لصالح القيادة العسكرية للحركة في شخص الدكتور جون قرنق دي مابيور. وكان نيله درجة الدكتوراه وكونه عقيدا في الجيش قد غيرت الموازين، وبرز رئيسًا للجنة المركزية المؤقتة، وكذلك القائد العام للجيش. من الناحية العملية، سيكون التمييز بين رئيس الحركة والقائد العام للجيش واضحًا لو تمايز المكونان في مجالاتهما المهنية. لم يحدث هذا، وبالتالي اندمجت الوظائف السياسية والعسكرية للحركة الناشئة في شيء واحد. أدى التركيز المفرط على الجيش في حركة التحرير إلى تهميش ونبذ السياسيين شيئا فشيئا.

ظهـر الموقـف السـلبي تجـاه السياسـيين، والرغبـة في تخليـص الحركـة مـن التنويـر السـياسي، داخـل مراكـز تدريـب الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان. كان المجنـدون يقضـون سـاعات، حتـى في وقـت متأخـر مـن الليـل، يـرددون شـعارات فارغـة أو ينشـدون أغـاني معنويـة تمـدح رئيـس وقيـادة الحركـة. ورفـض المدربـون بشـدة محـاولات تقديـم تفسـير سـياسي لبعـض الأحـداث داخـل السّـودان أو خارجـه، وكانـوا يجيبـون عـادة «هـذا ليـس برلمانًـا». فهمـتُ هـذا لاحقًـا عندمـا جاءتنـي تعليـمات حـوالي السـاعة الواحـدة صباحًـا بمقابلـة قرنـق. لقـد أذهلنـي أنهـم رأوا في بعـض الـدروس السياسـية التـي عرضتُهـا عـلى المجنديـن في كتيبـة «سـونكي» تحريضًـا سـلبي مضـاد للحركـة.

- «جاءتني معلومات بخصوصك من ضباط الاستخبارات». قـال لي القائـد العـام.

- «لا بد أنهم كذبوا عليك»

- «كـفّ عـن هـذا»، قـال محـذرًا من تغيـير الموضـوع. ثم ألقـى عـلى مسـامعي محـاضرة عـن كيـف انتظـر الثـوار الإثيوبيـون 12 عامًـا قبـل تأسـيس حـزب العـمال الإثيـوبي، وكيـف ينبغـي أن نفعـل الـشيء نفسـه دون اسـتعجال.

- أجبتُـه «وضعنـا مختلف عن الواقع الإثيوبي. لقد اسـتولى الضبـاط الثوريـون هنـاك عـلى السـلطة بانقـلاب، ووفقـاً للظـروف الموضوعيـة في إثيوبيـا، اسـتغرق الضبـاط وقـت كثـير مـن أجـل تحقيـق هـذه المهمـة، لأنهـم كانـوا مشـغولون بمهـام أخـرى مثـل تحريـر الأرض مـن الملكيـة الإقطاعيـة، وحمـلات محـو الأميـة لنـشر المعرفـة الثوريـة،

وغيرها، بينما بدأنا بقيادة الشعب في كفاح ثوري مسلح للاستيلاء على الخرطوم. هذا يعني أن على الناس معرفة وفهم جميع الخطوات التي نتخذها حتى يدعموا الثورة».

لم يعجب قرنق ما قلتُه، وهتف «انتباه. أخرج سأحادثك لاحقًا». لكنه لم يفعل.

وضعني لقاء منتصف الليل القصير هذا في دوامة فكرية منعتني النوم حتى شروق الشمس. استدعيتُ منفستو الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان، وبدأت أفكر في فصوله، لا سيما البنود المتعلقة بالكفاح الثوري المسلح الذي طال أمده. ووجدتُ أنه من غير المفهوم إجراء كفاح ثوري مسلح دون قدر من التثقيف السياسي لمن يشكلون الجزء الأكبر من مجندي الجيش. قادت خلفيتي الأيديولوجية والسياسية والحوار القصير مع قرنق إلى استنتاج إما إنه لم يكن لديه سوى قليل معرفة بحرب الشعب، أو كان يستغل ظروف حرب الشعب من أجل طموح شخصي في السلطة، كما ناقشتُ سابقًا.

وهذا ما يفسر ازدرائه القادة السياسيين الذين انضموا إلى صفوف حركة التحرير في الأيام الأولى للحرب. كان وقتًا صعبًا حينها أن تكون سياسيًا، وخاصة السياسيون اليمينيون الذين لم يألفوا هكذا مواقف. فقد وجدوا أنفسهم تحت رحمة ضباط جيش لا يرحمون، وجدوا متعة في إذلال الوزراء السابقين في حكومة الإقليم الجنوبي، وانتهى المطاف بالعديد من هؤلاء السياسيين في سجون الجيش الشعبي ومعسكرات الاعتقال. كانت المعاملة المهينة للساسة، والمثقفين بشكل عام، بمثابة النهاية والإهمال التام للعمل

السـياسي المنظـم في حركـة التحريـر. وأصبـح التدريـب العسـكري إلزامياً عـلى جميـع المنضمـين إلى حركـة التحريـر، بغـض النظـر عـن أعمارهـم ولياقتهـم البدنيـة.

لـكل شيء غايـة. لا يهـم مـا إذا كنـت تـدرك ذلـك الآن أو في المسـتقبل. الغـرض مـن التنظيـم في أي جسـم - وبشـكل أكـثر تحديـدًا في الحركـة السياسـية - هـو الجمـع بـين أجزائـه وجعـل النظـام يعمـل فعاليـة. في الحـزب السـياسي أو حركـة التحـرر الوطنـي، تشـكل الأجـزاء المختلفـة معًـا الـكلّ، ولا يمكـن للـكلّ أن يعمـل بفعاليـة دون الأجـزاء المكونـة. وفي هـذا الصـدد، سـيكون مـن الصعـب القيـام بعمـل سـياسي دون تنظيـم يربـط الأجـزاء المختلفـة في وحـدة سياسـية وأيديولوجيـة. يجـد التنظيـم الوحـدة، والوئـام، والانضبـاط في الرتبـة بنـاءً عـلى الاقتنـاع بالقضيـة والالتـزام بهـا بينـما تتوقـف هـذه بداهـة، عـلى الوعـي السـياسي مـن جانـب المقاتلـين والشـعب.

أدرجـت الحركة/الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، نظريًـا، في هـذا التكويـن، الوظائـف المزدوجـة للأبعـاد السياسـية والعسـكرية للتحريـر الوطنـي. لكـن مـن الناحيـة العمليـة، لم ينفصـل الاثنـان كُلّا في المجـالات المهنيـة الخاصـة بـه. رفضـت القيـادة فصـل الحركـة عـن الجيـش، بحيـث تقـود الأولى بينـما تلتـزم الثانيـة بسـلطتها، كـما يُمـارس في الـدول الحديثـة حيـث تخضـع القـوات المسـلحة للسـلطة السياسـية والمدنيـة بحيـث يظـل رئيـس الهيـكل السـياسي للحركـة الشَّـعبيّة هـو القائـد العـام للجيـش دون مخـاوف، حتـى لـو شـغل هاذيـن المنصبـين نفـس الشـخص. لكـن القيـادة أصرت عـلى علـو الجيـش عـلى الحركـة بحيـث اختفـى العمـل السـياسي المنظـم داخـل حركـة التحـرر.

الهـدف السـياسي الاسـتراتيجي للحـزب أو حركـة التحـرر هـو الاسـتيلاء عـلى الدولـة لتغيـير المجتمـع بمـا يتوافـق مـع ايديولوجيتهـا. وفي النضـال السـياسي للاسـتيلاء عـلى سـلطة الدولـة، يجـب عـلى الحزب أو حركـة التحـرر الالتـزام بدرجـة معينـة مـن الهيـكل التنظيمـي، يكون بسـيطًا ويسـمح بسـهولة تـداول الأفـكار والاتصـالات الحزبيـة، ويمكـن الأعضـاء مـن المشـاركة في قـرارات الحـزب. الأدوات الأساسـية في العمـل السـياسي هـي الدسـتور، واللوائـح الداخلية، والبرنامج السـياسي. يشـمل الأخـير الفضـاءات الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية لعمـل الحـزب أو الحركـة؛ بينـما يحـدد دسـتور الحـزب أو الحركـة نظرتهـا للعـالم أو الأيديولوجيـا، والمبـادئ التوجيهيـة، والأهـداف السياسـية الاسـتراتيجية، وأجهـزة الحـزب، والعلاقـات فيـما بينهـا؛ بينـما تحـدد اللوائـح الداخلية، كـما يوحـي الاسـم، العضويـة، والحقـوق، والالتزامـات والعلاقـات فيـما بينهـا، بالإضافـة إلى وظائـف مختلـف أجهـزة الحـزب، أو بمعنـى آخـر، التحديـد الواضـح لـلأدوار والمسـؤوليات.

تختلـف الترتيبـات العسـكرية عـن التنظيـم السـياسي. ومـع الدمـج بـين الوظائـف العسـكرية والسياسـية داخـل الحركـة الشَّـعبيّة، تطلـب الأمـر درجـة عاليـة مـن المهـارة السياسـية والأيديولوجيـة للعمـل بفعاليـة دون التضحيـة بـأي مـن المجالـين. تنقسـم أفـواج الجيـش إلى وحـدات مكونـة مثـل الفـرق، والفصائـل، والسرايـا، والكتائـب، والألوية، وتعمـل عـلى الأوامـر التـي يتـم تمريرهـا بشـكل هرمـي مـن الأعـلى إلى الأسـفل، مـع وجـوب الطاعـة الفوريـة للأوامـر؛ إذ لا يجـوز الاختـلاف أو إظهـار عـدم الانضبـاط في الجيـش، الـذي قـد يـؤدي لمحاكمـة عسـكرية تشـمل المـوت رميـا بالرصـاص، أو السـجن، أو الفصـل.

لا يتطلب الحزب السياسي سوى الالتزام بالمبادئ، والدستور، والالتزام ببرنامج الحزب. ويحافظ الرفاق على علاقات أفقية وهرمية في أداء وظائفهم الحزبية. يناقش الرفاق القضايا، وتمتاز الأحزاب الثورية بتأييد مبادئ المركزية الديمقراطية، والنقد، والنقد الذاتي، كما يُدار الخلاف السياسي والأيديولوجي من خلال أدوات النضال السياسي والأيديولوجي الديمقراطي وهو أسلوب يساعد على توضيح نقاط الاختلاف، ومعالجتها، وحلها بكل سهولة.

خلق الالتزام بالتقاليد العسكرية والسياسية داخل الحركة ، تناقضًا وانفصالًا خطيرًا بين النظرية والممارسة. فبينما تتطلب القضايا العسكرية أوامرًا للتنفيذ، تُمارس السياسة من خلال النقاش حول الخلاف المحتمل. وجد العديد من الكوادر والمقاتلين، من أصحاب الوعي التقدمي، أنفسهم في وضع صعب عند التعامل مع كبار القادة الرجعيين و سيطرت الأوامر العسكرية في معظم الحالات. اختارت قيادة الحركة حلولاً سهلة لضمان نتائج سريعة وحل التناقضات المتأصلة في هذه البنية التنظيمية، وفرضت نظامًا وانضباطًا عسكريًا صارمًا، مما فضح الكذبة القائلة إن الفرد داخل الحركة/ الجيش كان جنديًا وسياسيًا في نفس الوقت. حاولوا تبرير هذه الكذبة بالقول إن قرار الفرد بالانضمام إلى حركة التحرير قرارًا سياسيًا. بينما كان الجندي/السياسي داخل الحركة مجرد آلة، بلا وعي، وبالتالي، لم يكن إنسان ثوري يخوض حربًا للتحرر الوطني.

ذكرتُ سابقًا أن لكل شيء هدف. لم تكن النية وراء التوليفة العسكروسياسية داخل الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان

سـوى احتـكار السـلطة والنفـوذ وشَـخصنتها في صـورة القائـد. مـن خصائـص الحركـة السياسـية أن السـلطة والنفـوذ تقـع على عاتـق قيادة سياسـية مؤسسـية، بحيـث تتمأسسـس هـذه السـلطة وتتنـزل – كـما في جميـع أجـزاء العـالم - في شـكل أجهـزة وأدوات. رفضـت القيـادة بنـاء مؤسسـات وأدوات، رغـم الاختـلال الوظيفـي الـذي شـاب عمـل القيادة العسـكرية السياسـية العليـا، وجعلهـا جسـم بـلا مهـام أو لوائـح تُسـيّر أعمالهـا. لم تجتمـع القيـادة العسـكرية السياسـية العليـا أبـدًا حتـى موتهـا الحتمـي في العـام 1994، وذلـك لسـبب بسـيط: لم يرغـب قرنـق في مشـاركة صنـع القـرار مـع أي شـخص، بمـا في ذلـك أعضـاء القيـادة العسـكرية السياسـية العليـا. فالاحتـكام للمؤسسـات يعنـي مشـاركة بعـض الأشـخاص في اتخـاذ قـرارات بشـأن حركـة التحـرر، الأمـر الـذي لـن يقبلـه قرنـق الرافـض لتفويـض أيّـاً مـن سـلطاته.

كان لرفـض التنظيـم السـياسي وبنـاء المؤسسـات الديمقراطيـة أثـرًا سـلبيًا عـلى العديـد مـن الأصعـدة. لتفـادي الإطالـة، سـأناقش ثلاثـة اضطرابـات عظيمـة هـزت الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحرير السّـودان. جـاءت أول صدمـة سياسـية وعسـكرية كبـيرة بعـد إعـلان النـاصر في 28 أغسـطس 1991، بقيـادة ثلاثـة مـن أعضـاء القيـادة العسـكرية السياسـية العليـا. كشـفت الخطـوة، والتـي أطلقـت عليهـا إسـم «الثورة الكاسـحة»، غيـاب الديمقراطيـة داخـل حركـة التحـرر عـلى رغـم مـن رفـع قـادة نـاصر شـعار تقريـر المصـير لشـعب جنـوب السّـودان. قبـل أربـع سـنوات، في العـام 1987، أثـار نائـب رئيـس الحركـة ونائـب القائـد العـام، كاربينـو كوانـين، وبدعـم مـن بعـض الضبـاط التقدميـين في الجيـش الشـعبي، قضيـة الديمقراطيـة داخـل الحركـة، وسرعـان مـا

قام قرنق، وبمساعدة الأمن الإثيوبي، بقمع هذه الخطوة الإصلاحية واعتقال واحتجاز كاربينو وستة وعشرين ضابطاً آخرين.

وتجدر الإشارة إلى أن الحركة/ الجيش نمت وتطورت بشكل كبير نوعاً وكماً. وكان لا بد أن يأتي وقت تغلب فيه الوظائف السياسية على الوظائف العسكرية، وبالتالي، كان من الضروري، بل الحتمي، بناء هياكل ديمقراطية تهدف لتدريب القادة، والكوادر، والمقاتلين على الحكم الديمقراطي. كانت الدعوة لإصلاح وهيكلة الحركة حاضرة لولا إعاقة قرنق كلّ السبل أمام الخطاب الديمقراطي في الحركة، معتمداً على جهاز أمني واستخباراتي استبدادي لقمع أي تحريض من أجل الإصلاحات في مهدها. وُلد إعلان الناصر في هذا الجو السياسي الخانق، في وقت كانت فيه الحركة/ الجيش في أضعف حالاتها بعد الإطاحة بنظام الديرغ الإثيوبي، ولم يعد بإمكان قرنق تلقي الدعم من إثيوبيا لقمع التمرد.

واجه إعلان الناصر صعوبات، وشابه ضعف يتعلق بغياب التنظيم والوعي السياسي. قد ظهر ذلك بوضوح في سوء الإعداد، من حيث العمل السياسي، والتنفيذ العسكري لهذه الخطوة. علمت المخابرات العسكرية للجيش الشعبي لتحرير السّودان بالخطط، واعتقلت الضباط الذين أرسلوا إلى الاستوائية للتحريض على هذه الخطوة. أظهرت الأحداث استحالة الاستيلاء على حركة تحرير منتشرة في جميع أنحاء جنوب السّودان بدون تنظيم قوي. كان إصدار إعلان في مكان بعيد مثل الناصر، دون إعتقال قرنق، بداية غير حكيمة. تحدث الانقلابات العسكرية الكلاسيكية للاستيلاء على السلطة من خلال تحييد عناصر وأدوات تلك القوة

أولاً، جنبًا إلى جنب مع الاستيلاء على الاتصالات وأنظمة البث العامة مثل الراديو والتلفزيون. لم يكن هذا هو الحال مع قادة الناصر، وهذا ما يفسر سبب هزيمة حركتهم في النهاية.

فشل إعلان الناصر في انتزاع السلطة ولم يكن هناك من طريقة لنجاح هذه الخطوة. فقد اندفعت تجاه ما أصبح سمة مميزة لحركة التحرير: نبذ التنظيم السياسي وقمع الوعي. استخدم قادة إعلان الناصر نفس الأساليب غير الديمقراطية لبناء ديمقراطية زائفة. ولأنها حركة انقلابية في الجوهر وليست سياسية، جاءت الأوامر بإعدامات ناجزة على المنشقين، وهم بشكل رئيسي من الدينكا المقيمين في الناصر. أدى إعلان الناصر إلى حدوث انقسام داخل الحركة/ الجيش ، أثمرت عن اندلاع قتال داخلي بين فصائل الجيش الشعبي لتحرير السّودان وتدمير هائل في الأرواح والممتلكات. تحمل أفراد مجموعة الدينكا في جونقلي وطأة هذا الدمار، بما في ذلك اختطاف الأطفال والنساء وسرقة الماشية. ويقال أن بعض الجماعات في جونقلي ما زالت تحمل ضغينة ضد زعماء الناصر بسبب ممارساتهم السابقة، ومثّل إنشقاق الناصر حلقة مرجعية في تحديد علاقات بعض قادة بور بقادة الإنشقاق. يكفي أن نقول إن خطوة الناصر توحي لكثير من الناس في جنوب السّودان عن كيف تتحول الأحداث السياسية داخل الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان لعداء إثنيّ.

ينبغي تعلم كثير من الدروس من إعلان الناصر فيما يتعلق بما يجب على حركة التحرير فعله لتحسين العلاقات بين إثنيات جنوب السّودان. وكان مفاجئا أن قيادة الحركة/ الجيش الشعبي

لتحرير السّودان (فصيل توريت) لم تستخلص الدروس في مؤتمرها القومي العام (1994) من حيث إعادة تنظيم وهيكلة الفصيل، مع الأخذ بعين الاعتبار الأخطاء التي أدت إلى إعلان ناصر. تتطلب العديد من القضايا، الوطنية، والإقليمية والدولية، تحليلاً وتقييمًا نقديًا، تحديداً تلك التي من شأنها أن تعيد تحديد مسار تطور الحركة بعد هزيمة هيلاسيلاسي وصعود الجبهة الثورية الديمقراطية الشعبية الإثيوبية إلى السلطة. أدى الانسحاب المفاجئ، وغير المخطط، للجيش الشعبي لتحرير السّودان إلى داخل حدود السّودان، وتفاقم الوضع الداخلي، إلى اعتقال ثلاثة أعضاء دائمين وتمرد أربعة أعضاء مناوبين في القيادة العسكرية العليا للحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان[1]. لم تتم مناقشة هذه الأمور بشكل كافٍ، وبالتالي، لم ينتج عن المؤتمر العام أي اتجاه واضح.

لا تذوب التناقضات الاجتماعية والسياسية أو تختفي من تلقاء نفسها؛ يتطلب حلها معالجة عناصر الصراع المتأصلة في التناقض. أما التحايل، وتجاهل أو رفض معالجة هذه العناصر المتضاربة، على أمل حلها أو اختفائها، فهو ضمان تَمظهرها بطريقة عنيفة. تحرّك هذه التناقضات الصراع وتدمر المنظومة. بالعودة للتاريخ، كان من الممكن تجنب معظم الاضطرابات الاجتماعية والسياسية التي ابتليت بها الحركة الشعبيّة في حال انشئت حركة التحرير مؤسسات وأدوات لمعالجتها. لم يعالج المؤتمر القومي الأول (1994) إشكالية إعلان الناصر والانقسام الذي تلاه بهدف تحديد نقاط ضعف المنظومة الداخلية. كان من شأن ذلك أن يساعد في تقوية

(1) كاربينو كوانين بول، أروك طون أروك، وليام نيون بنج، جون كولانق بوت، ريك مشار، لام أكول أجاوين، جوردون كونق شول.

نقاط الضعف وتمتين الوحدة والانضباط الداخليين في الحركة. كانت فرصة لم تستغل لتقييم الأداء السياسي والعسكري للحركة منذ نشأتها في 1983. وهي المرة الأولى التي يلتقي فيها قادة، وكوادر، وضباط الحركة منذ مغادرة مراكز التدريب، ومثلت لحظة فريدة بعد ثلاث سنوات من انقسام الحركة/ الجيش.

مثّل المؤتمر القومي الأول فرصة للتعلم وممارسة النقد والنقد الذاتي. لسوء الحظ، فإن ثقافة الغرور المفرط تصعب على الناس التعلُّم. كان المؤتمر مجرد اندفاع من أجل «نسيان الماضي»، «فتح صفحة جديدة»، و«المضي قدمًا»، وجميعها «أمور معتادة» في الجيش الشعبي لتحرير السّودان. لم تحتوى مخرجات المؤتمر الذي حمل عنوان «قرارات الانطلاقة الجديدة»، أي أفكار أو خطط جديدة. افتقر المنظمون ثقافة العمل السياسي المنظم والمعرفة الفنيّة اللازمة لتنظيم مؤتمر ضخم يشارك فيه الآلاف من جميع أنحاء السّودان. كانت عواقب تجاهل الحاجة إلى التنظيم واضحة في الجوانب الفنية، والأيديولوجية، والسياسية التي شهدها أول مؤتمر عام للحركة.

الأزمة الثانية التي هزت الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان بعد إعلان الناصر هي أزمة ياي، وأثرت بقوة على قيادتها العليا. طغت الخلافات الشخصية بين قرنق ونائبه سلفا كير ميارديت على نقاط الضعف الهيكلية والتنظيمية الأساسية، والتي انعكست في شخصنة النفوذ والسلطة العامة بدلاً عن مأسستها. ظل هذا المحرك الرئيسي للتناقضات الداخلية للحركة، والسبب الأساسي لفشل اتفاق المصالحة بين الجيش/ الحركة الشَّعبيّة

لتحرير السّودان مع (أنيانيا تو) عام 1988. أدت الإتفاقيات التي أعادت كل من مشار (2002) ولام أكول (2003) للحركة لإندلاع أزمة ياي عام 2004. إن عودة مشار، لام، وأوشانق، وآخرين دون تغييرات هيكلية، تحدد أدوارهم ومسؤولياتهم، سيؤدي لا محالة إلى اضطراب جديد.

لم يتمكن مؤتمر رومبيك في ديسمبر 2004 من معالجة أزمة ياي، ولم يخرج بمخرجات تفيد معالجة نقاط الضعف الهيكلية في الحركة. مثل كل اجتماعات ومؤتمرات الحركة/ الجيش الشعبي قبلها، بدا أن اجتماع رومبيك قد تجاهل القضية الحقيقية. اتضح أنها كانت مجرد لوم متبادل على «قيادة» غير متبلورة دون تحديد صريح لماهية المشكلة. وانتهى الأمر بشعور «دعونا نفتح صفحة جديدة»، مما سمح لقرنق وكير بالتصالح. لا يمكن للمؤتمرات حل التناقضات الحركية الداخلية، فقط المؤسسات ذات الصلة بيدها القيام بذلك. وفي ختام المؤتمر لم يشر أحد إلى كيفية حل أزمة ياي. انهارت المحاولات الفاترة لإعادة هيكلة قوة الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان وسلطتها بمجرد توقيع اتفاقية السلام الشامل مع حزب المؤتمر الوطني، وذهبت طيّ النسيان. وبعد فشله في إعداد الحركة لإدارة الدولة، أرسل قرنق، أخيرًا، قادة الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان، وكوادرها بشكل جماعي للتدريب في جنوب إفريقيا.

خرج مؤتمر رومبيك بقرارات هامة هي تعيين سلفا كير ميارديت لإعادة تنظيم الجيش الشعبي لتحرير السّودان؛ مشار لتنظيم وهيكلة السلطة المدنية للسودان الجديد (CANS)؛ جيمس

واني إيغا لتنظيم حركة التحرير في حزب سياسي، الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان. كانت هذه مهام شاقة تأخرت 21 سنة، ويبدو أن رحلة جنوب إفريقيا قد سهلت على الزعماء الثلاثة نفورهم من تنفيذ الأوامر. ومع ذلك، كان من الممكن أن تمثل هذه فرصة إجراء بعض الإصلاحات قبل أن تشرع الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان في إدارة حكومة ولايات جنوب السّودان بعد نيفاشا. أدى الفشل في معالجة تكوين السلطة، وتوزيع وعلاقات الأدوار والمسؤوليات إلى حدوث اضطراب ثالث. جاء الصراع السياسي هذه المرة بين الرئيس كير ونائبه مشار، والذي اندلع أخيرًا على شكل قتال عنيف في 15 ديسمبر 2013، وأدى إلى اندلاع حرب أهلية جديدة.

تؤكد هذه الاضطرابات على أهمية التنظيم داخل حركة سياسية عسكرية مثل الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان. فأكثر الأنظمة استبدادًا، في جميع أنحاء العالم، تتمتع بتنظيم فعال، وتدير أجسام فعالة تديم سلطتها. كان من الصادم أن تعارض الحركة تطور نظام حكم رسمي في الدولة. لدرجة أن نافست نظام النميري في السوء، وهو النظام الذي اعتاد قرنق احتقاره ووصفه بـ»نظام الرجل الواحد»، رغم تمتع نظام نميري بجسم بيروقراطي لإدارة الدولة. ظلت الحركة تقاوم التغيير على مدى 21 عامًا، حتى أصبح من المستحيل مأسسته، خاصة بعد وفاة قرنق، الوحيد الذي كان قادراً على إدارته.

يعيدنا هذا إلى العوامل الكامنة وراء رفض قرنق تنظيم ومأسسة الحركة/ الجيش، وما إذا كان هذا مرتبطًا بطموحه الشخصي

للسـلطة، أو ذو علاقـة بالبعـد الأوسـع لتنافـس القـوى العظمـى في القـرن الأفريقـي. كان رفـض تنظيـم الحركـة ومأسسَـته هـو الجانـب الآخـر مـن الجهـود المبذولـة لخنـق الديمقراطيـة، وإعاقـة نهـوض الوعي داخـل حركـة التحـرر. ويمكـن أن تكـون الحركـة/ الجيـش تعبـيراً جدليـاً عـن النظريـة والممارسـة، باعتبارهـما وجهـي عملـة، داخـل حركـة تحرر وطنـي. يمثـل الجانـب الأولى البعـد السـياسي ووظائفـه، وتتمظهـر في الإدراك العـام والوعـي السـياسي. في هـذا البعـد يتجـه الرفـاق إلى تـداول، ونقـاش، وحسـم قضايـا التحريـر بشـكل ديمقراطـي. بينـما عـلى الجانـب الآخـر هنـاك الجيـش، ويعمـل بنـاءً عـلى الأوامـر. إن خنـق أحـد أبعـاد النضـال التحريـري هـو النقيـض التـام لعمليـة التحريـر، وخاصـة ذلـك الـذي يسـتلزم قمـع الوعـي الاجتماعـي والسـياسي. تخبرنـا طبيعـة إدارة الأمـور داخـل الحركـة/ الجيـش أن هـذه العلاقـة الديالكتيكيـة لم تهـدف إلى الجمـع بـين الجيـش والسياسـة. تمثلـت غلبـة النزعـة العسـكرية في غـرس الطاعـة العميـاء، وإشـغال المقاتلـين بالروتـين العسـكري، والتسلسـل الهرمـي، وآداب السـلوك؛ وفي نفـس الوقـت توجيـه الوعـي بطريقـة لا تشـكك في القائـد. كان هـذا بمثابـة خيانـة للشـعار الشـائع أن الفـرد في الحركـة كان جنديًـا وسياسـيًا في نفـس الوقـت.

ينتـج عـن خنـق الديمقراطيـة شـيوع الممارسـة الديكتاتوريـة، وبنـاء نظـام يخـدم الإمبرياليـين المهتمـين باسـتخراج ونهـب المـوارد الطبيعيـة. كان بإمـكان قرنـق تحقيـق رغبتـه في السـلطة المطلقـة والشـخصية مـن خـلال بنـاء جيـش بـدلاً مـن حركـة سياسـية. سـاهمت عـدة عوامـل في تطـور حكـم الفـرد داخـل الحركـة ومـن ضمنهـا، وجـود أعـداد كبـيرة

مـن الفلاحـين الأميـين المنغلقـين داخـل لغاتهـم وكان مـن غـير المرجـح أن يطالـب هـؤلاء بمخاطبـة احتياجاتهـم الاجتماعيـة والنفسـية. أدى الانخفـاض المفـرط في أعـداد أعضـاء الجماعـات الإثنيّـة الأخـرى داخـل الحركـة/ الجيـش ، بسـبب الانشـقاقات التـي أعقبـت إعـلان النـاصر واتفاقيـة الخرطـوم، والتـي اجتذبـت العديـد مـن النويـر إلى حكومـة السّـودان، في تعزيـز هيمنـة الدينـكا عـلى الحركـة، ولا سـيما دينـكا بحـر الغـزال[1].

وبحلـول عـام 1995، لم يعـد أحـد يتحـدث عـن المنفسـتو، وهجـر كـوادر ونشـطاء الحركـة اسـتخدام المُثـل والاصطلاحـات الإشـتراكية في أحاديثهـم الشـفهية والمكتوبـة. حلـت عبـارة «صاحـب السـعادة» محـل كلمـة «الرفيـق». ومثّـل هـذا بدايـة التخلـي عـن الـروح الرفاقيـة الثوريـة. تراجعـت حركـة التحريـر إلى حيـث توقفـت حركـة تحريـر جنـوب السّـودان وأنيانيـا عـام 1972، ولسـان حالهـم يقـول، «إذا لم تتمكـن مـن هزيمتهـم انضـم إليهـم». اختفـى مفهـوم ورؤيـة السّـودان الجديـد، ولم تسـتطع الحركـة إكـمال مسـيرة التحريـر الوطنـي. توقـف الكفـاح المسـلح الثـوري الهـادف لتدمـير زمـرة الأقليـة الحاكمـة في السّـودان، وانعدمـت الحـوارات حـول «السّـودان الجديـد»، في وقـت ركنـت فيـه الحركـة لخيـار التوقيـع عـلى إتفـاق سـلام ليـبرالي.

فشـلت الحركـة في إحـداث ثـورة في حـرب التحريـر الوطنـي. تحدث المنفسـتو عـن الحساسـيات الشـعبوية، لكنـه فشـل في إحـداث تحـول

(1) لم يكـن معظـم سـكان الاسـتوائية عـلى درايـة بنـوع الحـرب والمعـارك التقليديـة التـي خاضهـا الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان في مناطـق بعيـدة ، لـذا تركـوا سـاحة المعركـة وعـادوا إلى ديارهـم. كـما أجبر القتـال الضـاري الـذي أعقـب إعـلان النـاصر مجموعـات النوبـة والفونـج عـلى تـرك الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان والعـودة إلى مواطنهـم الأصليـة.

يعقلـن المشـاعر التـي تدفـع النـاس إلى حمـل السـلاح. في الواقـع، كانـت الخلافـات المحليـة، والرغبـة في الحصـول عـلى الأسـلحة الناريـة، هـي مـا جـذب العديـد مـن الفلاحـين للانضـمام إلى الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان في بدايـة الحـرب (نيابـا، 2000: 24). لم يكـن هـذا الفشـل بسـبب نقـص التدريـب الإيديولوجـي، والتنويـر السـياسي، والتنظيـم والمأسسـة فحسـب، بـل بسـبب افتقـار الحركـة إلى برنامـج سـياسي. ومـع غيـاب البرنامـج الثـوري، كان مـن الصعـب، إن لم يكـن مسـتحيل، تحويـل انتصـارات الجيـش الشـعبي العسـكرية إلى حوافـز اجتماعيـة أو اقتصاديـة للجماهـير.

تجلـت عيـوب افتقـار الحركـة إلى برنامـج سـياسي في الحيـاة الاجتماعيـة، والثقافيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية في القـرى والبلـدات التـي خضعـت لإدارتهـا. عندمـا يسـيطر التمـرد عـلى جـزء مـن البـلاد، خـلال حـرب العصابـات الكلاسـيكية، تخـدم المناطـق المحـررة كقاعـدة خلفيـة». لا يمكـن المبالغـة في التأكيـد عـلى الأهميـة الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية لمـا يسـمى بالقـرى والبلـدات المحـررة. كان يجـب تؤسـس هـذه «القاعـدة الخلفيـة» الدولـة المضـادة الآخـذة في النمـو. تتطـور الدولـة المضـادة في نطـاق جغرافيـا وديموغرافيـا المناطـق التـي تحـررت مـن النظـام القمعـي بينـما تتقـدم الحـرب، وتجـبر القـوة المتزايـدة للثـورة العـدو عـلى التراجـع والقيـام بانسـحاب كامـل.

كان ينبغـي ان تكـون هـذه «القاعـدة الخلفيـة»، المواقـع التـي تبـدأ فيهـا الحركـة بتطبيـق رؤيتهـا ومفهومهـا «السّـودان الجديـد»، بمـا يحتـوي مـن مفاهيـم الحريـة، والعدالـة، والأخـوة، والازدهـار، المُثـل التـي لطالمـا تغنّـى بهـا المقاتلـون في أناشـيدهم الحماسـية،

بحيث تقوم الحركة بتنظيم هياكلها ومأسسة الأجهزة التنفيذية، والتشريعية، والقضائية لسلطة الشعب. تستلزم المأسسة هيكلة حركة التحرير في مجالات مهنية متنوعة، بحيث تصبح الحركة حزب الشعب، والجيش الشعبي جيش الشعب، مع بقاء السلطة السياسية في يد هياكل الحركة، بحيث تتمكن من تنظيم الإدارة، والاقتصاد، والخدمات الاجتماعية للدولة الوليدة لتبلغ ذروة التعبئة السياسية في جميع أنحاء البلاد، ويشارك الجميع في الحرب بشكل أو بآخر، باستثناء أولئك الموجودين في المناطق التي لا تزال تحت سيطرة النظام القمعي. ستعمل الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان على تحفيز تنمية قوى الإنتاج الشعبية في جميع قطاعات الزراعة، باعتبارها الدعامة الاقتصادية الأساسية للبلد الجديد و تبني اقتصادًا يشارك فيه الناس في أنشطة إنتاجية مثل إنتاج الغذاء، والتجارة، والصناعات المنزلية؛ بينما توفر إدارة الحركة الشَّعبيّة لتحرير السّودان الأمن، والخدمات الاجتماعية بما في ذلك الصحة، والتعليم، والخدمات البيطرية، وبناء طرق تربط مختلف أنحاء البلاد. من هنا تتولد الثورة، وتعزز لدى الناس شعورًا بالاعتماد على الذات. وفي نفس الوقت تحرر القوى الإنتاج الوطنية من السيطرة والاستغلال الأجنبي.

فشلت الحركة/ الجيش في بناء برنامج سياسي يوازي حرب التحرير الوطنية والاشتباك العسكري مع العدو. وتسبب هذا الفشل، ضمن عوامل أخرى، في الاعتماد الكبير على الدعم المادي والمعنوي الخارجي، كما لم تستطع تلبية متطلبات وأوجه القصور الناتجة عن قطع الاتصال مع البلدات المحصنة، الأمر الذي

تسبب في زيادة معاناة الناس. أدى هذا بدوره إلى هجرة سكانية على نطاق واسع، لا سيما من أعالي النيل وجونقلي، إلى مخيمات اللاجئين في غرب إثيوبيا. مثّل هذا بداية اعتماد جنوب السّودان على المساعدات الإنسانية الدولية داخل وخارج البلاد. أثبت هذا فراغ الشعارات الثورية التي رفعتها، كما نناقش في أقسام أخرى من الكتاب، وخاصة فكرة الكفاح الثوري المسلح المطول. لا يمكن حدوث ونجاح حرب طويلة الأمد إلا في ظل ظروف تمكن الناس على الصمود، والابتكار، والاعتماد على أنفسهم بدلاً من الموارد الخارجية. وهذا يفسر دعوتنا تنمية قوى الشعب الإنتاجية من أجل تشجيع الاعتماد على الذات. وهذا بدوره يعزز عزيمة الشعب، وعزمه على التحرر، واستعداده للتضحيات.

ماذا فعلت الحركة عندما أصبحت أجزاء كبيرة من الجنوب، وجبال النوبة، وجنوب النيل الأزرق تحت سيطرتها العسكرية؟ كان النوبة محظوظين للغاية و لديهم زعيم سياسي في شخص القائد يوسف كوة مكي، والذي تمكن من إنشاء إدارة يديرها قادة اجتماعيين ودينيين محليون. فقد تطلب الوضع في جبال النوبة هذا النوع من القيادة لبناء أساس الاعتماد على الذات. في جنوب النيل الأزرق وجنوب السّودان كانت الأوضاع في القرى والبلدات المحررة سيئة، تذكرنا بالاحتلال العسكري الاستعماري بالمعنى الحقيقي للكلمة. عامل الجيش الشعبي لتحرير السّودان السكان المدنيين مثل الشعب المحتل، لدرجة أن فضل كثيرون نقلهم إلى مخيمات اللاجئين في وقت طبقت فيها الحركة نظام إداري غير معروف في السّودان. وبدلاً من المقاطعات والمناطق التقليدية،

طرحت فكرة «المناطق الإدارية المستقلة» بوجود مسؤول مدني - عسكري في شخص قائد بيده سلطة تنفيذية، وتشريعية، وقضائية على الشعب.

جاءت تجربة المناطق الإدارية المستقلة، إلى جانب هيكل قيادة المنطقة المستقل، كارثية، وخلفت ذكريات مريرة مع السكان المدنيين. غالبا ما كان قائد المنطقة العسكري المدني ضابطًا شابًا في الجيش الشعبي لتحرير السّودان ارتقى في التسلسل الهرمي العسكري دون خبرة سابقة في الخدمة المدنية، ومعظمهم ممن ترك مقاعد الدراسة من المتوسطة أو الثانوية عند بدء الحرب، وأغلبهم من الحراس الشخصيين السابقين للدكتور قرنق. كان عليهم تعلم القيادة عن طريق التجربة، في أماكن بعيدة عن مقار الجيش الشعبي لتحرير السّودان. هذا جعلهم محبوبين لدى الرئيس والقائد العام لأنهم كانوا قادرين على جمع ثروة خرافية من خلال الفساد والابتزاز المباشر.

بحلول عام 1990، أصبحت رقعة الأراضي الواقعة شرق نهر النيل من جنوب نهر السوباط ونزولاً إلى حدود السّودان مع كينيا وأوغندا، وكامل غرب الاستوائية، تحت سيطرة الحركة. تراوح عدد سكان هذه المناطق من ثلاثة إلى أربعة ملايين نسمة في منطقة تفوق مساحتها كينيا. وبسبب الافتقار إلى المؤسسات السياسية والإدارية، وعدم وجود أنشطة اقتصادية، أصبحت المناطق المحررة مثل مخيم كبير للاجئين، تعتمد على المجتمع الدولي في البقاء. وتجلى فشل الحركة في التنظيم السياسي وغياب المؤسسات السياسية والإدارية في المناطق الواقعة تحت سيطرتها العسكرية في بروز صراع

سـياسي داخـلي[1]. يوضـح تحليـل هـذه الديناميكيـات الداخليـة - لا سـيما إعـلان نـاصر (1991)، وأزمـة يـاي (2004)، والحـرب الأهليـة (2013) - أن القاسـم المشـترك بينهـا هـو الاسـتبداد وشـخصنة السـلطة العامـة، وهـو فعـل لا يخالـف المبـادئ والممارسـات الديمقراطيـة فقـط، بـل يقـف عـلى النقيـض مـن تقاليـد المسـاواة في مجتمـع يهيمـن عليـه الفلاحـون.

(1) شـهدت الحركـة /الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان منـذ تأسيسـها في 1983 عـدة انشـقاقات داخليـة. أودوهـو وماجـير (1985)، كاربينـو (1987)، أروك طـون (1988)، مشـار، ولام، وغـردون (1991)، وليـم نيـون (1992)، سـلفاكير (2004)، لام (2009)، مشـار وآخـرون في الحـرب الأهليـة الحاليـة (2013).

تصاعد القومية الإثنيّة داخل الحركة الشعبية

أدت سياسة اللامركزية الإدارية إلى نشوب صراعات بين المجتمعات لتحديد حدود مجالسها المحليّة. وبمساعدة عملاء مخابرات نظام نميري، بدأت المجتمعات سباق تسلح. من المهم الإقرار هنا أن نية العديد من الشباب ممن انضموا في البداية للجيش الشعبي لتحرير السّودان كان جمع الأسلحة ثم العودة إلى ديارهم لتسوية النزاعات المحلية. كان لشباب أبيي وشمال بحر الغزال صراع مع عرب البقارة (مراحيل)، بينما عانى شباب بور من صراع دائم مع المورلي حول سرقة الماشية واختطاف الأطفال. في شمال جونقلي واجه دينكا فدانق نزاع حول الأراضي مع شلك فانيكانق. وكان قد أسهم تشكيل الحركة في صيرورة هذه الصراعات جزءً من حرب التحرير الوطني.

كان من الضروري توعية الجماهير أن صراعاتهم حول الحدود هو تناقض ثانوي ناجم عن التناقض الأساسي بينهم والنظام القمعي. عندما تخلت الحركة عن التعليم والتنوير السياسيين، قامت عن غير قصد بإثارة الوعي الزائف وإبقاء الجماهير في حالة رجعية تجاه الإثنيات الأخرى ورأوا فيها العدو. يتجلى في هذه الحالة المصطلح الماركسي حول الاغتراب أو «فصل الشعب عن وسائل نضاله». توجّب توجيه غضب الجماهير ضد النظام القمعي، ودفعه إلى تحرير أنفسهم بغية تحقيق التحول الذي لم يكن ليتم دون توجهاً إيديولوجياً وسياسياً.

تـرك غيـاب التدريـب الإيديولوجـي والعمـل السـياسي وسـط الريفيـين، وشـكلوا غالبيـة مقاتـلي الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، فراغًـا نفسـيًا مليئًـا بالمواقـف الإثنيّـة الضيقـة أنتجهـا وضعهـم الجديـد. جـاء صعـود الأيديولوجيـات الإثنيّـة الضيقـة بسـبب الفـراغ الإيديولوجـي والسـياسي الناشـئ عـن إهـمال الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان دورهـا التنويـري. لدرجـة أن صُبـغ الـصراع حـول السـلطة، الـذي هـزّ الحركـة الوليـدة في بدايـة تشـكيلها، بطابـع إثنـيّ بـين قرنـق (الدينـكا) ضـد صموئيـل قـاي تـوت (النويـر).

تدخلـت إثيوبيـا وأخـذت جانـب قرنـق. ورغـم أن القـرار اسـتند إلى سـبب غـير إنتمائـه الإثنـيّ، إلا أنـه لعـب دوراً في التنافـس التاريخـي بـين الدينـكا والنويـر، ودفـع حركـة أنيانيـا تـو، وقوامهـا الرئيـسي مـن النويـر، للتمـرد والتحالـف مـع نظـام نميري ضـدّ حركـة التحريـر. لم يكـن مـن المسـتغرب أن تتصاعـد القوميـة العرقيـة للدينـكا وأيديولوجيتهـا الخاصـة بالهيمنـة والسـيطرة إلى درجـة احتـكار جميـع مفاصـل الحركـة/ الجيـش، بـل وتمـضي أبعـد وتـرى أنهـا القـوة المضـادة الوحيـدة في جنـوب السّـودان للنخبـة السياسـية الشـمالية التـي يهيمـن عليهـا العـرب في السّـودان.

غـذّت الهيمنـة العدديـة للدينـكا داخـل الحركـة الوليـدة القوميـة الدينـكا الإثنيّـة، وأصبحـت في بعـض الأحيان السـمة التعريفيـة للحركة/ الجيـش كحركـة تحريـر وطنيـة، رغـم وجـود الإثنيّـات السّـودانية الأخـرى. حـصر الحركـة في قوميـة الدينـكا، ويؤكـده أن أربعـة مـن خمسـة أعضـاء في قيـادة الحركـة كانـوا مـن إثنيـة الدينـكا، أسـهم في تأجيـج حساسـية ونفـور الإثنيـات الأخـرى مـن إحسـاس الدينـكا

بالتفـوق والغطرسـة الإثنيـة، وقـاد إلى ظهـور إيديولوجيـات مضـادة داخـل الحركـة في جميـع أنحـاء الجنـوب ، وجبـال النوبـة، وجنـوب النيـل الأزرق، تسـببت بدورهـا في هـروب جماعـي للقـوات إلى مناطقها الأصليـة، وبالتـالي، شـلل عمليـات الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان.

يعـزى تصاعـد القوميـة الإثنيّـة للدينـكا إلى قوتهـا العدديـة داخـل الحركـة الوليـدة، وانتشـار اسـتخدام لغتهـا، وحقيقـة أن قيـادة الحركـة كانـت في الغالـب مـن الدينـكا. ليـس الأمـر مجـرد صدفـة في حركـة تتكـون مـن أكـثر مـن 60 إثنيـة مـن الجنـوب ، وجبـال النوبـة، وجنـوب النيـل الأزرق. لـذا مـن الـضروري، بـل الأهميـة القصـوى، فحـص تصاعد القوميـة الإثنيّـة. ورغـم أنهـا بـدأت بشـكل غـير محسـوس في المراحـل الأولى مـن حـرب التحريـر الوطنـي، إلا أنهـا تطـورت، وتداخلـت مـع سـلطة الدولـة والتراكـم البـدئي للـثروة، وخلقت خليطـا ينـذر بالانفجار.

تقطـن جنـوب السّـودان أربـع وسـتون قوميـة ومجموعـة ذات أوزان ديموغرافيـة مختلفـة، وعـلى مسـتويات متفاوتـة مـن التنميـة الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والثقافيـة. تسـبب الاحتـلال الاسـتعماري الأوروبي، بـدءًا مـن عـام 1821، في قطع التطور الاجتماعـي، والاقتصادي، والسـياسي الطبيعـي، وجمّـده في المرحلـة البدائيـة. يظـل هـذا الانقطـاع هـو النقطـة المرجعيـة الوحيـدة للوجـود المـادي والنفـسي والسـياسي لجنـوب السّـودان ككيـان. تعايشـت هـذه القوميـات في ظـل العلاقـات التـي تميـز نمـط الإنتـاج مـا قبـل الرأسـمالي. وشـيّد الزانـدي، الشـلك، و الأنـواك، شـبه دول مركزيـة بجيـوش دائمـة عـلى أراضيهـا. بينـما افتقـر الدينـكا والنويـر، أكـبر وثـاني المجموعـات الإثنيّـة عـلى التـوالي، إلى تقليـد السـلطة المركزيـة التقليديـة، ولا يزالـون حتـى الآن بـلا قيـادة

وفي سيرورة تجزئة مستمرة.

كانت الميزة الأكثر عمقا للدولة التركية-المصرية في السّودان هي استغلالها النهم للموارد من أجل تمويل إدارتها. جاب الأتراك، والمصريون، والنوبيون المستعربون غابات ومستنقعات جنوب السّودان بحثا عن الرقيق.

أسهم عدم وجود الأسلحة الحديثة، وانعدام التضامن بين قوميات جنوب السّودان في الضعف الفردي والجماعي، الأمر الذي مكّن المصريين، والأتراك، والمتعاونين من شمال السّودان من تعذيبهم، وهزيمتهم، واستعبادهم، واستعمارهم. لكنهم قاوموا بطرق ووسائل مختلفة. من الجدير بالذكر أن الاسترقاق أصاب سكان العديد من المجتمعات لأن طبيعة سكنهم وانعدام التضامن جعلهم عرضة للخطر. هذه المقاومة غير المتكافئة، والبسالة التي أظهرتها القوميات المختلفة، في مقاومة الاسترقاق الاستعماري وتجارة الرقيق، خلقت تصورات غير واعية وحواجز نفسية حددت لاحقاً مواقف وسلوكيات هذه المجموعات تجاه بعضها البعض. العلاقات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية بين هذه القوميات، وحتى بين الأقسام والعشائر داخل نفس الإثنية، انكسرت بسبب المقاومة غير المتكافئة للعبودية وتجارة الرقيق. لوّنت هذه المواقف النفسية والتصورات الذاتية سلوك الأفراد والجماعات، وكذلك علاقاتهم مع جيرانهم. وهو ما نلاحظه في وصف بعضهم البعض بما يخبرنا عن سلوكهم أثناء فترات التهديد الوجودي.

بعض عشائر دينكا بحر الغزال، وعلى وجه التحديد دينكا ملوال ودينك ريك، يطلقون على أنفسهم اسم مونجانق Muony

Jieng، بينما جميع مجموعات الدينكا الأخرى في البحيرات، وجونقلي، وأعالي النيل، يعرفون أنفسهم باسم جيينق Jieng. لا توجد فروق لغوية كبيرة بين معاني مونجانق وجيينق، تعنيان نفس الشيء وتفهمها جميع عشائر الدينكا. ومع ذلك، فإن مصطلح مونجانق يأخذ لدى دينكا ريك في تونج وقوقريال، ودينكا ملوال في شمال بحر الغزال، معنى آخر يفيد مدلولات الرجولة في طريقة أقرب لجملة (ألمانيا فوق الكُل) «Deutscheland über alles». وهو إحساس مستمد من دورهم الاستثنائي المزعوم في مقاومة الرق وتجارة الرقيق في القرن التاسع عشر، بحيث يدل على القوة العددية والبسالة[1]. يشجّع هذا التصور الذاتي، الكامن في اللاوعي، على تجاهل أو احتقار الجيران مثل البونقو والفرتيت، الذين يشار إليها باسم (دوور)[2].

جمعت حرب التحرر الوطني أهل جنوب السّودان من خلفيات اجتماعية وإثنيّة متنوعة. جاء البعض حركة التحرير ممتلئًا بشعور التفوق بسبب التجربة التي ناقشناها للتو. أدى غياب أو حجب الوعي السياسي، واعتباره مسببًا للانشقاق، إلى ترسيخ هذا الشعور بالتفوق لدى بعض المقاتلين المنحدرين من

(1) في حرب الدينكا التقليدية، يضمن المرء النصر من خلال تجميع أعداد كبيرة من المقاتلين، بحيث يصبح أساسًا للمطالبة بالسلطة أو التفوق على العشائر أو القبائل الأخرى التي تشترك في نفس نوعية التسلح (الرماح والعصي). قد يفسر هذا سبب مطالبة الدينكا (بحر الغزال) بقيادة جنوب السّودان بسبب تفوقهم العددي.

(2) (دوور) لفظة مشتقة من الكلمة العربية «دور» وتعني تحرّك. استخدمها تجار الرقيق لترتيب الرقيق في مسيرهم. بما ان قرى الدينكا على طول طريق تجار الرقيق، شاهدوا الرقيق، ومعظمهم من البونقو، يتلقون أوامر الحركة باللغة العربية (دور). لاحقا استخدم المصطلح في وصف هؤلاء لتمييزهم عن الدينكا.

إثنيـة الدينـكا. و حفـز التفـوق العـددي دينـكا ريـك ودينـكا ملـوال عـلى اسـتعادة ذكريـات التفـوق بينـما هـم في مراكـز تدريـب الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، كـما نسـمع في أغانيهـم الحماسـية. وفي هـذا السـياق، ظهـرت أيديولوجيـا الدينـكا الإثنيّـة داخـل الحركـة/ الجيـش الشـعبي، وتعبيراتهـا عـن التفـوق، قبـل أن تسـتغل النخـب السياسـية هـذه الحساسـيات الاجتماعيـة والسياسـية الجماعيـة لتبريـر امتيـاز الدينـكا للسـلطة والـثروة في جنـوب السّـودان المسـتقل.

يجعـل إحسـاس الدينـكا بالتفـوق قيـادة جنـوب السّـودان حقًـا بالميـلاد للدينـكا، وهـو مـا يـبرر بحثهـم عـن السـلطة وقيـادة جميـع المنظـمات والجمعيـات الاجتماعيـة. بحيـث أصبحـوا عـلى اسـتعداد للقتـال فيـما بينهـم أو مـع الجماعـات الإثنيّـة الأخـرى بشـأن مسـألة السـلطة والقيـادة. دفعـت هـذه الفكـرة بالسـياسي وليـم دينـق نيـال التخـلي عـن زملائـه في حـزب سـانو في شرق إفريقيـا العـام 1965، والعـودة إلى السّـودان منخرطـاً في العمـل السـياسي الداخـلي. اسـتندت سياسـات سـانو بالداخـل حينهـا عـلى التعبئـة الإثنيّـة لضـمان قيـادة الدينـكا للحـزب، وإنجـاز أجنـدة تخاطـب طمـوح الدينـكا للسـلطة. إذا كان العـرب أو النوبيـون المسـتعربون يحكمـون السّـودان، يجـب أن يحكـم الدينـكا جنـوب السّـودان. يتجـلى هـذا لأبعـد حـدود التطـرف بحيـث يصـير أضعـف قائـد دينـكاوي أفضـل وأجـدر مـن قائـد ينحـدر مـن أي إثنيـة أخـرى. عطـل هـذا الموقـف الرجعـي الوحـدة والتضامـن بـين نخبـة الجنـوب السياسـية، وشـتّت جهودهـم في اقتـلاع الحقـوق الاجتماعيـة والسياسـية مـن الأنظمـة الشـمالية المتعاقبـة التـي هيمـن عليهـا العـرب. بـدأت السياسـات الإثنيّـة القائمـة عـلى أيديولوجيـا

شعبوية للديموغرافيا، وإدعاء البسالة في الحرب، والاعتداد المنافق بالنفس، تترسخ في سياسة جنوب السّودان منذ العام 1965. وفي هذا السياق، جاء حزب سانو ليمثل التطلعات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية لمجموعة دينكا (بحر الغزال)، بينما تمثل الجبهة الجنوبية، التي كانت يمينية ونخبوية، مصالح جميع الجنوبيين الآخرين بمن فيهم دينكا أعالي النيل.

إن أيديولوجيا الدينكا الإثنيّة ظاهرة مرتبطة ومتأصّلة في نفسية دينكا ريك ودينكا ملوال في مناطق أويل، وتونج، وقوقريال، التي كانت مراكز نفوذ حزب سانو خلال الديمقراطية البرلمانية الليبرالية الثانية (1965-1969)، وكذلك فترة الحكم الإقليمي الذاتي (1972-1983). تسبب اغتيال وليم دينق نيال عام 1968 في حرمان حزب سانو ودينكا بحر الغزال من زعيم شعبوي كاريزمي، بينما فاقمت ثورة مايو اليسارية (1969) تراجع هيمنة الدينكا على حزب سانو، وانتقال القيادة والسلطة إلى دينكا بور في أعالي النيل في شخصية مولانا أبيل ألير كوي، المحامي الشهير الذي أسهم في التوصل لاتفاقية أديس أبابا، وفاز بثقة نميري الذي عينه رئيسًا مؤقتًا للمجلس التنفيذي الأعلى (HEC)، وظل في المنصب في الفترة 1972 - 1978. جدير بالذكر أن معارضي أبيل ألير كانوا زملائه من دينكا بحر الغزال، خاصة خلال «رياح التغيير» (1978)، المرحلة التي قادت الجنرال جوزيف لاقو لرئاسة المجلس التنفيذي الاعلى.

كان لاقو دخيلاً على السياسة الجنوبية، خصوصاً وأنه صعد لمنصبه القيادي من الجيش كزعيم لحركة أنيانيا وحركة تحرير جنوب السّودان (SSLM). وبسبب تكوينه العسكري، لم يكن لاقو

على دراية بسياسة حافة الهاوية[1] في جنوب السّودان. لم يقتصر الأمر على إفساده التحالف الذي أوصله إلى السلطة، بل أن لاقو فقد السلطة بسرعة عندما صوت مجلس الشعب الإقليمي على عزله، وهي المرحلة التي نجح فيها أبيل الير من إستعادة نفوذه عبر برنامج وحدة الدينكا الذي وضعه المخضرم أندرو ويو، القيادي في حزب سانو المنحدر من دينكا فدانق بأعالي النيل. حدثت المناورات السياسية بخصوص الإقليم الجنوبي في ردهات الاتحاد الاشتراكي السّوداني، لكنها شيدت على طول التنافس بين حزب سانو والجبهة الجنوبية، وبالتالي، على خطوط إثنيّة. وبغض النظر عن الائتلاف الذي نظموه، فشل سانو في نقل السلطة إلى بحر الغزال؛ إذ فاز جوزيف جيمس طمبرة (زاندي) برئاسة المجلس التنفيذي الأعلى في عام 1982، ينوب عنه ضول أشويل أليو (دينكا)، وماثيو أوبور أيانق (شلو) رئيسًا لمجلس الشعب الإقليمي.

تأتي ضرورة السرد أعلاه من أجل تأكيد ديكتاتورية الأرقام في سياسة جنوب السّودان وفي حركة التحرير. فقد أسهم حجم الدينكا داخل الحركة/الجيش في فرض استخدام لغة الدينكا وسيطًا للتواصل. عزز ذلك بدوره، ورسخ بروز الإثنيّة الإيديولوجية للدينكا. فقد شهد انسحاب الجيش إلى داخل الجنوب بعد هزيمة الديرغ الإثيوبي تداول رسائل في المناطق المحررة على شاكلة

(1) سياسة حافة الهاوية هي سياسة موجهة لتحقيق مكاسب محددة عن طريق تصعيد أزمة ما، وإيهام الخصم برفض التنازل أو الرضوخ ولو أدّى ذلك إلى اجتياز حافة الخطر. ويُعتبر وزير الخارجية الأمريكي جون فوستر دالاس أول من استخدم هذا المصطلح (المترجم).

(نعـرف هدفنـا) «Awich ku aŋich ku». إن الظهـور المفاجـئ لمثـل هـذه العبـارات، وتعنـي أن الرفيـق الدينـكاوي يعـرف مـا لا يعرفـه رفاقـه مـن الإثنيـات الأخـرى، كانـت مقدمـة لمـا سـيحدث في جنـوب السّـودان فـور اسـتقلاله. ربمـا كانـت إشـارة إلى التحـول الأيديولوجـي الكامـل مـن الثـورة ورؤيـة «السّـودان الجديـد» إلى جنـوب سـودان مسـتقل.

تـأتي فكـرة إبـراز أيديولوجيـا الدينـكا الإثنيـة عـلى الوطنيـة والأخـوة في جنـوب السّـودان في سـياق حمايـة السـلطة الشـخصية. ومـع ذلـك، طـورت نخبـة الدينـكا السياسـية الفكـرة إلى برنامـج شـامل لبنـاء دولـة الدينـكا في جنـوب السّـودان . جـاء ذلـك في أعقـاب المـوت المأسـاوي لدكتـور قرنـق، وصعـود سـلفا كـير لقيـادة الحركـة الشـعبيّة وحكومـة جنـوب السّـودان، وبنفـس أسـلوب النخبـة السياسـية الشـمالية التـي يهيمـن عليهـا العـرب، أو كيـان الشـمال الـذي سـيطر عـلى الدولـة السّـودانية. حـدد الرئيـس كـير سـمات هـذا البرنامـج عـلى أنـه التمكـين السـياسي والاقتصـادي لشـعب الدينـكا. مـن الجديـر بالذكـر إن عـدم تطـرق مؤتمـر رمبيـك لأزمـة يـاي بعمـق قـد يكـون بقصـد وقـف الخـلاف بـين الدينـكا داخـل الحركـة/ الجيـش وخارجهـا. وتـم تجاهـل تظلـمات التهميـش الزائفـة، التـي أثارتهـا بعـض أفـراد النخبـة السياسـية والعسـكرية المنحـدرة مـن بحـر الغـزال لتحريـك أزمـة يـاي، مـن جـدول أعـمال المؤتمـر مـن بـاب أنهـا تشـتت الانتبـاه ولـن تخـدم أجنـدة قـوة الدينـكا الأوسـع.

بإلقـاء نظـرة عـلى أحـداث المـاضي، يبـدو أن بنـاء دولـة الدينـكا في جنـوب السّـودان كان مـبرر وجـود الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر

السّـودان. يسـتند هـذا الاسـتنتاج عـلى واقـع رفـض القيـادة تنظيـم ودمقرطـة الحركـة: القيـام بذلـك سـيفتح فرصًـا لأفـراد مـن غـير الدينكا تـولي القيـادة، كـما أن البيئـة الديمقراطيـة لـن تسـمح بنمـو أيديولوجيـا الدينـكا الإثنيّـة. قـد يفـسر هـذا سـبب الإشـارة إلى «التحديـد المبكـر» لقيـادة الدينـكا في منفسـتو الحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان لعـام 1983. إن إدعـاء بعـض مثقفـي الدينـكا وقادتهـا السياسـيين في المحافـل المحليـة، والإقليميـة، والدوليـة، بـأن الدينـكا خاضـت الحـرب بمفردهـا وحققـت إسـتقلال جنـوب السّـودان، برغـم زيفـه، يهـدف إلى إضفـاء المصداقيـة عـلى أطروحـة دولـة الدينـكا. و في غيـاب خطـاب مفتـوح وشـفاف، شرعـت النخبـة السياسـية للدينـكا في نمذجـة جنوب السّـودان عـلى تقاليـد وعـادات الدينـكا، ولم يتطلـب الأمـر سـوى عـدد قليـل مـن المتعصبـين المحيطـين بالرئيـس كـير لدفـع فكـرة الهيمنـة الإثنيّـة في الحركة/الجيـش، الحـزب الحاكـم الآن.

شـهدت فـترة السـتة أشـهر التـي أعقبـت وفـاة قرنـق ظاهـرة غريبة مـن العـداء غـير المحسـوس والمؤامـرات بـين قـادة الصـف الأول والثـاني في الحركـة. وسـيطرت رغبـة الاسـتيلاء عـلى السـلطة، والتنافـس عـلى التسلسـل الهرمـي والرتـب بـين القـادة، والكـوادر، والنشـطاء. أصبـح الصعـود داخـل النظـام هـو الشـاغل الرئيـسي لأي مقاتـل في الجيـش الشـعبي، ونتـج عـن ذلـك تراكـم الضغـط السـياسي داخـل الحركـة. تمحـورت معـالم هـذا الضغـط حـول مسـألة السـلطة، مـع تلميحـات متكـررة لأزمـة «يـاي» بغـرض تحديـد مـن؟ وأيّ إثنيـة؟ يجـب أن تمـارس السـلطة. زادت خطـورة الأمـر لدرجـة اسـتقالة بعـض الأعضـاء ومغـادرة المشـهد. اسـتمرت اللعبـة السياسـية لترسـيخ سـلطة سـلفا

كـير الشـخصية بـلا هـوادة في المؤتمـر العـام الثـاني للحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان (2008)، والـذي أفسـدته هـذه اللعبـة تمامًـا. حتـى الوفـاة المأسـاوية في حـادث تحطـم طائـرة لشـخصين رئيسـيين، أتـردد في ذكرهـما هنـا، لم تـردع المـشروع وهدفـه الاسـتراتيجي في تكويـن سـلطة إثنيّـة عـن طريـق التخلـص مـن بعـض القـادة البارزيـن مـن خـارج الدينـكا وإبعادهـم مـن التسلسـل الهرمـي للحركـة.

فشـل المؤتمـر القومـي الثـاني فشـلًا زريعـاً، عـلى الرغـم مـن المـوارد الماليـة والسياسـية الهائلـة التـي وضعـت لعـزل بعـض القـادة، وخاصـةً الدكتـور ريـك مشـار مـن منصـب نائـب الرئيـس، وباقـان أمـوم أوكيـج مـن منصـب الأمـين، مـن التسلسـل الهرمـي للحركـة. تسـبب فشـل اسـتخدام الدسـتور للتخلـص مـن أعـداء سـلفا كـير السياسـيين في الحركـة وحكومـة جنـوب السّـودان في غضـب نخبـة الدينـكا السياسـية، ودفعتهـم لتبنـي اسـتراتيجية جديـدة. لم يعـد الرئيـس كـير يخفـي اشـمئزازه وازدراء هذيـن الزعيمـين، لكـن لم يكـن هنـاك مـن وسـيلة للتخلـص منهـما سـوى الوسـائل الديمقراطيـة. كان عليـه انتظـار الفرصة المناسـبة. وفي هـذه الأثنـاء شرع في الخطـة (ب)، وتهـدف إلى شـلّ الحركـة. لجـا سـلفا كـير، بالتعـاون مـع نخبـة الدينـكا السياسـية، إلى حكـم جنـوب السّـودان مـن خـلال المراسـيم الرئاسـية، وذلـك بفضـل الدسـتور الانتقـالي لجنـوب السّـودان (2011)، الـذي فصلـه بعـض رفاقه القانونيـين لجعلـه حاكـمًا مطلقًـا. في هـذا السـياق، أنشـأت النخبـة السياسـية والتجاريـة للدينـكا مجلـس كبـار أعيـان الدينـكا كحلقـة قـوة حـول رئاسـة كـير، لتحـل مـكان الحركـة الشـعبيّة في وظيفتهـا السياسـية كحـزب حاكـم.

تسببت أيديولوجيا هيمنة الدينكا الإثنيّة، والمبنية على السيطرة الكاملة على الموارد الاقتصادية والسياسية للبلاد، في تحريض ظهور أيديولوجيا إثنية مُضادة. عملت متطلبات حرب التحرير الوطني إلى زيادة اتساع الوعي الاجتماعي، رغم أنها جاءت ضمن معايير التكوين الإثنوثقافي كردّ فعل على الفكر الإثنيّ السائد. يجب أن يحذر أنصار القومية الإثنيّة من إطلاق عداوات إثنيّة لن تنتج إلا حرب الجميع ضد الجميع. يفخر النوير بأنفسهم في مقاومة الإستعمار البريطاني خلال الحقبة الاستعمارية و أدى هذا إلى اندلاع الحرب في لو نوير في عشرينيات القرن الماضي. ونتج عن تصوير النوير الدينكا جبناء جشعين رفضهم قيادة الدينكا لجنوب السّودان. أدى هذا إلى إحياء نبوءات نقوندينق المحفوظة في الأغاني، وحتى تصعيدها إلى مرتبة الديانة. تزعم بعض هذه النبوءات أن شعب النوير سيحكم جنوب السّودان بعد نهاية الحرب مع العرب. ومن المؤسف أن بعض مثقفي وزعماء النوير السياسيين يعتقدون في هذه الرواية. فقد صدقوا الأسطورة وتبنّوها في مواجهة أيديولوجيا الدينكا الإثنية.

تعود نشأة وتطور أيديولوجيا الدينكا الإثنيّة إلى حرب التحرير الوطني. وهي أيديولوجيا رجعية، وانقسامية، وصراعية، تتأسس على سياسات الإقصاء، والتمييز الاجتماعي، والتهميش الاقتصادي. وتعتمد في استمراريتها على ممارسة السياسة وتقاسم السلطة على أساس إثني. في هذا الصدد، يصبح الوزن الديموغرافي المعيار الوحيد للقوة. لكن الظروف الاجتماعية والاقتصادية السائدة في جنوب السّودان لا يمكن أن تسمح بقيام دولة الدينكا بناءً على

المعايير المذكورة أعلاه، خصوصاً مع مراعاة إن الدولة لن تتطور كبنية فوقية في مجتمع لم يتبلور فيه بعد نمط إنتاج محدد.

بناءً على ذلك، يجب في البدء أن يبرز جسم دينكاوي جامع، يوحد ويضم تحته أكثر من 200 عشيرة وبطن. وكما ذكرنا أعلاه، فإن مجتمعات الدينكا والنوير في حالة من التجزئة الدائمة، تجعل كل عشيرة في الدينكا مستقلة تمامًا عن الأقسام الأخرى، بدلاً من الاعتماد على بعضها البعض. جاءت وحدة الدينكا الظاهرية بسبب توسع الدولة الإستعمارية في السّودان. إن السياسة الاستعمارية للحكم غير المباشر، والتي استلزمت بناء مؤسسات الحكم الأهلية، إلى جانب الهياكل الإدارية للدولة الاستعمارية، عجلت بهذا الشعور بالوحدة.

الواقع الذي تتحاشى نخبة الدينكا السياسية ذكره، خلال محاولتها تمثيل قومية/ إيديولوجيا الدينكا الإثنيّة، هو أن ظهور مجلس أعيان الدينكا، كبنية عليا مفترضة لأمة الدينكا، قد زاد من عملية التجزئة بين بطون وعشائر الدينكا، وأدت إلى خلافات بين العشائر نتيجة المنافسة والصراع على السلطة بين النخب السياسية والعسكرية. وعلى الرغم من أن مجلس أعيان الدينكا يضم بعض كبار مسؤولي جهاز الدولة، لم يمنع هذا الصراع المرير بين عشائرهم. وساهم صراع هؤلاء القادة من أجل الصعود في زيادة حدة القتال العشائري، ولا سيما في واراب (قوقريال). الصراع الدائم بين آقوك وآفوك يحركه قادة مجتمعاتهم. وأنعكست المنافسة بين رئيس القضاء السابق أمبروز رينق ورئيس القضاء الحالي، رئيس مجتمع أقوك، شان ريج مادوت، على صراع العشيرتين. لم يساعد

كـون الرجلـين صديقـان مقربـان للرئيـس كـير في توظيـف هـذه العلاقـة لخدمـة السـلام بـين مجتمعاتهـما. وارتكـب الجانبـان فظائـع وانتهـاكات لحقـوق الإنسـان خـلال هـذا القتـال؛ قتلـوا النسـاء والأطفـال، وألقـوا بالأطفـال الصغـار في أكـواخ مشـتعلة.

في ولايـة البحـيرات تتقاتـل عشـائر الأقـار فيـما بينهـا منـذ فـترة طويلـة. لم يسـتطيع حاكـم ولايـة البحـيرات قمـع هـذه النزاعـات، برغم قـوة الجيـش الشـعبي الضخمـة والشرطـة التـي تحـت قيادتـه، وذلـك لسـبب بسـيط، لانـه أصبـح جـزءًا مـن الـصراع بسـبب دعمـه العلنـي لعشـيرته بتقديـم الأسـلحة والذخـيرة. أدى الوضـع في ولايـة البحـيرات بسـبب النزاعـات العشـائرية بـين كل مـن أقـار وقـوك؛ أقـار وشـييك؛ شـييك وأليـاب؛ شـييك وآتـوت؛ إلى إعـلان حالـة الطـوارئ. في جونقـلي، حيـث عاشـت عشـائر الدينـكا في سـلام، بـدأ مـرض التنافـس العشـائري عـلى السـلطة يلقـي بتاثـيره. أصبـح الوضـع في مالـك، جنـوب بـور، غـير مسـتقر، حيـث يتـم تهديـد عشـيرة بالطـرد مـن أراضي أجدادهـم. هـذه أمثلـة تثبـت لا جـدوى قوميـة الدينـكا التـي تنشرهـا النخبـة السياسـية.

ينتـشر دينـكا فدانـق عـلى نطـاق واسـع في أعـالي النيـل (أبيالنـق، أجيـير، نييـل، دونجـول وقـوك)، وجونقـلي (لـوش، روت، باونيـج)، والوحـدة (بـان أرو وألـور)، وشـمال بحـر الغـزال (أبيـي)، وجـزء مـن التونـج (لاوش جينـق)، ولا توحدهـم غـير لغـة الدينـكا فقـط. بالرجـوع لتاريخهـم القريـب، نجـد شـيوع الخلافـات الداخليـة فيـما بينهـم، وليـس مـع جيرانهـم مـن شـلو، أو النويـر، أو المابـان. يثبـت هـذا العـداء المتبـادل والتجزئـة الدائمـة أطروحـة اسـتحالة ظهـور دولـة

الدينـكا في جنـوب السّـودان، رغـم سـعي النخبـة السياسـية لمجلـس أعيـان الدينـكا في إنجـاز هـذا المـشروع.

إن إيديولوجيـة الدينـكا التـي وجـدت تعبيرهـا في سـياق الهيمنـة والسـيطرة عـلى الإثنيـات الأخـرى، ليسـت سـوى محاولـة نخبـة الدينكا السياسـية والتجاريـة السـيطرة عـلى السـلطة والـثروة في جمهوريـة جنـوب السّـودان الفتيـة. نشـأت قوميـة الدينـكا وإيديولوجيتهـا خـلال حـرب التحريـر الوطنـي في جنـوب السّـودان، وفي سـياقها. لكـن طابـع حركـة التحريـر متعـدد الأعـراق لم تسـمح لهـا بالانتشـار خوفـاً مـن تقسـيم الحركـة. في سـعيه للسـلطة الشـخصية، كان عـلى قرنـق أن يضطلـع بالعسـكرة، والترويـج للنزعـة العسـكرية، جنبًـا إلى جنـب مـع عبـادة شـخصية القائـد، مـن أجـل إنتـاج كتلـة مطيعـة غـير نقديـة داخـل حركـة التحريـر. كان جوهـر قوميـة الدينـكا حيلـة مـن النخبـة لعصـب أعـين الدينـكا، وخداعهـم، وتحويـل انتباههـم عـن فشـل النخبـة السياسـية في توفـير التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة.

أيديولوجيـا الدينـكا الإثنيّـة هـي في الأسـاس مـشروع سـلطوي نخبـوي. ومثـل حركـة التحريـر التـي دفعتهـا إلى الوجـود، تتأسـس هذه الأيديولوجيـا عـلى فكـرة كاذبـة ومضللـة حـول ضرورة الإعتـماد عـلى القيـادة الشـخصية للدكتـور جـون قرنـق دي مبيـور بـدل مأسسـة برنامـج سـياسي يخاطـب التناقضـات الأساسـية لحـرب التحريـر الوطنـي. كـما أنهـا أيديولوجيـا مبنيـة عـلى المحسـوبية السياسـية، وتفاعـلات شـبكة وثيقـة مـن الأفـراد مؤمنـين بهـا. بعـد مـوت قرنـق بـدأ التجـاذب حـول المـشروع بسـبب تنافـس مراكـز القـوة داخـل عـالم الدينـكا. يكمـن الفـرق بـين قرنـق وسـلفا كـير في أن الأخـير روج

لقوميـة الدينـكا في سـياق التمكـين السـياسي والاقتصـادي لعصابـات دينـكا ريـك في واراب وأويـل، بينـما حـال ازدرائـه لأقـار (البحـيرات) وبـور (جونقـلي) في إضفـاء بعـد ضبـابي عـلى أيديولوجيـا الهيمنـة.

ارتقـى الرئيـس كـير بأيديولوجيـا الدينـكا الإثنيّـة لمسـتوى سياسـة تمكـين اجتماعـي، واقتصـادي، وسـياسي لنخـب الدينـكا. ومـع ذلـك لم يتحقـق الهـدف رغـم إنفاقـه مـوارد ماليـة واقتصاديـة كبـيرة عـلى هـذه العصابـات. وكانـت النتيجـة تدمـير الأخـوة والترابـط الاجتماعـي في جنـوب السّـودان، اللـذان وحدتـا الشـعب طـوال نضالـه مـن أجـل الحريـة، والعدالـة، والازدهـار، دون بنـاء شيء جوهـري في المقابـل. في الواقـع، ماتـت الأخـوة والتضامـن في جنـوب السّـودان بتاريـخ 16 ديسـمبر 2013، عندمـا ذبحـت جحافـل مليشـيات مثيانـق أنيـور ودوتكـو بنـج آلاف النويـر في جوبـا، ثـم أعـمال القتـل الانتقاميـة اللاحقـة التـي ارتكبهـا النويـر ضـد الدينـكا، وشـلو، وقبائـل أخـرى في بـور، وبانتيـو، وملـكال، والنـاصر، وأكوبـو، وأجـزاء أخـرى مـن جنـوب السّـودان. حـدث كل هـذا بسـبب أثننـة السياسـة القوميـة وشـخصنة السـلطة والنفـوذ.

جـاء تصاعـد قوميـة الدينـكا الإثنيّـة عـلى خلفيـة تحـول السـلطة إلى نخبـة أويـل- واراب السياسية-العسـكرية-التجارية: أيّ الطبقـة الرأسـمالية الطفيليـة الجديـدة التـي ظهـرت بعـد وفـاة الدكتـور جـون قرنـق. نشـأت هـذه الطبقـة مـع أزمـة يـاي، وتركـز هدفهـا حـول انتـزاع السـلطة مـن قرنـق، مـن منطلـق أن غالبيـة مقاتـلي الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان مـن بحـر الغـزال، وبالتـالي، ينبغـي أن تـؤول قيـادة الحركـة وجنـوب السّـودان لهـم. إن عـدم وجـود مؤسسـات

في الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان، ووضع كل السلطات في يد كير، رسخ فكرة أن قوة الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان مستمدة من نخبة بحر الغزال السياسية. وقد اسهمت سيطرة هذه الطبقة الرأسمالية الطفيلية على الدولة في بناء علاقات بهدف تعزيز سلطتها على الصعيدين، الداخلي والخارجي.

التحالف من أجل استغلال ونهب الموارد الطبيعية الهائلة في جنوب السّودان بين الطبقة الطفيلية المزدهرة والرأسمالية الإمبريالية متعددة الجنسيات المبنية، جعل من النظام سلطة ديكتاتورية شمولية، مركزية، وإثنيّة، مهمتها تسهيل الاستغلال والنهب. أسهم هذا النهب في إزدياد التناقض الداخلي الذي أدى إلى الحرب الأهلية. على الرغم من الدمار الهائل للحياة والممتلكات بسبب الحرب الأهلية، فمن الجيد ظهور إيديولوجيا الدينكا الإثنيّة مبكراً مع الحرب الأهلية. توفر الحرب الأهلية شروط تغيير مشهد الفقر، والجهل، والأمية في جنوب السّودان. أصبح الجميع، بمن في ذلك موظفي الحكومة، يعتمدون على المساعدات الغذائية التي يقدمها المجتمع الدولي. تفترس قوات الأمن المدنيين لتغطية منصرفاتهم بينما الدولة على وشك الانهيار اجتماعياً، واقتصادياً، وسياسياً. لقد فهم كل الجنوب سودانيين الآن، بمن في ذلك هولاء في الديسابورا، ما قد تفعله الأيديولوجيا الإثنيّة في دولة متعددة مثل جنوب السّودان.

وسواء ارتبط بتخريب متعمد للثورة، أو منع تطور الصحوة الاجتماعية والوعي السياسي لدى مقاتلي الجيش والجماهير، فإن إهمال العمل السياسي والأيديولوجي في حركة التحرير الوطَنيّة أدى

إلى ظهـور القوميـة الإثنيّـة، وترسـيخها بـين كل جماعـة إثنيّـة. هيمنـت قوميـة الدينـكا الإثنيّـة بسـبب قوتهـا العدديـة، وارتباطهـا بالسـلطة في قمـة هيـكل حركـة التحريـر. إن مـا حـدث في جنـوب السّـودان، بمـا في ذلـك الحـرب الأهليـة، يرتبـط مبـاشرة بافتقـار القـادة، والكـوادر، والنشـطاء السياسـيين للوعـي الإيديولوجـي والسـياسي.

الإنحراف الأيديولوجي اليميني ورحلة السلام

شـهد العـالم في العقديـن الأخيريـن مـن القـرن المـاضي تغـيّرات أساسـية. أهمهـا نهايـة الحـرب البـاردة بـين الغـرب بقيـادة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة والمعسـكر الاشـتراكي بقيـادة الاتحـاد السـوفياتي، وانهيـار الأخـير وتراجـع النظـام الاشـتراكي العالمـي، ومـن ثـم التأثـير على النظـام العالمـي ثنـائي القطـب. تسـبب هـذا التغيـير في انهيـار العديـد مـن الـدول التابعـة التـي كانـت تعتمـد في وجودهـا عـلى مسـاندة السـوفييت. لقـد كان تغيـيرًا هائـلاً، أجـبر العديـد مـن حـركات التحـرر عـلى التوجـه نحـو المـدار الإمبريـالي، والتراجـع الإيديولوجـي. لم تكـن ريـاح التغيـير هـذه بعيـدة عـن منطقـة القـرن الأفريقـي. انهـار النظـام في إثيوبيـا بعـد تقـدم مسـيرة الجبهـة الثوريـة الديمقراطيـة الشـعبية الإثيوبيـة نحـو أديـس أبابـا، واسـتولت الجبهـة الشـعبيّة لتحريـر إريتريـا عـلى السـلطة في أسـمرة. لقـد غـيرت هـذه التطـورات العميقـة إلى الأبـد التكويـن السـياسي للقـرن الأفريقـي الـذي اسـتند في السـابق عـلى حقائـق مـا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة. كانـت مجـرد مسـألة وقـت قبـل أن يجـري الإريتريـون اسـتفتاء لإضفـاء الطابـع الرسـمي عـلى اسـتقلالهم عـن إثيوبيـا وإضفـاء الشرعيـة عليـه. تفككـت الدولـة الصوماليـة عـلى إقطاعيـات عشـائرية، مـع تأثـير مدمـر عـلى البنيـة الأمنيـة للقـرن الأفريقـي. في أجـزاء أخـرى مـن أفريقيـا، انهـار نظـام الفصـل العنـصري في جنـوب أفريقيـا، وتـولى حـزب المؤتمـر الوطنـي الأفريقـي بزعامـة نيلسـون مانديـلا السـلطة في انتخابـات ديمقراطيـة.

باغتت التطورات غير المتوقعة على المسرح الإقليمي والعالمي الحركة. يُعد الاستعداد للاستجابة للتغيرات الدائمة مشكلة في الأنظمة التي يعتمد نشاطها على فرد واحد. بدأت الأزمة في وقت مبكر من نهاية العام 1990: كانت مسألة وقت فقط قبل أن تنهار حكومة الديرغ. كان الجيش الإثيوبي محبطًا للغاية، لدرجة أن بدأ الجنود في الفرار من الجبهات دون حتى استخدام أسلحتهم. أدى هروب منقستو هيلي مريام من أديس أبابا في 20 مايو 1991 إلى تسريع انهيار النظام، لتجد وحدات الجيش الشعبي المنتشرة للدفاع عن أسوسا ضد القوات المشتركة لجبهة تحرير أوروموو وحركة تحرير شعب غامبيلا، في وضع حرج، خصوصاً وأنهم لم يتوقعوا الخسارة المفاجئة لصديقهم الذي لا غنى عنه.

لن يكون لهزيمة الديرغ أثرًا كبير على نضال الشعب السّوداني لو أن الحركة تبنت نظريات وممارسات النضال الثوري المسلح. فمنذ نشأتها في عام 1983، وحتى انسحابها المفاجئ وغير المنظم إلى داخل حدود مناطق جنوب السّودان، خاض الجيش الشعبي الحرب من قواعده في غرب إثيوبيا. وهذا بحد ذاته يعكس أيديولوجيا قيادات الحركة وفكرتهم عن التحرير. ويرجع ذلك إلى أنه بحلول عام 1991، كانت الحركة/ الجيش تسيطر بشكل كامل على غرب الاستوائية، وأجزاء من وسط الاستوائية، وشرق الاستوائية كلها، وأجزاء من منطقة أعالي النيل جنوب نهر السوباط، وأجزاء كبيرة من بحر الغزال. يثير الحفاظ على القواعد في غرب إثيوبيا وليس جنوب السّودان الأسئلة، وقد تُلقي إجاباتها الضوء على طبيعة الحرب والهدف السياسي من الحرب.

نضع مفهوم «القاعدة الخلفية» بين قوسين بسبب أهميتها في جميع حروب التحرير. تشير «القاعدة الخلفية»، بمعناها السياسي والعسكري، إلى جميع الأراضي الواقعة خلف خط المواجهة المتاخم للمنطقة التي يسيطر عليها العدو، بالتالي، يجب أن تشمل في سياق الجنوب كل المنطقة التي حررتها الحركة/ الجيش من العدو. وحسب اللغة الاستراتيجية والتكتيكية، فإن قوات العدو تخلّت عن المنطقة بسبب صلابة القوات الثورية. هذا هو المكان الذي يجب على حركة التحرير تشكيل حكومتها البدائية، والبدء في بناء الدولة والمجتمع الذي توخته في مفهوم ورؤية السّودان الجديد. بحيث يبدأ في هذه المنطقة نظام اجتماعي، واقتصادي، وسياسي جديد في النمو والجذُّر. القاعدة الخلفية هي المدرسة حيث تدرب الحركة قادتها، وكوادرها، ونشطاءها في كل شيء، بما في ذلك فن الحوكمة. إنها المكان الذي تتطور فيه ثقافة جديدة من الأخوة والتضامن، وتوحيد الجيش والشعب في تشكيلاتهم الاجتماعية والثقافية المختلفة، وكل ذلك استعدادًا للدولة الناشئة وتعميد السّودان الجديد، كنقيض للسودان القديم المحكوم من قبل النظام القمعي المتمركز في الخرطوم.

من الضروري والمهم التشكيك في سبب استمرار الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان في وضع قواعدها الخلفية في أرض أجنبية بينما تسيطر على أجزاء من جنوب السّودان بعيدًا عن مواقع سيطرة الحكومة. التمعن في هذا الحقيقة سيساعد في فهم تقهقر الحركة من الثَّوْرَة إلى الليبرالية، والبحث عن تسوية مع الحكومة السّودانية. أدت استجابة أعداد كبيرة من الجنوبيين

المتحمسين لحمل السلاح، بالتزامن مع وجود إمدادات ضخمة من الأسلحة، إلى تحولها مبكرًا إلى حرب تقليدية (نيابا، 1997). بالطبع كان جميع الإمدادات العسكرية تأتي من الخارج بشكل أساسي. كان قرار توسيع رقعة الحرب، وزيادة عدد حملة السلاح، وبالتالي، إضفاء الطابع التقليدي على الحرب، غير موضوعي، ولا يتوافق مع حقيقة أن رسالة الحركة الثورية لم تصل بعد كل أركان جنوب السّودان وقتها. ففي هذه المرحلة المبكرة من الحرب، لم تكن للمناوشات الأولى مع الجيش الحكومي أي تأثير إلا على منطقة جونقلي، ولحد ما ولاية أعالي النيل.

استلزم وصول أعداد كبيرة من المجندين إنشاء معسكرات عبور قبل توجههم إلى معسكرات تدريب الجيش الشعبي لتحرير السّودان، وأتاح ترتيب المنظمات، من خلال وكالة المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، إطعام هذه الكتلة البشرية باعتبارهم لاجئين تبع إدارة مفوضية اللاجئين الإثيوبية. كان على الحركة لضمان الإمدادات المستمرة من المفوضية، توفير أعداد مماثلة من المجندين (اللاجئين) لملء الفراغ الذي تركه من توجهوا إلى معسكرات التدريب. ضمت مخيمات العبور مخيمات اللاجئين في أسوسا، وإيتانغ، وثاربام، وبيني أودو، وديما في غرب إثيوبيا، والتي مثّلت بالفعل قواعد خلفية لوجستية للحركة/الجيش. ومن أجل الحفاظ على ثبات ديموغرافي، كما هو مسجل في مخيمات اللاجئين، شجعت الحركة المجتمعات، ولا سيما في جونقلي، وأعالي النيل، والنيل الأزرق، وأجزاء من الاستوائية، على الهجرة إلى غرب إثيوبيا. كانت حيلة لجذب المساعدات الإنسانية والإغاثة

الدولية، والتي سيتم إرسال بعضها لإطعام الجيش الشعبي لتحرير السّودان داخل الجنوب. يفسر هذا الالتزام بالحفاظ على القواعد الخلفية في غرب إثيوبيا، وليس داخل الجنوب.

إن خوض حرب إعتماداً على أعداد المقاتلين الضخمة فقط، وليس استجابة لأسباب الحرب، يتطلب بعض النقاش. بحسب ماو تسي تونغ، فإن الحرب تتوافق مع القوانين الطبيعية، وأن قوانين الحرب تطورية، بحيث تخضع كل مرحلة في حرب التحرير إلى مبررات محددة. ويقول بطل الاستقلال الفيتنامي الجنرال فو نيقانق قيب: «في الغالب ستُهزم إذا حاولت تجاوز قوانين الطبيعة». لم يكن من الضروري تحويل حرب العصابات، أو حرب التحرير الوطني، في الجنوب إلى حرب تقليدية منذ بداية الحرب. كان من الممكن لهذا أن يحدث بعد تطور الحرب من الكمائن المعزولة، والاشتباكات الصغيرة على مستوى الفصائل (التكتيكي)، إلى مستوى الكتيبة أو الفرقة (الاستراتيجي). تفترض هذه المشاركة على المستوى الاستراتيجي مسبقًا أن الحركة/ الجيش تسيطر على الإنتاج والإمداد العسكري (البنادق، والمدفعية، والذخيرة، والأزياء، وتموين للجيش) بالإضافة إلى نظام النقل والاتصالات. ما كان للحركة/ الجيش أن يستمر أبداً في الحفاظ مستوى أداءه الحربي دون اعتماد كبير على الدعم الخارجي، وكان مجبرا بالتالي على الإعتماد المطلق على الحكومة الإثيوبية، ومن ثم بقاء قواعده الخلفية في غرب إثيوبيا.

هل كان هذا السلوك نابع عن جهل القيادة بالمبادئ والقوانين الأساسية للنضال المسلح الثوري، أم تمرينًا لمفاهيم وأفكار مقاومة التمرد التي تخصص فيها قرنق؟ إذا أعدنا صياغة تعبير أميلكار

كابـرال، يمكننـا القـول، أنـه يجـب عـلى خبـير مكافحـة التمـرد أن يقـوم أولاً بالانتحـار المهنـي قبـل الظهـور في ثـوب مقاتـل حـرب عصابـات ثـوري كفـؤ، مشـبعًا بمبـادئ ونظريـات الحـرب الثوريـة وقيـادة حـرب تمـرد. كانـت نتيجـة هـذا الاسـتعجال في تجـاوز المراحـل، أن شـهدنا بعـض ممارسـات الثـورة المُضـادة وكان الأمـر كـما لـو أنهـا تخـرب نفسـها بيدهـا. مـن المفهـوم، بـل يجـوز، أن تقبـل الحركـة/ الجيـش دعـم سـياسي وعسـكري عـلى أسـاس التضامـن مـع قضيـة الشـعوب. ومـع ذلـك، كان مـن الصعـب إلى حـد مـا فهـم أو تحمـل فكـرة أن يعتمـد جيـش حـرب العصابـات عـلى طعـام الإغاثـة، طالمـا أن هـذا تسـبب في بقـاء القواعـد العسـكرية داخـل غـرب إثيوبيـا. لقـد هـزم هـذا السـلوك جوهـر الحـرب الثوريـة، التـي تضـع الاعتـماد عـلى الـذات و المـوارد الخاصـة عـلى رأس أولوياتهـا.

ربمـا كان هـذا السـلوك هفـوة ناتجـة عـن سـوء فهـم إحسـان وتضامـن الإثيوبيـين. لكـن قـد يكـون الجهـل ونقـص الوعـي السـياسي هـو مـا دفـع الكثيريـن إلى الاعتقـاد أن حكومـة الديـرغ سـتُلبي جميـع متطلبـات حـرب التحريـر الوطنـي في الجنـوب لدرجـة اعتبـار هـذه المسـاعدات حـق أصيـل. يبـدو إنـه لم يخطـر عـلى بـال الكثيريـن منهـم أن الثـورة شـأنًا سـودانيًا، وأن مـا قدمـه الشـعب الإثيـوبي وحكومتـه كان فقـط عـلى أسـاس التضامـن. النضـال الثـوري المسـلح حرب شـعبية مشـتركة، تسـهم في تشـكيل سـلوك مجتمعـي معـين، يُترجـم إلى وحـدة الشـعب العضويـة مـع جيـش الغوريـلا، في سـعي مشـترك مـن أجـل الحريـة والعدالـة والازدهـار، وبالتـالي، تكـون لـكل مجموعـة وظائـف محـددة في عمليـة التحريـر.

يُقاتل جيش الغوريلا العدو، ويهيئ الظروف للسكان المدنيين لإنتاج جميع الضروريات الحياتية لهم ولجيش الغوريلا الذي يعمل في وسطهم. كانت فكرة طرد المجتمعات المحلية من منازلهم، وتحويلهم لاجئين في غرب إثيوبيا واحدة من الإخفاقات السياسية لقيادة الحركة. لقد حرمت الثورة من الموئل الطبيعي حيث يمكن أن تتطور في الممارسة اليومية للجماهير، كما تركتها عرضة للتأثيرات الخارجية غير الضرورية، وبشكل أكثر تحديدا لعمليات صنع السلام الليبرالية، بالإضافة إلى شيوع متلازمة الاعتماد على الإغاثات وهو ما يفسر العلاقة بين التدخل الإنساني الدولي ومبادرات السلام الليبرالية المفروضة على الحركة.

أشرف القائد سلفا كير على الانسحاب المفاجئ وغير المنظم إلى داخل الجنوب. كانت عملية كبيرة، شارك فيها اللاجئون والمقاتلون وعائلاتهم على عجل، ونتجت عنه خسائر فادحة في الأرواح. غرق كثير من مقاتلي الجيش الشعبي لتحرير السّودان من جبال النوبة وشمال بحر الغزال في نهر غيلو في أبوبو، بعد انتشار شائعات تقول أن قوات من الجبهة الثورية الديمقراطية الشعبية الإثيوبية وعناصر من القوات المسلحة السّودانية تطارد الجيش الشعبي. تسبب الخبر في حالة من الذعر وأدى إلى تدافع اللاجئين والمقاتلين في النهر.

صُدم العائدون والمقاتلون عندما وصلوا إلى بلداتهم وقراهم في المناطق المحررة: الناصر، وأكوبو، وبوكالا، وبوما، وغيرها. لقد كانت فارغة ومهجورة، بعد التهمت قوى الطبيعة المباني الدائمة. هنا يمكن تلخيص فكرة تحرير الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان كالآتي: خوض معارك ضارية وطرد العدو في اتجاه الخرطوم،

ثـم ترحيـل المجتمعـات إلى مخيـمات اللاجئـين. لحسـن الحـظ، كانـت القيـادة قـد تفاوضـت بالفعـل مـن أجـل التدخـل الإنسـاني الـدولي مـن خـلال عمليـة شريـان الحيـاة.

بـدأ التدخـل الإنسـاني الـدولي تقديـم الإغاثـة لمناطـق الجنـوب التي مزقتهـا الحـرب في عـام 1989. وجـاء ذلـك بعـد اتفـاق ثـلاثي بـين الأمـم المتحـدة، وحكومـة السّـودان، والحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان لإنشـاء عمليـة (شريـان الحيـاة) تحـت رعايـة اليونيسـف باعتبارهـا ممثـل الأمـم المتحـدة. تحـول برنامـج الأمـم المتحـدة وشريان الحيـاة هـذا إلى بيزنـس بمليـارات الـدولارات اسـتمر لمـدة 15 عامًـا، وجـذب برنامـج الأغذيـة العالمـي؛ وشركاء التنميـة، بمـا في ذلـك الوكالـة الأمريكيـة للتنميـة الدوليـة، والوكالة الكنديـة للتنمية الدوليـة؛ بالإضافة إلى عـدد كبـير مـن وكالات الإغاثـة الإنسـانية الدوليـة. خلـق الانسـحاب إلى الجنـوب الظـروف اللازمـة لنقـل الأنشـطة السياسـية والدبلوماسـية إلى كينيـا، حيـث يقـع مكتـب الجمعيـة السّـودانية للإغاثـة والتأهيـل. كانـت نـيروبي مركـزًا للرأسـمالية الكومبرادوريـة الإقليميـة والدوليـة، وأصبحـت عـلى قمـة نظـام عالمـي جديـد تقـوده الولايـات المتحـدة. كـما كانـت أيضًـا مركـزًا للتدخـل الإنسـاني الـدولي وأنشـطة الإغاثـة داخـل المناطـق التـي مزقتهـا الحـرب، وجبـال النوبـة، وجنـوب النيـل الأزرق. تـأتي العلاقـة بـين نقـل الحركـة/ الجيـش أنشـطتها السياسـية والدبلوماسـية إلى نـيروبي وعمليـة صنـع السـلام الليبراليـة مـن تسـهيل دعـم المانحـين لجهـود السـلام. سـعت عمليـات صنـع السـلام إلى حلـول ليبراليـة ونيوليبراليـة تتعـارض والدوافـع الأساسـية للحـرب في السّـودان.

مـن الـضرورة إعـادة التذكـير بإعـلان النـاصر والانقسـام الـذي تـلاه.

حـدث هـذا الانقسـام في أضعـف لحظـات تاريـخ الحركـة. اتفـق فصيـل النـاصر مـع نظـام الجبهـة القوميـة الإسـلامية في الخرطـوم، وأصبـح وكيلـه الرئيـسي في الحـرب ضـد الحركـة الشـعبية في توريـت. فشـلت محاولـة التوفيـق بـين الفصيلـين، واسـتمر الانقسـام لحـد الانخـراط في إشـتباكات ضاريـة. جمعـت مبـادرة السـلام النيجيريـة، بقيـادة الرئيـس إبراهيـم باداميـسي بابانجيـدا في أبوجـا (1992)، بـين فصيـلي الحركـة/ الجيـش (النـاصر وتوريـت) مـع حكومـة السّـودان. صممـت الحكومـة النيجيريـة محادثـات السـلام السّـودانية مـع وضـع أزمـة بيافـرا في الاعتبـار، وبالتـالي، أهملـت الأسـباب الأساسـية للحـرب في السّـودان. وكانـت النتيجـة أن فشـلت هـذه المفاوضـات.

جـاءت مباحثـات إيقـاد للسـلام بمبـادرة مـن حكومـة السّـودان. وكانـت أكـثر مـن تحـرك سـياسي ودبلومـاسي لعـزل الحركـة في المنطقـة بصفتهـا مُعاديـة للسُـلم. تزامـن هـذا مـع شـنّ الحركـة حربـاً عـلى القـوات المشـتركة مـن القـوات المسـلحة السّـودانية و فصيـل النـاصر، بينـما توجـد قواعدهـا الخلفيـة في الحـدود مـع كينيـا وأوغنـدا. كانـت حكومـة السّـودان عـلى يقـين مـن الهزيمـة العسـكرية للجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، وبالتـالي كان جُـلّ مـا تحتاجـه هـو تعـاون إقليمـي لعـزل وتحييـد الحركـة. رأت أنظمـة التحـرر الوطنـي في إريتريـا، وإثيوبيـا، وأوغنـدا الوضـع بشـكل مختلـف، مـما تسـبب في خلافاتهـم مـع النظـام الأصـولي الإسـلامي ليسـتغرق التفـاوض عـلى اتفاقيـة السـلام الشـامل وقتـا طويـلا (1994-2005).

أطـرح هنـا عمليـات السـلام الليبراليـة ليـس فقـط في سـياق محـاولات الإمبرياليـة السـيطرة عـلى اللعبـة ومواءمتهـا مـع مصالحهـا

الأمنية والاقتصادية في القرن الأفريقي، بل أيضاً من ناحية هدفها المتمثل في تخريب أي حل جذري للصراع. فالسلام الليبرالي يترك الواقع القمعي كما هو، ويخلق الظروف المواتية لاندلاع الصراع مرةٍ آخرى. ولنا في اتفاقيتين سابقتين خير نموذج: اتفاقية السلام الشامل لعام 2005، واتفاق تسوية النزاع في جنوب السّودان (ARCISS) في عام 2015، وكلاهما توسطت فيها الإيقاد. بخصوص الأولى، قد نعترف بمعالجة إتفاقية السلام الشامل لقضية انفصال جنوب السّودان، لكنها فشلت في مخاطبة المشاكل الأساسية التي أدت لاندلاع الحرب.

على الرغم من الاختلافات الإيديولوجية والسياسية بين نظام الجبهة القومية الإسلامية في الخرطوم والإمبريالية الأمريكية، كانت الجبهة القومية الإسلامية تمثل المصالح الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية للطبقة الرأسمالية الطفيلية في السّودان؛ أي تخدم بطريقة أو أخرى الرأسمالية العالمية[1]. لذا، وعلى مستوى استراتيجي معين، كانت الجبهة القومية الإسلامية حليفًا للإمبريالية، وبالتالي، توفرت حاجة ملحة من جانب الإدارة الأمريكية لجمع نظام الجبهة القومية الإسلامية والحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان، من خلال عملية سلام ليبرالية تهدف في النهاية لوقف الحرب والتوصل إلى تسوية لاستعادة السلام والاستقرار، الأمر الذي يسهل استخراج ونهب الموارد الطبيعية في السّودان، وخاصة

(1) استضاف نظام الجبهة القومية الإسلامية أسامة بن لادن في الخرطوم. وتورط السّودان في الهجوم على سفارتي الولايات المتحدة الأمريكية في نيروبي ودار السلام (1998)، ومركز التجارة العالمي في نيويورك في سبتمبر 2001. منذها أصبح اسم السّودان مدرجاً في القائمة الأمريكية للدول الراعية للإرهاب.

مخزونهـا النفطـي. تطرقـت سـابقاً لاسـتثمارات شـيفرون في حقـول النفـط، واحـدة المصالـح الاسـتراتيجية للولايـات المتحـدة في السّـودان، وعزمهـا بلـوغ تسـوية سـلمية مـن شـأنها تمكـين شـيفرون من اسـتئناف التنقيـب عـن النفـط في السّـودان.

يحفـظ لنـا تاريـخ السّـودان الحديـث عـدد كبـير مـن اتفاقـات السـلام الليبراليـة التـي وصفهـا أبيـل ألـير بعنـوان كتابـه «نقـض العهـود والمواثيـق» (1990)، ويجعلنـا نـرى أن هـذه الاتفاقيـات كانـت ولا تـزال تمارِيـن علاقـات عامـة. تنخـرط الأنظمـة الديكتاتوريـة في هـذه الاتفاقيـات لكسـب الوقـت وتلميـع صورتهـا، بينـما تخطـط للتغلـب عـلى خصومهـا. وعندمـا تسـنح الفرصـة ينتهكونهـا. عـلى هـذا المنـوال، رفـض الجـنرال جعفـر نمـيري اتفاقيـة بورتسـودان (1977) مـع الجبهـة الوطَنيّـة[1]. كـما انتهـك والغـى اتفاقيـة أديـس أبابـا في عـام (1983)، وقـال للسياسـيين الجنوبيـين إنهـا «ليسـت بقـرآن أو إنجيـل». انتهـك الرئيـس عمـر البشـير ورفـض تنفيـذ اتفاقيـة دارفـور للسـلام التـي وقعهـا مـع حركـة تحريـر السّـودان في أبوجـا بنيجيريـا، مـا أجـبر منـي أركـو منـاوي عـلى حمـل السـلاح مـرة آخـرى؛ كـما رفـض تنفيـذ بروتوكـول أبيـي والمشـورة الشـعبيّة المنصـوص عليهـا في بروتوكـولي جنـوب كردفـان والنيـل الأزرق لاتفـاق السـلام الشـامل، وتسـبب في عـودة هـذه المناطـق إلى الحـرب في عـام 2011. وفي نفـس السـياق، أثنـاء التوقيـع عـلى اتفـاق إيقـاد بشـأن تسـوية النـزاع في جمهوريـة جنـوب السّـودان (ARCISS)، ومـن أجـل تبريـر تحفظاتـه عـلى

(1) التحالـف السـياسي اليمينـي الـذي هندسـهُ حـزب الأمـة، والحـزب الاتحـادي الديمقراطـي، وجبهـة الميثـاق الإسـلامي، لمواجهـة الانقـلاب العسـكري اليسـاري الـذي أوصـل نمـيري إلى السـلطة في 25 مايـو 1969.

الاتفاقيـة، قـال الرئيـس كـير إن «الاتفاقيـة ليسـت إنجيـل أو قـرآن»، مؤكـدا مخاوفنـا أن اتفاقيـة السـلام الليبراليـة الأخـيرة هـذه معيبـة.

تكمـن مشـكلة اتفاقيـات السـلام الليبراليـة في فشـلها ربـط الحـرب بالمشـاكل الأساسـية مثـل الفقـر، والجهـل، وأميـة الجماهـير. ليـس اكتشـافًا مذهـلًا، بـل هـي حقيقـة مثبتـة منـذ فـترة طويلـة (قرنـق، 1970)، وأكـد منفسـتو الحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان (1983) أن مـا يسـمى «مشـكلة الجنـوب» كانـت في الواقـع مشـكلة التخلـف الاجتماعـي، والاقتصـادي، والثقـافي في عمـوم السّـودان، متمثـلًا في الفقـر المدقـع، والجهـل، والأميـة والخرافـة. وهـي المشـكلات التـي تسـببت في الحـرب الأهليـة والأزمـة الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية التـي أصابـت البـلاد. ليـس بمقـدور اتفاقيـات السـلام الليبراليـة، التـي تنـص دائمًـا عـلى شـكل مـن أشـكال تقاسـم السـلطة والـثروة، حـلّ هـذه المشـكلة الأساسـية. يكمـن الحـل في التحـول الجـذري لطبيعـة الدولـة القمعيـة كـشرط جـذري لمعالجـة هـذه المشـاكل. وهـو عكـس مـا تفعلـه هـذه الاتفاقيـات، حيـث تـترك النظـام القمعـي عـلى حالـه، والـذي بطبيعتـه غـير قـادر عـلى تغيـير نفسـه، بالتـالي، تخلـق شروط إعـادة إشـعال الحـرب. لم يمـسّ اتفـاق السـلام الشـامل النظـام القمعـي الـذي أقامتـه الجبهـة الإسـلامية بعـد إطاحـة انقلابهـا العسـكري بحكومـة الصـادق المهـدي المنتخبـة ديموقراطيـا في يونيـو 1989. وكان نظـام الجبهـة الإسـلامية قـد قـام بتشـويه البـلاد، بحيـث تعـذر الإصـلاح واسـتحال. لقـد لوثـت البيئـة الاجتماعيـة السياسـية في البـلاد بأيديولوجيتهـا الأصوليـة الإسـلامية السـامة، بحيـث تطلـب الأمـر تحـولًا جذريًـا، وليـس اتفاقيـة سـلام ليـبرالي. كـما سـيطر حـزب المؤتمـر

الوطني على 52% من المقاعد الحكومية، وأفشل خطوات «التحول الديمقراطي» المرجو في اتفاق السلام الشامل، تحت ستار حرصهم على وحدة السّودان. لم يستطع التجمع الوطني الديمقراطي تحقيق التحول الديمقراطي في ظل اتفاق سلام ليبرالي. تطلب الأمر صيغة سلام مختلفة، تقوم على التدمير الكامل لنظام حزب المؤتمر الوطني. وبما أن غالبية الأحزاب المكونة للتجمع الوطني الديمقراطي لم تنضم إلى الكفاح المسلح، لم يكن من الممكن فرض التحول الديمقراطي للنظام القمعي بالوسائل الدستورية والقانونية التي قدمتها اتفاقية السلام الشامل. أعطت اتفاقية السلام الشامل الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان نسبة 28 % في حكومة الوحدة الوطَنيّة و70 % في حكومة جنوب السّودان. مثل حزب المؤتمر الوطني، لم تكن القيادة الجديدة للحركة حريصة على الديمقراطية أو النضال السياسي لتحقيق التحول الديمقراطي للنظام السياسي السّوداني، وكان واضحاً إن الرئيس كير يريد السيطرة على حكومة جنوب السّودان من أجل متابعة حق المنطقة في تقرير المصير.

أقرت الاتفاقية إنشاء مؤسسات مؤقتة على مستوى جنوب السّودان، وتقاسم عائدات النفط، الأمر الذي جعل ميزانية حكومة جنوب السّودان السنوية أكبر من بعض دول المنطقة. لكن هذا وحده ليس كافٍ لكي تتمكن الأطراف من معالجة التناقض الأساسي في الدولة والمجتمع السّوداني. كان ينبغي على حزب المؤتمر الوطني، والحركة/ الجيش الشعبي، وأحزاب التجمع الوطني الديمقراطي، والتنظيمات الاجتماعية والسياسية السّودانية المختلفة، الانخراط في حوار وطني شامل للتوصل إلى توافق في الآراء حول كيفية معالجة

القضايا الأساسية للبلاد فور التوقيع على الإتفاق، ووقف الحرب وإنهاء الأعمال العدائية؛ مع الوضع في الاعتبار مقررات مؤتمر كوكدام (1985) ومؤتمر أمبو (1989)، اللذان وضعا أساس الحوار الوطني بين القوى السياسية السّودانية. ولولا مماطلة حزب الأمة، التي تسببت في انقلاب الجبهة القومية، كان من الممكن للحرب أن تنتهي من خلال إجماع يحافظ على وحدة أراضي السّودان وليس اتفاق سلام ليبرالي.

تآكلت شروط الحفاظ على وحدة السّودان بسبب عدم الجدية في التنفيذ وخيانة أو خرق اتفاقات النُخب السياسية. ظهرت الحركة كذروة انتفاضة شعبية وثورة اجتماعية رافعاً شعارات إعادة هيكلة النظام السياسي السّوداني. كما خاطب المضطهدين والمهمشين الذين انضموا لصفوفه بالآلاف. في الواقع، وبالنظر إلى موقع الحركة في توازن القوى، لم يكن عليها التفاوض مع حكومة الجبهة القومية الإسلامية، بل مواصلة الحرب حتى نهايتها المنطقية كما حدث في كوبا، وفيتنام، والمستعمرات البرتغالية في موزمبيق، وأنغولا، وغينيا بيساو، والرأس الأخضر. أدى التحول السياسي والأيديولوجي الذي قام به قادة السّودان إلى حصار الحركة في زاوية ضيقة، وصار بقاؤها يعتمد على قبول أي عملية سلام ليبرالية.

لم يكن هذا التحول ضروريًا لو خاضت الحركة/ الجيش حرب التحرير الوطني وفقًا لقوانين الكفاح المسلح الثوري. أدى الإهمال غير اللائق لهذه القوانين، لارتكاب العديد من الأخطاء الاستراتيجية في إدارة الحرب، وإدارة المناطق التي خضعت لسيطرتها العسكرية. من الصعب عدم اعتبار إعلان قرنق وقف إطلاق النار في مايو 1989، عندما كان الجيش الشعبي ينتصر في الحرب في جنوب

السّودان، سوى خطأ كبير في مسيرة التحرر الوطني. أدت انتصارات الجيش الشعبي لتحرير السّودان المتكررة على جبهات مختلفة إلى إحباط معنويات القوات المسلحة السّودانية، مما أدى إلى انسحاب بعض الحاميات إلى أوغندا عندما أعلن الجيش الشعبي عن بدء وقف إطلاق النار. جاء وقف إطلاق النار بردًا وسلامًا على الجيش السّوداني، ومنح فرصة للجبهة القومية الإسلامية لشن انقلابها ضد حكومة الصادق المهدي الديمقراطية. ثم أعادت الجبهة القومية الإسلامية تنظيم الجيش، وغرسته بالجهادية الإسلامية وشنت هجومًا مضادًا، مما دفع الجيش الشعبي لتحرير السّودان للخروج من المناطق المحررة. إذا أردنا أن نستبعد التخريب الخارجي للثورة، كما نوقش أعلاه، فمن المحتمل أن قادة الحركة لم يكونوا ملتزمين بالثورة بمعناها الحقيقي، أو لم يكن لديهم قناعة بقدرة الناس على إحداث التغيير، بل استغلوا الحرب منصة سياسية بهدف السلطة الشخصية و التفاوض من أجل الحصول على مناصب في تشكيل السلطة في السّودان. نصّ اتفاقية السلام الشامل على أن يكون قرنق، أو أيا كان رئيس الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، نائب أول لرئيس جمهورية السّودان لم يأت من فراغ، وأظهر أن هدف حرب التحرر الوطني كان بناء ضغط سياسي كاف على نظام حزب المؤتمر الوطني بهدف تقاسم السلطة.

قد يفسر هذا الإحجام عن التثقيف السياسي وتنظيم المقاتلين والجماهير. استهدف خنق السياسة والديمقراطية داخل الحركة والمجتمع إنتاج كتلة سهلة الانقياد وغير نقدية. كتلة لن تشكك في قرارات القيادة. بحيث أصبح الاعتماد على العسكرة، والروتين

العسـكري، وعبـادة شـخصية القائـد، وبنـاء نظـام مـن السـلطة الشـخصية عـلى أسـاس المحسـوبية السياسـية. كان عـلى الحركـة أن تتفـاوض عـلى السـلام ليـس لأنهـا لا تسـتطيع كسـب الحـرب ولكـن لأن قيادتهـا هيكلـت مسـار حـرب التحريـر الوطنـي بطريقـة تنتهـي كـما خُطـط لهـا. لم يكـن الخطـاب الاشـتراكي في المراحـل الأولية سـوى أكذوبة لخـداع المعسـكر الاشـتراكي بهـدف الحصـول عـلى الدعـم العسـكري. وأدى هـذا الخطـاب إلى اسـتنزاف المـوارد الاقتصاديـة والماليـة الضئيلـة لحكومـة الديـرغ الإثيوبيـة، المنخرطة بالفعل في حربين في شـمال إثيوبيا، فضـلاً عـن اعتـماد الحركـة/ الجيـش عليهـا في حربهـا في السّـودان.

مـن الخطـأ التحـدث عـن تحـول أيديولوجـي أصـاب الحركـة لأنهـا لم تملـك واحـد في الأسـاس. لم تكـن الرؤيـة يسـارية أو يمينيـة، لسـبب بسـيط، هـو أن الحركـة يكتنفهـا الخـداع والتآمـر. لقـد تـم تصميمهـا عـلى غـرار المخابـرات العسـكرية التابعـة للقـوات المسـلحة السّـودانية والأمـن الوطنـي لنظـام نمـيري، بهـدف رئيـسي هـو حمايـة نسـق القيـادة مـن خـلال القضـاء عـلى المعارضـة. كان إسـقاط الخطـاب الاشـتراكي هـو فضـح وتقليـم الثـوار الحقيقيـين الذيـن انضمـوا إلى صفـوف حركـة التحريـر وترسـيخ أعـداء الثـورة. لم يكـن مـن المسـتغرب أن تـشرع قيـادة الحركـة في صنـع السـلام مـع النظـام الأصـولي الإسـلامي بعـد انهيـار النظـام الإثيـوبي عـام 1991. كانـت عمليـة صنـع السـلام الليبراليـة نتيجـة منطقيـة لتَخطيـط اسـتراتيجي ومُخطـط سـياسي، اسـتنفد حكومـة الديـرغ اقتصاديًـا وعسـكريًا، وقـاد إلى هزيمتهـا. تضمـن هـذا التخطيـط الاسـتراتيجي تخريـب الثـورة في السّـودان بالتعـاون مـع الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان.

الفساد داخل الحركة الشعبية: ظهور الطبقة الرأسمالية الطفيلية

تمثّلت إحدى نتائج إهمال الحركة العمل السياسي والأيديولوجي – عن قصد أم لا - في ظهور وهيمنة نخبة عسكرية وسياسية. وفي تأكيد لمأثور توماس سانكارا بأن الجندي دون وعي سياسي ليس سوى مجرم محتمل، شرعت هذه الطبقة النخبوية في افتراس من حملوا البندقية من أجلهم.

في محادثة غير رسمية بمقر الجمعية القانونية للسودان الجديد في رمبيك، أدهش المسؤول السياسي للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، الذي كان يشغل أيضًا منصب نائب حاكم منطقة بحر الغزال آنذاك، الحشد عندما قال، «سوف نبرئ ذمتنا المالية». شعر بعضنا بالذهول لأن المحادثة لم تكن ذات صلة بالثروة إو إبراء الذمة. حدث هذا في عام 2000، ولابد أن القائد كان متأثراً بقادة حركة المقاومة الوطَنيّة الأوغندية[1]. كانت هذه ضمن المصطلحات التي بشر بها المجتمع الدولي، ولا سيما المنظمات غير الحكومية ووكالات الإغاثة، في جنوب السّودان فيما تتعلق «بالشفافية» و«المحاسبة». وعقدوا حولها ندوات، وورش عمل، واجتماعات «لتوعية» عمالها ومتلقي الإغاثة. كان إبراء الفرد لذمته المالية فكرة محببة لوكالات الإغاثة، وكان الوقت مناسباً لإعلان الممتلكات العامة والخاصة، خصوصاً وسط من بيدهم السلطة في الجنوب.

(1) كان ذلك في الوقت الذي طلبت فيه حركة المقاومة الوطنية من زعمائها ومقاتليها السابقين الردّ على الادعاءات المتزايدة بالفساد عن طريق إعلان أصولهم الشخصية وثرواتهم.

لكـن السـؤال هـو: مـن أيـن لمتطـوعٍ في حـرب تحريـر وطنـي أن يجمـع ثـروة؟ لـذا كان مـن المفاجـئ أن يعـبر نائـب الحاكـم عـن نيتـه إعـلان ثروتـه أو ثـروة أي شـخص أخـر. في الواقـع، بـدلاً مـن إعـلان الـثروة، يجـب عـلى الفـرد أولاً أن يعلـن طوعًـا عـن الوسـائل التـي راكم بهـا هـذه الـثروة دون امتلاكـه دخـل معـروف. لم تقـم الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان بتعويـض مسـؤوليها وناشـطيها رسـمياً، لقـد اسـتولوا عـلى ممتلـكات السـكان، ونهبـوا وكالات الإغاثـة الدوليـة، مـن خـلال الابتـزاز، والفسـاد والسرقـة الصريحـة. لم يكـن لنائـب الحاكـم الحـق في إعـلان مـا اسـتولى عليـه. هـذه مقدمـة مناسـبة لابتـدار نقـاش عـن الفسـاد داخـل الحركـة خـلال حـرب التحريـر الوطنـي، ونمـو وتسـارع هـذا الفسـاد بعـد تـولي قادتهـا، وكوادرهـا، ومقاتليهـا زمـام الحكـم في جنـوب السّـودان منـذ عـام 2005.

ترتبـط حـركات التحريـر دائمًـا بالإيثـار، ونكـران الـذات، التطـوع، وتقديـم التضحيـات، بمـا في ذلـك تضحيـة المـرء بحياتـه. أعتقـد أن هـذه هـي دوافـع انضـمام العديـد إلى صفـوف الحركـة/ الجيـش الشـعبي ، والمشـاركة في حـرب التحريـر. يصعـب غـرس هـذه القيـم في الإعضـاء دون التدريـب الأيديولوجـي والتوعيـة السياسـية. صحيـح أيضًـا إن ليـس كل مـن انضـم هـو ثـوري مخلـص. فقـد ضمّـت الحركـة كثـير مـن الهاربـين مـن نظـام العدالـة السّـوداني الذيـن بحاجـة إلى إعـادة تأهيـل مـن خـلال التدريـب الإيديولوجـي والسـياسي المكثـف لتحويلهـم إلى ثـوار. أدى غيـاب هـذا التوجـه إلى اسـتمرار أنشـطتهم الإجراميـة كمقاتلـين في الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان. لم يكـن من السـهل أن يتخـلى المجرمـون والهاربـون مـن نظـام العدالـة السّـوداني

عـن عاداتهـم المعاديـة للمجتمـع دون تعليـم وتدريـب سـياسي. و قـد كان مـن المفاجـئ، معرفـة إن بعـض عنـاصر أمـن ومخابـرات نمـيري السـابقين يتمتعـون بالسـلطة في معسـكرات الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان. كانـت نكتـة سـيئة، وإهانـة لحساسـياتنا الثوريـة، عندمـا تلقـي بعـض الشـخصيات المريبـة عـلى مسـامعنا محـاضرات حـول الثـورة، والتحريـر، و»السّـودان الجديـد». نفـس الشـخصيات التـي تعقبـوا معـارضي نمـيري وعذبوهـم هـم في مهمـة أخـرى مـع نفـس الثوريـين. أذكـر أن علـق أحدهـم قائـلاً: أن «السّـودان الجديـد سـيكون أكـبر مـن السّـودان القديـم». وقـد كان محقـاً، فعضويـة الحركة تسـمح بفعـل وقـول كل شيء، حتـى مـا لم يطـرق آذاننـا مـن قبـل في السّـودان.

إن وجـود الفسـاد في الحركـة/ الجيـش الشـعبي ليـس وحيًـا جديـدًا. ومـع ذلـك نتحـدث عنـه كـشيء كان يجـب أن تناضـل الحركـة ضـده كمسـألة مبـدأ، فالفسـاد سرطـان اجتماعـي يقـضي عـلى روح المجتمـع. ظـلّ منتـشرًا في السّـودان، بـل هـو بـين الأسـباب التـي أطاحـت بنظـام نمـيري. تصبـح ظاهـرة الفسـاد واضحـة للعيـان مـع زيـادة وعـي النـاس[1]. مـن الصعـب، إن لم يكـن المسـتحيل، سرد كل فعـل فاسـد حـدث في جنـوب السّـودان. يكفـي القـول أن الفسـاد كان محوريًـا في تشـكيل الحركـة، مـع الأخـذ في الاعتبـار أن سرقـة رواتـب الجنـود أدت

(1) عنـد تسـلم السـلطة، بعـد الانقـلاب العسـكري في مايـو 1969، انتـشرت الشـائعات حـول فسـاد طبقـة التجـار، التـي كان معظمهـا مـن أعضـاء الحـزب الاتحـادي الديمقراطـي (DUP)، وأن إسـماعيل الأزهـري، رئيـس المجلـس الأعـلى للدولـة حينهـا، قـد بنـى طابقًـا ثانيًـا في منزلـه مـن عائـدات الصفقـات الفاسـدة. شـعر جعفـر نمـيري بالحـرج، واضطـر إلى تسـوية 2000 جنيـه مـن الديـون التـي تراكمـت عـلى أزهـري بعـد صيانـة منزلـه في أبـوروف في أم درمـان. ذكـرتُ هـذه النقطـة للتأكيـد عـلى أن احـترام الملكيـة العامـة كان مـن القيـم الأساسـية في السّـودان إلى أن نـشر نظـام مايـو ثقافـة اسـتغلال المناصـب.

إلى تمرد بور في مايو 1983، وهي الحدث الذي تشكل بمقتضاها الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان.

صاحب تفشى الفساد في هياكل الحركة، إساءة استخدام السلطة في كل موقع تحت إدارتها واستمر ليكون بمثابة القاعدة وليس الاستثناء. بدأ كممارسة حميدة في شكل تحويل حصص الغذاء والمال التي تحت إشراف أو أمر أحد القادة، ونمت لتشمل الإدارة المعقدة للتجارة عبر الحدود والتبادل التجاري. تحول الفساد ليصبح بحثًا عن موارد مالية ترضي نمط حياة معين غير متوفر في الجنوب، ولكن في شرق إفريقيا وخارجها. وفي هذا الصدد أصبحت نخبة جنوب السّودان مبتكرة للغاية. كانت «عملية استرداد العبيد» في شمال بحر الغزال أحد هذه المشاريع، أدارها كبار قادة الحركة/ الجيش، ومنظمة غير حكومية دولية ذات صلة بالكنيسة، وتحولت إلى عمل ربحي بلغت عوائده ملايين الدولارات. وبدلاً من العمل على معاقبة مرتكبي جريمة العبودية وتجارة الرقيق في القرن الحادي والعشرين، قاموا بجمع الأموال من أجل «استرداد» المستعبدين. أصبح الأمر مربحًا جدًا (ومحرجًا) لدرجة أن محاولة إيقافه تسببت في صراع داخلي.

إذن كيف حصل نائب المحافظ على ثروته التي يريد إبراء ذمته منها؟ علم الناس في مجمع الجمعية القانونية أن نائب المحافظ كان يعمل في غارات مسلحة لشراء الماشية من معسكرات المواشي المجاورة في غرب أعالي النيل. وعندما طلب منه أحد الحاضرين أن يعلن كيف حصل على أكثر من 4000 رأس من الماشية، انفجر غاضبًا في مفارقة عجيبة تعكس عدم احترام اللوائح

والقوانين. فإساءة استخدام السلطة هي أساس الفساد بجميع مظاهره الحالية في الجنوب.

كان الاستياء من مختلسي المال العام شائعًا قبل اندلاع الحرب في عام 1983، وانتشرت الأغاني التي تسخر من مثل هذا السلوك المعادي للمجتمع. بالطبع انتشرت ممارسات تقليدية مثل سرقة الماشية بين المجتمعات الرعوية الزراعية، والتي جرّمتها الدولة بعد العنف والصراع الذي تسببت فيه. شهد انهيار القانون والنظام، وانتشار الأسلحة النارية بين المجتمعات، عودة هذه الممارسات، وصارت جزءًا من فساد أفراد الجيش الشعبي لتحرير السّودان. هذه هي البدايات المتواضعة للفساد التي أصابت المجتمع الأوسع. أولاً، تم استخدام كلمة «تحرير» لتحل مكان كلمات مثل «سرقة» أو «نهب» في أحاديث مقاتلي الجيش الشعبي لتحرير السّودان. ثانيًا، صار المدنيون يحقرون كلمة «كومرد» ويشيرون بها إلى من اعتبروه «لصّ» أو «نصاب» بين مقاتلي الجيش الشعبي لتحرير السّودان. لم تكن الثقافة العسكرية ثورية في محتواها أو نطاقها[1].

مثّل فساد الحركة/ الجيش، وإساءة استخدام كلمتي «تحرير» و»كومرد»، بداية التراكم البدائي للثروة في المناطق الخاضعة لسيطرة المتمردين. حدث ذلك بما يشبه، لحد كبير، الطريقة التي ميزت مرحلة التراكم البدائي لرأس المال في أوروبا تقريبًا. اختلاف نسخة الجنوب مردة للواقع أن التقسيم الطبقي الاجتماعي الناشئ

(1) "لماذا تدعوني كومرد؟ هل تروني أسرق أغنام الآخرين؟». هذا سؤال طرحه رجل غاضب من دينكا أليباب لجندي من الجيش الشعبي لتحرير السّودان حاول مناداته بلفظة «كومرد». يعكس مضمون السؤال أن كلمة «كومرد» صارت تُستخدم لوصف من يسرقون ممتلكات الآخرين، بسبب إنتشار النهب و السرقة وسط جنود الجيش الشعبي.

اعتمد على سيطرة الفرد على توزيع مساعدات الإغاثة بدلاً من التحكم في وسيلة الإنتاج. وأدى ذلك إلى أنماط حياة لم تروِّج لفساد المستفيدين فحسب، بل لمقدمي خدمات أعمال الإغاثة. كما أوجد ظروفًا تتدفق بمقتضاها المساعدة إلى ما لا نهاية، مما أدى إلى انتشار متلازمة الاعتماد على الإغاثة.

أن تكون قائدًا للجيش الشعبي في منطقة تعمل فيها العديد من وكالات الإغاثة كان مهمة مربحة، لدرجة أن الضباط يتنافسون لتولي مواقع ستمكّنهم من الوصول إلى موارد وكالات الإغاثة، إما طواعية أو عن طريق الابتزاز. كان التدخل الإنساني الدولي بيزنس بمليارات الدولارات، يحركه إقتصاد الحرب في جنوب السّودان، ونتج عنه شبكة أنشطة تجارية فاسدة ضمّت ضباط الجيش الشعبي لتحرير السّودان ووكالات الإغاثة. وشمل ذلك سرقة الموارد على نطاق واسع، وتوزيع المساعدات الغذائية في أسواق البلدان المجاورة والمدن الواقعة تحت سيطرة الحكومة. تحول من فساد أفراد إلى فساد بنيويّ، لدرجة أن حققت مجموعة صغيرة من ضباط الجيش الشعبي ثروة هائلة في شكل ماشية، وأموال، وممتلكات أخرى داخل وخارج جنوب السّودان.

دفع الاندفاع نحو الثروة وتراكمها البدائي بين قادة وكوادر الحركة/ الجيش الشعبي إلى رهن الموارد الطبيعية للبلاد مثل الأخشاب، والمعادن، والحياة البرية (سنّ الفيل، جلود النمر، قرون وحيد القرن، إلخ)، والمصنوعات الثقافية الموجودة في غرب الاستوائية، للحفاظ على نمط الحياة الاستهلاكية الجديد. وبشر بمولد فئة صغيرة من المقاتلين، والسياسيين، والعمال التجاريين

الصغار، انعزلوا بسبب مواقفهم وسلوكهم عن الجماهير. حافظت هذه المجموعة من ضباط الجيش الشعبي الأثرياء على أسرهم في مساكن باهظة الثمن، مستأجرة أو مشتراة، في الضواحي الفاخرة لمدن شرق أفريقيا. شكلت هذه المجموعة سلف الطبقة الرأسمالية الطفيلية التي تسيطر الآن على اقتصاد جنوب السّودان[1]. من الممكن ملاحظة الرابط بين التدخلات الإنسانية الدولية، والفساد، وظهور هذه الطبقة الرأسمالية الطفيلية. هناك أيضًا علاقة بين هذه الطبقة الرأسمالية الطفيلية، وتعاونها مع الكومبرادور الإقليمي والدولي في استخراج ونهب الموارد الطبيعية، وظهور دكتاتورية مركزية إثنيّة، كليبتوقراطية، واستبدادية في جنوب السّودان.

لم يكن من الممكن أن تختلف إدارة الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان لحكومة جنوب السّودان عن تلك التي مارستها في المناطق المحررة خلال حرب التحرير الوطني. فقد افتقرت إلى برنامج أو اتجاه سياسي واضح على المستوى الحكومي. وكما هو الحال أثناء الحرب، لم ترفق قيادة الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان معايير شروط تعيين كوادرها في الحكومة. قام بعض القادة بتعيين وزراء لم يعملوا من قبل في مناصب حكومية أو حتى في القطاع الخاص، رغم الرتب العالية التي حصلوا عليها في الجيش. كان بعضهم من نشطاء المجتمع المدني الذين دخلوا الحكومة بروح عمل مختلفة. وكان الرئيس ونائبه جديدين في المهمة. لذلك كانت «التجربة والخطأ» هي المنهج. وفي هذا الصدد، كانت مفاهيم مثل الجدارة، والشفافية، والمساءلة غريبة أو تم تجاهلها.

(1) تراكم الثروة عن طريق الإستغلال غير الأمثل للموارد؛ أي أن تتصرف مثل الكائنات الطفيلية التي تتغذى عبر الالتصاق بالآخرين وامتصاص القيمة منهم.

سرعان ما انغمس بعض قادة كبار مسؤولي الحركة/ الجيش الشعبي في بيئة اجتماعية واقتصادية ملوثة بالسياسات التي انتهجها حزب المؤتمر الوطني من أجل البقاء من خلال الابتزاز والفساد. ومثل الذئاب الجائعة، بشهية للثروة عززتها ممارسات الفساد في الأدغال، أسس القادة والكوادر رغم مناصبهم الحكومية، أعمالًا تجارية قاموا من خلالها بغسل الأموال المسروقة بالتعاون مع أصدقائهم الأجانب. وزكمت رائحة الفساد الأنوف حتى غمرت جميع الدوائر الحكومية. الجدير بالذكر أن جنوب السّودان بدأ من الصفر. كانت الحكومة تستورد كل شيء لمناطق شمال بحر الغزال، والوحدة، وأعالي النيل من الخرطوم؛ ومن دول شرق أفريقيا (كينيا ويوغندا) إلى ولايات الاستوائية، وجونقلي، والبحيرات، وواراب. مما احتم انخراط حكومة جنوب السّودان في السنتين الأوليين من الفترة الانتقالية في بناء البنية التحتية المادية وشراء السلع التجارية.

استفادت الشركات التي أنشأها القادة من عقود حكومية باهظة الثمن بناءً على روابط شخصية مع وزراء الحكومة، والبرلمانيين، وجنرالات الجيش، وكوادر ونشطاء الحركة الشعبيّة. مثّل هذه بداية «وقت استرداد الدين»، وتميز بصفقات فاحشة وغير شفافة. لم ينفذ بعض المقاولين مشاريعً أخذوا مقابلها ملايين الدولارات نقداً من البنك المركزي لجنوب السّودان. كان من غير المعقول، والمُخزي، رؤية قادة حركة تحرر الوطني ينخرطون في مثل هذه المستويات الفاحشة من الفساد. ومع ذلك، ولمساعدة القارئ على تصور القضية، سأوضح حالة مشروع مبنى مطار جوبا الدولي التابع لوزارة النقل والاتصالات في حكومة جنوب السّودان.

بـدأ المـشروع في عـام 2006، بميزانيـة بلغـت 40 مليـون دولار أمريـكي قبـل ان يختفـى المقـاول الإريـتري بهـذه الأمـوال ولم يظهـر مرة أخـرى. تكـررت حادثـة المقاولـين الذيـن يهربـون بالأمـوال مرتـين، ولم يرفـع المدعـي العـام حتـى الآن أي قضيـة جنائيـة. تسـتلزم الاتفاقيـات التعاقديـة أن يثبـت مقـدم العطـاء الفائـز قدرتـه عـلى تنفيـذ العقـد، وأن يتلقـى الدفـع عـلى أقسـاط تتناسـب مـع مقـدار العمـل المنجـز. يتلقـى المقـاول الدفعـة الأخـيرة فقـط بعـد التصديـق عـلى أن العمـل المنجـز قـد اسـتوفى الـشروط المحـددة في العقـد. لم يكـن هـذا هـو الحـال في معظـم عقـود حكومـة جنـوب السّـودان. مـن الممكـن أن يكـون المسـؤولون الذيـن يديـرون هـذه العقـود جاهلـين لأنهـم يفتقـرون إلى الخـبرة. ومـع ذلـك، في بعـض الحـالات، يجـب أن يكـون الجنـاة الحقيقيـين قـد أخـذوا الأمـوال باسـم مقاولـين أجانـب. اسـتمر المـشروع حتـى عـام 2016 دون اسـتكماله، قبـل أن يُنحـه في النهايـة لشركـة صينيـة مـن خـلال قـرض يدفعـه بنـك التصديـر والاسـتيراد الصينـي المملـوك للحكومـة الصينيـة.

أسـوأ قضيـة فسـاد مرتبطـة بكبـار المسـؤولين في الحكومـة، عـلى المسـتويين القومـي والـولائي، هـي مـا عُـرف باسـم «فضحيـة الـذرة»، والتـي كشـفت الطبيعـة الإجراميـة لبعـض قـادة جنـوب السّـودان. خصصـت وزارة الماليـة والتخطيـط الاقتصـادي في حكومـة جنـوب السّـودان 1.6 مليـار دولار، كجـزء مـن سياسـة الأمـن الغـذائي حينـذاك، لـشراء حبـوب غذائيـة مـن أجـل إلى الولايـات المتـضررة مـن المجاعـة في بحـر الغـزال، وجونقـلي، وشرق الاسـتوائية. دفعـت وزارة الماليـة الأموال للمقاولـين بعـد أن منـح حـكام هـذه الولايـات تأكيـدات كاذبـة تفيـد

استلام الشحنات[1]. وكان أن توفى نتيجة هذه العملية الإجرامية الآلاف المواطنين الأبرياء بسبب الجوع في ولايات أويل، ووراب، والبحيرات. كشف تحقيق البنك الدولي أن حكومة جنوب السّودان دفعت لعدد سبعة وخمسين متعاقدًا على صلة بالرئيس، بمن فيهم بعض كبار الوزراء، ورئيس الجمعية التشريعية، وضباط كبار بالجيش الشعبي لتحرير السّودان مبلغ 800 مليون دولار أمريكي مقابل عدم تسليم الحبوب. ولم يتمكن وزير المالية والتخطيط الاقتصادي في حكومة جنوب السّودان من تقصي القضية لأنها شملت الرئيس نفسه، وشركائه المقربين، وشخصيات نافذة من أوغندا وكينيا.

تمحورت قضية الفساد الكبيرة الأخرى في إصدار خطابات الاعتماد. السعي وراء المال يجعل كل شيء قابلًا للفساد في عالم النخب السياسية، والعسكرية، والتجارية في جنوب السّودان. بهذه الطريقة، حولت النخبة الإجرامية إجراءًا تجاريًا إلى سلوك غير حميد. أصبح إصدار خطابات الاعتماد واحدة من الطرق التي أثرى بها أصحاب العلاقات السياسية أنفسهم. على عكس فضيحة الذرة، كانت فضيحة خطابات الاعتماد مبتكرة إجراميًا، لحد أن غيّرت الممارسة المعتادة للبنوك التجارية التي تُصدر خطابات الاعتماد إلى مجرد منح شيكات على بياض: إنتقل التصديق وإصدار خطابات الاعتماد من البنوك التجارية إلى وزارة المالية والاقتصاد التخطيط، ما يعني أن المتقدمين غير مطالبين بإبراز رخصة تجارية

(1) كذب حكام البحيرات، ووراب، وشمال بحر الغزال (دانيال أويت أكوت، وتور دينق ميوين، وفول ملونق أوان) عندما ادعوا أنهم استلموا شحنات الذرة حتى يُدفع للمقاولين أموال العقد.

كـشرط لإصـدار خطـاب اعتـماد. أصبـح كل مـن لديـه صـلات سياسـية قـادرًا عـلى الحصـول عـلى مبلـغ معـين مـن العمـلات الأجنبيـة (دولار أمريـكي) بالسـعر الرسـمي للبنـك المركـزي لجنـوب السّـودان. أثـري العديـد مـن الأفـراد بسـبب علاقاتهـم بالمسـؤولين بشـكل لافـت للنظـر مـن خـلال إفـلاس خزائـن الدولـة، بينـما إرتفعـت نسـب التضخـم وسـعر السـوق المـوازي.

يتضمـن الحصـول عـلى خطـاب الاعتـماد موافقـة، وهـي ليسـت سـوى خطـاب موجـه إلى محافـظ البنـك المركـزي بمبلـغ مليـون دولار أمريـكي. يقـدم هـذا الخطـاب شـخصًا لا علاقـة لـه بالأعـمال التجاريـة، يوظـف علاقاتـه مـع شـخصية مـن الحكومـة للحصـول عـلى دولار أمريـكي، ليبيعهـا إلى رجـل أعـمال صومـالي أو كينـي مقابـل مـا يعادلـه بالعملـة المحليـة (2.9 مليـون جنيـه جنـوب سـوداني). سـيقوم رجـل الأعـمال الصومـالي ببيـع البضائـع المسـتوردة بهـذه الأمـوال بسـعر السـوق الأسـود (29 مليـون جنيـه جنـوب سـوداني أو أكـثر) وفقاً لسـعر السـوق في ذلـك اليـوم. في أغلـب الأحيـان لا يلتـزم متلقـو خطابـات الإعتـماد وشركاؤهـم التجاريـين بالصفقـة عـبر إسـتيراد البضائـع، بـل يعيـدون تدويـر الـدولار في السـوق الأسـود. بهـذه الطريقـة، قامـت النخبـة السياسـية وشركاؤهـا بتخريـب الاقتصـاد لدرجـة أصبـح مـن الصعـب تحديـد رجـال الأعـمال النزيهـين مـن غيرهـم. كان الجميـع، بمـن فيهـم الـوزراء والقضـاة، تجـارًا في السـوق.

ولأن العجائـب لا تنتهـي في جنـوب السّـودان، و كل شيء قابـل للفسـاد، وقـع احتيـال آخـر شـارك فيـه كبـار قـادة حكومـة جنـوب السّـودان في فبرايـر 2014، أي عقـب انـدلاع العنـف في ديسـمبر 2013.

عـين الرئيـس كـير لجنـة لإدارة الأزمـات بميزانيـة بلغـت 800 مليـون جنيـه جنـوب سـوداني. تـرأس هـذه اللجنـة جيمـس واني إيغـا، نائـب الرئيـس، وضمـت كل مـن وزيـر شـؤون مجلـس الـوزراء، ورئيـس مجلـس الولايـات، وآخـرون. فُوضـت اللجنـة للاسـتجابة للظـروف التـي خلقتهـا الحـرب، ولا سـيما في ولايـات أعـالي النيـل، وجونقـلي، والوحـدة. وبـدلاً مـن زيـارة مناطـق الكـوارث في هـذه ولايـات، قامـت اللجنـة بجولـة في ولايـات غـرب ووسـط الاسـتوائية التـي كانـت خـارج دائـرة الحـرب. اتضـح أن الغـرض الأسـاسي مـن هـذه الجولـة هـو الخـروج بحيلـة لسـحب الأمـوال لـشراء ذمـم بعـض كبـار المسـؤولين التنفيذيـين وضـمان ولائهـم السـياسي. وقـد أظهـر كـير دعمـه للصوصيّـة عندمـا تدخـل لمنـع المدقـق العـام مـن إجـراء تحقيـق.

يبـدو أنـه لا يوجـد حـدّ للسرقـة، ويمكننـا روايـة حـالات الفسـاد في جنـوب السّـودان إلى مـا لا نهايـة. حـدث كل هـذا عـلى الرغـم مـن تصريحـات الرئيـس الدائمـة عـن «عـدم التسـامح مـع الفسـاد» في كل مناسـبة عامـة. تحـت أنـف الرئيـس مبـاشرة، عمـل كارتـل يتألـف مـن كبـير الإداريـين، ومديـر المكتـب، ومسـؤول أمنـي، وشركاء أعمالهـم، لسـحب ملايـين الـدولارات مـن الحكومـة. اعتـادت المجموعـة عـلى إرسـال الطلبـات الماليـة إلى الـوزارة، وتوجيـه مديـر الميزانيـات بتحويـل مخصصـات بعـض الـوزارات إلى مكتـب الرئيـس بغـرض تمويـل مشـاريع غـير متضمنـة في الخطـة السـنوية. اسـتغلت العصابـة إسـتعداد الرئيـس للتوقيـع عـلى خطابـات رسـمية في ظـروف غـير مواتيـة[1]. اسـتغرق الأمـر وقتًـا طويـلاً لكشـف أنشـطة العصابـة، رغـم الأخبار المتكـررة عن

(1) حـذر محافـظ البنـك المركـزي لجنـوب السّـودان، الراحـل إليجـا ملـوك ، الرئيـس كـير مـن اسـتخدام توقيعـه لسـحب الأمـوال مـن البنـك.

سرقة الأموال من مكتب الرئيس. يفسر هذا كيف تجاوز الإنفاق في مكتب الرئيس، ووزارة المالية، ووزارة الدفاع وشئون قدامى المحاربين نسبة 100 %- 400 % من ميزانيتها السنوية. غالباً ما تكون الوزارات الخدمية ضحايا مثل هذه التحويلات غير القانونية، مثل الزراعة، والتعليم العالي، والصحة التي لا تحصل على ميزانيتها الخاصة.

كان الجيش الشعبي لتحرير السّودان بؤرة قذارة أخرى. يمكن اعتبار الفساد الراهن امتدادا للسلوك الفاسد إبان حرب التحرير الوطني. لم يحدث الانتقال من الحرب إلى السلام بطريقة منظمة. ومع الموت المفاجئ للرئيس والقائد العام، استأثر البعض لأنفسهم بالأصول غير العسكرية للجيش الشعبي لتحرير السّودان، في وقت انشغلت الحركة بالعلاقات مع حزب المؤتمر الوطني والقوات المسلحة السّودانية. كان من المتوقع إعادة تنظيم الجيش الشعبي لتحرير السّودان ليصبح جيد التدريب، ومهنيّ، ومسلح بطريقة يجعله قوة مقاتلة فعالة وقادرة على مواجهة أي طارئ. خصصت الجمعية التشريعية لجنوب السّودان 40 % من ميزانية حكومة جنوب السّودان السنوية للجيش، وتقدر بمليارات الدولارات الأمريكية. لم ترد القيادة العليا للجيش الشعبي لتحرير السّودان على هذه البادرة الوطَنيّة بالمثل. على العكس من ذلك، أصبح الجيش الشعبي لتحرير السّودان معقلًا للفساد، حيث قام جنرالات، ولا سيما أولئك الذين تم تكليفهم بشراء اللوجستيات، بإثراء أنفسهم.[1]

(1) صادرت شرطة ملبورن الأسترالية منزل اشتراه رئيس هيئة الأركان العامة السابق للجيش الشعبي لتحرير السّودان، الجنرال جيمس هوث ماي في عام 2014 مقابل 1.5 مليون دولار أمريكي، وذلك بعد ظهور اسمه في تقرير سنيتري للعام 2015. وكان قد اشترى المنزل بأموال مكتسبة عن طريق الإحتيال.

استغلّ بعض جنرالات الجيش الشعبي لتحرير السّودان بعدهم عن المقر العام، وكذلك قادة الكتائب والوحدات الكبرى في الجيش، استغلوا فرقهم وكتائبهم التي لم يفصحوا عن أعدادهم الحقيقية على أمل الحصول على أموال زائدة. أصبح الوضع أكثر يأسًا مع استيعاب الجماعات المسلحة الأخرى داخل الجيش الشعبي لتحرير السّودان، وكذلك الميليشيات القبلية التي كانت القوات المسلحة السّودانية قد رعتها في حربها بالوكالة ضد الجيش الشعبي. كانت العديد من وحدات الجيش الشعبي لتحرير السّودان تنتظر لأشهر دون الحصول على رواتب، بسبب استيلاء القائد على المال، وبنى لنفسه قصراً في جوبا أو عبر الحدود في أوغندا أو كينيا. قام العديد من جنرالات الجيش الشعبي لتحرير السّودان بتأسيس أعمال تجارية مع الأجانب لتحقيق أرباح سريعة. شملت الإستثمارات مجال التعليم العالي: أنشئت جامعات وهمية لا تلبي المتطلبات الأساسية المعترفة بها عالميا في جوبا وغيرها من مدن جنوب السّودان. قيّدت هذه الجامعات أشخاصًا لم يتلقوا تعليم مدرسي؛ وعندما أمر وزير التعليم العالي والعلوم والتكنولوجيا بإغلاق هذه الجامعات الزائفة هددوه بعواقب وخيمة.

أقل ما يقال هو أن نداء «عدم التسامح مع الفساد» الذي يردده الرئيس كير كان مجرد خدعة بغرض تزيين خطاباته المملّة وكسب تصفيق الجمهور. في الواقع، لن يتردد الرئيس في التدخل لمنع وزير العدل من التحقيق في قضية أو إجباره على سحب قضية فساد من المحكمة. انطوت هذه حالات على عقود حكومية يكون المقاول هو شريك أعمال الرئيس. في الوضع السائد في جنوب

السّـودان، حيـث يتـم تمكـين قطاعـات معينـة مـن المجتمـع بشـكل متعمـد مـن الناحيـة الاقتصاديـة، سـيكون مـن الخطـأ تصنيفهـا عـلى أنهـا مجـرد حـالات فسـاد. كانـت كليبتوقراطيـة مُهندسـة سياسـيًا لمصلحـة الدينـكا مـن محـور واراب - أويـل، مـع صمـت وزارة العـدل، ومفوضيّـة مكافحـة الفسـاد، ودائـرة شرطـة جنـوب السّـودان عـن هـذه الجرائـم وعـدم مقـدرة عـلى القيـام بـأيّ شيء.

اتبعـت حكومـة جنـوب السّـودان سياسـات اقتصاديـة ليبراليـة وأيديولوجيـات السـوق الحـرة التـي، وفي غياب مؤسسـات قويـة، ولّدت الفسـاد وعـززت الطبقـة الرأسـمالية الطفيليـة، ومكنـت سـيطرتها عـلى القطاعـات الاقتصاديـة العامـة والخاصـة. كان جـزءًا مـن التمكـين الاجتماعـي والاقتصـادي للأفـراد والـشركات المرتبطـة بالرئيـس والـوزراء المؤثريـن في حكومتـه. نمـا هـذا التمكـين وازدهـر عـلى أسـاس عطـاءات العقـود الحكوميـة المتضخمـة. تغـذّت هـذه الطبقـة، التـي كانـت أيضًـا جـزءًا مـن شـبكات المحسـوبية السياسـية للنظـام، عـلى تدجـين الفسـاد والروابـط القويـة مـع الرأسـمالية الكومبرادوريـة الإقليميـة والدوليـة الراسـخة في اسـتخراج ونهـب مـوارد جنـوب السّـودان. غـزت شركات ومواطنـون شرق إفريقيـا والقـرن الأفريقـي جنـوب السّـودان قبـل أن تطـور أنظمـة ممارسـة أعـمال تجاريـة رسـمية.

أنخـرط الأوغنديـون، والكينيـون، والصوماليـون، والإثيوبيـون، الإريتريـون في أعـمال تجاريـة في جنـوب السّـودان، غالبًـا خـلال شراكات مريبـة، مـع كلا القطاعـين الرسـمي وغـير الرسـمي. نـادرا مـا ينخـرط مواطنـو جنـوب السّـودان في التجـارة الصغـيرة. فمعظم تجـارة القطاعي في جنـوب السّـودان، حتـى عـلى مسـتوى القـرى الصغـيرة، يحتكرهـا

الجلابة، وهم فئة التجار العرب من شمال السّودان. شعب جنوب السّودان ريفي بطبعه، ويعطي قيمة للثروة الحيوانية والأصول الثقافية أكثر من المال. قد يوفر الدينكا أو النوير، ممن يعملون في الحكومة أو القطاع الخاص، المال لشراء الأبقار والماعز، بينما يوفر الأزاندي، المورو، الباري المال لبناء ضريح أحد الوالدين أو الجدّ. يفسر هذا سبب كون الشركات الوحيدة التي يملكها جنوب السّودان هي تلك المرتبطة بالفساد الحكومي.

انخرط الإريتريون والإثيوبيون في استثمارات الفنادق، والنقل، وتوزيع المياه[1]، والبناء، والخدمات المصرفية. واستثمروا في الغالب من خلال تأجير أراضي السكان المحليين وبناء الفنادق، والمطاعم، والمقاهي. انخرط بعض النخبة من الإريتريين والأثيوبيين في عقود أكثر ربحية مع الحكومة والجيش، وكان معظم هؤلاء من خلفيات عسكرية شاركوا قادة الجيش الشعبي لتحرير السّودان في أعمالهم. معظم هذه الإستثمارات بمثابة رد للجميل، خاصة وأن هذه الشركات على علاقات بالأنظمة السياسية في بلدانهم. لدى البنك التجاري الإثيوبي فروع في جوبا وملكال، كما احتكر الإثيوبيون النقل الجوي بين جوبا وأديس أبابا وبعض الخطوط الداخلية.

انخرط الأوغنديون في جميع الأعمال غير الرسمية، بما في ذلك الخدمات الطبية، وإدارة عيادات غير مرخصة في جوبا وضواحيها، مستغلين الافتقار إلى الآليات التنظيمية وجهل العديد من الناس

(1) تجارة رائجة سببها افتقار معظم مدن جنوب السّودان لشبكة مياه. تحمل هذه الناقلات مياه غير معالجة من نهر النيل للمناطق السكنية بتكلفة تقارب سعر برميل النفط للبرميل الواحد. جذب هذا العمل السهل والمربح جنرالاً من الجيش الشعبي لتحرير السّودان، اشترى ناقلات مستعملة من كمبالا ووظف سائقين إثيوبيين وإريتريين لإدارتها.

في جنـوب السّـودان. الأعـمال الأوغنديـة الأكـثر شـعبية هـي تشـغيل الموتوسـيكل (بـودا بـودا) في المواصـلات الداخليـة في جوبـا، والتخلـص مـن السـيارات اليابانيـة المسـتعملة وبيعهـا في أسـواق جنوب السّـودان. امتـلأ سـوق المـواد الغذائيـة في جوبـا بالمنتجـات الزراعيـة ومنتجـات الألبـان الأوغنديـة الرخيصـة وكذلـك الأسـماك، وتسـبب في تشريـد المزارعـين والصياديـن المحليـين بالاسـتيلاء عـلى أعمالهـم. نشـطت الـشركات الصوماليـة بشـكل رئيـسي في قطـاع النقـل، واسـتيراد مـواد البنـاء والتشـييد، وإدارة محطـات الوقـود. امـا الأعـمال الإسـتثمارية الكينيـة، فقـد تركـزت في الهندسـة، وتكنولوجيـا المعلومـات والاتصالات، والنقـل الجـوي، والخدمـات المصرفية. وقامـت ثلاثة بنوك كينيـة - البنك التجـاري الكينـي المحـدودة، بنـك العـدل، وبنـك إيكـو - بتشـغيل فروع في مـدن جنـوب السّـودان الرئيسـية، كـما احتكـرت الخطـوط الجويـة الكينيـة خـط جوبا ونـيروبي، بما في ذلـك الرحلات رئيس البـلاد الخارجية.

يكشـف غـزو البـلاد مـن قبـل الـشركات الأجنبيـة، كبـيرة وصغـيرة، حقيقـة أن قـادة جنـوب السّـودان لا يملكـون خطـة اسـتراتيجية للبـلاد. مُنحـت بعـض الـشركات تراخيـص قصـيرة الأجـل حتـى إنجـاز الحلـول الدائمـة، لكـن أنشـطتها اسـتمرت لعـدم تنفيـذ الحلـول الدائمـة حتـى الآن. عـلى سـبيل المثـال، اعتُـبر اسـتخدام صهاريـج الميـاه في جوبـا إجراءً مؤقتًـا حتـى اكتـمال بنـاء شـبكة أنابيـب الميـاه في جوبـا. لم يتـم تنفيـذ هـذا المـشروع أبـدًا، بسـبب حـرص جـنرالات الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، ممـن يديـرون أعـمال صهاريـج الميـاه وبيـع ميـاه النيـل غـير المعالـج، عـلى إفسـاد جميـع محـاولات تشـييد شـبكة ميـاه مسـتقرة. حـدث الـشيء نفسـه مع مشروع كهربـاء جوبا: أحتج مسـتوردو مولدات

الديـزل ضد خُطـة الحكومة بحجّة أن المـشروع الحكومي يهدد أعمالهم.

السـؤال الـذي يفـرض نفسـه في ظـل هـذه الفـوضى هـو كيـف أعـاد هـؤلاء الأجانـب أموالهـم إلى بلدانهـم الأصليـة. قامـت معظـم الـشركات غـير الرسـمية بتحويـل أموالهـا في أحـد مكاتـب الفوركـس التـي يزيـد عددهـا عـن 127 مكتبًـا في البـلاد. وهـذا يوضـح الحجـم الهائـل لـرؤوس الأمـوال المهربـة مـن جنـوب السّـودان، بحيث يسـتحيل حصرهـا. تنافـس المواطنـون والأجانـب في إرسـال الأمـوال خـارج البـلاد، وعـلى وجـه الخصـوص النخبـة السياسـية، والعسـكرية، والتجاريـة في جنـوب السّـودان. كـما قـام العائـدون مـن الشـتات في الولايـات المتحـدة، وكنـدا، وأسـتراليا بإرسـال مبالـغ كبـيرة لـشراء ممتلـكات في بـلاد الشـتات. اسـتفادت اقتصـادات أوغنـدا وكينيـا بشـكل مبـاشر مـن الوضـع في جنـوب السّـودان. ظـل العديـد مـن اللاجئـين مـن جنـوب السّـودان في كينيـا وأوغنـدا. هنـاك حـوالي 200,000 جنـوب سـوداني خـارج مخيـمات اللاجئـين، يدرسـون في مسـتويات مختلفـة في جامعـات ومـدارس كينيـا وأوغنـدا.

تعتـبر أوغنـدا ذات أهميـة خاصـة في نقـاش الفسـاد، وتطـور الطبقـة الرأسـمالية الطفيليـة في جنـوب السّـودان. إذ يبلـغ حتـى المجـالات الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية التـي تحـدد العلاقـات بـين قـادة الدولتـين، الرئيـس يووِيـري موسـيفيني والرئيـس سـلفا كـير. كان مـن الواضـح أن المواطنـين الأوغنديـين في جنـوب السّـودان جـزءًا مـن خطـة موسـيفيني لتحسـين اقتصـاد أوغنـدا. وبـصرف النظـر عـن حجـم التحويـلات إلى وطنهـم ودفـع الضرائـب، أصبـح مهاجـرو أوغنـدا في جنـوب السّـودان جـزءًا مـن حـل أزمـة البطالـة في أوغنـدا. وهـذا

يفسر الدعم السياسي والعسكري الذي قدمه موسيفيني، بلا تردد، للرئيس كير، إلى حد مشاركة قوات الدفاع الشعبيّ الأوغندية والقوات الجوية بنشاط في الحرب الأهلية.

العلاقة بين موسفيني بالرئيس كير مبنية على الخداع، وترتبط باستغلال ونهب الموارد الطبيعية لجنوب السّودان. احتفظ الرئيس موسيفيني، منذ عام 2006، بوحدة من قوات دفاع الشعب الأوغندي في جنوب السّودان بذريعة تعقب جيش الرب. لكن الحقيقة غير ذلك. لم يكن هدف التجوال طوال هذه السنوات في غابات الاستوائية هو مقاومة جيش الرب؛ إذ رغم وجودهم، أشارت تقارير مستمرة عن قتل جيش الرب للمدنيين في ولاية غرب الاستوائية، الأمر الذي دفع الحاكم، جوزيف باكاسورو بنقاسي، إلى تشكيل لجان أمن أهلية تحت مسمى «شباب السهام» لحماية مناطق الزاندي[1]. تبين لاحقاً أن قوات الدفاع الشعب الأوغندي كانت منخرطة طوال هذه السنوات في صيد الفيلة ووحيد القرن بطريقة غير شرعية، وقطع الأخشاب، والتنقيب عن الذهب والماس، ونقلها إلى أوغندا.

يأتي وجود قوات الدفاع الشعبيّة الأوغندية في جنوب السّودان ضمن مخطط موسيفيني لاستخراج ونهب موارد جنوب السّودان،

(1) كان تعقب جيش الرب داخل أراضي جنوب السّودان خدعة لتبرير وجود قوات دفاع الشعب الأوغندي في جنوب السّودان. كجزء من حرب الولايات المتحدة ضد الإرهاب الدولي، نجح موسيفيني في عزل وتحييد الرأي العام دوليًا ضد جوزيف كوني عبر إصدار أوامر لجنود قوات دفاع الشعب الأوغندي بارتكاب جرائم مروعة وإلقاء اللوم على جيش الرب. ومن الواضح أن هذه القوات وراء الرعب الذي حاق بسكان غرب الإستوائية، وهذا ما يبرر توقف الجرائم فور تشكيل شباب السهام.

مستفيدًا من الانقسامات السياسية داخل قيادة الحركة الشعبيّة. شارك موسيفيني الرئيس سلفا كير في ازدرائه للدكتور ريك مشار. وبمجرد اندلاع العنف في جوبا بتاريخ 15 ديسمبر 2013، أرسل موسيفيني وحدات من قوات الدفاع الشعبيّة الأوغندية وطائرات هليكوبتر حربية للاشتباك مع قوات المتمردين في بور بطريقة توحي ضلوعه المباشر في تأجيج الصراع. بعدها بأشهر وقع وزيرا دفاع البلدين على اتفاقية وضع القوات لمواكبة المتطلبات القانونية في البرلمان الأوغندي، وضمان قيام حكومة جنوب السّودان بدفع فاتورة بلغت مئات الملايين من الدولارات. لعبتْ أوغندا دور الوسيط في شراء الأسلحة بين الشركات المصنعة والتجار والجيش الشعبي لتحرير السّودان، بعد أن منعت الأمم المتحدة جنوب السّودان من الشراء المباشر. كان على حكومة جنوب السّودان دفع تكاليف باهظة لنقل الأسلحة عبر شبكة تجار ووسطاء له صلات ببعض الأفراد المؤثرين في أوغندا. وأدى تعيين الجنرال بول ملونق رئيسًا لهيئة الأركان العامة للجيش الشعبي لتحرير السّودان بتسريع تلك الصفقات التي لم تتطلب بالضرورة مراسلات أو وثائق.

حاولتُ البرهنة على وجود الفساد منذ تأسيس الحركة. كان الفساد قادراً على تطوير حركة التحرير وإغراقها بسبب تحول نموذجي من الثورة إلى الليبرالية الجديدة، وما صاحبها من هندسة اجتماعية، واقتصادية، وسياسية. أنتج هذا الظرف الجديد طبقة نخبوية معزولة تمامًا عن الجماهير وأيديولوجيا التحرير. كانت نتيجة هذا الاغتراب أن تطورت هذه النخبة العسكرية السياسية إلى طبقة رأسمالية طفيلية نهبت الموارد الطبيعية لجنوب السّودان

بالتعـاون مـع الكومبرادوريـة الرأسـمالية الإقليميـة والدوليـة. أثـار ذلـك صراعـات سياسـية داخليـة داخـل الحـزب الحاكـم، أي الحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان، قـادت في نهايـة المطـاف إلى العنـف والحـرب الأهليـة. ينقلنـا هـذا إلى السـؤال الحاسـم حـول مـا إذا كانـت حـرب التحريـر الوطنـي التـي قادتهـا الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان ثـورة حقيقيـة.

الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان: الثورة الزائفة

يستلزم كل ثورة سياسية برنامج وأيديولوجيا تدعم رؤيتها، وقيادة ذات علاقة مميزة بالكوادر والجماهير. ناقشتُ في الصفحات السابقة، كيف ظهرت نخبة عسكرية وسياسية مغتربة عن حركة التحرير الوطني، وكيف اكتسبت كلمات ذات دلالات رمزية مثل «كومرد» و»تحرير» دلالات مختلفة بين المقاتلين والمدنيين. ناقشت أيضًا كيف تسبب الفساد وسرقة الموارد العامة في ظهور طبقة رأسمالية طفيلية ذات موقف اقتصادي، واجتماعي، وسياسي مُعادٍ للجماهير. حرص شعب جنوب السّودان على جرد وتوثيق نطاق الضرر الجسدي والنفسي الذي ألحقته هذه النخبة بالبلد، بما في ذلك سرقتهم مبالغ ضخمة من أموال الشعب في خيانة واضحة لمكتسبات الجماهير. من المهم هنا التأكيد على كلمة «خيانة» هنا، لأن جرائم النخب هذه تتعارض مع صورتهم في أذهان الجماهير كثوار ناضلوا من أجل «تحرير» البلاد.

تثبت مواقف قادة حرب التحرير وسلوكهم الخسيس حقيقة أن الحركة لم تكن حركة تحرير وطنية حقيقية. كانت هناك رغبة عامة في الجنوب لحمل السلاح إحتجاجاً على تعدي نميري على العملية الديمقراطية. لكن خلافا للاندفاع في الانضمام لحركة أنيانيا في الستينيات، كان الطموح للسلطة والمناصب السياسية والعسكرية هو دافع انضمام كثيرين لصفوف النضال، من أجل بلوغ مرتبة

مقاتلي أنيانيا السابقين الذين حظوا بمناصب في الجيش والحكومة لم يكن ليحلموا بها نسبة لمتطلباتها الأكاديمية. انضم العديد للحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان على أمل أن يصبحوا ضباطًا في القوات المسلحة السّودانية، والشرطة، وغيرها من المؤسسات الخدمية ورأوا أنها سُلم للارتقاء الاجتماعي، وبالتالي، أداة تراكم الثروة في شكل أبقار أو أموال، أو كليهما من أجل ممارسة عادة تعدد الزوجات.

أشرتُ إلى أن الفساد وسرقة المال العام كانا من الأمور الفطرية منذ تأسيس الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان. عندما يتسرب السلوك الإجرامي إلى تنظيم ثوري ينبغي على القيادة الثورية مناقشة الإشكاليات المترتبة عن هذه الأعمال الإجرامية. كان أن تحوّلت الجريمة إلى عمل ثوري (سرقة بنك لتمويل حركة ثورية) وتبريرًا أيديولوجياً[1]. إن التحايل وسرقة أموال الجيش في بور، الحادثة التي أشعلت التمرد، كشفت ما سيلي من سلوك ضباط الجيش الشعبي وجنودها في علاقتهم مع المدنيين.

كانت الحركة/ الجيش الشعبي تُدار بطريقة أبقت على مشاكل النظام القمعي الذي انتفضوا ضده، وجعل من الصعب تمييز الثوار عن زملائهم الذين لا زالوا يشاركون في نظام الخرطوم. استقبل المقر العام للجيش الشعبي لتحرير السّودان المجرمين والهاربين من نظام العدالة السّوداني الذين أعلنوا ثوريتهم بعد

(1) يحدث أن يتورط ثوريون في المقاومة السرية المسلحة في أنشطة إجرامية مثل السطو على البنوك وعمليات الاختطاف للحصول على فدية، وتبرير السلوك أيديولوجيًا. لكن في وقت لاحق عليهم تثقيف كوادرهم عن خطورة مثل هذه الممارسات.

انضمامهم إلى الحركة الشعبيّة[1]. أدى إهمال المعايير الاجتماعية والأيديولوجية في تحديد صفات عضوية حركة التحرير إلى جعلها ملاذًا لكل أصناف غير الأسوياء اجتماعياً، بمن فيهم، جواسيس النظام ووكلائهم من المخربين.

استخف قادة الجيش الشعبي بقيادة أنيانيا ورأوا فيهم مجرد أفراد ساعين للمناصب، لكن الوضع في الحركة كان أسوأ. تدفقت الجموع صوب الحركة/ الجيش الشعبي بحثاً عن الرتب العليا بدعوى أنهم كانوا من كبار المسؤولين التنفيذيين إبان حكومة السلطة الإقليمية. يشير هذا إلى أن العديد من الأفراد، لا سيما القادمون المدن والبلدات وليس من معسكرات الماشية، كانوا دائمًا من الساعين وراء المال والسلطة. جاء الكثيرون لتحقيق طموحات الحياة التي لم يتمكنوا من تحقيقها في السّودان.

تشكلت الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان في وقت مزقت الانقسامات السياسية الحادة والمريرة الطبقة السياسية في الإقليم الجنوبي على طول خطوط الصدع الإثنيّ والمناطقي. مثّلت هذه أرضية سياسية خصبة زرع فيها المشير نميري سياسات «فرق تسد»، وجعل من الاستوائيين أعداء دينكا بحر الغزال وأعالي النيل. ومع ذلك، لم يسلط منفستو الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان الضوء على هذا الوضع وآثاره الخطيرة على التطور المستقبلي للعلاقات بين الإثنيات داخل الحركة الوليدة. لم ينتقد المنفستو او

(1) وُجدت حالتان على الأقل: أحدهما فرد مدان بالتزوير وسرقة مال عام، قبل أن يهرب وينضم لقيادة الحركة. ولم يستطع الناس في واو تصديق آذانهم عندما أعلن الجيش الشعبي لتحرير السّودان عن اسمه ووصفه بالشخص «الثوري». تتعلق القضية الأخرى بمحاسب عمل في شركة التأمين الإقليمية قبل أن يهرب بأموال الشركة.

يتحدى فكرة هيمنة الدينكا على الحركة، أو حتى الردّ على رواية أن نخب الإستوائية (اللجنة المركزية الاستوائية) ناهضت هيمنة الدينكا من خلال دعم قرار نميري القاضي بإلغاء اتفاقية أديس أبابا وتفكيك الإقليم الجنوبي.

كان من المهم على الحركة تصحيح مسارها منذ وقت مبكر، والرد على الفكرة الخاطئة أن الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان جاءت لمعالجة لفقدان الدينكا المكانة السياسية المستحقة. في الواقع، اعتبر بعض المثقفين في تفوّق الدينكا العددي داخل الحركة الوليدة برهانًا على عل دينكاوية الحركة، وحرصوا على إهمال أي تلميحات بأن هيمنة الدينكا العرقية في الحركة الوليدة كانت مصادفة لقيادة الدينكا. أدى فشل المنفستو في مخاطبة الواقع الموضوعي بجنوب السّودان، بتشكيلاته الاجتماعية، والسياسية، والثقافية، إلى تفاقم الشكوك في وجود أهداف سياسية للحركة، وكان من الصعب فهم كيف أصبحت قيادة الحركة الوليدة، التي تدعي القومية، جسم دينكاوي التكوين.

اعتقد عديد من السياسيين والناشطين السياسيين، المنحدرين من وسط الاستوائية، أن الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان جاءت لعرقلة مطلبهم بإقليم منفصل للاستوائية. ساعدت البنية الاجتماعية والأيديولوجية للحركة، خاصة بعد القطيعة مع حركة (أنيانيا تو) وظهور الجيش الشعبي لتحرير السّودان في عام 1983، من العبور بسهولة إلى مشروع إثني دينكاوي. وأصبح من الشائع تسيير شئون الحركة بلغة الدينكا وليس العربية أو الإنجليزية، وكلاهما مألوف لمعظم الجنوبيين. وتسبّب الافتقار لوعي سياسي

وأيديولوجي في استحالة إقناع المقاتل الدينكاوي البسيط في المرعى أن الحركة شيئًا مختلفًا عن الدينكا، أو أنها لا تؤسس لرعاية مصالح الدينكا الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية.

خلال 21 سنة من وجودها، تأرجحت الحركة/ الجيش الشعبي بين كونها مؤسسة قومية سودانية ومنظمة سياسية جنوبية (مشروع الدينكا الإثنيّ). ظهرت شخصيتها الوطَنيّة فقط مع تشكيل التجمع الديمقراطي الوطني في عام 1995، وانتشار لواء السّودان الجديد في شرق السّودان. ومن المؤسف أن الدكتور جون قرنق لم يعش ليشهد تنفيذ اتفاقية السلام الشامل. فموته المأساوي في ذلك الوقت الحاسم، بعد ثلاثة أسابيع فقط من توليه منصب نائب أول رئيس جمهورية السّودان ورئيس حكومة جنوب السّودان، ترك العديد من الثغرات، مهدت لتمرير الأجندة الإثنيّة داخل الحركة الشعبيّة. أؤمن أن الدكتور جون قرنق كان سيرسم مسارًا سياسيًا مختلفًا في مواجهة الواقع الموضوعي الصارم لجنوب السّودان، والسّودان، ومنطقة إيقاد، والصعيد الدولي، وكان سيضع الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان وشخصه فوق المصالح الإثنيّة، الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية. في هذا الصدد، كان ترسيخه لقومية الدينكا قائمًا على المنفعة السياسية.

نعم هذا مجرد تكهّن. لم يعلم أحد غير قرنق كيف ستسير الأمور، خاصة مع احتكاره تفاصيل حركة التحرير. وكان أن جعل افتقار الحركة للمؤسسية في إدارة الشؤون العامة، كل قرار داخلي مهما صغر، لتقديره الشخصي. على سبيل المثال، بعد تحطم طائرة الهليكوبتر المأساوي تسربت بعض المعلومات الاستراتيجية لقيادة

الحركة الشعبيّة الجديدة من أقارب دكتور قرنق وليس من رفاقه في مجلس قيادة الحركة الشعبيّة، ما يشير إلى وجود خطة كانت تنتظر التنفيذ على مستوى الحركة ، وحكومة جنوب السّودان، كانت ستسبب خلافات خطيرة.

تجدر الإشارة إلى أن الحركة ليس لها دستور داخلي، رغم مزاعم وجود أجهزة رسمية للدولة: الجهاز التشريعي تحت اسم مجلس التحرير الوطني، وجهاز تنفيذي يتمثل في اللجنة التنفيذية الوطَنيّة؛ إلا إن هذه الهياكل غير فاعلة. كما وضحنا سلفاً، عملت الحركة وفقاً لتقديرات رئيسها وقائدها العام. جعل افتقار الحركة للمؤسسية أن دكتور قرنق هو المسؤول الوحيد عن كل شيء.

لم يكن رئيس الحركة وقائدها العام الجديد، سلفا كير مياريديت، قد تعافى تمامًا من أزمة ياي، وظل متخبطًا بين الإلتزام بـ»مركز القوة القومي» للحركة ، و»مركز قوة» بحر الغزال الناشيء[1]. وكلاهما على رأسه سلفا كير. كانت المجموعتان متعاديتين بطريقة فاقمت صعوبة انتقال قيادة الحركة من قرنق إلى كير.

تولى الرئيس كير قيادة الحركة في أضعف لحظاتها، بعد أن فقدت للتو زعيمها المؤسس. ولم تكن أزمة ياي (2004) بين كير وقرنق قد حُلّت حتى تاريخ وفاة قرنق. أشرتُ سابقًا أن كير لا ينسى أبدًا ولا يسامح منتقديه، لذا استمرت القضايا العالقة منذ

(1) ضم «مركز القوة القومي» أعضاء من مجلس قيادة الحركة الشعبية لتحرير السّودان، ورئيس الأركان العامة للجيش الشعبي لتحرير السّودان وموظفيه، كما شكله قرنق بعد فترة وجيزة من توليه منصب رئيس حكومة جنوب السّودان. «كبار بحرالغزال» ويتألف من ابناء بحر الغزال في الجيش الشعبي لتحرير السّودان والسياسيين المنحدرين من أويل ووراب الذين عارضوا قرنق بشدة.

أزمة ياي في الظهور، واشتعلت بينه وبين من يوصفون بأيتام قرنق. بالإضافة إلى هذه التحديات الداخلية، كانت الفترة الانتقالية صعبة على الحركة الشعبيّة. ويرجع ذلك إلى العوامل المتعلقة بعلاقتها مع حزب المؤتمر الوطني في سياق تنفيذ اتفاقية السلام الشامل، وتطورها كحزب سياسي في الحكومة.

لم يتلقى كوادر الحركة تدريبًا على السلام والعمل الحكومي، ولم يكن لديها خطة لإدارة «الانتقال من الحرب إلى السلام» باستثناء اتفاقية السلام نفسها، والدستور الوطني المؤقت، والدستور المؤقت لجنوب السّودان.

وجد قادة الحركة/ الجيش الشعبي، في الحكومة والجيش، أنفسهم في موقع التعلم بالتجريب، وحاولوا فعل ما ما عرفوه ولم يعرفوه. كان هناك ارتباك عام في الرتب القيادية، خاصة بعد تعديل كير بعض القرارات والأوامر التي أصدرها قرنق قبل موته المأساوي. سمح أسلوب القيادة الجديد بظهور مراكز قوة متنافسة داخل الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، الأمر الذي أدى إلى تفاقم الاغتراب والخوف[1]. أدت المؤامرات، والانتماء المزدوج، وعرقلة بعضنا البعض، والنميمة، وعبادة القائد، وجميع أنواع سياسة حافة الهاوية السياسية غير الصحية إلى خلق وضع داخلي في الحركة أدى إلى زيادة انعدام الثقة بين قيادتها العليا، وشل التفكير الاستراتيجي، والقدرة على العمل. أسهم موقف الرئيس كير «بالتغاضي عن بعض القضايا» في زوال بعض المشكلات ومنع وقوع انفجار سابق لأوانه.

(1) شكّل كبار بحر الغزال وأيتام قرنق جماعة ضغط قوية بحكم إلمامهم بالأنشطة السياسية والدبلوماسية للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان في المنطقة وخارجها.

أدى التحايل على الأمور بدلاً عن مواجهتها مباشرة إلى تجنّب التوترات مؤقتًا، لكنه لم يمنع ظهور هذه الاختلافات للعلن في نهاية المطاف، كما إنه إنعكس سلباً على العلاقة مع حزب المؤتمر الوطني، والمضي قدما في تنفيذ اتفاق السلام الشامل، وخاصة تنفيذ البروتوكولات الثلاثة (أبيي، جبال النوبة/جنوب كردفان، والنيل الأزرق). يجب ذكر أن الإدارة الأمريكية علقت مسؤولية حسم البروتوكولات الثلاثة في عنق حزب المؤتمر الوطني. ظل إجراء الاستفتاء حول تقرير المصير محور اهتمام الرئيس كير والتوجه السياسي السائد للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان. افتقر هذا التوجه للحكمة والواقعية السياسية، وشكل محور تفاعلات الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان مع حزب المؤتمر الوطني في حكومة الوحدة الوطَنيّة. وأدى ذلك إلى تقسيم الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، وأفكارها السياسية، إلى قطاعين «جنوبي» و»شمالي» في مرحلة مبكرة، في خيانة عظيمة للمشروع، وحصر الاهتمام بالمسائل التي ستؤدي إلى انفصال جنوب السّودان، وتجاهل كل ما يتعلق بالتحول الديمقراطي.

كان التحول الديمقراطي لنظام الحكم في السّودان من صميم مهام الحركة الشعبية لتحرير السّودان باعتبارها ثاني أكبر شريك في حكومة الوحدة الوطنية. بحيث توجب عليها الضغط، سياسياً ومعنوياً، من أجل التحول الديمقراطي. كان قرنق سيستخدم نصوص اتفاق السلام الشامل، التي تفاوض عليها شخصيًا، لحشد الدعم السياسي في شمال السّودان ضد إحجام حزب المؤتمر الوطني عن تنفيذ اتفاق السلام الشامل بالكامل. لم يهتم الرئيس كير

بالـصراع الإيديولوجـي ضـد حـزب المؤتمـر الوطنـي، وبالتـالي تجاهـل البنـد المتعلـق بالتحـول الديمقراطـي. وظهـرت الانقسـامات الداخليـة داخـل قيـادة الحركـة الشـعبيّة، وسـط قادتهـا وكوادرهـا المنتشريـن في مؤسسـات حكومـة الوحـدة الوطَنيّـة، وبالتحديـد في السـلطة التنفيذيـة والتشريعيـة.

كان واضحـاً منـذ بدايـة الفـترة الانتقاليـة أن اهتـمام كـير ينحـصر في جنـوب السّـودان وحكومـة جنـوب السّـودان المتمركـزة في جوبـا، بالرغـم مـن أن سياسـات تنفيـذ اتفـاق السـلام الشـامل كانـت تُـدار مـن المكاتـب الرئيسـة للحـزب في العاصمـة الخرطـوم. أثـر ذلـك عـلى دور الحركـة الشـعبيّة بصفتهـا ثـاني أقـوى حـزب بعـد حـزب المؤتمـر الوطنـي في حكومـة الوحـدة الوطَنيّـة. الحقيقـة هـي أن كـير نـادرا مـا حـضر اجتماعـات مجلـس وزراء حكومـة الوحـدة الوطَنيّـة في الخرطـوم، مـا يشـير إلى لامبالاتـه بمـا يحـدث هنـاك. كان هـذا بمثابـة خطـأ اسـتراتيجي مـن قبـل الحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان، الأمـر الـذي يلقـي بظـلال الشـك عـلى اسـتمرار الوجـود السـياسي للحركـة في شـمال السّـودان. فقـد تطلـب مناوراتهـا السياسـية، ومشـاركتها مـع حـزب المؤتمـر الوطنـي، الانتشـار في الخرطـوم، والنيـل الأزرق، وجنـوب كردفـان، حيـث يوجـد قـادة وكـوادر بارعـين سياسـيا، وتتمتـع الحركـة الشـعبيّة بدعـم سـياسي قـوي. ضمـت هـذه المناطـق أيضًـأ وحـدات كبـيرة مـن الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، يمكـن اعتبارهـا، مـن وجهـة النظـر العسـكرية، خـط الدفـاع الأول للحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان ضـد عنـاد حـزب المؤتمـر الوطنـي والمماطلـة في تنفيـذ اتفـاق السـلام الشـامل. لكـن الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان عيّنـت قـادة

ضِعاف، وأصبحت المناطق الثلاث، النيل الأزرق، وجنوب كردفان، وأبيي عرضة لمكائد حزب المؤتمر الوطني السياسية. وبسبب افتقار الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان للتفكير الاستراتيجي، وحساباتها السياسية الخاطئة، اندلع القتال في المناطق الثلاث بمجرد استقلال جنوب السّودان في عام 2011. وكانت النتيجة هي الهزيمة الشنيعة للحركة الشعبيّة.

منحت الفترة الانتقالية الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان فرصة تطبيق رؤيتها على الواقع الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي لجنوب السّودان، والنيل الأزرق، وجنوب كردفان، إن لم يكن كلّ السّودان. لكن لسوء الحظ، لم يكن لديها برنامج واضح. لن يكون من الممكن بناء برنامج سياسي لإحداث التحول المنشود دون أيديولوجيا. اعتمدت الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان على بروتوكولات اتفاقية السلام الشامل لمعالجة تحديات الفترة الانتقالية. ورغم تلقي حكومة جنوب السّودان نصيبها من عائدات النفط بانتظام، لم تكن للحركة خطة واضحة لصرفها. وكشف الوضع الجديد الزهو الفارغ ومفارقة قادة الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان للتوجه الإيديولوجي والسياسي. فقد انخرطوا في استخدام الأموال لمكافأة أنفسهم، أو ما أطلق عليه أحد وزراء حكومة جنوب السّودان لفظة «وقت استرداد الدين». شمل هذا منح عقود حكومية وهمية وضخمة للأصدقاء والأقارب، ودعوة الأقارب والأصدقاء غير المؤهلين من الشتات وتعيينهم في وظائف كبيرة بالخدمة المدنية. بلغت هذه الأفعال درجة تعيين ضباط من الجيش الشعبي، تربطهم صلات جيدة مع أصحاب النفوذ، في

وظائف كبيرة بمؤسسات الخدمة المدنية بينما لا يزالون في الخدمة العسكرية، ويتلقون رواتبهم من الجيش. كان لدى حكومة جنوب السّودان قدرًا كبيرًا من الأموال تحت تصرفها، لكنها فشلت بسبب افتقارها خطط تنموية قابلة للتنفيذ. كان فشلًا لا يُصدق في وقت كان الفقر، والجهل، والأمية، والافتقار التام للبنية التحتية المادية واضحين في جميع أصقاع الجنوب.

كان الجنوب خارجاً للتو من حرب مدمرة (1983-2005)، لم تنسف البنية التحتية المادية فحسب، بل والنسيج الاجتماعي أيضًا، واقتصادها وثقافتها القائمتين على الزراعة. تطلب هذا الوضع تدخلًا حكوميًا عاجلًا للانتقال من الحرب إلى السلام عبر برنامج طوارئ لمواجهة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، وخاصة في قطاع الزراعة من أجل تلبية احتياجات الأمن الغذائي. ومن حسن الحظ، أن حكومة جنوب السّودان تمتعت بالموارد الاقتصادية والمالية اللازمة لإنجاز هذه المهمة. كان بحوزة حكومة جنوب السّودان المال لبدء بعض مشاريع التنمية الاقتصادية التي أنجزت المجلس الأعلى التنفيذي دراسات جدواها قبل الحرب؛ لولا الصعوبات بسبب غياب التنظيم، والمؤسسية، والشلل السياسي الذي أصاب الحركة الشعبيّة فور وفاة قرنق.

وقد فاقم أسلوب قيادة الرئيس كير من الشلل السياسي وظهور مراكز قوى متصارعة داخل الحركة الشعبية. انصبّ حرص سلفا كير على حماية منصبه كرئيس للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، وحكومة جنوب السّودان فقط، وتغاضى عن الصراعات الداخلية حول السلطة، لأنه لم ير قيادات قادرة على تحدي سلطته. أدى

ذلـك إلى انحـراف قيـادة الحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان وحكومـة جنـوب السّـودان عـن مهمتهـم الأساسـية، وهـي تقديـم الخدمـات التنمويـة والاجتماعيـة، وتركيزهـم عـلى أنفسـهم، وحمايـة مصالحهـم والمراكمـة البدائيـة للـثروة. ورغـم شـكوى هـؤلاء القـادة، بمـن في ذلـك الرئيـس، ونقدهـم لإخفاقـات النظـام، مثـل حـالات الفسـاد المتعاظمـة، والمحسـوبية، والقبليـة، وانعـدام الأمـن، إلا أنهـم لم يتخـذوا أي إجـراء لمعالجـة هـذه المشـكلات.

يعيدنـا يعيدنـا إلى السـؤال البلاغـي حـول حقيقـة ثوريـة الحركـة. أجـدني في خانـة التمسـك بالـرأيّ السـابق (نيابـا، 2000: 193)، وهي أن الحركـة لم تكـن موجـودة في أي مـكان في الجنـوب باسـتثناء في المزيـج المبهـم للجيـش/ الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان. تعضّـد رأيـي هـذا بعـد وصـول قادتهـا للسـلطة في حكومـة جنـوب السّـودان عـام 2005. وهـي التجربـة التـي أثبـت أن الحركـة كانـت مُختزلـة في شـخص دكتـور جـون قرنـق فقـط، وبدونـه لم يكـن لهـا وجـود فعـلي. وهـو مـا أصبـح عليـه حـال الحركـة، خاصـةً بعـد ديسـمبر 2013.

إن حقيقـة وجـود زعيـم واحـد في حركـة تحريـر تثـير مشـاعر الرهبة والعبـادة بـين زملائـه والعامـة، لدرجـة تخيّـل أن حيـاة المنظومـة متوقفـة عليـه امـر خطـير. يدفعنـا هـذا الوضـع لقناعـة أن الحركـة لم تكـن فصيـلًا ثوريًـا، وأن جـلّ مـا قصـده مـن المـشروع كان خلـق مصدر قـوة شـخصية، الأمـر الـذي نجـح فيـه بالفعـل. ومـا يبـدو أنـه مصادفـة في نجـاة سـلفا كـير لوحـده مـن أعضـاء القيـادة العليـا الخمسـة رجـال، يوضـح ميزتـه الخاصـة في الجمـع بـين الإسـتراتيجية، والجُـبن، والدونيـة، والوحشـية في فعـل كل مـا قـد يمكنـه مـن بلـوغ القمـة. كانـت هنـاك

أوقات تصرف فيها كير كالأحمق ليشق طريقه بين زملائه، القُساة بدورهم، في القيادة العليا (كاربينو كوانين بول، ويليم نيون بانج، وأروك طون أروك)، وذلك بتصرفه كالجلاد المطيع لأوامر قرنق، واستعداده لاعتقال، واحتجاز أو القضاء على المعارضين لتاج قرنق.

لم يكن من قبيل المصادفة أن يرث سلفا كير ميارديت قيادة الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان ورئاسة جنوب السّودان، وينسخ أساليب قرنق في التظاهر بانتظار الأوامر، على الرغم من أنه الزعيم الفعلي. وهكذا، في السنتين الأوليين من رئاسته لجنوب السّودان، لم يظهر كير السلوك الذي غالباً ما يرافق السلطة. ظل بسيطًا، وسهل التعامل، ومنفتحاً على الأفكار، رغم أنه لم يتدخل بشكل حاسم إلا في القضايا التي تمس امتيازات منطقتي أويل وواراب. استغلت العناصر الانتهازية المتعطشة للسلطة حوله شخصيته الحميدة ظاهريًا لكسب رضاه، وتثبيط التفكير الاستراتيجي. إلى أن بدأت الأمور تنزلق دون سيطرة، خاصة فيما يتعلق بالفساد في الخدمة العامة، وتفاقم انعدام الأمن، والصراعات الإثنيّة في جميع أنحاء جنوب السّودان.

لعب قادة الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان فيما بينهم نفس نوع السياسة التي مارسوها مع حزب المؤتمر الوطني بطريقة أظهرت الانقسامات الداخلية عميقة الجذور. كانوا في خناق سياسي دائم، بطريقة تُظهر وتعضّد مزاعم أن الجنوبيين لا يمكنهم حكم أنفسهم، إلا إنها في الحقيقة كانت إنعكاس للخلفيات القروية الساذجة لهؤلاء القادة. كانت هذه السياسة امتدادًا واكتمالًا لنظام المحسوبية والأبوية الذي أفسد حركة التحرير. وتعتمد إمكانية

بلـوغ مراكـز السـلطة فيـه عـلى امتـلاك أكـبر شـبكة مـن العمـلاء، والرعايـا، والسـيطرة عـلى وسـائل العنـف (الجيـش، والأمـن القومـي، والشرطـة). حظـي الرئيـس كـير بمصـادر ماليـة وبشريـة وظفهـا في دعـم نخبـة الدينـكا وتوزيـع مبالـغ كبـيرة لـشراء ولائهـم السـياسي.

تطـورت نفـس مفاهيـم الأبويـة السياسـية حـول نائبـه، الدكتـور ريـك مشـار، الـذي وضعـه أفـراد قبيلتـه (رجـالًا ونسـاء) في مكانـة سـامية، واعتـبروه زعيمهـم بعـد وفـاة صموئيـل قـاي تـوت، الـذي مات عـلى يـد الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان خـلال اشـتباكات في عـام 1984. شـكل النويـر ثـاني أكـبر إثنيـة بعـد الدينـكا. هنـاك أسـطورة شـفوية رائجـة، ذات علاقـة بنبـوءة نقوندينـق، وتخـبر عـن شـخص أعـسر وأفلـج سـيقود النويـر. عملـت نخبـة النويـر وأعـادوا صياغـة هـذه النبـوءة لتناسـب وصـف مزايـا ريـك مشـار. دُمجـت هـذه الروايـات في الأسـطورة، وأصبحـت ذات أهميـة في التعبئـة السياسـية الإثنيّـة للنويـر، واسـتجابتهم لهيمنـة الدينـكا عـلى السـلطة.

بقيـة قـادة الحركـة/ الجيـش الشـعبي، مـن السياسـيين خـارج مجموعتـي الدينـكا والنويـر، فهـم حسـب ترتيـب أقدميتهـم في الحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان: د. لام أكـول، جيمـس واني إيقـا، وفاقـان أمـوم أوكيـج، هـؤلاء هـم أعضـاء مجلـس القيـادة السـابق للحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان، الـذي تأسـس في 2004، قبـل وقـت قليـل مـن اتفاقيـة السـلام الشـامل. ينحـدر كل مـن لام أكـول وفاقـان أمـوم مـن شـلو، بينـما جيمـس واني إيقـا مـن بـاريّ، أو الاسـتوائية في اللغـة الدارجـة للحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان. ظـلّ إيقـا ثابتـاً في موقفـه الداعـم لكـير خـلال جميـع أزمـات الحركـة الشـعبيّة التـي لا يمكـن

التنبـؤ بهـا. حـاز إيقـا عـلى ثقـة كـير، وقبـل بـكل انقيـاد صعـوده وهبوطـه المحـرج في التسلسـل الهرمـي لقيـادة الحركـة الشـعبيّة.

ظـل الرئيـس كـير متشـككًا ومتخوفًـا مـن فاقـان أمـوم، وكان عليـه أن يتنـازل عـن كبريائـه العـام 2008، ويقبـل تعيينـه أمينًـا عامًـا بعـد قـرار المؤتمـر القومـي الثـاني للحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان. أمـا د. لام أكـول، فقـد ظـل كـما هـو، السـياسي الـدؤوب، والموسـوس، والأنـاني الباحـث دائمًـا عـن السـلطة؛ أولاً مـع قرنـق ثـم بعـد ذلـك مـع كـير، وهـو مـا دفعـه للانسـلاخ (1991)، العـودة (2003)، والانسـلاخ مـرة أخـرى (2009) مـن الحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان، وتشـكيل فصيـل سـمي بالحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان - التغيـير الديمقراطي SPLM-.DC

وفي ظـلّ البنيـة الإثنيّـة للسياسـة داخـل الحركـة الشـعبيّة، اعتمـد هـؤلاء القـادة الثلاثـة بشـكل أكـبر عـلى الدوائـر الإثنيّـة بـدلاً عـن القوميّـة في عملهـم السـياسي، وفي ضـمان بقائهـم. وذلـك لأن الانتـماء إلى الأقليـات العرقيـة ينـزع مـن الحقائـق والدوائـر القوميـة أي تأثـير في التنافـس عـلى السـلطة والقيـادة، وفي مسـائل أيـن ومتـى تنتظـم الممارسـة السياسـية. لـذا مارسـوا السياسـة والسـلطة عـلى أسـاس الإنتـماءات الإثنيـة، بـدلاً عـن الأفـكار والبرامـج السياسـية في لعبـة تقـرر فيهـا الأغلبيـة النتيجـة المسـبقة لأي تنافـس. هـذا السـلوك هـو منبـع المحفـزات الحقيقيـة للحـرب الأهليـة الحاليـة التـي أوشـكت على تدمـير جنـوب السّـودان. اتبـع قـادة الحركـة خطـى الزعـماء الأفارقـة القوميـين في حقبـة مـا بعـد الاسـتقلال، وسـلكوا نفـس مسـاراتهم في الهندسـة الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية لجنـوب السّـودان،

وروجـوا دائمًـا للإثنيـة والـولاء الإثنـيّ كطريـق إلى السـلطة السياسـية. وهـي مسـالك غالبـاً مـا تطـورت إلى ديكتاتوريـات شـمولية، يزدهـر تحـت ظلهـا التمكـين السـياسي والاقتصـادي لبعـض الإثنيـات بسـبب المحسـوبية السياسـية والاقتصاديـة.

الحـرب الأهليـة الحاليـة في جنـوب السّـودان هـي نتيجـة مبـاشرة للطريقـة التـي أدارت بهـا الحركـة/ الجيـش الشـعبي حـرب التحريـر الوطنـي: ثـورة دون إطـار سـياسي وأيديولوجـي. كان هـدف الثـورة هـو تغيـير ظـروف التخلـف الاجتماعـي، والاقتصـادي، والثقـافي لشـعب جنـوب السّـودان، مـن خـلال تطويـر وتحريـر قـواه الإنتاجيـة، وهـو مـا لم يحـدث. لقـد سـلك قـادة الحركـة مسـار الاسـتعمار الجديـد في التنميـة، وتسـببوا في الإفقـار التـام للجماهـير. لـذا لم تكـن الحركـة جسـم ثـوري. لقـد كانـت في أحسـن الأحـوال، ولا تـزال، مشروع سـلطة. وهـو مـا يفـسر انشـقاق فصائـل مختلفـة تحـت قيـادة قـادة الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، ممـن يعتـبرون أنفسـهم مؤسِّسـين تاريخيـين للحركـة، ليطالبـوا بنصيبهـم مـن الاسـم، مـا يثبـت أن الحركـة كانـت مـشروع سـلطة، سـواء في تكوينهـا الأصـلي أو فصائلهـا المتباينـة، هـو إحجـام هـؤلاء القـادة عـن بنـاء مؤسسـات وهيـاكل السـلطة العامـة. إن توطـين الديمقراطيـة يعنـي مشـاركة السـلطة وصنـع القـرار مـع المرؤوسـين الذيـن صـاروا يكرهـون جميـع هـؤلاء القـادة.

الفصل الثالث

حرب أهلية ليست حتمية

هنالك سؤال مركب يشغل معظم السّودانيين الجنوبيين: هل كانت الحرب الأهلية حتمية؟ هو سؤال مركب لأنه يتفرع إلى جانبين مهمين. الأول هو القتال على أسس إثنيّة في كتيبة تيقر ليلة 15 ديسمبر 2013، بعد الجلسة الختامية لمجلس التحرير الوطني للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان. تضم كتيبة تيقر وحدة الحرس الرئاسي، وتتألف في الغالب من جنود من الدينكا (حرس كير الشخصيين من ولايتي واراب وشمال بحر الغزال)، والنوير (الحراس الشخصيين لفولينو ماتيب نيال ومشار وجميعهم من ولاية الوحدة). حارب هؤلاء الجنود بعضهم البعض على أسس إثنية. يتعلق الجانب الثاني بالمذبحة التي استهدفت الأبرياء من رجال، ونساء، وأطفال النوير، في ضواحي العاصمة في جوبا، في الفترة من 16 - 19 ديسمبر. وكان أن أُستخدم الشلوخ لتحديد النوير عن سواهم على مرأى كل حكومات المنطقة، وبعثة الأمم المتحدة في جنوب السّودان، والمجتمع الدولي ممثلًا في البعثات الدبلوماسية بجوبا.

بدأت التحركات العدائية بين الرئيس كير وقائد أركان جيشه الجنرال بول ملونق أوان في الظهور للعلن عام 2017،[1] وهي عداوة خلقتها تعقيدات دوافع واستراتيجيات قرار الحرب التي استمرت منذ ديسمبر 2013. بدأ الانهيار بالقتال في القصر الرئاسي

(1) أعلن الجنرال بول ملونق أوان الحرب على الرئيس كير، وشكل جبهة/ جيش جنوب السّودان.

(جـي ون) في 8 يوليـو 2016، معلنـاً انهيـار اتفاقيـة تسـوية النـزاع في جنـوب السّـودان. وبحلـول نهايـة عـام 2017، تحـول الواقـع السـياسي لدرجـة أثـار تسـاؤلات العديـد عـن الدوافـع التـي قـادت للحـرب. انتقلـت جميـع العنـاصر السياسـية والعسـكرية، التـي كانـت مركـز الإعصـار السـياسي في عـام 2013، إلى اتخـاذ الجانـب النقيـض. إنضـم تعبـان دينـق قـاي إيزيكيـل لـول قاتكـوث مـن موقعهـم المحـرض عـلى الحـرب في جبهـة مشـار، إلى دعـم سـلفاكير عـام 2016؛ بينـما صـار بـول ملونـق، وأليـو أنيانـق، وتيـلار دينـق أعـداء كـير. اكتسـبت الحـرب الأهليـة طابعًـا مختلفًـا عـما كانـت عليـه عندمـا اندلعت في عـام 2013. أي تحليـل صـادق للحـرب الأهليـة وأسـبابها سـيقودنا إلى مخرجـات مثـيرة للاهتـمام، بمـا في ذلـك الاضطـراب الإنسـاني المـؤلم، والمعانـاة الهائلـة، والمـوت ناقشـتُ في الفصـل الثـاني تشـكيل الحركـة/ الجيـش الشـعبي، والعوامـل وراء تكويـن قيادتهـا في سـياق حـرب التحريـر الوطنـي. تفاديـتُ مناقشـة الزعـماء السياسـيين الذيـن خدمـوا نظـام الإنقـاذ. ومـع ذلـك، كشـفت مواقـف عديـدة أنانيـة هـؤلاء الـوزراء. مـن الإنصـاف القـول إن السـلوك الحـالي لقـادة جنـوب السّـودان، ولا سـيما قـادة الحركـة، يعكـس مـدى فشـل هـؤلاء في تقديـم نمـوذج قيـادة وطنيـة.

يمكـن إرجـاع أصـل الحـرب إلى تشـكيل وديناميكيـات، وفشـل الحركـة في التحـول إلى حركـة تحريـر وطنيـة. تحولـت الأزمـات السياسـية داخـل الحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان، مدفوعـة بالسـلطة والـثروة، إلى صراع بـين أكـبر إثنيتـين في جنـوب السّـودان: الدينـكا والنويـر. اجتمـع مزيـج مؤسـف وأسـهم تهيئـة المـسرح. أثـار

الموت المفاجئ لقرنق ديناميكيات أدت إلى تهميش الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان كقوة سياسية رائدة، بما في ذلك ظهور مجموعة إثنيّة غير رسمية تسمى (شيوخ بحر الغزال) شكلت مركز قوة حول الرئيس[1]. لم تكن مؤسسات الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان قد تطورت بعد، وبالتالي، أدى ظهور مركز قوى جديد إلى إضعاف الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، وهي لا تزال تتعافى من مأساة وفاة قرنق، وأزمة ياي التي ظلت حاضرة في أذهان العديد من قادة بحر الغزال ومجموعتها التي دعمت كير.

لم تحظى الحركة بخطة وبرنامج تحكم به جنوب السّودان، رغم واقع كونها الحزب الحاكم في جنوب السّودان قبل الاستقلال. شاب مؤسساتها وأدواتها الضعف، وأُختزلت الحركة في شخص القائد خلال حرب التحرير الوطني مع غياب إيديولوجية سياسية موحدة. كانت عواقب ذلك واضحة بعد وفاة زعيمها المؤسس، وظهرت في مواقف متناقضة تبناها مختلف القادة في علاقاتهم مع حزب المؤتمر الوطني والمجموعات السياسية الأخرى في جنوب السّودان. ونتيجة ذلك، سعى القادة إلى تحقيق أهداف شخصية فردية، مما زاد من حدة الصراع الداخلي على السلطة، والتراكم البدائي للثروة.

تهميش الحركة كحزب حاكم يعني ممارسة السياسة وتوزيع الثروة، والسلطة، والفرص على أسس إثنيّة. وجدت القومية الإثنيّة للدينكا وإيديولوجيتها للهيمنة ترجمتها الفعلية في تأسيس مجلس

(1) مجموعة من السياسيين والمثقفين المنحدرين من دينكا واراب، أويل، وعدد قليل من البحيرات، هدفها السيطرة على الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، والتمكين الاقتصادي لشعب بحر الغزال.

كبار أعيان الدينكا، الجسم التنظيمي والأيديولوجي لجميع مثقفي الدينكا بما فيها أبيي. وكانت النتيجة تهميش الحركة الشعبيّة سياسياً، وعلى مستوى الدولة، بينما تحولت سلطة الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان بشكل غير محسوس من دار الحركة الشعبيّة، والأمانة العامة، إلى مكتب الرئيس ومجلس أعيان الدينكا. كرس المجلس ومراكز البحث الخاصة بالدينكا (معهد سود ومركز أبوني) وقتهم لوضع سياسات، أصدرها الرئيس لاحقًا في شكل قوانين.

لم يكن هناك مبرر مقنع لإثارة الأزمات التي أدت إلى اندلاع الحرب الأهلية، والتمسك بالطموحات الأنانية للسيطرة على سلطة الدولة وموارداها. القضية برمتها غير منطقية، لدرجة أن أي تحقيق يلتزم الموضوعية والعلمية في مسار الأحداث التي أدت إلى اندلاع العنف في ديسمبر 2013، سيؤدي إلى إستنتاج مفاده أن استقلال جنوب السّودان بقيادة الرئيس كير، ومشار، وجيمس واني إيقا كان بمثابة ولادة جنين ميت. جعل افتقارهم البصيرة السياسية والقيادة الضرورية لإدارة بلد خرج من حرب أهلية استمرت 21 عامًا من اندلاع العنف أمرًا لا مفر منه. لقد كانوا على هامش عمليات صنع القرار تحت إدارة قرنق، وفي معظم الأحيان كانوا مهتمين فقط بالمسائل الفردية، وهي ما شكلت الدافع وراء سعيهم لتحقيق طموحاتهم الشخصية، لحد المساهمة في الانهيار الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي لجنوب السّودان.

تمثل أكبر صفات ضعف شخصية كير في شوفينية إثنيّة الدينكا، وعدم قدرته على مقاوم سعي مجلس أعيان الدينكا لتحويل دولة جنوب السّودان إلى دولة الدينكا. وافق كير ونفّذ سياسات مجلس

أعيـان الدينـكا، وتتلخـص أهـداف نخبتهـا السياسـية، والعسـكرية، والتجاريـة في شـيئين: تعزيـز التفـوق المطلـق للدينـكا بأسـلوب القـرون الوسـطى، والتمكـين الاقتصـادي لأعضائهـا.

يشـكل النويـر في هـذا المخطـط العقبـة الكـؤود، وبالتـالي، كان لابـد للمجلـس مـن وضـع اسـتراتيجية تحـدد التعامـل مـع التداعيـات. لـن يتـورع الدينـكا والنويـر عـن خـوض الحـرب بسـبب التنافـس عـلى السـلطة أو قيـادة جنـوب السّـودان؛ يمكنهـم أيضًـا إدخـال البـلاد حالـة حـرب بسـبب السـلطة والمـال بشـكل عـام. وفي بيئـة تفتقـر إلى بنيـة هرميـة، قـد يقـود النـزاع عـلى السـلطة والـثروة (البقـر) إلى الدمـار والمـوت. مـن أجـل تحقيـق هـذه الأهـداف، كان مجلـس أعيـان الدينكا عـلى اسـتعداد خلـق اضطـراب سـياسي، وأزمـة اقتصاديـة عميقـة، وتفـكك اجتماعـي، عـلى طـول الخطـوط الإثنيّـة والمحليـة، ناهيـك عـن عزلـة دبلوماسـية إقليميـة ودوليـة لجنـوب السّـودان.

احتكـر مجلـس أعيـان الدينـكا العمليـة السياسـية، وسـيطر عـلى الاقتصـاد، لكـن اللاعقلانيـة المتأصلـة للمخطـط ولـدت انقسـامات داخليـة وصراعـات عـلى السـلطة بـين كـير وبعـض المشـاركين في تنفيـذ المخطـط، بمـن في ذلـك الجـنرال بـول ملونـق أوان، القائـد السـابق لهيئة الأركان العامـة. امتـد الـصراع بـين الزعيمـين إلى مجتمعاتهـم، وتسـبب في مناوشـات مسـلحة، ومهـد الطريـق أمـام تراجـع قـوة مجلـس كبـار أعيـان الدينـكا وانهيـاره. رغـم خشـية مجلـس كبـار أعيـان الدينـكا احتـمال إرتخـاء قبضتـه عـلى السـلطة، إلا إنـه اختـار الطريـق الخطـأ للخـروج مـن الأزمـات المتعـددة.

إن الطبيعـة الأنانيـة التـي وسـمت الإثنيّتـين المهيمنتـين، سياسـياً

وديموغرافياً، في جنوب السّودان (الدينكا والنوير) واعتبارهم الدولة ممتلكات شخصية أو إثنيّة هي المصدر الرئيسي لمأزق جنوب السّودان. وتمثل عقليتهم الإقصائية المتبادلة المحرك الرئيسي للصراع الحالي. مع ذلك، فإن الأسباب الجذرية للصراع الحالي هيكلية، وتتعلق بافتقار مأسسة القوة والنفوذ العام داخل بينة وهياكل السلطة في الحركة الشعبية لتحرير السّودان، وليست أزمة بنيوية داخل هذه الإثنيات.

من الشائعة إلى السردية الخطرة

هنـاك حاجـة ملحـة للتحقـق مـن أجـل إثبـات مـا إذا كانـت الحـرب مؤامـرة أم لا. ذكـرتُ سـابقاً، أن الـصراع عـلى السـلطة قـد يشـعل حريقًـا جماعيًـا، وقـد يـؤدي الاحتـكار المطلـق للسـلطة إلى اغتيـال جسـدي ومعنـوي. السـطور التاليـة مقتبسـة عـن محادثـة بـين المؤلـف والقـس جوشـوا داو ديـو، أحـد كبـار أعضـاء مجلـس أعيـان الدينـكا.

إبـان زيـارتي كنـدا عـام 2010، زارني صديـق قديـم مـن النويـر، وقطـع مسـافة طويلـة بـين تورونتو وأوتـاوا لرؤيتـي. كان وديًـا للغاية، وعرجـت محادثتنـا عـلى الوضـع الاجتماعـي والسـياسي في جنـوب السّـودان، في وقـت تتـوالى فيـه الاسـتعدادات لإجـراء الاسـتفتاء حـول تقريـر المصـير. وفجـأة قـال صديقـي: «نحـن [إثنيـة النويـر] نشـكل الآن 65 % مـن قـوام الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، وعليـه يجب أن يكـون الدكتـور ريـك مشـار رئيسًـا لجنـوب السّـودان المسـتقل، وإلا سـنقاتل الدينـكا لانتـزاع السـلطة مـن الرئيـس سـلفا كـير»[1].وكان أن رويـت مـا قالـه هـذا الشـخص لصديـق مـن النويـر، نقلـه بـدوره إلى الجـنرال تعبـان دينـق قـاي، وهـو بـدوره نبّـه الرئيـس سـلفا كـير أن النويـر سـوف يخوضـون الحـرب إذا لم يفـز الدكتـور ريـك مشـار برئاسـة جنـوب السّـودان في أبريـل 2015.

(1) يعتقـد العديـد مـن مثقفـي النويـر أن دكتـور ريـاك مشـار هـو أول مـن أدخـل مفهـوم تقريـر المصـير في الحركـة التحرريـة بجنـوب السّـودان عـبر إعـلان النـاصر في أغسـطس 1991، وهـو اعتقـاد خاطـئ بـلا شـك.

لا نستطيع البتّ في نية شعب النوير في خوض الحرب حال فشل الدكتور مشار في الفوز بالرئاسة. حدث أيضاً أن أخبرت القس جوشوا داو بأنه السبب في اندلاع الحرب الأهلية، وسأقدم ضده شكوى لدى المحكمة الجنائية الدولية في لاهاي. لكن بالنظر إلى علاقة تعبان دينق بالرئيس كير، فقد كان من الممكن أن يلفق الحديث ويخبر كير بهذه المعلومات في سياق استخباري رئاسي، بحكم منصبه حاكمًا لولاية الوحدة. كان تعبان مرشح كير لمنصب حاكم ولاية الوحدة، وعمل ضد التحركات السياسية لنائب الرئيس ريك مشار وزوجته أنجلينا تنج. في هذا الصدد، يجب التأكيد أن مجلس أعيان الدينكا وضع الرواية في سياق استراتيجية خبيثة هدفها تخليص الرئيس كير من أزمته السياسية مع مشار، خاصة والأخير لم يخف طموحه للسلطة منذ عام 2008. أعتقد أن إعفاء تعبان دينق قاي غير الرسمي من منصب حاكم ولاية الوحدة كان حيلة لتسريع الاستراتيجية العسكرية بدلاً من السياسية للتخلص من مشار. أو ربما كانت بهدف ضرب عصفورين بحجر واحد، بالنظر إلى أن سلفا كير عيّن جوزيف نقوين مونجتويل حاكمًا لولاية الوحدة لتحييد نوير بُول (Bull) في حالة وقوع أي مواجهات بين عشائر نوير قاجاك (تعبان دينق)، ونوير دوك (مشار). حدث هذا بينما عمل مجلس أعيان كِبار الدينكا على تغذية العداء والتنافس بين الدينكا والنوير حول تقسيم سلطة وموارد الدولة.

لن تقود شخصنة سلطة الدولة بدلاً عن مأسستها سوى إلى الصراعات السياسية على أسس شخصية، أو إثنيّة، أو إقليمية. كان هذا مبررًا كافيًا لمجلس أعيان الدينكا لوضع استراتيجية، وتعبئة

دوائـر الدينـكا بحجـة إنقـاذ الرئيـس (dotku beny)، بطريقـة توحـي أن الرئيـس كـير واقـع تحـت حصـار النويـر. وبغـض النظـر عـن الغطرسـة الإثنيّـة، كانـت الرغبـة في السـيطرة المطلقـة عـلى السـلطة والـثروة حافـزًا لنشـوب حـرب الدينـكا- النويـر. وينبـع هـذا منطقيـاً مـن ترتيـب القـوة في جنـوب السّـودان بعـد الحـرب، وهـو الترتيـب الـذي وضـع النويـر والإثنيـات الأخـرى ضمـن تسلسـل هرمـي بقيـادة الدينـكا.

في محاولـة لترسـيخ نفـوذه في السـلطة وإعاقـة مشـار، بـدأ كـير في التخطيـط لتقليـل أعـداد الجنـود مـن إثنيـة النويـر في الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان. في قضيـة أبيـي أمـام محكمـة التحكيـم الدائمـة (PCA)، حـدث أن فقـد جنـوب السّـودان حقـول هجليـج النفطيـة لصالـح السّـودان لأن المترافعـون زعمـوا تبعيـة هجليـج لأبيـي، بينـما اعتمـدت محكمـة التحكيـم الدائمـة عـلى تقريـر لجنـة منطقـة أبيـي الـذي رسـم حـدود هجليـج خـارج حـدود أبيـي. ومنـذ أن رفضـت محكمـة التحكيـم الدائمـة تبعيـة هجليـج لمنطقـة أبيـي، ادعـت حكومـة السّـودان عـلى الفـور أن هجليـج وحقـول النفـط تخـص جنـوب كردفـان ليلقـى الرئيـس باللـوم عـلى مشـار الـذي كان يقـود وفـد حكومـة جنـوب السّـودان. في هـذا السـياق، هنـدس كـير حـرب الحـدود مـع السّـودان لتبـدو وكأنهـا مـن أجـل اسـتعادة السـيطرة عـلى حقـل نفـط هجليـج. كـما تمسـك بتعبـان دينـق قـاي حاكـمًا لولايـة الوحـدة ضـد رغبـة المواطنـين، مـما يعكـس إنـه كان عـلى يقـين مـن ولاء تعبـان، واسـتعداده لدعمـه ضـد مشـار.

أراد الرئيـس كـير أن تخـدم حـرب الحـدود مـع السّـودان بعـض

الأهـداف السياسـية الاسـتراتيجية، تحسـبًا لمواجهـة عسـكرية نهائيـة مـع مشـار (اقـرأ: النويـر). كان أحـد الأهـداف هـو فضـح مشـار وتعبان دينـق، وتصويرهـم محـركي الـصراع مـع السّـودان. كانـت الفكـرة هـي هـدم العلاقـات المتميـزة بـين النويـر (شـكلوا سـابقًا ميليشـيا قبليـة) وداعميهـم في السّـودان. خطـوة مـن شـأنها أن تدفـع حكومـة حـزب المؤتمـر الوطنـي لقطـع الدعـم السـياسي والعسـكري لمشـار وتعبـان، وتحـول دون هروبهـم إلى الخرطـوم في حـال بـدأ كـير حربًـا ضدهـم. في الوقـت نفسـه، سيسـتخدم كـير حـرب الحـدود لحشـد الدعـم السـياسي الداخـلي والإقليمـي، وخاصـة الإمـدادات العسـكرية مـن الرئيـس الأوغنـدي موسـيفيني، الـذي لا زال يتعامـل بحساسـية شـديدة مـع كل مـن مشـار والرئيـس السّـوداني عمـر البشـير. كانـت الاسـتراتيجية الأخـرى ذات الصلـة، وفقـاً لهـذا التحليـل، هـي اسـتنفاد أعـداد النويـر داخـل الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان. جديـر بالذكـر أن الرئيـس كـير أمـر بضـم ميليشـيات النويـر المتحالفـة مـع القـوات المسـلحة السّـودانية في الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، كيـدًا في بعض أقسـام الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان. كان عليـه أيضًـا الفـوز بتأييـد الجـنرال فاولينـو ماتيـب نيـال ضـدّ مشـار. أصبحـت الأعـداد الكبـيرة مـن إثنيّـة النويـر داخـل الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان مصـدر قلـق لاحقـاً، مـا دفـع مجلـس كبـار أعيـان الدينـكا للتفكـير في وسـيلة لتقليـص هـذه الأعـداد. كشـفت الحـرب الحدوديـة مـع السّـودان التـي خاضتهـا ميليشـيات النويـر ضـد حليفهـم السـابق (المؤتمـر الوطنـي) أن هـذه المليشـيات لا أمـان لهـا.

تعكـس الحـرب الأهليـة في جنـوب السّـودان، والاضطـراب الإنسـاني

الهائـل الـذي تسـببت فيـه، الكثـير عـن مواقـف القـادة السياسـيين، لا سـيما قـادة الحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان، والغـرور الخطـير الـذي دفعهـم صـوب الجحيـم. ورغـم أن السـبب الجـذري والتناقضـات الأساسـية الكامنـة، مثـل تلـك التـي حفّـزت حـرب التحريـر الوطنـي، هــي التخلــف الاجتماعــي، والاقتصــادي، والثقــافي لشــعب جنــوب السّــودان، فــإن المحفــزات والصراعــات الثانويــة تــأتي بــلا معنــى، وتعكـس فقـط غطرسـة وذكوريـة القـادة، والتعصـب الإثنـيّ. ومـن المحـير كيـف أن الـصراع عـلى السـلطة بـين كـير ونائبـه مشـار تسـبب في مـوت عـدد كبـير مـن شـعب جنـوب السّـودان. ظهـر هـذان الزعيـمان عــلى رأس الســلطة، رئيسًــا ونائــب لرئيــس الحركــة الشــعبيّة عــلى التـوالي، في أغسـطس 2005 بعـد وفـاة الدكتـور جـون قرنـق دي مبيـور. صحيـح أن مشـار إنضـم مـرة آخـرى للحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّــودان عــام 2002، بعــد 11 عامًــا منــذ انقســام 1991. وفي حــين تفائـل كثيريـن بشـأن إعـادة توحيـد الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان بعـد عـودة مهنـدس إعـلان النـاصر، تعاملـت بعـض الجهـات، داخـل وخـارج الحركـة، خصوصـاً أبنـاء بحـر الغـزال، مـع الخطـوة مـن منظـور مختلـف، ورأت فيهـا محاولـة ترسـيخ السـلطة في يـد شـعب إقليـم أعـالي النيـل.

يتشـارك كـير ومشـار قواسـم مشـتركة. فهـم لا يضعـون أيّ اعتبـار للمصالـح الوطَنيّـة العليـا التـي تسـتحق التضحيـة بالمصالـح الذاتيـة الضيقـة، وغـير مسـتعدين للتضحيـة بطموحهـم في السـلطة مـن أجـل إنقـاذ البـلاد وشـعبه. لهـذا لم يتمكنـا مـن إنقـاذ أحـدث دولـة في العـالم مـن التدمـير. تعكـس الحـرب الحاليـة، والفشـل في تفاديهـا، سـلوك كـير

ميارديـت، ومشـار، والنخبـة السياسـية والعسـكرية التـي أحاطـت بهـما بعـد توليهـم قيـادة جنـوب السّـودان في 2005.

جنوب السّودان ومأزق صراع القادة

يمكـن تتبـع الأحـداث السياسـية، التـي بلغـت ذروتهـا في عنـف ديسـمبر 2013، في تاريـخ الحركـة/ الجيـش الشـعبي، لفهـم الجـذور الاجتماعيـة والسياسـية. ناقشـتُ في القسـم السـابق العوامـل التـي سـاهمت في انحـراف الحركـة/ الجيـش الشـعبي عـن مسـار التحريـر الوطنـي. فقـد أدى التخريـب السـياسي والأيديولوجـي، عـن قصـد أو دونـه، إلى صعـود أيديولوجيـات إثنيّـة داخلهـا واندلاع الـصراع الإثنـيّ بـين الدينـكا والنويـر، والـذي أثـر بـدوره عـلى حـرب التحريـر. كـما ناقشـتُ الرابـط بـين الإثنيـة والسـيطرة عـلى سـلطة الدولـة بهـدف ممارسـة التراكـم البـدائي للـثروة، والتوزيـع غـير المتكافـئ للمـوارد والفـرص. إلى جانـب فشـل الحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان في بنـاء وعـي قومـي وقيـم مشـتركة لتفـادي سـيطرة الحساسـيات الإثنيّـة والإقليميـة.

باسـتصحاب هـذه الخلفيـة، لا منـاص مـن ربـط الوضـع الحـالي بجنـوب السّـودان بالمـوت المأسـاوي والمفاجـئ للزعيـم جـون قرنـق، ومـا تبعـه مـن تـولّي كـير، ومشـار، وجيمـس واني قيـادة الحركـة الشـعبيّة. جـاء هـؤلاء الثلاثـة إلى قيـادة الحركـة مـن موقـع معـزول، ولم يكونـوا جـزءًا مـن آليـة صنـع القـرار داخـل الحركـة الشـعبيّة خـلال حيـاة قرنـق، لأن الأخـير اعتمـد عـلى مجموعـة صغـيرة لتسـيير الأنشـطة الداخليـة للحركـة، خاصـة بعـد 1998، عندمـا قـام بتعطيـل المؤسسـات التـي تشـكلت بعـد المؤتمـر القومـي الأول في عـام 1994.

بسبب شخصيته، وقدرته على كسب احترام وثقة الناس، لم يكن قرنق ليسمح للأزمة بالانفجار، أو حتى الوصول لنقطة الغليان. كان قرنق يزن الأشياء جيدًا ويحرص على عدم اندلاع البركان الذي قد يدمر الصرح. وعلى النقيض من خلفه سلفا كير، الذي يتصرف في القضايا السياسية باعتبارات شخصية، وإثنيّة، ومناطقية، كان قرنق سيحرص على ألا يتلوّن الخلاف بطابع إثنيّ أو مناطقي، بالتالي، لم تكن الحرب ستندلع على الإطلاق. لم يكن قرنق ليسمح للقادة الأجانب، بمن فيهم أصدقاؤه، بالتدخل في الشؤون الداخلية لجنوب السّودان. لا يمكن النظر إلى الصداقات الدبلوماسية والسياسية، التي أظهرها بعض القادة الإقليميين تجاه سلفاكير دعمًا لشعب جنوب السّودان، سوى بعين الريبة، ودموع التماسيح التي تذرفها وهي تلتهم الإنسان. فالصداقة التي تطورت خلال المنتديات الوطنية والإقليمية حينها قد تكون وثيقة الصلة بموت قرنق المأساوي.

عبّر الرئيس موسيفيني في مناسبات عديدة عن استيائه من مشار بسبب علاقاته بالخرطوم بعد إنشقاق الناصر عام 1991. من غير الدبلوماسي أن يتحدث زعيم أجنبي مدعو لحضور مناسبة وطنية باستخفاف عن بعض القادة من زملاء الرئيس. كان ينبغي لهذا أن يحرج الرئيس كير. إنها لحقيقة حرفية أن محن جنوب السّودان وشعبه بدأت بالتآمر لاغتيال قرنق، رئيس الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان والقائد العام للجيش الشعبي لتحرير السّودان، والنائب الأول لرئيس جمهورية السّودان ورئيس حكومة جنوب السّودان. مع الوضع في الإعتبار إنه لم يسبق لأحد من الحركة الشعبيّة أو حكومة جنوب السّودان التحقيق في دور

موسـيفيني في حـادث تحطـم الطائـرة الهليكوبـتر الرئاسـية، والمـوت المأسـاوي لقرنـق في طريـق عودتـه إلى جنـوب السّـودان بعـد زيـارة منـزل موسـيفيني الريفـي في غـرب أوغنـدا. ومـن الممكـن تفسـير عبـارة «الخطـأ البـشري»، التـي خلـص إليهـا التقريـر الفنـي لحـادث تحطـم المروحيـة، بالتنافـس عـلى القيـادة الإقليميـة في منطقتـي القـرن والبحـيرات العُظمـى. مـا يعنـي أن الرئيـس موسـيفيني لـه دور أسـاسي في وفـاة قرنـق. إنّ رفـض سـلفا كـير لإجـراء تحقيـق مسـتقل، مـن طـرف الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان أو حكومـة جنـوب السّـودان، يرجـح إحتـمال وجـود مؤامـرة.

بـدأت الـزلازل الإثنيّـة والمناطقيّـة تهـزّ كيـان الحركـة الشـعبيّة وحكومـة جنـوب السّـودان قبـل حتـى أن تـبرد جثـة قرنـق. حـدث هذا مبـاشرة بعـد أداء كـير اليمـين نائبًـا أول لرئيـس جمهوريـة السّـودان ورئيـس حكومـة جنـوب السّـودان. لم تـأت هـذه التيـارات السياسـية والاجتماعيـة العنيفـة مـن فـراغ. كانـوا جـزءًا مـن الهندسـة الاجتماعيـة والسياسـية الراغبـة في تنفيـذ أجنـدة تمـرّد يـاي. جديـر بالذكـر أن جـدول أعـمال يـاي كان لـه مسـتويات وأبعـاد متعـددة. كان المخطـط الفـوري هـو إبـراز شـخصية كـير بعـد سـحبه مـن عبـاءة قرنـق. يعتقـد البعـض أن قرنـق كان بـلا نائـب، خصوصـاً وأن كـير لم يـبرز بـأي شـكل مـن الأشـكال داخـل هيـاكل الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان (نيابـا، 2010). ولـكي يصبـح كـير مرئيًـا، تلخّصـت مطالـب أجنـدة يـاي في شـيئين: طالـب قرنـق بتوضيـح الأدوار وسلسـة القيـادة، ونـزع الشرعيـة عـن مسـاعديه الذيـن يُطلـق عليهـم باسـتخفاف «أولاد قرنـق» أو «أيتـام قرنـق» لاحقـاً.

لم يملك أحد في الحركة/ الجيش الشعبي شجاعة أو جرأة التحدث علناً عن الدكتور جون قرنق. لكنهم حرصوا على نقده وتدنيس صورته في الأحاديث الخاصة والثرثرة. أسهم هذا في دفع المؤسسة الجديدة إلى نبذ وتهميش مساعدي قرنق السابقين عندما يتعلق الأمر بالقرارات المهمة داخل الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان وحكومة جنوب السّودان. تلت ذلك مطاردة شديدة ضدّ أيتام قرنق، ما تسبب في شلل حزب الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، وكذلك حكومة الوحدة الوطَنيّة، وحكومة جنوب السّودان. يضمّ فريق الرئيس كير الآن أشخاصًا لم يكونوا أبدًا جزءًا من الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان تحت قيادة قرنق، وليس لديهم سابق معرفة بعمل الحركة الداخلي. وكان نتيجة أفعالهم هو إعاقة استراتيجية الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان في الإنتقال من الحرب إلى السلام، وبالتالي، لم تتمكن الحركة الشعبيّة من بدء عملها السياسي الحقيقي.

يحدث الصراع والاقتتال الداخلي داخل التنظيمات خلال أوقات الاسترخاء بدلاً من أوقات الشدة؛ عندما ينشغل الجميع ببذل الجهود للمساهمة في تحقيق الصالح العام. بدأ الاقتتال الداخلي وتغيير الحرس القديم داخل الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، وكذلك الجيش الشعبي لتحرير السّودان، بقرار كير القاضي بتغيير أوامر قرنق حول إعادة تنظيم هيكل قيادة الجيش الشعبي لتحرير السّودان. فبعد وقت قصير من أداء اليمين الدستورية، أمر قرنق بإنهاء خدمة بعض كبار ضباط الجيش الشعبي لتحرير السّودان. ألغى سلفا كير هذا الأمر لإعتقاده أن معظم الضباط

المتضررين هم أبناء واراب وأويل. كان هذا الإجراء ذا مردود سياسي سيئ لدرجة أنه تسبب في ارتباك داخل الجيش، وأحبط في نهاية المطاف محاولات قادته وكبار الضباط لإزالة التسييس داخل الجيش، وأثر على فعالية إعادة التنظيم، ومن ثم تشكيل جيش محترف. أدت محاولات كير لتحسين علاقاته بالجماعات المسلحة الأخرى (ميليشيات النوير)، ودمجها في صفوف الجيش الشعبي، إلى خلخلة الرتب والأقدمية. تجاوزت قوات هذه الميليشيات القوات الفعلية للجيش الشعبي لتحرير السّودان، مما جعل النوير أكبر مجموعة إثنيّة داخل الجيش، ما أثار مخاوف النخبة السياسية لبحر الغزال من أن هيمنة النوير على الجيش تهديدًا لسلطة كير (اقرأ الدينكا). ثم بدأ الصراع السياسي داخل الحركة الشعبيّة بظهور كبار أعيان بحر الغزال (BGE)، الاب الشرعي لمجلس كبار أعيان الدينكا، كمركز قوة حول الرئيس كير.

خفف هذا من مطاردة أيتام قرنق، حيث تحول الاهتمام لمن يُعتقد أنهم يهددون البنية السياسية ونفوذ السلطة الجديدة داخل النظام . جدير بالذكر أن كير كان ينوي استغلال الانقسامات داخل مجتمع غرب النوير بتحريض من عناصر استخبارات القوات المسلحة السّودانية، بهدف إشعال الفتنة بين ريك مشار والجنرال فاولينو ماتيب نيال عبر بعث الخلافات القديمة التي ظهرت أثناء تنفيذ اتفاق الخرطوم للسلام عام 1997. وكان أن وقعت مناوشات في بانتيو بين قوات مشار وماتيب وخلفت العديد من الخسائر في الأرواح. بدأ الاختراق بتعيين كير للجنرال ماتيب في منصب وهمي هو نائب القائد العام للجيش، بهدف كبح جماح طموحات مشار

في السلطة، الأمر الذي عمّق الانقسام بين زعيمي النوير.

كان لتركيز سلفا كير على عداوته مع مشار أن يخفف عداءه الشخصي تجاه أيتام قرنق. إلا أن ما حدث هو نقل مهمة التصدي لأيتام قرنق إلى بعض العناصر الطموحة المناهضة لقرنق من أبناء بحر الغزال. ففي غضون عامين فقط، أعاد كير تنظيم السلطة السياسية داخل الحركة الشعبيّة، وقرّب إلى دائرته مجموعة من المحامين عملوا على تجسيد سلطة الحركة الشعبيّة والدولة في شخصه. كما سيلاحظ القارئ في السطور القادمة، مثّلت هذه بداية مشروع بناء ديكتاتور شمولي. بدأ كير بإجراء تعيينات سياسية تعسفية، ومنح مبالغ كبيرة لشراء الذمم، في وقت تعد الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان عضويتها لمؤتمرها القومي الثاني.

هناك شيء غريب في العلاقة بين كير ومشار، أمراً يتطلب مزيدًا من التحقيق من أجل فهم كيف أدخلوا البلاد في حرب أهلية مدمرة بعد ثماني سنوات من العمل معًا رئيسًا ونائبًا للرئيس. كلاهما متمركزيّ الإثنيّة، ويُمثلان القطبين السلبيين للعلاقات التي تربط الإثنيّتين. تجمعهما علاقة حب-كراهية. ينفي كلاهما وجود خلافات أو صراع بينهما، بينما تنبىء أفعالهما عكس ذلك. يفضلون إدارة صراعهما في الخفاء بدلاً من مواجهة بعضهما البعض، سواء في الحزب أو الدولة. يحب مشار إضعاف رئيسه وفضح نقاط ضعفه للجمهور، بدلاً من مناقشة الأمر معه وجهًا لوجه بهدف تصحيح المشكلات قبل إعلام الجمهور. كان مشار الرئيس الفعلي لحكومة جنوب السّودان خلال الأيام الأولى من الفترة الانتقالية عندما كان كير يقضي معظم وقته في الخرطوم نائبًا أول لرئيس

جمهورية السّودان. صحيح أن هناك بعض أوجه القصور في أداء مشار الحكومي، بما في ذلك الإنفاق الإجرامي على ميزانيته بهامش كبير دون أي مبرر، لكن سبب هذا هو تفضيل كير عدم مناقشته الأمر، سواء بشكل خاص أو في مجلس الوزراء، مفضلاً العمل سرّا على إخراج مشار من مكتب نائب الرئيس لحلّ المشكلة القائمة بينهما.

تسبب هذا الأسلوب المراوغ في تسوية وإدارة الخلافات داخل الحركة الشعبيّة والحكومة في شلّ أداء حكومة جنوب السّودان. كان من الأفضل إدارة الخلافات في إطار الشرعية، كما هو مقيّد في الدستور والقانون، لتفادي الشخصنة. تفادى كير مواجهة مشار بأخطائه في حكومة جنوب السّودان وحكومات الولايات، ووضع استراتيجية لتحويل المؤتمر القومي الثاني للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان إلى منصة هدفها الأساسي عزل وإخراج خارج مشار وفاقان أموم. لم تكن الخطوة مدفوعة بتصحيح الخروقات على مستوى الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، بل الرغبة في تسهيل الأمور في الحزب (الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان) وفي الحكومة (حكومة جنوب السّودان)، من خلال تعيين جيمس واني نائب رئيس الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، ونائب رئيس حكومة جنوب السّودان، وتعبان دينق قاي في منصب الأمين العام للحركة الشعبيّة.

الطريقة الخرقاء التي أجرى بها الرئيس الاستعدادات لعقد المؤتمر الوطني الثاني للحركة خانت نواياه الحقيقية، وقادت إلى فشل تحقيق أهدافه. بدلًا من الإجراءات المنصوص عليها في مسودة وثائق الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، أمر الرئيس كير

بتشكيل لجنة تنظيم الانتخابات، وعيّن الرفيق جيمس واني إيقا في رئاستها. كانت الخطوة تحايلاً على أجهزة ومؤسسات الحركة، وأظهر أن نوايا كير غير ديمقراطية. فقد أراد استخدام سلطاته التنفيذية، كرئيس لحكومة جنوب السّودان، في إحداث تغييرات في التسلسل الهرمي للحزب، واستغلال الأخطاء والاختلافات السياسية التي ارتكبها كل من مشار وفاقان أموم مع بعض زملائهم في الحركة وحكومة جنوب السّودان.

أمر الرئيس كير مجموعة من قانونيّ الحركة بإدخال تعديل على دستور الحركة. منح بمقتضاه، رئيس الحركة الشعبيّة (كير) سلطة إقالة النائب الأول للرئيس (مشار) والأمين العام (أموم). وكأن هذا لم يكن كافيًا، حيث أصدر الرئيس كير تعليمات لمشرفي مؤتمرات الولايات بمنع المندوبين الذين يشتبه في تعاطفهم مع مشار أو أموم من بلوغ المؤتمر القومي. هدفت الفكرة لضمان أغلبية مطلقة تدعم أهداف الرئيس كير في المؤتمر. أولها هو التصديق على مسودات الوثائق الأساسية للحزب (إلغاء منصب النائب الأول للرئيس) دون إحداث شلل سياسي، وانتخاب مجلس التحرير القومي للتصديق على القرارات التي يتم التوصل إليها خارج مؤسسات وأجهزة الحزب. أرسل كير جيمس واني، رئيس اللجنة المنظمة للمؤتمر، للقيام بجولة في الولايات الشمالية لحشد الدعم للرئيس واستراتيجيته في إعادة هيكلة قيادة الحركة الشعبيّة.

اجتمع مجلس التحرير القومي المؤقت قبل أيام قليلة من المؤتمر القومي لوضع جدول أعمال المؤتمر. ظلت أهداف كير غير معلنة حتى ذلك الحين، لكنها طفت على السطح خلال مداولات

المجلس تحت غطاء «تعديلات دستورية» هدفها تقليص عدد نواب رئيس الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان من ثلاثة إلى واحد فقط، على أن يكون الرفيق جيمس واني هو من يفوز بالمنصب. قاد التعديل تلقائيًا لإزاحة مشار من التسلسل الهرمي للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، وبالتالي، من منصب نائب رئيس حكومة جنوب السّودان. كان الرئيس سيحقق هدفه بالتخلص من مشار من خلال مستشاريه القانونيين الموثوقين من أعضاء الحركة الشعبيّة. الجزء الآخر من المؤامرة، التي كانت ستظهر في المؤتمر القومي، كان انتخاب الأمين العام. ومن أجل تحقيق هذه الغاية، كلف الرئيس كير ياسر سعيد عرمان بتعبئة القطاع الشمالي للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان لانتخاب تعبان دينق قاي أمينًا عامًا للحركة.

واجهت خطة سلفا كير مشاكل عديدة خلال مداولات مجلس التحرير القومي المؤقت. حيث فشل المحامون في تمرير المؤامرة، وإقناع أعضاء المجلس بالحجج المنطقية لتخفيض عدد نواب الرئيس. أثارت هذا النقاشات الحادة احتكاكات بين بعض الأعضاء، ودفعت كير إلى طلب رأي اثنين من قادة جنوب السّودان المخضرمين الذين عُيّنوا مراقبين للمؤتمر القومي و نصح كل من أبيل ألير والجنرال جوزيف لاقو بعدم إجراء تغييرات جذرية قد تسبب احتكاكات وصراعات داخل الحركة الشعبيّة. تراجع الرئيس كير من أجل الحفاظ على الوضع الراهن داخل الحركة الشعبيّة، وخوفا من الانقسام الوشيك في المؤتمر القومي ، وما له من تداعيات سلبية خطيرة على الحركة وجنوب السّودان.

إن فكـرة اسـتهداف شـخص مـا لمجـرد أنـك لا تتفـق معـه، خصوصًـا مـن خـلال أسـاليب غـير ديمقراطيـة لا تحـترم القواعـد والإجـراءات، قـد تـؤدي إلى هـلاك المنظومـة. لا يمكـن إبعـاد مشـار مـن تسلسـل الحركـة الهرمـي لمجـرد أن الرفيـق كـير لا يحبـه. هـذا ضرب مـن الجهـل بالعمليـات السياسـية والممارسـات الديمقراطيـة، وتُعـزى إلى الطابـع العسـكري لقيـادة الحركـة ، والتـي كانـت محصلتهـا ديكتاتوريـة واسـتبدادية الرفيـق كـير في صياغـة الوثائـق الأساسـية للحركـة ودسـتور جنـوب السّـودان الانتقـالي (2011)، بطريقـة تهـدف لاسـتهداف أفـراد بعينهـم. جـاء هـذا عـلى الضـد مـن الممارسـة المعتـادة في تحديـد الواجبـات، والمسـؤوليات، والأدوار التـي تفـرض انتخـاب أفـراد مؤهلـين لأداء تلـك الواجبـات.

إن إقالـة مشـار وأمـوم، بسـبب أخطائهـم الفرديـة وليـس بسـبب مشـاكل شـخصية مـع رئيـس، لا تتطلـب تغيـيرات في الدسـتور. في الممارسـة الديمقراطيـة، يكـون المكتـب منفصـلاً عـن الشـخص الـذي يشـغله، والـذي سـيخضع بعـد ذلـك لإجـراءات تأديبيـة وفقًـا للأنظمـة الداخليـة. فقـد كانـت مشـكلة قيـادة الحركـة تنظيميـة في المقـام الأول. لم تكـن فكـرة تخفيـض عـدد النـواب ستنشـأ لـو أن دسـتور الحركـة، ولوائحـه الداخليـة، حـددت أدوار ومسـؤوليات النـواب الثلاثـة بمـا يتناسـب مـع الوظائـف الحزبيـة، والتنفيذيـة، والتشريعيـة عـلى الصعيـد القومـي وعـلى مسـتويات الدولـة. مثـل أن يتـولى النائـب الأول للرئيـس مسـؤولية الإشراف عـلى المهـام التنفيذيـة للحركـة في حكومـة جنـوب السّـودان والولايـات العـشر، ويـشرف النائـب الثـاني عـلى المهـام التشريعيـة في المجلـس التشريعـي القومـي والمجالـس الولائيـة،

بينـما يـشرف النائـب الثالـث عـلى المهـام التنفيذيـة والتشريعيـة في حكومـة الوحـدة الوطَنيّـة والولايـات الشـمالية السـت عـشرة. أدى عـدم تحديـد وتعريـف هذه الأدوار والمسؤوليات إلى شـكاوى مسـتمرة مـن قبـل العديـد مـن أعضـاء الحركـة ، بمـا في ذلـك الرئيـس، أن ليـس لـدى الثلاثـة نـواب مـا يفعلونـه. يكشـف هـذا عـن الطبيعة الشـخصية وليـس التنظيميـة لقضيـة كـير ضـد مشـار وأمـوم. في هـذا المسـتوى التنظيمـي، ترسـخت أزمـة الحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان ومـأزق شـعب جنـوب السّـودان.

مثّـل المؤتمـر القومـي الثـاني للحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان هزيمـة للأوتوقراطيـة وانتصـارًا للديمقراطيـة داخـل مؤسسـات الحركـة الشـعبيّة وعمـوم جنـوب السّـودان. ومـع ذلـك، لم يـزرع هـذا الانتصـار الديمقراطيـة مـن حيـث تحسـين الحوكمـة الديمقراطيـة داخلهـا وخارجهـا. كـما لم يسـتغل المسـتفيدون مـن هـذا الانتصـار - مشـار وأمـوم - مُخرجـات هـذا المؤتمـر في تنظيـم وبنـاء مؤسسـات ديمقراطيـة تمنـع كـير أو غـيره مـن تكـرار هـذا الفعـل. كان ينبغـي عليهـم، بعـد نجاتهـم مـن المؤامـرة، أن يعملـوا جنبًـا إلى جنـب مـع العنـاصر الديمقراطيـة الأخـرى داخـل الحركـة للتركيـز عـلى بنـاء أجهـزة الحركـة الشـعبيّة. بـدلاً مـن ذلـك، سـمحوا للرئيـس كـير بتجـاوز سـلطاته التنفيذيـة في الدولـة، مـا أدى لشـلّ عمـل أجهـزة الحركـة ومؤسسـاتها.

كان يجـب أن تكـون الخطـوة الأولى بعـد انتخـاب مجلـس التحريـر القومـي، وتعيـين المكتـب السـياسي، هـو تشـكيل لجـان في مجلـس التحريـر القومـي عـلى نهـج اللجـان الدائمـة في المجلـس التشريعـي لجنـوب السّـودان والـوزارات التنفيذيـة. ثـم يـرأس كل لجنـة أحـد

أعضاء المكتب السياسي، لتقوم هذه اللجان بوضع السياسات، وبمجرد موافقة المكتب السياسي عليها، يأتي دور الأمانة العامة كمصدر للخطط التشريعية والتنفيذية، التي تقوم بتنفيذها المؤسسات المعنية. لستُ متأكدًا تمامًا ما إذا كان بمقدور الرئيس كير إلغاء عمل اللجان الدائمة لمجلس التحرير القومي لنواب، طالما أنه لن يرأس سوى الجلسات العامة. من الواضح أن مشار، وأموم، وكثيرين داخل الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان لم يكونوا على دراية بالممارسات التنظيمية والديمقراطية الحزبية. وكانت نتيجة ذلك أن أسهموا في بروز النزعة الاستبدادية للرئيس كير.

الديمقراطية ثقافة سياسية وأسلوب حياة. ليس كل من يهتف ويتفاخر بالديمقراطية هو بالضرورة إنسان ديمقراطي. ينادي البعض بالديمقراطية لمجرد النفعية السياسية، ولن يستمروا في ممارستها متى لم تجلب لهم مصلحة ذاتية. لا يزال الرئيس كير جندي وضابط استخبارات أكثر من كونه سياسي، وهو لا يدعي حتى أنه شخص ديمقراطي. وفي أعقاب المؤتمر القومي الثاني للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، عرف الرئيس كير أنه لن يلجأ مرة أخرى إلى الاجتماعات أو الاتفاقيات من أجل تحقيق هدفه السياسي في التعامل مع منتقديه داخل الحركة الشعبيّة، بل العمل حتى تحين الفرصة المناسبة للانقضاض على أعدائه وتدميرهم.

توجب على حكومة جنوب السّودان إنجاز الإعداد وتنفيذ حدثان مهمان، في الفترة من مايو 2008 حتى نهاية الفترة الانتقالية، كجزء من تنفيذ اتفاقية السلام الشامل. وهما الانتخابات العامة والرئاسية (أبريل 2010)، واستفتاء جنوب السّودان (يناير 2011).

علـم الرئيـس كـير إنـه أن نجاحـه في تنفيـذ العمليتـين يسـتلزم تأجيـل خُططـه وتقليـل المشـاحنة السياسـية داخـل الحركـة الشـعبيّة. كان هـذا مهـمًا لمنـع حـدوث انفجـار داخـلي في الحركـة الشـعبيّة، وحكومـة جنـوب السّـودان، وولايـات جنـوب السّـودان. توجـب عـلى كـير أن يحافـظ عـلى وحـدة الحركـة الشـعبيّة لتحرير السّـودان، ووحدة شـعب جنـوب السّـودان، مـن أجـل نجـاح إجـراء الانتخابـات والاسـتفتاء عـلى تقريـر المصـير. لكنـه لم يتخـل عـن مخططـه بالكامـل. مـن عمـق قلبـه كان يؤمـن، ولا يـزال يعتقـد حتـى الآن، أن أكـبر تهديـد لقوتـه هـو الدكتـور ريـك مشـار. ويرجـع ذلـك جزئيًـا إلى أن مشـار لم يخـف طموحـه أبـدًا، والسـبب الآخـر هـو تفـوق النويـر العـددي في وحـدات الجيـش الشـعبي بعـد اسـتيعاب الميليشـيات. فشـلت محاولاتـه في اسـتخدام مؤتمـر الحركـة الشـعبية القومـي الثـاني لإزالـة مشـار فشـلاً ذريعـاً. اختـار كـير أن يعرقـل مشـار باختيـاره نائبًـا لـه في انتخابـات رئاسـة حكومـة جنـوب السّـودان.

كان تأجيـل كـير لقـرار إقالـة مشـار لأجـل غـير مسـمى حركـة ذكية، فقـد كانـت هنـاك معـارك كثـيرة في إنتظـار المؤتمـر القومـي تتطلـب تعـاون مشـار، مثـل مـشروع قانـون الاسـتفتاء عـلى تقريـر المصـير. لقـد كانـت فـترة قصـيرة بـين أبريـل 2010 (الانتخابـات) و9 ينايـر 2011 (الاسـتفتاء)، يتوجـب فيهـا عـلى الجمعيـة التشريعيـة القوميـة إصـدار مـشروع قانـون إسـتفتاء جنـوب السّـودان، وإلا سـيكون مـن المسـتحيل إجـراء الاسـتفتاء ولم يكـن هنـاك أشـخاص أكـثر ملاءمـة لهـذه المهمـة مثـل مشـار وأمـوم. بعدهـا أشرك الرئيـس كـير منتقديـه الرئيسـيين في محادثـات مسـتمرة مـع حـزب المؤتمـر الوطنـي حـول مـشروع قانـون

استفتاء جنوب السّودان وقانون الأمن القومي، بين قضايا أخرى عالقة في الهيئة التشريعية الوطَنيّة. كان كير على دراية تامة أن تكليفهم بهذه المهام يشغلهم وينسيهم الخلافات الداخلية في الحركة الشعبيّة.

يعرف جميع أعضاء الحركة الشعبيّة أن كير لا ينسى ولا يغفر لمنتقديه. يخطط جيدًا، ويتحين فرصته المناسبة لتدمير عدوه. كان ينبغي على مشار أن يتصرف بحذر أكبر عند التعامل مع الرئيس كير. وأن يرفض بلباقة عرض كير في الترشح نائبًا له في عام 2010، على أساس أنه سيترشح على رئاسة جنوب السّودان في 2020، عندما يكون كير قد أكمل فترتي رئاسته. مثل هذه الاستراتيجية لم تكن لتسبب صراع داخل الحركة الشعبيّة أو حرب أهلية في البلاد. لكن مشار تصرف بشكل انتهازي، ولم يتردد في تولي منصبه نائب لكير. خطط مشار لتوظيف منصبه والعمل بشكل منفصل عن الرئاسة. وبدلاً من التعاون مع بعضهما البعض، تضاربت جهودهما لدرجة إلغاء كل منهم الآخر[1].

عادت الأزمة الداخلية مرة أخرى في الفترة التي سبقت الانتخابات. كانت الانتخابات، والتحضير لها، من مهام الأمانة العامة للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان تحت إشراف الأمين العام. ومع ذلك، في حين تظاهر كير بهدنة مع مشار، لم يتجاوز ضغينته

(1) أظهرت الانتخابات الرئاسية والعامة في عام 2010 هذا التناقض. رغم دعمه ترشح كير لرئاسة جنوب السّودان ومرافقته في الحملات الإنتخابية، شنّ مشار حملة ضد مرشحي الحركة الشعبيّة من خلال دعم مرشحي المعارضة في ولايتي الوحدة وأعالي النيل. كما حرص على عدم فوز مرشحيّ الحركة الشعبيّة- التغيير الديمقراطي في مملكة شلو.

ضدّ أموم. وبنفس طريقة تكليف شخص غير الأمين العام برئاسة اللجنة المنظمة للمؤتمر، لم يسمح كير للأمانة العامة للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان بالإشراف على استعدادات الانتخابات. لقد أبطل المكتب السياسي للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان حتى يجد فرصة تشويه مؤسسات الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، وكرر نفس ما فعله أثناء المؤتمر القومي الثاني. أصدر كير قرارًا بتشكيل جسم تحت اسم لجنة استراتيجية الانتخابات الوطنية، مكونة من 45 عضوًا، برئاسة الرفيق جيمس واني إيغا، لإدارة العملية الانتخابية للحركة الشعبيّة. كرر كير ذات الأخطاء التي أُرتكبت في الفترة التي سبقت المؤتمر القومي الثاني، ولكن هذه المرة كانت لها عواقب مدمرة على الحركة الشعبيّة.

نظرًا لأن كير كان مرشح الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان الوحيد على منصب رئيس حكومة جنوب السّودان، فقد دعمه المكتب السياسي دون معارضة. لم يرغب كير في ترشح بعض أعضاء الحركة الشعبيّة في الانتخابات في قائمة الحركة الشعبيّة. أحبط المكتب السياسي اللوائح، والمبادئ التوجيهية، والمعايير التي وضعتها اللجنة الفرعية لترشيح الأعضاء الذين يتنافسون في قائمة الحركة الشعبيّة. وبدلاً منها اختاروا عملية معيبة، وهي نظام الكلية الانتخابية الذي صممه جيمس واني لإعاقة قادة الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان الذين لم يرغب سلفا خوضهم الانتخابات. قامت لجنة الإنتخابات بتجنيد جهات خارجية، معظمهم من عناصر حزب المؤتمر الوطني، للإشراف على عمليات تقييم وفحص الترشيح لأعضاء الحركة الشعبية وقد تم اختيار الجهات الخارجية على أساس الصداقة

والعلاقـات الاجتماعيـة. كانـت عمليـة الترشـيح هـذه عـلى أسـس شـخصية ذاتيـة لدرجـة أنهـا أخفقـت تمامًـا. ولأسـباب واهيـة، رفضـوا أو افشـلوا عمـداً ترشـيح بعـض كبـار قـادة وكـوادر الحركـة الشـعبيّة. في رمبيـك حرمـت اللجنـة الانتخابيـة دانيـال أويـت أكـوت عـلى أسـاس أنـه لم يكـن عضـوا ملتزمـا في الحركـة الشـعبيّة، وهـذه حجـة مضحكـة خصوصـاً وأن دانيـال أويـت عضـوًا في القيـادة السياسـية العسـكرية العليـا للحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، وعضـوًا في مكتبـه السـياسي لاحقًـا، وهـو منصـب لا يعـين فيـه عضـو غـير ملتـزم في الحـزب. وفي منـدري رفضـت الهيئـة الانتخابيـة ترشـيح كوسـتي مانيبـي عـلى حجـة مضللـة إنـه غـير حاصـل عـلى شـهادة جامعيـة بينـما هـو في الحقيقـة خريـج جامعـة ماكيريـري في كمبـالا.

كانـت هـذه مكائـد سـخيفة لاسـتبعاد أشـخاص غـير مرغـوب فيهـم. جـاءت المكيـدة في صالـح الدكتـور ريتشـارد مـولا الـذي فـاز في دائـرة منـدري كمسـتقل، ليضطـر الرئيـس كـير لتعيـين كوسـتي مانيبـي. كان هـدف هـذه المنـاورات، كـما ذكرنـا في مـكان آخـر، هـو التخلـص مـن قـادة وكـوادر الحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان الذيـن مـن المحتمـل ألا يلتزمـوا بخـط كـير السـياسي. كنـتُ شـخصيًا أحـد ضحايـا هـذا الاختيـار التمييـزي. حيـث أُسـتُبعدت مـن التنافـس عـلى مقعـد حاكـم أعـالي النيـل لسـبب واهٍ، وهـو أننـي لم أقـدم شـهادة ميـلادي. وافسـحوا المجـال لـكادر أكـثر ولاء لكـير. رفـض أكـثر مـن 300 عضـواً في الحركـة الشـعبيّة عمليـة الترشـيح، وتحـدوا الحـزب بـأن ترشـحوا في انتخابـات حـكام الولايـات والدوائـر الانتخابيـة سـواء كمرشـحين مسـتقلين، أو في قوائـم نسـائية وحزبيـة

أخرى. تمسك المرشحون المستقلون بمواقفهم رغم التخويف، وهزموا مرشحي الحركة الشعبيّة. اختار مشار دعم زوجته، أنجلينا تنج، كمرشحة مستقلة ضد تعبان دينق قاي، مرشح الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان لمنصب حاكم ولاية الوحدة. هذا رغم أن مشار هو شريك كير في رئاسة حكومة جنوب السّودان. وهو موقف يدل على سوء النية والخداع السياسي.

كان مشار عضواً في المكتب السياسي الذي ناقش واتخذ قراره بترشيح تعبان دينق في قائمة الحركة الشعبيّة بولاية الوحدة. لذا توجب عليه أن يقنع زوجته بالالتزام بقرار الحزب، أو دعم تعبان دينق تنفيذاً لتوجيه الحزب. أجبرت المبادئ والممارسات الديمقراطية مشار على تنفيذ قرار الأغلبية في المكتب السياسي. لكنه تصرف بشكل غير ديمقراطي بدعم زوجته المرشح المستقل، وبالتالي، فقد أي سلطة أخلاقية لانتقاد فرض كير مرشحين بطريقة ديكتاتورية.

نفس المكتب السياسي رفض عرض اللجنة الفرعية حول المبادئ التوجيهية، والإجراءات والقواعد المتعلقة بالترشيح، الذي ترأسه المؤلف، واقترح أن حلّ مثل هذه النزاعات هو إجراء انتخابات تمهيدية. لا تزال هذه الصعوبات تفرض نفسها في الممارسة والعمليات الديمقراطية، ويجب أن يعمل الجميع على التغلب عليها في عمليات الهندسة الاجتماعية والسياسية. على كل حال، شكّلت هذه الأحداث بداية عدم رضاء كير عن مشار. وكما ذكرنا سابقًا، كان كير يحمل ضغينة ضد مشار على الرغم من أنه احتفظ به نائباً له. تمثّلت الأزمة في ركونه أخيراً لاستخدم العنف الذي

تسبب في صراعات ثانوية أخرجت الخلافات عن سياقها السياسي.

أُجيز مشروع قانون استفتاء جنوب السّودان داخل الجمعية التشريعية، وأجري الاستفتاء على تقرير المصير في الوقت المحدد، كما حددت اتفاقية السلام الشامل والدستور القومي المؤقت. وبمجرد ما أظهرت نتائج الاستفتاء على تقرير المصير فرصة الإستقلال، أعاد كير تفعيل خطته للسيطرة عبر تعديل الدستور بما يناسب هواه. نصّت فقرة في الدستور الانتقالي لجنوب السّودان (2005) على أنه في حال جاءت نتائج استفتاء جنوب السّودان لصالح الاستقلال، سيُعتمد الدستور الإنتقالي تلقائيًا الدستور الانتقالي لجنوب السّودان (2011)، مع بعض تغييرات في اسم الدستور نفسه وغيرها من التعديلات الطفيفة[1]. بحيث يتطلب الأمر فقط لجنة من المحامين لعملية مراجعة وتعديل الأحكام التي تتعارض مع الوضع الجديد بجنوب السّودان.

كان من الواضح أن الرئيس كير لم يكن راضيا عن هذه الفقرة، فقد أراد دستورًا جديدًا. ولتحقيق ذلك، وجه بتشكيل لجنة الدستور، 90 % من أعضائها ينتمون للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان لكتابة مشروع دستوري. رغب كير في سلطة أكبر من تلك المنصوص عليها في الدستور الانتقالي لعام 2005. لهذا كلف المحامين الذين أفسدوا المؤتمر القومي الثاني للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان (2008)، بصياغة دستور جديد على غرار دستور

(1) تنص المادة 208.7 على أنه إذا كانت نتيجة الاستفتاء على تقرير المصير لصالح الانفصال، فإن الدستور الإنتقالي سيبقى ساري المفعول كدستور دولة جنوب السّودان المستقلة. مع تغيير الأجزاء، والفصول، والمواد، والمواد الفرعية، والجداول التي تتعلق بالمؤسسات الوطَنيّة، والتمثيل، والحقوق، والالتزامات.

الحركة، بحيث تُصبغ بعض الفقرات باعتبارات شخصية. صِيغت المادة 104 (2) من الدستور الانتقالي لجنوب السّودان (2011) بناء على طلب من الرئيس كير في إشارة واضحة إلى مشار: «يجوز عزل نائب الرئيس من قبل الرئيس، أو بقرار يصدر بأغلبية ثلثي أعضاء الجمعية التشريعية الوطَنيّة».

أظهر كير طوال فترة حكمه صفات القائد الشمولي. تجلت في الفساد الجامح في دواوين الحكومة، وتوزيع غير متكافئ لموارد البلاد المالية والاقتصادية لصالح ولايات بعينها، والعديد من المخاوف الأخرى. وكانت النتيجة هي ارتفاع الأصوات المُنادية بنظام حكم فيدرالي بدلاً من نظام الحكم اللامركزي. أرادت عضوية كبيرة في المجلس التشريعي لجنوب السّودان، خاصة من الاستوائية وأعالي النيل، إدراج عبارة «نظام الحكم الفيدرالي» في الديباجة، وتحديدها في النص الدستوري الجديد، بينما عارض أعضاء من بحر الغزال وأجزاء من غرب الاستوائية هذا الاقتراح واختاروا «نظام الحكم اللامركزي». هدد هذا ببلوغ طريق مسدود. ولذا، تجنُّبًا لخطر الانقسام مع إعلان الاستقلال، أكد كير لمشار احتفاظ الثاني بمنصب نائب الرئيس، مقابل التنازل عن عدم إدراج الفيدرالية في النص الدستوري. وكانت النتيجة أن تجرعت الكتلة الفيدرالية كأس المرارة، بعد أن وجه مشار جميع الأعضاء النوير بالمجلس التشريعي لجنوب السّودان بمعارضة اقتراح الفيدرالية.

نال جنوب السّودان استقلاله جنوب السّودان على أساس دستور غير ديمقراطي و حقق الرئيس كير الصلاحيات التي طالما أرادها: أن يحكم بلا قيود ديمقراطية أو وطنية. ثم جاءت سياسة

كـير لإضعـاف مؤسسـة البرلمـان والتـي تمثلـت في تعيـين 60 عضـوًا جديـدًا في المجلـس التشريعـي، واسـتيعاب 96 مـن الأعضـاء السـابقين في المجلـس التشريعـي الوطنـي في الخرطـوم (برلمـان حكومـة الوحـدة الوطنيـة) ليصبـح التمثيـل البرلمـاني بمعـدل عضويـن أو أكـثر مـن كل دائـرة. كـما عـيّن حكومـة مـن 32 وزيـرا، أكـثر مـن نصفهـم مـن الدينـكا. لم تكـن التعيينـات الأخـرى حصريًـا عـلى الدينـكا فحسـب، بـل جـاءت أيضًـا مـن منطقتـه واراب. وشـملت رئيـس القضـاة، ومحافـظ البنـك المركـزي، والمفتـش العـام للشرطـة، ومديـر الأمـن القومـي، والمديـر العـام للهجـرة.

كان مـن الواضـح أن كـير شرع في بنـاء نظـام يُحكـم مـن خـلال القـرارات الرئاسـية بـدلاً عـن العمليـات التشريعيـة. لم تُناقـش هـذه التعيينـات داخـل مؤسسـات الحـزب الرسـمية، بـل مـن خـلال مجموعـات الضغـط الإثنيّـة والمناطقيـة غـير الرسـمية، التـي أنشـئت لتجـاوز مؤسسـات وأجهـزة حـزب الحركـة الشـعبيّة. مثّـل مجلـس كبـار أعيـان الدينـكا قاعـدة سـلطة كـير، وأصبـح ذو تأثـير أكـبر عليـه. حيـث قـام بتنفيـذ سياسـات المجلـس الموجهـة لتمكـين نخبـة الدينـكا اجتماعيًـا واقتصاديًـا، ودعـم شركات يديرهـا أفـراد مـن واراب وأويـل. وقبـل أن يقـوم كـير بتعيـين قـادة مـن مجتمعـات إثنيّـة أخـرى، كان يتـم فحصهـم مـن قبـل مجلـس كِبـار أعيـان الدينـكا لتحديـد مواقفهـم تجـاه سياسـات كـير[1]. وبعـد عامـين فقـط مـن الاسـتقلال، تحولـت

(1) جـاء تعيـين مناسـا ماقـوك رونديـال (نويـر)، رئيسًـا للمجلـس التشريعـي القومـي عـام 2013، مثـالاً عـلى ذلـك؛ وكذلـك انتخـاب أنتـوني لينـو ماكانـا (أزانـدي) في ذات المنصـب عـام 2016. بمجـرد ان يقـرر مجلـس أعيـان الدينـكا أن شـخص مـا مناصـب للمنصـب، يبلـغ الرئيـس كـير بتسريـع تعيينـه.

السلطة من مكتب الرئيس لمجلس كِبار أعيان الدينكا، وصار الرئيس رهين عصابة إثنيّة.

تمظهرت محاولات السيطرة على التطورات السياسية داخل الحركة الشعبيّة بطريقة صادمة لاحقاً. ولم يمض وقت طويل قبل أن تزول نشوة الاستقلال، وتبدأ المشاكل، الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية العميقة التي تسببت فيها ثماني سنوات من سوء الحكم في البروز إلى السطح. لن نجانب الصواب إذا قلنا إن مسؤولية الإخفاقات السياسية للحركة جماعية. من كان بإمكانهم مقاومة الاستبداد اختاروا الصمت. ففي أوضاع تُضعف فيها المؤسسات عن عمد، تقع مسؤولية التكليف أو الامتناع على على المسؤولين. لذا، فإن الرئيس كير، ونوابه، والأمين العام، وجميع أعضاء المكتب السياسي مسؤولون عن الفشل السياسي للحركة الشعبيّة لتحرير السّودان. لكن الرئيس كير يتحمل المسؤولية الأكبر لأنه استخدم أدوات الدولة لشل أجهزة الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان، مستعينًا في ذلك بتوجيه قيادات إثنية. كل ذلك لأنه كان ضد تسمية الرفيق باقان أموم أمينًا عامًا للحركة. تحول مركز ثقل الحزب بمرور الوقت من مكتب الحركة الشعبيّة لتحرير السّودان إلى مكتب الرئيس. حدث هذا حتى يتمكن كير من الاستمرار في شن حملته ضد نائب الرئيس والأمين العام، وكل وزراء يعتبرهم مكتب الأمن القومي متعاطفين مع هذين الرجلين من الحركة.

كنتُ وزيرا للتعليم العالي والعلوم والتكنولوجيا في أول حكومة مستقلة لجنوب السّودان، وشهدتُ بأم عيني إنهيار معنويات موظفي الوزارة بسبب التخريب المتعمد لخُطتنا في بناء نظام

تعليـم عـالي عـلى مسـتوى عالمـي. لم نتلـق ميزانيـة الـوزارة لعـام ونصـف، لأن وزارة الماليـة لم تمـرر ميزانيتنـا بنـاءً عـلى توجيهـات مـن مكتـب الرئيـس. مـن الـضروري تحديـد سـياق فشـل الحركـة الشـعبيّة و تدهـور النظـام مـن أعـلى هـرم السـلطة السـياسي. وقعـت الإخفاقات السياسـية لأن القـادة تصرفـوا بأسـلوب تكتيـكي يهـدف فقـط للحفـاظ عـلى مواقـع السـلطة بـدلاً مـن معالجـة مشـاكل التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة للبـلاد بطريقـة اسـتراتيجية. غـذت هـذه الإخفاقـات الـصراع عـلى السـلطة في المسـتويات العليـا، وهدفـت فقـط إلى تغيـير الأفـراد بـدلاً مـن النظـام نفسـه. اسـتندت هـذه الإسـتراتيجية الخاطئـة إلى قـراءة غـير سـليمة للتكويـن الداخـلي للحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان. لا تقـع مسـؤولية الخلـل الوظيفـي في الحركـة الشـعبيّة لتحريـر السّـودان عـلى عاتـق أفـراد بعينهـم، بـل في غيـاب المؤسسـية. أثـار هـذا ردة فعـل غـير متناسـبة اسـتهدفت الأفـراد، وامتـدت إلى مجموعاتهـم الإثنيـة. اختـار الرئيـس هـذه الاسـتراتيجية لعـزل مشـار وأمـوم، لكنهـا تحولـت إلى أزمـة خانقـة، فاقمـت المشـاكل، وأغرقـت البـلاد في أزمـة اجتماعيـة، واقتصاديـة، وسياسـية عميقـة.

كيف ولماذا نفّذ سلفاكير مخططه؟

لم يكن من السهل على الرئيس كير اجتياز كل هذه الفترة، منذ تولي قيادة جنوب السّودان في أغسطس 2005، وحتى قرار إقالة نائبه الدكتور ريك مشار، والحكومة بأكملها في 23 يوليو 2013، دون تعاون من يحاربونه اليوم. يخرج الدكتاتوريون عادة من خلفيات متواضعة، ويبنون سلطتهم الشمولية، أو يتم بناؤها، على أساس احتكار الحقيقة. أثبت كير براعته في الإستراتيجية السياسي، وتمكن من بلوغ والبقاء على هرم الحركة الشعبية ضد كل التوقعات.

لم يُبد كير أي اهتمام بالنفوذ والعظمة عندما أصبح رئيس حكومة جنوب السّودان، والنائب الأول لرئيس جمهورية السّودان، في حكومة الوحدة الوطنية. كان يدعى البساطة، واستمر في أسلوب حياته المتهور، وقضاء الوقت مع المشبوهين، بمن فيهم فتيات الليل. كان يتعاطى الكحول بشكل علني في مطعم «هوم أند أواي»، الذي يملكه، مع شركائه التجاريين، وأحيانًا بصحبة عاهرات معروفات. لم يتصور أحد في جوبا أن سلوكه هذا هو مصدر قوته. كضابط استخبارات، لم يثق كير بأحد في جمع المعلومات. كان يفعل ذلك بنفسه ويعرف التفاصيل الدقيقة حول كل شيء. لكنه افتقر شجاعة اتخاذ القرار. أو بما تظاهر فقط بالجُبن. عرف كير اسماء من يضاجعهن أعضاء حكومته، ومن سرق، وما المسروق. في الواقع، كان يشجعهم في بعض الأحيان على السرقة تحت ستار «استرداد

الديـن» أو كـما قـال لشـعبه مـن واراب، «إذا لم تصبـح ثريًـا في فـترة رئاسـتي فقـد ضيعـت فرصتـك». شـجع الرئيـس كـير وزراء حكومـة جنـوب السّـودان، وجـنرالات الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، عـلى سرقـة الأمـوال وجمـع الـثروة مـن اسـتحقاقات مرؤوسـيهم. وقـد غـض النظـر، وصـم أذنيـه، عـن فسـاد نائبـه، ورئيـس المجلـس التشريعـي، والقضـاء، والشرطـة، والخدمـة المدنيـة، دون أن يـدروا أنـه كان يهـدف بصمتـه هـذا ابتزازهـم لاحقـاً.

مـن أجـل ضـمان السـلطة المطلقـة، وبنـاء نظـام اسـتبدادي في جنـوب السّـودان، بنـى كـير نظامًـا ابتـزّ بـه كل شـخص في حكومـة جنـوب السّـودان، ومجتمـع الأعـمال، وعنـاصر المجتمـع المـدني، الذيـن أغـدق عـلى الكثـير منهـم هدايـا باهظـة الثمـن. وعندمـا عـاد أعضـاء الحركـة الشـعبية، الذيـن خدمـوا في حكومـة الوحـدة الوطنيـة، إلى جوبا يشـكون سـوء المعاملـة في الخرطـوم، عـرض عليهـم الرئيـس سـيارات تويوتـا لإثـارة شـهيتهم. كان لـدى كـير تقاريـر المراجـع العـام بالأمـوال التـي منحـت للأفـراد داخـل وخـارج حكومـة جنـوب السّـودان، والحسـابات المصرفيـة لبعـض الـوزراء. لذلـك هابـه الجميـع، ولم يكـن بمقـدور أي شـخص في السـلطة التنفيذيـة، أو التشريعيـة، أو القضائيـة، أو الخدمـة المدنيـة، أن ينقـد بعـض قـرارات الرئيـس الأقـرب للخيانـة. قـضى كـير عـلى هـذه المؤسسـات مـن خـلال الحسـنات، والابتـزاز، والإهـمال القـاسي والصريـح. كـما ذكـرت أعـلاه، تقـوم اسـتراتيجية كـير عـلى تجنـب المواجهـة المبـاشرة، وانتظـار الوقـت المناسـب لإبتـزاز وإذلال مـن يخـرج عـلى سـلطته.

لم يحـاول أحـد منـع الرئيـس مـن القيـام بمـا يريـد. وشـمل ذلـك

استخدام الجيش لطرد مشار مرتين خلال عامين بعيداً عن جوبا. لقد ابتز الجميع. وافق كير على تشكيل مجلس أعيان الدينكا، ومنحهم نفوذًا كبيرًا، حتى اعتقدوا أن السلطة ملكهم، وبالتالي أصبحوا شركاء في جرائمه. كان هذا هو انطباع أعضاء المجلس عندما توصلوا في يوليو 2013 لفكرة حملة (لنحمي الرئيس)، وتجنيد ميليشيات مثيانق أنيور. كل مؤسسة من مؤسسات الدولة - السلطة التشريعية، والقضائية، والجيش، والأمن القومي – لها أسبابها في عدم الاعتراض على انتهاكات كير للدستور، والأحداث التي أدت إلى الحرب الأهلية والأزمة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية الحالية في جنوب السّودان.

نبدأ بالحركة الشعبية بصفتها الحزب الحاكم. اكتفى أعضاء الحركة الشعبية، سواء القادة، أو الكوادر، أو النشطاء، الصمت بينما يعمل الرئيس كير ببطء في تحويل الحركة الشعبية لتحرير السّودان إلى جسم بلا مهام، وتخريب وظائفه السياسية على جميع المستويات. سبب هذا الصمت بسيط و يرتبط بثقافة الحركة الشعبية للحفاظ على المنصب، واللامبالاة، والتآمر، والمحسوبية، والغيرة، وازدواج الشخصية، وانعدام التضامن. جميع هذه السمات سببها العسكرة المتطرفة التي وصمت مسيرة حرب التحرير الوطني. ولدت هذه الثقافة شعور بالاغتراب المتبادل، بحيث يتغاضى المرء خشية التورط، طالما الأمر لا يعنيه بشكل مباشر. لم يتدخل أي عضو من المكتب السياسي، أو مجلس التحرير الوطني، أو الأمانة العامة، لإنقاذ الأمين العام عندما استهدفه الرئيس كير بسبب عدم الثقة المتبادل بينهما. يُترك الفرد وحيدًا مع ورطته

وحيدًا بسبب الغيرة والحسد، يتحمل وحده اتهامات واهية وزائفة تهدف اغتيال شخصيته. في هذه البيئة كان من المستحيل انتقاد القائد. وفضلت الغالبية الصمت من أجل الحفاظ على السلام. قام كير بما فعله لأن القادة ضعفاء، معزولون، دون قيم مشتركة أو روح تضامن.

عندما أعاد كير ضباط الجيش الشعبي ممن تم تسريحهم بسبب الفساد، كان ذلك مؤشراً لنوع الجيش الذي يريده. كثير منهم كان من كبار موظفي هيئة الأركان العامة للجيش الشعبي لتحرير السّودان، وتسببت عودتهم في خلق خلل داخل هيكل القيادة. عمل هؤلاء القادة على تخريب سلسلة القيادة من خلال عصيان أوامر رئيس الأركان أو تحديها علانية. ربما أراد كير إثبات خطأ تعيين قرنق للجنرال أوياي دينق أجاك. لا عجب أن سيطر على الجيش عدم الانضباط والفساد. وشاع في الجيش سلوك مثل سرقة القادة رواتب جنودهم، وإرسال قوائم وهمية مليئة بجنود أشباح كما دخل هؤلاء القادة شراكات تجارية فاسدة مع الأجانب. حدث كل هذا مع الاندفاع نحو التراكم البدائي للثروة.

لم يحترم الرئيس كير جيشه، وإلا كيف يمكن لرئيس الجمهورية والقائد العام للجيش الشعبي تجنيد جيوش خاصة مثل مليشيات لنحمي الرئيس (Dotku Beny) ومثيانق أنِيور. هذه جريمة خيانة عاقبتها العزل من الرئاسة في بعض البلدان. لكنها بدت أمر طبيعي في جنوب السّودان، لدرجة أن تتسامح السلطة التشريعية وأصحاب الرتب الأعلى في الجيش مع جلوس كير في مزرعته الخاصة في منطقة «لوري» والإشراف على ميليشياته الخاصة. كان

الاحتجاج الوحيد هو مقاطعة كبار الضباط للتخريج الذي أشرف عليه قائدهم العام، ووزير الدفاع وشؤون قُدامى المحاربين. ينص الدستور الانتقالي لدولة جنوب السّودان (2011)، في المادة 103 الفقرة (2)، على عزل رئيس الجمهورية في حالة الخيانة، أو انتهاك الدستور، أو سوء إدارة الشؤون الوطنية. وهناك شرح لكيفية إجراء هذا العزل. إذا افترضنا أن لا أحد في الحركة الشعبية لتحرير السّودان يجرؤ على رفع قضية إقالة كير، لماذا لم تقدم أحزاب المعارضة، أو الأعضاء من غير الحزب الحاكم في المجلس التشريعي، أو المجتمع المدني، عريضة دستورية لعزل الرئيس كير بجنحة سوء السلوك وكذبه بخصوص وجود محاولة انقلاب في 15 ديسمبر 2013؟ يُذكر أيضًا أن الرئيس كير سمح بدخول قوات دفاع الشعب الأوغندية، والقوات الجوية الأوغندية، لمحاربة المتمردين في المنطقة الواقعة بين جوبا وبور، دون موافقة البرلمان أو حتى مشاروته.

نادراً ما تحدث إجراءات إقالة البرلمان للرئيس في حالات تشيع فيها السياسة الإثنيّة، والترهيب السياسي، والخوف، والحفاظ على الذات؛ أو في ظل نظام يتصف بضحالة الوعي السياسي. يتعامل المجلس التشريعي مع شوفينيين إثنيّين وأفراد معروفين بولائهم للرئيس كير. اما أعظم كارثة سياسية لحقت بالحركة الشعبية وشعب جنوب السّودان، فهي إنضمام أعضاء سابقين في حزب المؤتمر الوطني إلى الحركة الشعبية لتحرير السّودان. انضمّ هؤلاء إلى الحركة متأبطين ثقافة الفساد، والتآمر، والتملق. وهي ثقافة تتفوق في سوئها على ثقافة عبادة القائد الفرد السارية في الحركة الشعبية لتحرير السّودان. عمل هؤلاء على كسب ثقة الرئيس كير،

وعـلى العكـس مـن كـوادر الحركـة الشـعبية، لم يرتكبـوا خطـأ انتقـاد القائـد علنًـا، بـل يثنـون عليـه باسـتمرار، حتـى في قرارتـه الخاطئـة. كانـوا حاضريـن بإنتظـام في مجلـس كـير، حتـى خـلال سـاعات العمـل اليوميـة، يثرثـرون دائمًـا، حتـى بلغـوا مرحلـة الاسـتيلاء عـلى الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان وحكومـة جنـوب السّـودان، بينـما خـرج الرفـاق لبدايـة نضـال مسـلح جديـد.

سـهّل اسـتيلاء أفـراد المؤتمـر الوطنـي عـلى الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان ومؤسسـات الدولـة مـرور قـرارات كـير، ليـس عـبر المجلـس التشريعـي فقـط، بـل الـوزارات أيضًـا، حيـث تسـود غريـزة البقـاء في المنصـب بـكل وضـوح. تطلـب الحفـاظ عـلى الحقائـب الوزاريـة مسـاندة الخـط السـياسي للرئيـس، وبهـذه الطريقـة نجـح كـير في بنـاء نظـام ديكتاتـوري شـمولي. إن بـروز ديكتاتوريـة كـير ترجـع في جانـب إلى ضعـف الثقافـة السياسـية في جنـوب السّـودان، وفي جانـب آخـر إلى اسـتخدام كـير الفسـاد، والابتـزاز، والترهيـب.

التحضير للعمل العسكري ضد مشار

بـدأ كلّ شيء بـ»زلـة لسـان خطـيرة» (هيلـدا، 2016: 158)، اندلـع عـلى إثرهـا الـصراع عـلى قيـادة الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان. كان الأمـر بمثابـة خدعـة مـن كـير لإختبـار المنـاخ السـياسي في الحركـة الشـعبية وفي البـلاد، لكـن المـكان لم يكـن مناسـبًا. بـل ربمـا لم تكـن لتمثّـل زلـة لسـان خطـيرة، لـو اعتبرهـا الرفيـق دينـق ألـور وأعضـاء الحركـة الشـعبية الآخـرون مـن الحاضريـن في تلـك الجلسـة مجـرد ضرطـة لا إراديـة، ليـس هنـاك ضرورة لأن يعقـد المكتـب السـياسي للحركـة اجتماعًـا بشـأنها. ففـي القـرى الريفيـة يُعتـبر مـن يعلـق عـلى ضرطـة السـلطان شـخصًا غـير مـؤدب، ولا يجـب الحديـث عنهـا إلا همسًـا. كانـت جريمـة دينـق ألـور ضـدّ الرئيـس كـير هـي تناولـه «زلـة اللسـان الخطـيرة» خـارج مجلـس الرئيـس. وهـو تـصرف دفـع كـير إلى أن يوقـف التحضـيرات السياسـية لعقـد المؤتمـر القومـي الثالـث للحركة الشـعبية لتحريـر السّـودان المقـرر لـه مايـو 2013.

تحدثـت «زلـة اللسـان» عـن خلافـة السـلطة في الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان، بمـا فيهـا رئاسـة جمهوريـة جنـوب السّـودان. فقـد تغـير موقـف كـير عـلى الفـور عندمـا عـبّر مشـار عـن نيتـه الترشـح لرئاسـة الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان، مـا يعنـي ترشـحه لرئاسـة جنـوب السّـودان في انتخابـات أبريـل 2015. لـن يكـون أمـرًا سـهلاً عـلى كـير بعـد 21 عامًـا مـن الإذلال تحـت ظـلّ قيـادة قرنـق. بالنسـبة لـه كانـت مسـألة الرئاسـة حاسـمة، وطغـت عـلى الرفقـة و العلاقـات

السياسية، وربما رأى فيها كير جريمة ترتقي مقام «الخيانة». كان من المؤكد أن شخصية الرئيس الإمبراطوري التي صارها كير خلال ثماني سنوات ستُدخل البلاد حربًا لمجرد حماية السلطة.

رأى كِبار أعيان بحر الغزال (BGE) وعصابات أويل-واراب التجارية أن السياق الإثني لتداول السلطة في جنوب السّودان، وتعني ضمنًا ابتعاد كير عن مركز السلطة، يهدد مصالحها المباشرة. تحول الدفاع عن رئاسة كير من شأن وطني أو دستوري لقضية دينكاوية، وتحديداً عشيرة (ريك دينكا)، بينما بدأ مجلس كِبار أعيان الدينكا في تلفيق رواية موثوقة ذات تأثير، استندوا فيها على ما قاله تعبان دينق قاي وذلك الرجل النويراويّ المهذب في كندا، بشأن رغبة النوير في الحرب ضدّ الدينكا من أجل تحقيق نبوءة نقوندينق فيما يتعلق بقيادة مشار لجنوب السّودان.[1]

كان الجو السياسي في الحركة الشعبية مشحوناً وعلى وشك الإنفجار. انتشرت الشائعات عن عداء مفترض بين الدينكا والنوير. وفي غضون أربعة أشهر، مارس- يوليو 2013، لم تتدفق أي طاقة سياسية في الدورة الدموية للحركة الشعبية لتحرير السّودان. مرّ موعد انعقاد مؤتمرات الولايات، وكذلك المؤتمر القومي الثالث الذي كان من المقرر عقده في مايو 2013، دون أيّ إعتراضات، بينما تجاهل الرئيس كير الطلبات المتكررة لعقد اجتماع المكتب السياسي، ورفض الدعوة لعقد مجلس التحرير القومي. شلّ كير

(1) يؤمن شعب النوير في نبوة نقوندينق، ويُعدلونها باستمرار لتناسب الحالة الراهنة. وقد ظهرت بوضوح بعد إعلان الناصر في 1991، عندما قاد د. ريك مشار، والدكتور لام أكول، والقائد. غوردون كونق تمردًا ضد الدكتور جون قرنق. منذها دعم مثقفي النوير الأسطورة لضمان المكاسب السياسية والاقتصادية من قيادة مشار.

أجهـزة الحـزب، وتمكـن مـن إحـداث تغيـرات دون إستشـارة نائبيـه والأمـين العـام. أعفـى حـكام ولايتـي البحـيرات والوحـدة، شـول تونـق ميـاي وتعبـان دينـق قـاي، مـن منصبيهـما. وهـي خطـوة مدهشـة تتعـارض الدسـتور. ليـس للرئيـس حـق دسـتوري في إعفـاء حاكـم منتخـب إلا في حالـة الطـوارئ. كانـت حجـة كـير أنّ الحاكمـين على صلة بمشـار. وبتاريـخ 23 يوليـو فاجـيء الرئيـس كـير الجميـع بإقالـة نائبـه ريـك وحـلّ حكومتـه. لا بـد أن التطـورات السياسـية في قيـادة الحركـة الشـعبية كانـت مربكـة لكثـير مـن النـاس في العاصمـة جوبـا. لم يكـن بمقـدور شـخص في الحركـة الشـعبية شرح الوضـع، والـذي كان محاطًـا بالسريـة المعهـودة لـكل مـا يـدور داخـل الحركـة/ الجيـش الشـعبي حيـث يتـم تصنيـف كل رسـالة عـلى أنهـا «سريـة للغايـة». لم يـدلي كـير بتصريحـات علنيـة، ورأى بعـض أعضـاء الحكومـة في إقالتنـا مـن مجلـس الـوزراء مـن بـاب رُبّ ضـارة نافعـة. ويذكـر أن مشـار لم يُظهـر أي علامـات عـدم رضـاء عـلى إقالتـه. كان تعبـان دينـق هـو مـن أبـدى عـداءً صريحًـا لكـير بعـد إعفائـه مـن منصـب حاكـم ولايـة الوحـدة. وهـو المنصـب الـذي اسـتخدمه فقـط لجمـع الـثروة والزوجـات. أعطـى رد فعـل تعبـان دينـق مصداقيـة لروايـة مجلـس كِبـار أعيـان الدينـكا حـول حـرب الدينـكا - النويـر، وبـدأوا التحضـير لهـا. ذهـب الرئيـس كـير في زيـارات إلى أويـل وواراب، حيـث بـدأ تعبئـة وتجنيـد قـوات (لنحمـي الرئيـس) بشـكل جـديّ. تشـير الطريقـة والسرعـة في تجهيـز هـذه القـوات إلى شـعور الرئيـس بوجـود خطـر يهـدد سـلطته. خطـر عظيـم حتـى الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، الـذي كان هـو قائـده العـام، لـن يسـتطيع حمايتـه منـه.

أدت مسألة خلافة السلطة، وتُقرأ على أنها انتقال السلطة من كير (الدينكا) إلى مشار (النوير)، إلى حالة قصوى من الغليان السياسي في مناطق الدينكا. توتر لم يشعر به في العاصمة جوبا سوى قلة من المطلعين على دوائر القرار. ولا بدّ أن الطريقة التي مارس من خلالها الدينكا والنوير السلطة، وتهميش المجموعات الإثنيّة الأخرى سياسياً واقتصادياً، ساهمت في اللامبالاة إزاء صراع الدينكا والنوير. بث تلفزيون جنوب السّودان تقارير يومية حول زيارة الرئيس لشمال بحر الغزال. كان من الواضح أن الرئيس كير يحشد في أويل ووراب، ومع ذلك لم يهتم أحد بهذه التطورات، بمن فيهم قادة النوير الذين كانوا هدف هذه الخِطابات[1]. أمر الرئيس كير حاكم أويل، الجنرال فول ملونق أوان، بتعبئة، وتجنيد، وترحيل ثلاثة ألف شاب إلى مدينة جوبا. خضع هؤلاء الشباب للتدريب العسكري بمزرعة كير في «لوري»، ولم يتجرأ جيمس هوث ماي، رئيس هيئة الأركان العامة للجيش، على الإعتراض أو مواجهة هذه الخطوة غير الدستورية بتجنيد وتدريب الرئيس جيشه خاص، رغم استيائه من الخطوة.

الأمر المحير في هذا اللغز هو عدم وجود أنشطة سياسية أو عسكرية مشبوهة من جانب النوير تشير إلى خطط حرب على الدينكا. إن كانت لرواية القسّ جوشوا داو ما يسندها، لرأينا أو سمعنا بوجود تعبئة ودعاية معادية من جانب النوير. بدا جانب النوير غير منزعج من تسارع خطط مجلس كبار أعيان الدينكا،

(1) في إحدى التجمعات السياسية التي عقدت في أكون، مسقط رأس الرئيس، خاطب كير الحضور بلغة الدينكا: « سلطتي ملكًا لكم. لكن البعض يعمل على انتزاعها مني بالقوة. هل تقبلون بذلك؟ هل أتركها لهم؟». هتف الحشد: «لن نقبل. سنقاتل للدفاع عنك وعن سلطتك».

وهـو مـا يثبـت أن المؤامـرة كانـت مـن جانـب واحـد بغـرض خدمـة الأجنـدة السياسـية والسـلطوية لمجلـس أعيـان الدينـكا. ومـع مجـيء سـاعة الصفـر أخـرج الرئيـس كـير ميليشـياته مـن مركـز التدريـب، لكـن قيـادة الجيـش رفضـت دمجهـم في الجيـش الشـعبي، ليتبقـى للرئيـس خيـار واحـد، وهـو دمجهـم تحـت قيـادة جهـاز الأمـن القومـي مـن حيـث جـدول الرواتـب، الـزي العسـكري، والأسـلحة.

تحـرك الرئيـس ومجلـس أعيـان الدينـكا بشـكل أسرع مـما كان ضروريًـا. فإعـلان الحـرب المتوقـع أن تشـنه النويـر بسـبب إقالـة الرئيـس كـير نائبـه مشـار لم يحـدث. وعندمـا خرجـت قـوات كـير مـن مركـز التدريـب ولم تجـد مـا تفعلـه، وضعـوا خطـة لتقسـيم ضواحـي جوبـا السـكنية، وأشركـوا تلـك القـوات في نظافـة تلـك الضواحـي، والانتقـال مـن منـزل إلى آخـر. كانـت هـذه حيلـة مسـح واسـتطلاع هدفهـا وضـع خرائـط دقيقـة بمواقـع سـكن النويـر في جوبـا، اسـتعدادًا لتنفيـذ مذبحـة تسـتهدف إثنيـة النويـر.

مـرت إقالـة مشـار وحـلّ الحكومـة دون ضجيـج كبـير و ظـلّ المنـاخ السـياسي داخـل الحركـة الشـعبية هادئًـا لكـن يشـوبه التوتـر. لم تسـفر محـاولات تهدئـة الأوضـاع داخـل الحـزب عـن أي نتائـج، بـل أن الرئيس عـارض فتـح قنـوات حـوار داخـل الحـزب حتـى بعـد تشـكيل الحكومـة الجديـدة، وتعيـين جيمـس واني إيقـا نائبـاً للرئيـس ومناسـا ماقـوك روندیـال رئيسـاً للمجلـس التشريعـي لجنـوب السّـودان. ظلـت عمليات الحـزب الديمقراطيـة مشـلولة، وتـم تجـاوز الجـداول الزمنيـة الموضوعة، وتطلـب الأمـر إرادة سياسـية ناجعـة لضـخ دمـاء في أجهزة الحـزب. كان كـير قـد اسـتعد بالفعـل لعمـل عسـكري ضـد مشـار، وأمـوم، وربيـكا

نياندينق قرنق. ما لم يكن واضحًا هو طريقة تنفيذ خطته. اعتمد كير على شائعات أن النوير سيخوضون حرباً لفرض مشار رئيسًا، لكن الأحداث السياسية التي تلت 23 يوليو 2013، إقالة مشار، أظهرت أن كير مصر على الهجوم حتى دون اتخاذ مشار ردّ فعل.

لم تأت خطوة مشار التي طال انتظارها إلا بعد مرور الكثير من المياه تحت الجسر السياسي في شكل تنافس إثنيّ ومناطقي. في الواقع، تحرك مشار في وقت متأخر بسبب تأثير تعبان دينق قاي، وايزيكيل قاتكوث، وزوجة مشار أنجلينا تنج. كانت الجهود الأولية موجهة لإقناع الرئيس باستيعاب من فقدوا مناصبهم في التعديل الوزاري، وهو نهج خاطئ تماما في القضية المطروحة، فكونك وزير ليس حالة دائمة أو حق بالميلاد. لاحقًا تحولت الجهود صوب إحداث توافق بين أعضاء الحركة، وإعادة الحركة الشعبية لتحرير السّودان لدائرة السلطة. كان من الواضح أن عناصر حزب المؤتمر الوطني السابق قد استولوا بشكل غير رسمي على قيادة الحركة الشعبية لتحرير السّودان من خلال علاقاتهم الشخصية مع كير، واستبعدوا أعضائها الحقيقيين، بل صار بعضهم أعضاء في المكتب السياسي. أصبح من الضروري إشراك مشار، النائب الأول للرئيس، وباقان أموم، الأمين العام، المعتكف في منزله، لجعل الأمر شأناً حصريًا على الحركة الشعبية لتحرير السّودان.

تنقلت اجتماعاتنا، التي كانت اجتماعية أكثر من سياسية، بين منازل أوياي دينق أجاك، دكتور سيرينو هيتنق، وريك مشار، وأحياناً ريبيكا نياندينق قرنق. بدأت التفاعلات الداخلية للحركة تتغير خلال هذه الفترة، حيث انسحب من المجموعة ثلاثة

زملاء من بحر الغزال لا أريد الكشف عن أسمائهم الآن. وبسبب غيابهم تولى مشار قيادة المجموعة بحكم ترتيبه في هيكل الحركة الشعبية. كان هدف المجموعة هو إصلاح نظام الحركة الشعبية وليس انتزاع السلطة من كير. أصبحت المجموعة أكثر عزمًا على إعادة الحركة الشعبية لتحرير السّودان لموقعها الصحيح داخل هيكل السلطة. وفي الوقت نفسه، كان الرئيس مصمماً أكثر من أي وقت مضى في رفضه السماح لأجهزة الحركة الشعبية بالعمل.[1]

قررت المجموعة الدعوة إلى مؤتمر صحفي للضغط على كير ورفع الحظر المفروض على أجهزة الحركة، ودعوة المكتب السياسي للانعقاد. في 6 ديسمبر، عقد أعضاء المكتب السياسي (مشار، وباقان أموم، ودينق ألور، وريبيكا نياندينق قرنق، وكوستي مانيبي، وألفريد لادو قوري، وغيرهم) مؤتمرًا صحفيًا في مقر الحركة. سلط البيان، الذي وزع على الصحافة، الضوء على مخاوف انحراف الحزب عن رؤيته، والفساد في الحكومة، والنزعة القبلية، وانعدام الأمن في جميع أنحاء البلاد، والصراعات الإثنيّة، والعزلة الإقليمية والدولية لأحدث دولة في أفريقيا والعالم. قدم القادة طلبًا مفتوحًا لرئيس الحزب للدعوة إلى عقد اجتماع مجلس التحرير الوطني، يسبقه اجتماع المكتب السياسي من أجل وضع جدول أعمال مجلس التحرير. غطت الصحافة المؤتمر الذي حضره حتى وزراء الداخلية والإعلام والإذاعة.

(1) شمل ذلك د. ريك مشار، وباقان أموم، وريبيكا نياندينق قرنق، ودينق ألور، وجون لوك، وكوستي مانيبي (جميعهم أعضاء في المكتب السياسي للحركة الشعبية لتحرير السّودان)، ألفريد لادو- قوري، د. بيتر أدوك نيابا، د. سيرينو هيتينق، د. مجاك دي أقوت، الجنرال أوياي دينق أجاك، الجنرال قير شوانق الونق، المهندس شول تونق مياي، السيد مدوت بيار، وتعبان دينق قاي، وأنجلينا تنج.

رأى الرئيس كير في المؤتمر الصحفي فرصة لتنفيذ خطته ضد منتقديه. وضع مكتب الأمن والمخابرات قائمة سوداء بكل من حضر المؤتمر الصحفي. وأمر الأمانة العامة للحركة بالتحضير لعقد المؤتمر القومي الذي لم يعقد لأكثر من خمس سنوات منذ يونيو 2008. كان على الأمانة العام تنفيذ أوامر الرئيس، والاكتفاء بوضع أجندة المؤتمر، والمواد السياسية والتنظيمية التي ستقدم في الاجتماع، وعدد المشاركين، وتحديد الجدول الزمني.

أعتقد أن كير كان قد سئم من النقاشات السياسية. علاوة على ذلك، لم يرغب في تكرار تجربة المؤتمر القومي الثاني للحركة الشعبية لتحرير السّودان (2008)، بعد هزيمة قراراته حينها. ومن أجل التحايل على القنوات الديمقراطية المطلوبة للتخلص من منتقديه، قرر كير إنجاز خطة ذات مسارين. تشكيل لجنة للتحقيق مع باقان أموم حول العديد من القضايا المتعلقة بإدارة موارد الحركة الشعبية. كانت اللجنة قد عرضت تقريرها عليه، وبالتالي أراد أن يجتاز المؤتمر القومي ويؤيد توصية اللجنة بعزل باقان أموم من موقعه أمينًا عامًا للتنظيم، تجريده من حصانته، ومقاضاته بتهم إدارية ومالية أخرى.

أما العمل ضدّ مشار فقد كان عسكريّ الطابع، لكنه تطلب زنادًا آخر، وهنا يأتي دور المخابرات العسكرية بمجرد انتهاء جلسة مجلس التحرير القومي. كان الرئيس قد استعد لاستباق أي عمل عنيف من قبل النوير من خلال رفع تأهب جيشه الخاص، والتأكد من أن تأتي المبادرة منه. ومن أجل إطلاق خطته العسكرية، استند كير بشكل كبير على السيكولوجيا الاجتماعية

للنوير ومعرفته بطبيعة حربهم التقليدية، والتي لا تتطلب إعدادًا مسبقًا. لا يقوم النوير، في الغالب، بالتحقيق في أسباب القتال، ولا يترددون الدخول في أي معركة (wannae thinh)، بل يستفسرون عن أسباب القتال في وقت لاحق، سواء بعد الهزيمة أو النصر. يقاتل النوير دون مراعاة أو حساب ميزان القوى بينهم والعدو. وعلى عكس العديد من الشعوب الأخرى لا يهاب النوير الموت. هذا هو التكوين النفسي لشعب النوير، وهي المعرفة التي استخدمها ضباط استخبارات كير لاستفزاز أفراد النوير في الحرس الرئاسي في ليلة 15 ديسمبر 2013. انطلت عليهم الحيلة، ولم يعرفوا أنها فخ هدفه تبرير الفوضى التي تتبع.

معركة الحرس الرئاسي ومذبحة النوير

اجتمع مجلس التحرير القومي يوم 14 ديسمبر وسط إجراءات أمنية مشددة. جاء الرئيس كير مرتديًا زي الحرس الرئاسي لكتيبة التايقر. حذر معظم من خاطبوا الجلسة الافتتاحية من طريقة إدارة الخلافات السياسية داخل الحركة الشعبية. كان واضحاً من لغة جسد قادة الحركة الشعبية أن الأمور على وشك الانهيار. أجتر الرئيس في خطابه أحداث 1991، ووعد بعدم تكرارها أو التسامح معها[1]. كانت الأجواء شديدة التوتر في مركز نياكورون الثقافي الذي استضاف اجتماع مجلس التحرير القومي، لدرجة أن مشار وعدد مقدر من القادة الذين عقدوا مؤتمر 6 ديسمبر الصحفي قاطعوا الجلسة الختامية في اليوم التالي.

كان رئيس هيئة الأركان العامة للجيش الشعبي لتحرير السّودان، الجنرال جيمس هوث ماي، في أستراليا لزيارة عائلته وعاد إلى جوبا في 15 ديسمبر. قبلها أمر الرئيس كير بنزع سلاح عناصر النوير في الحرس الرئاسي، بينما أنشغل تعبان دينق طوال اليوم في إثارة الضباط والعساكر من النوير في الجيش الشعبي لتحرير السّودان للقتال. ووفقًا للجنرال أوياي دينق أجاك في اتصال شخصي مع المؤلف، وهو نفس ما جاء في حيثيات بيانه أمام المحكمة خلال محاكمته، إنّ تعبان دينق وإيزيكيل لول قاتكوث عملا على إذكاء الأزمة في وقت حاول هو تهدئتها. كان من الواضح أن ليس لدى

(1) إشارة لإعلان الناصر بقيادة مشار بهدف إثارة غضب دينكا بور الذين تحملوا وطأة الفظائع التي أعقبت الإعلان.

تعبـان دينـق قـاي اسـتعدادات للعمـل العسـكري. وقـد قـال أويـاي دينـق اجـاك في بيانـه أمـام المحكمـة العليـا «لقـد أخـبرت الجـنرال توماس دووث، مديـر المكتـب الخارجـي في جهـاز الأمـن القومـي، أنـه الشـخص المناسـب لإطـلاع الرئيـس عـلى تطـورات الأوضـاع في الحـرس الرئـاسي، والحاجـة الملحـة للتهدئـة، لكنـه لم يذهـب لمقابلـة الرئيـس، وإلا لـكان مـن الممكـن تجنـب القتـال».

بحلـول يـوم الأحـد 15 ديسـمبر، كان الوضـع السـياسي في جوبـا ينزلـق نحـو كارثـة. اختتـم الرئيـس كـير اجتـماع مجلـس التحريـر القومـي حـوالي السـاعة السـابعة مسـاء بنـبرة معاديـة، مـما أجـبر الأعضـاء عـلى التفـرق عـلى عجـل إلى مسـاكنهم كـما لـو إنهـم يتجنبـون خطـر وشـيك. كان مـكان الاجتـماع عـلى بعـد كيلومـتر واحـد مـن مقـر الجيـش. انطلقـت الرصاصـة الأولى حـوالي السـاعة التاسـعة، تبعهـا هديـر مـن الرصـاص في المنطقـة بأكملهـا التـي تضـم الحـرس الرئـاسي لكتيبـة تايقـر، ثـم سُـمعت أصـوات الرشاشـات الثقيلـة، والمدفعيـة، والدبابـات. اسـتمر هـذا طـوال الليـل حتـى الثامنـة صباحًـا، عندهـا انتقـل إطـلاق النـار إلى أجـزاء أخـرى مـن المدينة، بمـا في ذلـك الضواحي السـكنية. ظـلّ الوضـع غامضًـا حتـى ظهـر الرئيـس كـير عـلى الهـواء حـوالي السـاعة الثانيـة عـشر ظهـرًا في اليـوم التـالي، ويعلـن وجـود محاولـة انقلابيـة قادهـا مشـار، وتعبـان دينـق، وألفريـد لادو قـوري. كـما أعلـن هزيمـة المتآمريـن، وأن القـوات الموالية تلاحـق المتمردين.

اسـتمر إطـلاق النـار في جوبـا حتـى يـوم الخميـس 19 ديسـمبر. وخـلال هـذه الفـترة قُتـل مـا يقـدر بنحـو 20000 شـخص، معظمهـم مـن المدنيـين الأبريـاء مـن شـباب النويـر، والمسـنين، والنسـاء، والأطفال،

مـن خـلال عمليـة بحـث، وتعقـب، وقتـل متعمـد ومخطـط جيـدًا مـن منـزل إلى آخـر مـن قبـل قـوات «لنحمـي الرئيـس»، وتعـاون عنـاصر أجهـزة الأمـن الوطنـي، يقودهـم ضبـاط جيـش شـعبي معروفـين. إذا نظرنـا لهـذه الأحـداث، خصوصـاً ممـن شـهدوها، يمكـن القـول أنـه لم يكـن هنـاك انقـلاب ضـد الدولـة، بـل كانـت خطـة متقنـة ومعـدة منـذ فـترة مـن قبـل الرئيـس كـير. و ليـس فقـط للتخلـص مـن معارضيـه في الحركـة الشـعبية، لكـن لتثبيـت أركان حكمـه الشـخصي. مـا حـدث هـو نتيجـة ثمـاني سـنوات مـن سـوء الحكـم: المجـزرة المرتكبـة ضـد المدنيـين مـن النويـر هـي عمليـة مخططـة بدقـة وتـم تنفيذهـا بإحـكام. تسـبب لجـوء كـير إلى العمـل العسـكري في فشـل هدفـه السـياسي، وأسـهم في زيـادة عـدد أعدائـه الذيـن أراد تدميرهـم. لم يكـن هنـاك أي مـؤشر عـلى أن مشـار أراد الـرد عسـكريًا عـلى طـرده مـن الحكومـة. عـلى العكـس، يثبـت موقفـه أنـه لم يكـن عـلى اسـتعداد تكـرار تجربتـه بلـوغ السـلطة في جنـوب السّـودان مـن خـلال إراقـة الدمـاء ويمكـن اسـتنتاج ذلـك مـن ثلاثـة مواقـف.

الأول، هـو اعتـذاره لمجتمـع بـور عـن الأعـمال الوحشـية التـي ارتكبـت عـام 1991 بعـد إعـلان النـاصر وانقسـام الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، في خطـاب لـه بمنزل مـدام ريبيكا نياندينق بتاريـخ 30 يوليـو 2011. اعـترف مشـار بمسـؤوليته عـن الأعـمال الوحشـية ضـد شـعب بـور، وتعهـد بأنـه لـن يكـرر مثـل هـذه الأعـمال. والثـاني هـو موقفـه الحميـد وعـدم مقاومتـه مرسـوم كـير عنـد إعفـاء الأخـير لـه مـن منصبـه كنائـب للرئيـس في 23 يوليـو 2013. أظهر مشـار رباطـة جأشـه وقبـل المرسـوم الرئـاسي، بـل وأعفـى نفسـه مـن مهامـه

في الجمعية التشريعية الوطنية، التي كان عضوًا معينًا فيها بحكم منصبه. في الواقع، لم يكن هناك أساس لمقاومة صلاحيات الرئيس الدستورية كما نوقش أعلاه. السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يعقل أن لم يدرك مشار والديمقراطيون الآخرون في الحركة الشعبية لتحرير السّودان خطر منح الرئيس سلطات مفرطة في الدستور الانتقالي لجنوب السّودان (2011)، أكثر حتى من صلاحياته بموجب الدستور الانتقالي لجنوب السّودان (2005). كان يمكن لمعارضة السلطات المفرطة أن تكون بداية النضال السياسي نحو إنجاز التحول الديمقراطي في جنوب السّودان ما بعد الاستقلال. ثالثًا، كان رد فعل مشار على إطلاق النار في مقر الجيش، الذي يضم الحرس الرئاسي، رد فعل لزعيم لا يريد الصراع. فقد أمر قائد حراسته مرارًا بعدم الرد على أي استفزاز وعدم القتال، وأصر على أنها ليست حرب، وأن عليهم فقط الحفاظ على مواقعهم. تدلّ هذه التصرفات على أن مشار كان مهتمًا فقط بالنضال السياسي، ولم يرغب في خوض الحرب. ومع ذلك، لسنا متأكدين ما إذا كان اندلاع العنف في 15 ديسمبر حدث دون علمه تام. صحيح أن مشار تأخر في الانضمام إلى المشاورات السياسية التي دعى لها الوزراء الذين أقالهم كير من الحكومة. تمحورت المشاورات حول أزمة الحركة الشعبية وضرورة إجراء إصلاحات، وكانت قد بلغت مرحلة متقدمة عندما وافق على المشاركة. أصر بعض أعضاء مجموعة المناقشة هذه، لأسباب واضحة، على إبقاء كير في الصورة. بالتأكيد كان مشار يعرف طريقة تفكير الرئيس. المثير للدهشة هو لماذا لم يجمع معلومات استخبارية حول أنشطة كير، خاصة حول زياراته بحر الغزال والخطابات المعادية التي ألقاها هناك.

لا بـدّ أن سياسـيًا في مكانـة مشـار كان سـيجمع معلومـات مـن أجـل وضـع اسـتراتيجية عملـه السـياسي. عـلاوة عـلى ذلـك، عـرف المعظـم إن كـير قـام تجنيـد 3000 شـابًا من قريتـه، يدربهـم في مزرعتـه في «لوري». لـذا، مـن غـير المعقـول أن يظـل مشـار واثقًـا مـن أن الرئيـس لا يخطـط لـشيء شريـر. كانـت القضايا الملحة في الحركة الشـعبية لتحرير السّـودان تتعلـق بالديمقراطيـة ومأسسـة هيـاكل الحـزب. لم يكن من غـير المألوف في الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان أن تأخـذ الصراعـات السياسـية طابعًـا عنيفًـا عـلى أسـس شـخصية أو إثنيّـة. لقـد ابتلـع كـير كبريائـه ووافـق عـلى مخرجـات المؤتمـر القومـي للحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان في عـام 2008، والتـي فرضهـا عليـه مشـار وفاقـان أمـوم، لـذا كان مـن غـير المحتمـل أن يفعـل ذلـك مـرة ثانيـة. وهـذا يفـسر تصرفـه غـير الدسـتوري، بـل والغـادر، بتجنيـده لجيـش خـاص.

إن عامـين مـن الاسـتقلال وممارسـة السـلطة السـيادية وقـت بالـغ القـصر لـكي يفكـر كـير في تـرك منصبـه. كان واعيـاً بنقـاط ضعفـه السياسـية والقياديـة، وعـرف أنـه لا يسـتطيع ضـمان الأصـوات اللازمـة للفـوز برئاسـة الحركـة الشـعبية في المؤتمـر القومـي الثالـث، المقـرر إجـراؤه في مايـو 2013، وبالتـالي، عـدم منحـه حـق الترشـح عـن الحركـة الشـعبية في الانتخابـات الرئاسـية، المقـررة في أبريـل 2015. دفعـه الخـوف مـن فقـدان السـلطة للجـوء إلى الخيـار العسـكري لحـل المشـاكل السياسـية والديمقراطيـة في الحركـة الشـعبية. وبصفتـه جنديًـا أكـثر منـه سياسـيًا، تـصرف كـير بحـذر بالـغ، بـدءًا مـن شـلّ هيـاكل الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان بهـدف حرمـان مشـار، وفاقـان أمـوم، ونياندينـق قرنـق مـن الطعـن في قراراتـه سياسـياً، حتـى

مرحلة السيطرة الكاملة على العملية. وبغرض التخلص نهائياً من منتقديه، قرر عقد مجلس التحرير القومي في مناخ يتسم بعدم اليقين السياسي. هيأ كير الأرض للعملية، وإن كان بطريقة خرقاء. لم يعتقل مشار، وتعبان، والآخرين ممن أراد إيذائهم، كما كان من الصعب تصديق رواية الانقلاب، باستثناء قادة الجوار الإقليمي، الذين رأوا فيها فرصة عمل. وكان أن دحض رئيس المخابرات العسكرية الرواية الرسمية الهادفة لإدانة فاقان أموم، والجنرال أوياي دينق أجاك، والدكتور مجاك دي أقوت، وايزيكيل لول قاتكوث، بالتهم الموجهة ضدهم في المحكمة.

كان من الصعب معرفة ما إذا كان الرئيس سيأمر بالهجوم على منزل مشار قبل هرب الأخير ليلة 15 ديسمبر. أدى الهجوم على منزل مشار في 17 ديسمبر إلى قتل جميع من فيه، بمن فيهم النساء، والأطفال، وما تبقى من حراسه الشخصيين القلائل الذين تم نزع أسلحتهم. هذه بالتأكيد جريمة حرب، ويبدو أنها جاءت بناء على أوامر وزير الداخلية، أليو أنيانق[1]. وكان من المعروف أن مشار وافق على مضض على مغادرة منزله تحت غطاء الليل وقد كان قرارًا صائبًا. وبمجرد أن صار خارج متناول كير، كان لديه الفرصة لإعادة تنظيم أفكاره وإجراء الاتصالات اللازمة، واتخاذ قرارات عقلانية وصحيحة. كانت الأحداث تتحرك بوتيرة سريعة

(1) في صبيحة 17 ديسمبر، منح أليو مفتش الشرطة العام، الجنرال بينق دينق مجوك، 15 دقيقة لنقل جميع السياسيين المعتقلين، والوزراء السابقين في الحكومة، والأمين العام للحركة الشعبية لتحرير السّودان، الذين كانوا محتجزين في مقر الشرطة إلى منزل مشار. أعد أليو قوة لإعدام هؤلاء السياسيين. وبدلاً من ذلك، فتح الجنود النار على أهداف آخرى - خاصة النساء، والأطفال، وحراس مشار الذين تم نزع أسلحتهم.

وأدت المذابح التي استهدفت إثنيّة النوير في جوبا، في الفترة من 16 -19ديسمبر، إلى عمليات قتل انتقامية في ولايات الوحدة، وجونقلي، وأعالي النيل. وحشد لو نوير الجيش الأبيض وتحركوا صوب جوبا.

تمرد ريك مشار

كان شيئًا صادمًا أنّ مشار أعلن تمرده بعد الاتصال والتواصل مع من قد يسهموا في حل النزاع. تتطلب هذه الواقعة استقصاءًا وتحليلًا لمعرفة أسباب تبني مشار تمردًا خطط له ونفذه أشخاصًا لم يكن على اتصال بهم. قام جنرالات الجيش الشعبي لتحرير السّودان، بيتر قديت (بور)، وجيمس كونق (بانتيو)، بالتصرف بمحض إرادتهم مدفوعين بروح الإنتقام من قتل أبناء النوير في جوبا وبالمثل فعل «الجيش الأبيض» الذي يتكون من مقاتلي لو نوير. يأتي اسم «الجيش الأبيض» من كونها قوات دفاع محلية مجتمعية. تشير كلمة «أبيض» إلى «المدنيين»، لذلك لم يأت قرار مشار بتولي قيادة التمرد من تحليل وقراءة صحيحين للوضع السياسي، بل كانت عاطفية وانتهازية.

من موقعه نائبًا للرئيس، بدءًا من عام 2005، لاحظ مشار انزلاق جنوب السّودان إلى حالة من انعدام الأمن والفوضى المستمرة. جاء الاستقلال على خلفية حروب متفرقة في جونقلي ووسط غرب أعالي النيل، جاء أغلبها بسبب قرار كير في عام 2009 منح أراضي شلو على الضفة الشرقية لنهر النيل لدينكا فدانق، وكذلك بسبب النزاع الذي سببته نتائج انتخابات 2010. بدأ النظام في ممارسة القمع باعتقال واحتجاز أعضاء من الحزب الشيوعي في رمبيك، أثناء ممارسة حقهم الذي كفله دستور البلاد الانتقالي لعام 2011. وفي ديسمبر 2012، قامت قوات أمن النظام

بقتل متظاهرين سلميين في واو بعد احتجاجهم على قرار الحكومة بطردهم من أراضي أجدادهم. كما قام شباب لو نوير بغزو أراضي المورلي انتقامًا من غارات قام بها المورلي في العام السابق قتل فيها أكثر من 800 شخص. جاءت خطوة شباب لو نوير في تحدٍ صريح للقائد مشار الذي سافر إلى ليكوانقلي، بولاية بوما، لوقف الحملة، في فعل يشير إلى انهيار كامل في التواصل مع الدولة. كل هذه الأحداث وجنوب السّودان يعيش أزمة اقتصادية عميقة بعد الحرب على الحدود مع السّودان وركود سوق النفط العالمي.

كانت القضايا الداخلية على وشك الإنفجار داخل الحركة الشعبية. ففي أغسطس 2013، وجه الرئيس كير ببعض التغييرات في الأمانة القومية للحركة الشعبية. صدر القرار من مكتب رئيس الدولة، وليس من مكتب رئيس الحركة الشعبية، مما أضطر الأمين العام لتقديم طعن قانوني في المحكمة العليا، الذي لم يصدر أي حكم حتى الآن. حاصر الأمن القومي باقان أموم في دائرة نصف قطرها عشرة أمتار فقط من مقر إقامته، كما هدد محاميه، دونق صموئيل لواك، الذي فر إلى نيروبي في أغسطس 2013، ليتم خطفه ونقله إلى جوبا بتاريخ 24 يناير 2017. ولا يزال مكان احتجازه مجهولًا حتى الآن[1]. هذه العوامل وغيرها هي مؤشرات مقلقة على أن البلاد على وشك الانفجار. لذا جاء إعلان مشار تمرده كردّ فعل على المذبحة التي إرتكبها كير ضد النوير في جوبا بمثابة انتهازية، تُظهر طبيعة مشار الحقيقية باعتباره نويروايّ شوفوني متعصب لإثنيّته.

(1) اتضح لاحقًا وفقاً لتقرير دولي أنه أُعتقل في نيروبي، ورُحّل إلى جوبا، حيث أُغتيل. ولم يُسلم جثمانه لذويه حتى الآن (المترجم).

مثّل انفجار العنف في 15 ديسمبر 2013 مجرد غيض من فيض سياسي يتطلب تحليل أعمق للخروج برد فعل استراتيجي قوي من جانب أيّ سياسي يملك إرادة تغيير. وبصرف النظر عن قلقه على سلامته الشخصية، كان ينبغي ألا يستجيب زعيم سياسي من عيار مشار بالطريقة التي أرادها كير. أعتقد أنه كان على مشار، بعدما أصبح بعيدًا عن متناول كير، أن يبدأ أولاً بتحليل الوضع بشكل صحيح، ودراسة دوافع كير من إثارة القتال داخل الحرس الرئاسي، ومن ثم أمره بذبح النوير. توجب عليه أيضًا دراسة رد فعل واستجابة المجتمعات الإثنيّة الأخرى للمذابح، وما إذا ستنضم تلك المجتمعات، أو غيرها من عشائر الدينكا الأخرى، للمقاومة ضد كير. ما فعله مشار ينمُّ عن عدم تعلمه من التجارب، وتحديداً تجربة 1991، حيث انضم النوير وبعض الشلك فقط إلى «ثورته». ومثلما وصف شخص الوضع، كانت سيرورة قيادة لا تتعلم.

أثبتت جميع الدلائل أن كير أراد تعزيزه وترسيخ نفوذه في السلطة بعد التخلص من مشار. لذا جاء تنسيق القتال داخل الحرس الرئاسي لتكون حيلة لتنفيذ خطته. أما المجزرة ضد أبرياء النوير، فقد كانت أيضًا حيلة لخداع الدينكا عبر مجلس كبار أعيانهم للاعتقاد أن (مشار) (تُقرأ النوير) يمثل تهديدًا لسُلطة كير (تُقرأ الدينكا). كان من الممكن أن يساعد التحليل الصحيح مشار على اكتشاف دوافع كير. على أن يأتي الرد على العدوان بعد تقييم دقيق لتوازن القوى بين كير والمعارضة، وأن يستند التمرد على هدف سياسي إستراتيجي.

بعد أسبوعين فقط من بدء الصراع، أصدرت الجمعية الاستثنائية لرؤساء دول وحكومات الإيقاد بيانًا بعد عقد قمتها في نيروبي (27

ديسمبر 2013). كان واضحًا من النصّ أن القادة الإقليميين صدقوا رواية الانقلاب، وبالتالي برروا التدخل العسكري الأوغندي «لحماية المنشآت الاستراتيجية». وكان أن أعطت تصريحات مشار على بي بي سي أنه «يقود تمردًا» مصداقية لسردية الانقلاب، من باب أن فشل مشار في تحقيق أهداف الانقلاب أجبرته على التمرد. كما نفى بيان مشار، عن غير قصد، الزخم الذي أطلقته التصريحات القوية التي قدمتها مدام ريبيكا نياندينق والمؤلف لوسائل الإعلام الورقية والإلكترونية، والتي تناقض رواية كير بشأن الإنقلاب.

بدلاً من التباهي بقيادة التمرد، كان بإمكان مشار أن ينتهز الفرصة لإبلاغ العالم بالمجزرة ضد النوير الأبرياء في جوبا التي أعقبت تمرد الحرس الرئاسي؛ أو هروبه من جوبا بينما كير يلاحقه بطائرات هليكوبتر حربية. كان يمكن أن يتحدث عن الهجوم على مجمعه في 17 ديسمبر، ومقتل حراسه، والنساء، والأطفال، الذين لجأوا إلى هناك من عمليات القتل في المدينة. كان هذا سيكسبه التعاطف. لكنه ضيع هذه الفرصة بسبب الطريقة الكرنفالية التي أعلن بها قيادته للتمرد. بدأت الأخبار تتوالى عن الفظائع التي ارتكبها النوير في بور وبانتيو، والتي تذكر بحادث عام 1991. وتسبب بلوغ هذه الأخبار جوبا إلى رد فعل عنيف ضد مشار والنوير بشكل عام. ودون قصد، نزع مشار الحبل عن رقبة كير ووضعه حول رقبته بسبب سوء إدارته واستجابته الخاطئة للأزمة.

لم يكن لدى مشار أسباب مقنعة للقيام بهذا الإعلان المتسرع عن نيته خوض حرب. كان الوضع لا يزال متقلبا وغير متوقع. كانت القوات التي هربت معه من جوبا، وتلك التي انضمت إليه

في بـور، لا تـزال في وضـع دفاعـي. ولم تـدرك القـوات المتمـردة نطـاق تمردهـا بعـد. كان لأفـراد جيـش لـو نويـر الأبيـض دوافعهـم الخاصـة، وهـي ليسـت بالـضرورة مرتبطـة بأهداف مشـار السياسـية. كان شـعب جنـوب السّـودان، بخـلاف النويـر والدينـكا، لا يـزال في حالـة صدمـة بشـأن مـا حـدث في جوبـا. وقبـل أن تتـاح لهـم فرصـة الاسـتيقاظ، فاجأتهـم أنبـاء عمليـات القتـل الانتقاميـة الوحشـية للمدنيـين الأبريـاء في بـور، وبانتيـو، وملـكال، حيـث قامـت جحافـل جيـش النويـر الأبيـض بذبـح المسـنين، والمـرضى في المستشـفيات، والمعاقـين بـلا رحمـة. كانـت حالـة مـن الجنـون المطلـق أظهـرت انعـدام مسـؤولية مطلـق وسـط القيـادة. لا يهـم مـا إذا كان مشـار قـد أمـر بالمذابـح أم لا. تكمـن مسـؤوليته في إعلانـه حـرب دون هـدف واسـتراتيجية. بصفتـه مـن النويـر، يعـرف مشـار جيـدًا أن الحـرب في بيئـة النويـر التقليديـة شـيئًا رهيبًـا، ودائمًـا مـا تتعلـق بتراكـم الغنائـم مـن الأبقـار، والنسـاء، والأطفـال واحتـلال الأرض. كان يفـترض بمشـار أن لا يخلـق أعـداء، بـل كسـب حلفـاء في قضيتـه. لكـن بسـبب هـذه الفظائـع، انحـسر التعاطـف والتضامـن مـع ضحايـا أعـمال كـير في جوبـا بسرعـة، وتغـيرت مواقـف النـاس إلى الغضـب والمـرارة. حقـق الطابـع الانتقامـي والانتقـام المضـاد لحـرب مشـار الهـدف الرئيـسي للرئيـس كـير: تحويـل الصراعـات السياسـية الداخليـة للحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان إلى حملـة عسـكرية عـلى أسـس إثنيّـة. وفي هـذا الصـدد، تمكـن كـير مـن تحييـد الإثنيـات الأخـرى، أو كسـبهم حلفـاءً في معركتـه ضـد النويـر[1].

(1) كانـت القـوات المتمـردة في مملكـة الشـلك، بقيـادة الجـنرال جونسـون طوبـو (أولونـج)، في حالـة هدنـة غـير مسـتقرة مـع الحكومـة عندمـا اندلـع الـصراع في جوبـا. تسـببت المذبحـة غـير المـبررة التـي نفذهـا النويـر ضـدّ الشـلك في ملـكال في انحيـاز أولونـج للرئيـس كـير، وشـنّ هجـمات ضـد ريـك مشـار والجيـش الأبيـض.

ليس من المستغرب أن نصف الضباط والجنود النوير، على الأقل، انضموا إلى التمرد، مدفوعين بالغضب على قتل أقاربهم وأهلهم الأبرياء[1]. ومع ذلك، كان الجيش الأبيض - مدنيون مسلحون من لو نوير وجيكانق - هم من شكل الجزء الأكبر من قوى المعارضة التي دخلت في قتال مع الجيش الشعبي في بور وتركيكا، في حين قدّمت قوات دفاع الشعب الأوغندي نيران المدفعية، وطائرات الهليكوبتر الحربية، والقنابل العنقودية. كان الجيش الأبيض قوة هائلة، ألحقت خسائر فادحة بالجيش الشعبي وقوات دفاع الشعب الأوغندي الحليفة. لكن كان استخدام طائرات الهليكوبتر الحربية والقنابل العنقودية شيئًا لم يتوقعه الجيش الأبيض بتكوينه القائم على العشائر. وسرعان ما حبطت معنوياتهم، وانسحبوا. إذ لم يكن هناك حافز مادي يدفعهم لمواجهة طائرات هليكوبتر.

أعتقد أن إعلان مشار عن قيادته للتمرد كان خدعة لطرح نفسه على أنه حامي لشعب النوير، وخلق نفوذ سياسي بعد إقالته من منصبه نائبًا للرئيس. لم يكن في نيته بعث رسائل تعبر عن التمرد. كان مشار قائدًا ناجحًا للجيش الشعبي لتحرير السّودان، ويعرف جيدًا أنه إذا كان لا بد من القتال، فيجب أن يكون ذلك بشروطه الخاصة، فيما يتعلق بالتوقيت والموقع، وأنه لا يجب إعلان الحرب على أرض غير مواتية. علاوة على ذلك، كانت هناك مسائل ملحة يجب الاهتمام بها قبل الإعلان. في المقام الأول، احتاج مشار إلى وقت لتنظيم، وتدريب، وتوجيه، وتشكيل القوات في وحدات قتالية عضوية. كان بحاجة إلى تحديد العدو أو الهدف، وكذلك الأهداف

(1) ضم الموكب العسكري المهيب الذي قاده الجنرال بيتر قديت لمشار في قادياندق 45 ألف ضابط وجندي.

السياسية للحرب. كان بحاجة أيضًا إلى تأمين الخدمات اللوجستية العسكرية من حيث الذخيرة والغذاء. كما توجب عليه أن يرفض أو يؤجل التدخل الإقليمي لمنظمة إيقاد في النزاع. حيث أي تأخير في بدء عملية السلام من قبل إيقاد كان سيعطي مشار الوقت اللازم لبناء قواته والاستعداد للحرب. كانت هناك أسباب مشروعة لرفضه إرسال وفد إلى أديس أبابا.

كان ينبغي على مشار أن يدين تأييد إيقاد لرواية انقلاب كير في بيانها الصادر في 27 ديسمبر 2013. كان الجميع يعلم أنه لم يكن هناك انقلاب. إذا كان لتدخلهم تأثير ذو مغزى، لتوجّب على قادة إيقاد أن يكونوا متساوين في التعامل مع الأزمة. كان يمكن لمشار أن يشكك في دور الرئيس موسيفيني في الوساطة، خاصة وأنه تورط في الحرب إلى جانب كير. كان بإمكانه أن يطالب بالانسحاب الفوري وغير المشروط للقوات البرية والجوية لقوات الدفاع الشعبية الأوغندية من أراضي جنوب السّودان. كان بإمكانه مطالبة إيقاد والمجتمع الدولي بإدانة أوغندا لاستخدامها القنابل العنقودية المحظورة دوليًا. هذه المطالب وغيرها، بما في ذلك الإفراج عن السجناء السياسيين، كشرط للمشاركة في محادثات السلام، كانت ستمكن مشار من إشراك منطقة إيقاد وبعثة الأمم المتحدة في جنوب السّودان من الصراع الدائر. في الوقت نفسه، كان من الممكن تأجيل بدء محادثات السلام حتى يكون مستعدًا للمفاوضات.

كان من المفترض أن يتفادى أي صلة له بالجنرال بيتر قديت والجنرال جيمس كوانق، قادة تمردات بور وبانتيو. كان يجب

عليه أن يفعل نفس الأمر مع الجيش الأبيض (لو نوير) خصوصاً وأنه لم يقم بحشدهم. كل هذا سيمنحه الوقت الكافي لبناء قواته والحصول على الدعم العسكري، لا سيما الصواريخ المضادة للدبابات والطائرات. لكن يبدو أن هذه الاعتبارات لم تخطر على بال مشار على الإطلاق. تصرف وفقا لسيكولوجيا النوير الاجتماعية واستراتيجيتهم للحرب، وقفز على قمة الانتفاضة الشعبية النويرية المحدودة التي اندلعت بسبب المجازر في جوبا. لم يملك مشار طرحًا سياسيًا يتجاوز الرغبة في الانتقام. أراد مشار استغلال هذه الاضطرابات الشعبية المحدودة لاستعادة قيادة النوير والموقع الذي فقده في الحكومة.

لم يكن غرض تأسيس الحركة/ الجيش الشعبي - في المعارضة، كما سنُلاحظ في القسم القادم، هو خوض الحرب بل استخدامها وسيلة تفاوض من أجل عودة مشار إلى جوبا. عاد الجيش الأبيض إلى قراه بعد أن حقق بغيته في الظفر بغنائم الحرب، شملت الأطفال والنساء المختطفين، والسيارات، والأثاث، والبنادق. وهكذا، وبحلول أبريل 2014، فقدت انتفاضة مناطق النوير في الوحدة، وأعالي النيل، وجونقلي زخمها، وتمكنت الحكومة من استعادة جميع المناطق التي سيطرت عليها المعارضة، باستثناء مناطق لو نوير (واط وأكوبو)، والسوباط (الناصر ومايوت).

سلعنة التمرُّد

بـدء الحـرب أو الاندفـاع فيهـا دون أهـداف سياسـية واضحـة وإجـراءات معينـة كنـوع مـن التأهـب، عـلى أقـل تقديـر، أمـر خطـير، وانتحـاري، ومدمـر. يدخـل القائـد العظيـم الحـرب بشروطـه فقـط. يحـدد توقيـت ومـكان القتـال مـن أجـل ضـمان النـصر أو الأهـداف السياسـية الاسـتراتيجية للحـرب. لا يقاتـل المـرء لمجـرد وجـود جنـود مسـتعدين للمعـارك، بـل عندمـا يكـون القتـال ضروريـا، ولا يمكـن تجنبـه.

يكشـف تاريـخ السّـودان المعـاصر أن الحـرب تخلـق أحيانًـا فرصًـا لمجموعـة مـن النـاس. يولـد الاقتصـاد السـياسي للحـرب قـوى اجتماعية تجعـل منـه تجـارة مربحـة، مـما يديـم ظـروف الحـرب إلى مـا لا نهايـة. اعتـلى عديـدون المـسرح السـياسي مدفوعـين بالحـرب، وهـم إمـا منافقـون و معرفتهـم السياسـية ضحلـة، أو قـادة بـلا أيديولوجيـا أو هـدف سـياسي واضـح. سـيحول هـؤلاء القـادة حالـة الحـرب وفرصهـا / إمكاناتهـا إلى سـلعة، ثـم يبيعهـا لاحتيـاز دعـم سـياسي، وبسـعرٍ لا تحـدده النقـود، بـل الامكانـات الكامنـة أو المتأصلـة في زمـان الحـرب.

عندمـا تنتهـي الحـروب الأهليـة، كـما انتهـت في 1972 و2005، تظهـر فـرص محتملـة للقـادة السياسـيين والمقاتلـين. شـهدنا ذلـك بعـد اتفـاق أديـس أبابـا واتفـاق السـلام الشـامل. كانـت أمـرًا مثـيرًا. أتـت فـرص السياسـيين في شـكل مناصـب حكوميـة (المجلـس التنفيـذي والتشريعـي)، وعـلى مسـتويات إداريـة مختلفـة (حكومـة الوحـدة

الوطنيــة، حكومــة جنــوب السّــودان، الولايــات، والمحافظــات)؛ أمــا المقاتلـين، ففـي شـكل رتـب ومناصـب في الجيـش، والأمـن، والشرطـة، والسـجون، وشرطـة الحيـاة البريـة و في إهـمال فاضـح للمحـركات الحقيقيـة للحـرب والتركيـز عـلى المكاسـب. وهـو مـا نطلـق عليـه هنـا سـلعنة التمـرد.

لم يكـن للرئيـس كـير سـبب منطقـي لشـنّ حـرب. فقـد سـيطر عـلى كامـل الدولـة بعـد إقالـة مشـار والحكومـة في 23 يوليـو 2013 وكانـت هـذه مـن صلاحياتـه الدسـتورية. عـلاوة عـلى ذلـك، في الفـترة حتـى انـدلاع العنـف في 15 ديسـمبر، لم تـرد تقاريـر عـن خروقـات أمنيـة في البـلاد تشـير لرغبـة جهـة مـا في اقتـلاع السـلطة. خـلال نفـس هـذه الفـترة، قـام زعيـم أجنبـي بزيـارة جوبـا مرتـين ضيفًـا للدولـة: في الذكـرى السـنوية الثانيـة للاسـتقلال (9 يوليـو)، وفي يـوم شـهداء الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان (30 يوليـو). قـدم هـذا الضيـف المهـم ملاحظـات مهينـة في حـقّ الدكتـور ريـك مشـار وهـي ملاحظـات لم تـأت مـن فـراغ. بـل كان تصريحـات واضحـة، تشـير لواقـع أن يـدّا خفيـة وراء تحـركات كـير العسـكرية.

الفصـل مـن منصـب حكومـي ليـس بالأمـر غـير المعتـاد. ومـا كان يجـب أن يرتقـى بـأي حـال إلى عـداء سـياسي بـين القـادة، إذ لا يـزال بإمـكان المعزولـين العمـل داخـل هيـاكل الحـزب. عـزل المؤتمـر الوطنـي الأفريقـي الرئيسـين السـابقين ثابـو مبيـكي وجاكـوب زومـا مـن رئاسـة جنـوب أفريقيـا، ومـع ذلـك ظلـوا ملتزمـين بعضويـة المؤتمـر الوطنـي الأفريقـي. لمـاذا تتسـبب تنحيـة مشـار مـن منصـب نائـب الرئيـس إلى مثـل هـذه الضغينـة السياسـية في الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان

والبلاد؟ كان يجب الاستئناف الفوري لمهامه نائبًا أول لرئيس الحركة الشعبية، وبناء حوار هدفه إصلاح الحزب. سمح قادة الحركة الشعبية لتحرير السّودان لغرورهم المتضخم بالسيطرة عليهم، وذلك من خلال قطع الاتصالات الحزبية في مثل هذا التاريخ المبكر، مما يشير إلى أنهم قد سحبوا سيوفهم وكانوا على استعداد للقتال. وبذلك قدموا للباحثين عن السلطة هدية قيمة ساعدتهم في اعتلاء المشهد السياسي، وتمرير أجندتهم من خلال الثرثرة، والدسائس، والمكائد، وزادوا من التوتر السياسي، الذي قاد لاحقًا إلى انفجار 15 ديسمبر. لم يكن من المفترض الرد على استفزازات كير، ولولا إعلان ريك مشار التمرد، لكان بمقدوره تجنب الحرب الأهلية.

لكن كان من الصعب على مشار منع الحرب. ذكرت أنفًا أن حالة الحرب تولد إمكانية أو فرصة اكتساب السلطة والثروة. وقد أثبتت فعاليتهما في الهندسة الاجتماعية، والاقتصادية، السياسية في جنوب السّودان. يشرح هذا جانب مثير للاهتمام في تمرد مشار. كتبتُ في وقت سابق أن مشار لم يكن ميّالًا للعنف في سعيه للسلطة، وبالتالي، لم يشكل جيشًا. ومع ذلك أعلن تمردًا دون استعداد عسكري. يُعتبر هذا الإعلان، ومن ثم تأسيسه اللاحق للحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة بمثابة محاولة مشار العنيفة الثانية لقيادة جنوب السّودان. ومع ذلك، واستنادا إلى ما سبق، كانت نيته الحقيقية هي وضع نفسه في موقف تفاوضي جيّد بشأن عودته إلى جوبا وهذا نابع من عدم استعداده للحرب. لم يتبعه معظم صغار الضباط والقادة الذين

دعموا محاولته للسلطة في عام 1991. في الواقع، كان معظم المثقفين والسياسيين الذين تبعوه في الأدغال هذه المرة من الوافدين الجدد على الكفاح المسلح، وبالتالي، لم يعرفوه شخصيًا. الآن هو المسؤول عن كل شيء في الحركة الوليدة، بما في ذلك اختيار الاسم، الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة (SPLM A-IO). أكبر خطأ ارتكبه مشار هو الإصرار على استخدام هذا الاسم، خصوصاً وأنه فقد هيبته منذ فترة، وأصبحت الحركة والجيش غير محبوبين وسط عديد من سكان جنوب السّودان. ربما جاء الاسم تحسبًا للعودة إلى جوبا، وتصحيح الأوضاع داخل الحركة الشعبية. لكنه تصرف دون التفكير في دائرة مناصريه التي كرهت الحركة الشعبية لتحرير السّودان.

تشكلت الحركة الجديدة في «لقاء تشاوري» في مدينة الناصر ضمّ مكونات القوى الديمقراطية من أجل التغيير، ممثلة في «الحركة الشعبية لتحرير السّودان، والأحزاب السياسية الأخرى، ومنظمات المجتمع المدني، والزعماء التقليديين، وقادة الكنيسة، وممثلو الضحايا والناجين من الإبادة الجماعية، وشخصيات بارزة أخرى، وجميع المتضررين من الأزمة عمومًا». لم يكن لقاء الناصر التشاوري سوى عرضًا مسرحيًا سياسيًا للحاق بالعمل العسكري، واستعادة دراما تشكيل الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان في مدينة إيتانق في يوليو 1983 للحاق بتمرُّدات الجيش في بور، وبوخالا، وأيود. يأتي الاستثناء الوحيد في وصف الجسم العسكري السياسي الناشئ حركة «تحرير»؛ إذ لم يكن كذلك.

جاء اجتماع الناصر التشاوري تحت عنوان «نحو تعزيز التحول

الديمقراطي، والحكم الرشيد، والشفافية لتحقيق السلام، والحرية، والازدهار». أثمر عن بيان يعدد المبادئ الديمقراطية التالية: هيكل حكم فيدرالي، وإصلاح قطاع الأمن، وإصلاح قانوني وقضائي، وإصلاح الخدمة العامة، ودستور فيدرالي مؤقت، واتفاقية سلام. ستشكل هذه المبادئ الديمقراطية الأساس الذي تقوم عليه إعادة هيكلة الدولة في جنوب السّودان، وبالتالي تمثل الأهداف السياسية للحركة الجديدة. بعيدًا عن البلاغة التحريرية التي تضمنها البيان، جاءت قائمة الشعارات الشعبوية «المبادئ الديمقراطية» هذه في محاولة لتجريد النضال ضد نظام كير من محتواه السياسي والأيديولوجي. وهي نموذج مثالي للسياسة الليبرالية واليمينية في جنوب السّودان. كما أنها تخون الأجندة الإصلاحية التي لا يمكن تحقيقها دون التوصل لاتفاق سلام. وهي تؤكد شكوكنا حول استعداد الحركة الوليدة وقدرتها على الحرب. كان استخدام كلمات قوية مثل «التحول الديمقراطي»، و»نظام الحكم الفيدرالي»، وغيرها بمجرد الاستهلاك العام والدعاية السياسية؛ فقط لا غير.

خدم الاجتماع التشاوري غرضين: إضفاء الشرعية على الدكتور ريك مشار تينج-ضورقون، وتأكيده رئيسًا وقائدًا عامًا للحركة/الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة، وتجديد مهمة فريق التفاوض بقيادة الجنرال تعبان دينق قاي، الرجل الثاني تلقائيًا في التسلسل الهرمي لقيادة الحركة الجديدة. وبالنظر إلى بيانها، أرادت الحركة الشعبية في المعارضة إطلاع شعب جنوب السّودان على اهتمامها بالسلام بدلاً عن الكفاح المسلح. يمكن استخلاص ذلك من سلسلة من المواقف السياسية والعسكرية التي تبنتها

الحركة الجديدة. أولاً، لم تصدر بيانًا ملحقًا لإعلان التمرد الأول. من شأن هذا البيان توضيح أسباب التمرد، واستراتيجية خوض الحرب. وكان هناك صامت متعمد إزاء الأصوات القوية من شعب النوير المطالبة بعدم تفاوض مشار مع حكومة كير. الشعور العام هو أن على القوة الجديدة خوض الحرب حتى نهاياتها المنطقية المتمثلة في هزيمة وإسقاط نظام كير. لقد تحرك الناس من أجل تنظيم سياسي عسكري قوي وفعال وفعال لإنجاز هذه المهمة. تفترض جرأة مشار في إعلان تمرده إعدادًا مسبقًا وتجهيزه الإمدادات العسكرية اللازمة لخوض الحرب، لكنه لم يكن قد نجح في تأمين الإمدادات، وهو ما يفسر صمته على مطالب القاعدة الشعبية. ربما متابعة جدول أعمال السلام كان جزءًا من أسباب احجامه عن الحصول على دعم عسكري؛ أيّ ربما يكون قد برر فشله في تأمين العتاد العسكري بذريعة التمسك بخيار السلام.

احتاجت الحركة الجديدة دعمًا سياسيًا وعسكريًا خارجيًا كافٍ لتمكينها من مضاهاة جيش كير، الذي يتمتع الآن بدعم حربي من القوات البرية والجوية التابعة لقوات الدفاع الشعبية الأوغندية، وكذلك جيوش المتمردين السّودانيين الذين يعملون من داخل جنوب السّودان. لم تجد الحركة الجديدة أصدقاء في المنطقة موازيًا للدعم الخارجي الذي وجده كير. هذا يدعم الحجة التي ذكرتُها، أنه في حال أراد مشار محاربة كير، سيتوجب عليه أخذ الوقت الكافي للحصول على دعم عسكري وسياسي قبل الإعلان عن التمرد. بالنظر إلى الجغرافيا المحيطة بجنوب السّودان، كان أمام مشار خياران فقط في سعيه الحصول على دعم عسكري.

جمهورية إثيوبيا الفيدرالية الديمقراطية هي أقرب جهة مانحة محتملة. ترتبط إثيوبيا مع جنوب السّودان من حيث حدودهما المشتركة وشعوبها (الكوما، والنوير، والأنيوا) في منطقة غامبيلا غرب إثيوبيا. لكن لن يكون من السهل طلب الدعم من الحكومة الإثيوبية، بما أنها تترأس إيقاد حينها. لا يمكنها ممارسة لعبة مزدوجة، وسيط سلام، وداعماً لحركة المتمردين. علاوة على ذلك، لم يقم مشار بإجراء اتصالات مع المسؤولين في إثيوبيا. كانت جهة الاتصال الوحيدة من خلال سكرتارية «إيقاد».

في التشكيل الإقليمي والدولي للقضايا آنذاك، كان يمكن لجمهورية السّودان تقديم الدعم للحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة، على أساس المعاملة بالمثل. كان الرئيسان كير وموسيفيني يدعمان متمردي دارفور والحركة الشعبية لتحرير السّودان- شمال السّودان الذين يعملون من داخل جنوب السّودان. لكن مصالح السّودان الاقتصادية في جنوب السّودان كانت أهم من مخاوفه الأمنية، لذا تردد في دعم مشار. كان للسودان حصص أكبر في حقول النفط والعائدات المتأتية من إعادة شحن نفط جنوب السّودان إلى الأسواق الدولية.

تتطلب التضحية بالمصالح الاقتصادية وجود دافع في مجال التضامن الإيديولوجي لحكومة السّودان حتى تدعم متمردي جنوب السّودان. علاوة على ذلك، كانت علاقات حكومة حزب المؤتمر الوطني مع مشار بعيدة كل البعد عن الود، خاصة بعد تخليه عن منصب مساعد الرئيس عمر البشير بسبب عدم تنفيذ اتفاقية الخرطوم للسلام (1997). مع ذلك، كانت الخرطوم

ستُخاطر في دعم مشار، لولا أن وفده الذي ترأسه تعبان دينق، وهو شخص لا تثق فيه الخرطوم، خلق قلقًا سياسيًا. كما أن مشار لم يعتبر في أهدافه السياسية مخاوف الخرطوم الاقتصادية والأمنية، ولم يتبنى استراتيجيات لتفادي معاقبة المجتمع الدولي للخرطوم. كانت خيبة أمل أجهزة المخابرات التابعة لحزب المؤتمر الوطني الحاكم في الخرطوم، من افتقار ميليشيات النوير للسرية شيئًا أخر كبير الأهمية، إذ لا تريد الخرطوم أن يُنظر إليها كمن يعيق الجهود الإقليمية بخصوص سلام جنوب السّودان.

لم يكن لدى الحركة/ الجيش الشعبي - في المعارضة جهة مانحة جاهزة لتقديم الدعم. كان يتعين على مشار العثور على أموال لتمويل الحرب، سواء أموال شخصية من مدخراته أو من أصدقاء العائلة. كان عليه إثبات قدرته على تمويل الحرب، وإلا سيولد مشروع قيادة التمرد ميتًا. كان مشار نائبًا للرئيس، ومسئولاً على البنية التحتية المادية التي أعادت تأهيل المباني الحكومية بميزانية ضخمة بين سنوات (2005- 2007). وبما إن لديه طموحات في السلطة، كان من المفترض أن يكون قد جمع أموال كافية لتمويل صراعاته السياسية، بما في ذلك قيادة تمرد.

كان الجنرال تعبان دينق قاي، الشخص الثاني في التسلسل الهرمي للحركة الجديدة، حاكمًا لمدة ثماني سنوات لولاية الوحدة الغنية بالنفط. يعتقد العديد من سكان جنوب السّودان، بمن فيهم المؤلف، أنه جمع ثروة طائلة أثناء توليه إدارة الولاية الغنية بالنفط. ويرجع ذلك إلى افتقار الولاية، أو حتى عاصمتها بانتيو، إلى بنية تحتية تُظهر نسبة الخمسة في المائة من عائدات النفط التي

تلقتها الولاية خلال تلك الفترة. بمقدور مشار وتعبان تسديد فاتورة الحرب بسهولة من خلال ثروتهما المسروقة. لكن لم يكن تعبان دينق ولا مشار مستعدين لاستثمار أموالهم في مشروع الحرب. قال مشار إنه ليس لديه مال، وأن الأموال، في حال وُجدت، تخصّ ابنه. كان لدى تعبان دينق مصالح تجارية في دبي، وبالتأكيد خشي من وضع ثروته الشخصية في الحرب. أدى ذلك إلى تفاقم العلاقة غير المستقرة بين الاثنين، ودفع تعبان دينق لمقاطعة جلسة مفاوضات إيقاد الثالثة في يوليو 2014، واستغل الوقت بين جلسات التفاوض لإدارة أعماله في دبي، وأحيانًا للتوقف قليلًا في الخرطوم. تمكن في هذه الرحلات من تأمين بعض مخزونات الذخيرة، ولكن ليس بما يكفي لمواصلة القتال ضد قوات كير.

أثّر نقص اللوجستيات العسكرية في أداء الحركة الجديدة، الأمر الذي يدعم الحجة القائلة بوجوب تخصيص الوقت للاستعداد قبل شنّ تمرد. لم تهتم الحركة الوليدة بإنشاء ثكنات للجيش، مما يزيد صعوبة الحصول على ما يكفي من غذاء المقاتلين. يتحرك الجيش على بطنه، كما يُقال، ودون طعام سيكون من الصعب إبقاء المقاتلين في مكان واحد. لم يكن من المستغرب عودة المقاتلين وحتى الضباط إلى مجتمعاتهم وعشائرهم لتشكيل وحدات من الجيش الأبيض تحت قياداتهم التقليدية. أدى هذا إلى تغيير طبيعة الحرب، وأثّر سلبًا على معنويات وانضباط المقاتلين، وأسهم في انهيار الحملة العسكرية المنظمة ضد النظام.

ثانياً، كان تأمين الدعم العسكري مسؤولية مشار المباشرة باعتباره زعيم الحركة، ولا يجب تركها لشخص آخر، مهما كانت علاقتهم

بـه: يعتمـد نجـاح مجهـوده الحـربي عـلى شراء المعـدات العسـكرية و توجـب عليـه ترتيـب اجتماعـات مـع الأصدقـاء والمتبرعـين المحتملـين. بـدلاً مـن ذلـك، قـضى مشـار معظـم وقتـه في اجتماعـات بـلا معنـى مـع صغـار التجـار ووكلاء العمولـة الذيـن لم يقبلـوا شروطـه الماليـة. لقـد أضـاع الكثـير مـن الوقـت في أديـس أبابـا أو في مقـره في «فقـاك» في الانخـراط في دبلوماسـية لا طائـل منهـا، تسـببت في تخريـب نفسـه وجهـوده للحصـول عـلى دعـم عسـكري. وبـدا أنـه قـرر تعزيـز دعـم الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان- في المعارضـة لمفاوضـات السـلام. لكنـه نـسي أن تأمـين الإمـدادات العسـكرية مهـم، بـل أكـثر أهميـة مـن الانخـراط في الأعـمال الدبلوماسـية، فهـي الـذي تمنحـه موقفًـا تفاوضيًـا أفضـل مـع الحكومـة.

يحتـاج القائـد أولاً إلى تأمـين دعمـه العسـكري، كوسـيلة لتعزيـز هجومـه الدبلومـاسي. أمـا توقـع قيـادة الحركـة - في المعارضـة موافقـة الرئيـس كـير عـلى تقاسـم السـلطة وإصـلاح نظامـه دون قـدر مـن التهديـد العسـكري، فقـد كان أضغـاث أحـلام. إن القـوة العسـكرية الضعيفـة للحركـة الوليـدة، بسـبب نقـص الإمـدادات، دفعـت قيادتهـم بقبـول أيّـا مـن شروط السـلام التـي يفرضهـا الوسـطاء. وقـد جعـل قبـول مشـار مفاوضـات السـلام مـن إعـلان تمـرده مجـرد نكتـة. وفي هـذا الصـدد، كان اتفـاق السـلام أرخـص وسـيلة لاسـتعادة منصبـه نائبًـا للرئيـس في ترتيـب تقاسـم السـلطة.

لم تكـن مفاوضـات السـلام بـأيّ حـال مـن الأحـوال سـهلة ومبـاشرة. اعتمـد مبعوثـو إيقـاد طريقـة التفـاوض مرهقـة، شـملت تنقلًا مسـتمرًا بـين الرؤسـاء بغـرض التشـاور. انقسـم الرؤسـاء وفقًـا لمصالحهـم الأمنية،

والاقتصادية، والسياسية في جنوب السّودان. وفي جلسة المفاوضات الرابعة (أغسطس 2014)، قدم المبعوثون الخاصون ثلاثة مقترحات إلى فرق التفاوض. الاقتراح الأول هو عدم مشاركة الرئيس كير ومشار في الحكومة الانتقالية. أثار هذا الاقتراح ضجة، لا سيما في صفوف الحركة - في المعارضة، بالنظر إلى أن الرئيس موسيفيني نسف المقترح داعمًا استمرار كير في منصبه[1]. الاقتراح الثاني هو أن يبقى كير في منصبه بينما يتولى مشار منصب رئيس الوزراء. اعتبرت قمة إيقاد أن هذا الترتيب غير مستقر[2]. الاقتراح الثالث هو أن يصبح مشار النائب الأول للرئيس بينما يحتفظ الرئيس كير ونائب الرئيس جيمس واني إيغا بمواقعهما، وهو الاقتراح الذي صادف موافقة، ومثل أساس بنود تقاسم السلطة في اتفاقية تسوية النزاعبجمهورية جنوب السّودان.

أثبتت نقطة مهمة أخرى أن مشار لم يكن مهتمًا بتغيير النظام والظروف التي حاقت بجنوب السّودان. فقد افتقر إلى التخطيط الاستراتيجي للحرب. من بين العوامل التي تهيئ ظروف النصر في الحرب هي تخريب المنشآت الاقتصادية للعدو. لا يحتاج قادة الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة محاضرات

(1) افترض الاقتراح أن كلا من كير ومشار سيقترحان ممثلين في عملية تقاسم السلطة في الفترة الانتقالية. في الحركة الشعبية في المعارضة، كان هناك حديث عن احتمال تعيين تعبان دينق وبدرجة أقل ألفريد لادو قوري لمنصب نائب الرئيس. أخذ تعبان التخمينات على محمل الجد، وأثار الأمر شهيته للسلطة، وتسبب في عرقلة سياسية ترجمها بوضوح في مؤامرة يوليو التي دبرها مع كير.

(2) يستند الاقتراح على تجربة الائتلاف الذي أسسه الرئيس موواي كيباكي وزعيم المعارضة رايلا أودينغا للتصدي للعنف الذي أعقب نتائج الانتخابات المتنازع عليها في كينيا (2008).

حـول هـذه الاسـتراتيجية الحربيـة المهمـة، ومشـار عـلى درايـة كبـيرة بفنـون الحـرب والأدب العسـكري. كان قائـدًا ناجحًـا في غـرب وشـمال أعـالي النيـل خـلال حـرب التحريـر الوطنـي. ويعـرف جيـدًا أن الحـرب ضـد كـير تتطلـب ضرب المنشـآت الاقتصاديـة الاسـتراتيجية لحرمانـه مـن المـوارد الماليـة والاقتصاديـة التـي تدعـم مواصلـة الحـرب. أعتقـد أن مشـار تـصرف عـن قصـد لكبـح هـذه الأفـكار، وهـذا يفـسر رفضـه بشـدة الاسـتراتيجية المقترحـة بمهاجمـة وإغـلاق حقـول النفـط في أدار. في الواقـع، مـن دون الأمـوال القليلـة التـي رشـحت مـن بيـع أو تبـادل النفـط مقابـل الوقـود في مومباسـا، لمـا اسـتطاع الرئيـس كـير متابعـة الحـرب لفـترة طويلـة: لـن يتمكـن مـن الدفـع لمرتزقـة حـركات دارفـور وألأوغنديـين. توجـب أن تكـون خطـوة مشـار الأولى بعـد إعـلان قيادتـه تمـرد هـي وقـف إنتـاج النفـط، الـذي لا يـزال مصـدر النظـام للعملـة الصعبـة. يبـين هـذا بوضـوح أن اسـتمرار النظـام في جوبـا لم يكـن بسـبب قوتـه السياسـية والعسـكرية، بـل نتيجـة مبـاشرة لضعـف الحركـة - في المعارضـة، وافتقـاره التفكـير النقـدي والاسـتراتيجي.

كان تفكـيرًا قصـير المـدى مـن لـدن مشـار وتعبـان دينـق عندمـا تآمـرا عـلى جونسـون أولونـج لمنعـه مـن السـيطرة عـلى حقـول النفـط بعـد أن اسـتولى عـلى ملـكال، وأكـوكا، وملـوط في مايـو 2015[1]. وقـد طالبـت شركـة النفـط الصينيـة العاملـة في الوحـدة وحقـول النفـط في عداريـيل أن يقـوم مشـار وتعبـان دينـق بأمـر الجيـش الشـعبي لتحرير

(1) تمـرد الجـنرال جونسـون أولونج ضـد الحكومة بعد اغتيال الجنرال جيمـس بوقو أوليو. أجرى اتصالات مع الحركة/ الجيش الشـعبي لتحرير السّـودان- في المعارضة، وشـن هجومًا أسـتولى فيه على ملكال والمناطق المحيطة بها، بما في ذلك ملوط. تفاجأ لاحقاً عندما علم أن مشار أمر بسحب عسـاكر النويـر مـن العمليـة، وهـي خطـوة أدت إلى فشـلهم في السـيطرة عـلى فلـوج وعداريـيل.

السّودان- في المعارضة بوقف العمليات العسكرية في هذه الحقول مقابل مبالغ ضخمة من المال، وأربعون شقة في مجمع سكني في العاصمة الكينية نيروبي. كان الفشل في الاستيلاء على حقول النفط أكبر ضربة وجهتها الحركة - في المعارضة لنفسها خلال الحملة السياسية والعسكرية في أعالي النيل. ترك هذا الأمر مرارة كبيرة في نفس الجنرال جونسون أولونج وقواته المعروفة بـ»أقواليك» إزاء قيادة الحركة، وكاد الأمر أن يسبب انقسام داخلي، كما دفعت أولونج إلى رفض إرسال قوات إلى جوبا كجزء من وحدة الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة، المنصوص عليها في الترتيبات الأمنية لاتفاق تسوية النزاع بجمهورية جنوب السّودان. لم يثبت الفشل في الاستيلاء على حقول النفط عدم الكفاءة العسكرية للجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة فحسب، بل شكّل هزة كبيرة لموقفها الحركة التفاوضي في محادثات السلام مع الحكومة.

ثالثاً، لم تنتظم الحركة - ولم تعمل بنفس الطريقة التي يعمل بها الحزب السياسي أو حركة التحرير. ركزت الحركة على التسلسل الهرمي العسكري والأنواط والأشرطة العسكرية، ونقلت العمل السياسي إلى أدنى الأولويات. ركز مشار على اجتماعات العشائر، حيث ناقش قضايا هامشية مثل قضايا الثأر بين العشائر وتعيين أعضاء السلطة التقليدية. تميل الاجتماعات العشائرية إلى إستدعاء أساطير النوير، بما في ذلك نبوءات نقوندينق، خاصة تلك التي تتناسب مع الحرب ضد الدينكا وقيادة مشار لجنوب السّودان التي طال انتظارها.

لم تتعلق هذه اللقاءات ببناء منظمة عسكرية سياسية حديثة هدفها المواجهة المباشرة مع النظام، أو تداول التحديات الاجتماعية، الاقتصادية، والسياسية المطروحة. هدفت هذه اللقاءات إلى طبع صورته كقائد في أذهان شعبه. من المفهوم الآن لماذا تجنب مشار كل فرصة لمناقشة المسائل التنظيمية والسياسية للحركة - في المعارضة. كانت هذه المناقشات ستضع موقفه من مسألة الديمقراطية والمؤسسات داخل الحركة في دائرة الضوء. فقد كان يؤمن أن قيادته لجنوب السّودان واقع حتمي وفقًا لنبوءة نقوندينق.

أولى مشار إهتمامًا خاصًا بالتمثيل على أسس مناطقية، وإثنيّة وعشائرية. كان يقضي ساعات طويلة في ذلك، ويختار الممثلين دون مراعاة المعرفة والجدارة. إن اختيار الأفراد في مناصب قيادية على أساس العشائر، والإثنيات، والمناطق، بدلًا عن الخبرة والمعرفة السياسية، أدى لظهور تماثيل سياسية ميتة في أعلى مستويات القيادة، بما في ذلك في مجلس التحرير القومي والمكتب السياسي، لدرجة إن أطلق أحد الزملاء على هؤلاء السياسيين الجدد صفة «السياسيون الأطفال». تمثلت مهامهم في تقديم الدعم غير المشروط لكل ما يقوله مشار، والاستهزاء، والاستهجان، ومعارضة كل من يختلف معه من أعضاء القيادة. انقلب التنظيم وممارسة الديمقراطية رأسًا على عقب، ما يؤكد منطق الحفاظ على السيطرة المطلقة في كل جوانب الحركة الذي ذكره يونق (2017: 36)

إن سلوك مشار في القيادة، وإصراره على الهيمنة الكاملة على الحركة، وعدم رغبته مشاركة سلطة الحركة، ألقت مرارًا وتكرارًا

بعقبات في طريق مأسسة الحركة الشعبية لتحرير السّودان- في المعارضة، التي قد تقوض سلطته و يتجلى افتقاره للرؤية، في غياب استراتيجيات عسكرية وسياسية مقنعة.

فضل مشار العمل والتفاعل مع متوسطيّ الموهبة السياسية، حتى يبدو في ثوب الأكثر دراية بحكم زعامته للحركة. ومعلوم ان هذا النوع من الزعماء لا يحقق انتصارات ونجاحات سياسية في مشوارهم القيادي.

على الجبهة العسكرية، أدى غياب أو عدم قدرة قيادة الحركة - في المعارضة على بناء معسكرات لتنظيم الجيش، في صنع قوات غير فاعلة و غير قادرة على القتال. عاد معظم الضباط والجنود الذين خاضوا المعارك الأولية إلى قراهم الأصلية، مثلما فعل أقاربهم في الجيش الأبيض. لم توجد جبهة منظمة، وكانت معظم المعارك مجرد محاولات من أشخاص لرد هجمات قوات العدو عندما تتقدم لاحتلال مواقع المعارضة. استغرق الأمر بعض الوقت حتى يقوم مشار، القائد العام، بتعيين قائدًا للجيش. واختار في ذلك الضابط الأقدم، وهو الجنرال سايمون قاروبج دوال، الذي انتظم في صفوف المقاومة في وقت متأخر إلى حد ما. كان الجنرال بيتر قديت هو من قاد التمرد في بور، وأثبت مهارات قيادية عظيمة مقارنةٍ بالجنرال سايمون قاروبج. لم يكن مشار متأكدًا تمامًا حينها من ولاء قديت، بينما كرهه تعبان دينق. بدأ وجود أعداد كبيرة من أفراد الجيش الأبيض غير المفوضين، والتعيينات والترقيات القائمة على العشائر، تشكل تحديًا كبيرًا لتنظيم الجيش. في النهاية، عيّن مشار الجنرال سايمون قاروبج رئيسًا لهيئة الأركان العامة للجيش.

مـدد مشـار إقامتـه في أديـس أبابـا، وقـام بجـولات داخـل الإقليـم وخارجـه، بمـا في ذلـك جنـوب أفريقيـا لإجـراء استشـارة طبيـة في العيـون، بينـما أمـر كبـار جـنرالات الجيـش وقـادة القطاعـات بالتوجـه لمنطقـة فقـاك. كان هـذا قـرارًا خاطئًـا، أسـهم في ظهـور مخـاوف خطيرة وسـط الجـنرالات، حيـث وجـدوا أنفسـهم يعملـون في بيئـة تفـرض عليهـم إعالـة أنفسـهم ومرؤوسـيهم، لأن القيـادة العامـة لم تُزودهـم بالمـؤن. لم يكـن قـرارًا حكيـمًا مـن مشـار إحضارهـم إلى فقـاك حيـث لم يكـن هنـاك شيء يفعلونـه. وفي نهايـة المطـاف تسـبب هـذا الفـراغ في ظهـور أزمـة ثـم انشـقاق بعـض الضبـاط، مـن بينهـم الجـنرالات بيـتر قديـت، قرهـوث قاتكـوث؛ وسياسـيين مثـل تيمـوثي تـوت، مايـكل ماريـو دور، وغابرييـل يـوال دوك و توجههـم لمدينـة جوبـا.

الصراعـات الداخليـة الإيديولوجيـة، والسياسـية، وحتـى الشـخصية، أمـرٌ لا مفـر منـه في أيّ حـزب أو حركـة سياسـية، خاصـة عندمـا تفشـل قيادتهـا في الاهتـداء بمبـادئ تنظيميـة ذات طبيعـة تقدميـة وديمقراطيـة. نشـأت معظـم النزاعـات في الحركـة الوليـدة مـن محاولـة التنظيـم عـلى غـرار تشـكيلات الحـرب التقليديـة للنويـر، وأسـاطير النويـر المرتبطـة بنبـوءة نقوندينـق، والتـي تتعـارض مـع الطابـع متعدد الإثنيـات لمجتمعـات جنـوب السّـودان. في الواقـع، كان مقـدرًا للحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان- في المعارضـة ان تبقـى حركـة نويراويـة لـولا الصراعـات التـي أسـهم النظـام في نشـوبها وأدت إلى تمـرد جونسـون أولونـج وقـوات أقواليـك في مايـو 2015، وكذلـك القـادة العسـكريين الآخريـن في الاسـتوائية وغـرب بحـر الغـزال. هـؤلاء هـم مـن منـح الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان- في المعارضـة

فرصـة الاسـتمرار[1].

هـذا يقـودني إلى الاسـتنتاج بـأن إعـلان مشـار عـن تمـرده كان تضليـلاً، بـل واحتيـالًا بقصـد اسـتغلال فرصـة مـا أسـميته أعـلاه سـلعنة التمـرد. في كتابـه الأخـير عـن القـرن الأفريقـي يتحـدث أليكـس دي وال عـما أطلـق عليـه «السـوق السـياسي» في المناطـق التـي يسـيطر عليهـا المتمـردون (De Waal, 2015: 16) ارتبـط إعـلان مشـار قيـادة تمـرد ضـد نظـام كـير تلقائيـاً في أذهـان العديـد مـن النويـر بمحاولته الفاشـلة للاسـتيلاء عـلى قيـادة الحركـة عـام 1991. لقـد أدى التمـرد إلى ربـط شـعب النويـر بمغامـرات مشـار مـرة أخـرى. هـذه المـرة مـن خـلال تـوازن دقيـق ومعقـد بـين المحسـوبية السياسـية وسـلعنة التمـرد. مثّـل التمـرد ضـد كـير «فرصـة اقتنـاص السـلطة»، توفرهـا حركـة مشـار عـبر توزيـع الرتـب العسـكرية في الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان- في المعارضـة، ومـن «الحقائـب الوزاريـة» التـي سـيتم توزيعهـم في الحكومـة المسـتقبلية بعـد التوقيـع عـلى اتفاقيـة سـلام. توقفـت الحركة الشـعبية- في المعارضـة عـن كونهـا حركـة تحريـر، وهـي الآن ليسـت سـوى سـوق سياسـية، تمثـل فيهـا «فرصـة اقتنـاص السـلطة» المتأصلـة في التمـرد ضـد الحكومـة وليـس المـال وسـيلة التبـادل. يدعـم المـرء مشـار مقابـل الحصـول عـلى رتبـة في الجيـش أو منصـب وزاري، والـذي سـيصبح سـاري المفعـول بمجـرد إبـرام اتفـاق سـلام لتقاسـم السـلطة وأختيـار مشـار النائـب الأول للرئيـس.

(1) معظـم مـن انضـم إلى الحركـة الشـعبية- في المعارضـة مـن إثنيـات غـير النويـر كان هدفهـم المناصـب. مـن الصعـب تصديـق أن زعيـمًا مثـل ألفريـد لادو-قـوري أنضـم طوعًـا: كان عـلى النويـر حملـه طـوال الطريـق إلى بانتيـو، حيـث توجـب عليـه السـفر إلى أديـس أبابا ليُعـين نائبًا للرئيـس. ويشـمل الباحثـين عـن السـلطة كل مـن الدكتـور ضيـو مطـوك، ودينـق وول، وآخريـن.

أستغل مشار «فرصة اقتناص السلطة» المتأصلة في استمرار وجود الحركة - في المعارضة، على الرغم من ضعفها السياسي والعسكري، وضعف مركزه كقائد. ومن سجنه في جنوب إفريقيا، حافظ مشار على التواصل هاتفياً مع الميدان، مفضلاً التحدث مباشرة إلى الضباط الصغار بدلاً من كبار قادتهم، بهدف غرس الولاء وسطهم. كما استمر في إجراء تغييرات منتظمة في القيادة. ترقيات وتعيينات وهمية في هيكل السلطة في محاولة لتحقيق التوازن بين تمثيل عشائر وأقسام النوير. خلق هذا ارتباكًا وإحباطًا في صفوف قواته، ومكن العدو من تحقيق تقدم في مقر قيادة الحركة في مناطق لو نوير (فقاك، واط).

فشل سلام إيقاد

امتـدت محادثـات السـلام التـي توسـطت فيهـا إيقـاد لمـا يقـرب مـن ثمانيـة عـشر شـهرًا مـن المفاوضـات المتقطعـة بسـبب الضغـوط والابتـزازات. أدى تأكيـد الرئيـس موسـيفيني اسـتمرار دعمـه السـياسي والدبلومـاسي للرئيـس كـير إلى رفـض الأخـير التوقيـع عـلى اتفاق تسـوية النـزاع بجمهوريـة جنـوب السّـودان (ARCISS) في 17 أغسـطس 2015، بينـما رأت الحركـة - في المعارضـة ضرورة توقيـع مشـار عـلى الاتفاقيـة. لم يـأتي هـذا الإصرار بسـبب مخاطبـة الاتفاقيـة للمشـاكل الأساسـية التـي أشـعلت الحـرب، أو لأن التوقيـع جـاء بأفضـل مخرجـات اتفـاق تفـاوضي، بـل لأن مشـار لم يكـن قـادرًا عـلى التـصرف عـلى طريقـة كـير ورفـض التوقيـع. لم تملـك الجيـش الشـعبي - في المعارضـة القـدرة عـلى مواصلـة القتـال. عـلاوة عـلى ذلـك، فـإن الصراعـات والارتبـاك الداخـلي الناشـئ عـن توتـر العلاقـات الاجتماعيـة السياسـية بـين كل مـن مشـار، وتعبـان دينـق، ومـدام أنجلينـا تنـج، إنعكسـت عـلى قيـادة الحركـة. وهكـذا رأى بعضنـا في القيـادة أن الاتفاقيـة خيـارًا أفضـل، لأنها تتيـح فرصـة النضـال السـياسي في غيـاب الخيـار عسـكري، خصوصـاً مـع غيـاب رؤيـة إسـتراتيجية موجهـة للحركـة.

بعـد أسـبوعين وقـع الرئيـس كـير عـلى اتفاقيـة تسـوية النـزاع بجمهوريـة جنـوب السّـودان، مـع تحفظـات ترقـى إلى حـد انتهاكهـا. كان مـن الواضـح، كـما شرحـت أعـلاه، أن كـير لم يرغـب في عـودة مشـار إلى جوبـا، ناهيـك عـن تقاسـم السـلطة معـه. لقـد فعـل كل مـا بوسـعه

لتأخير تنفيذ الاتفاق. وفي 2 أكتوبر 2015، أسقط الرئيس قذيفة في شكل مرسوم رئاسي، قسّم بموجبه جنوب السّودان إلى 28 ولاية. لم يكن المرسوم الرئاسي 36/2015 انتهاكًا صارخًا للاتفاقية فحسب، بل صفعة في وجه فكرة مشار القاضية بعدد 21 ولاية. كنا قضينا وقتًا في مناقشة قضية الولايات على أساس التقسيم الاستعماري القديم إلى ثلاث أقاليم، بينما أصر مشار على صيغة 21 ولاية. لم يكن يهمه سوى أن يستولى على منطقتي الدينكا في بالييت والرنك، اللتان أراد ضمهما إلى الناصر وإعادة تسميتهما السوباط وعدار على التوالي. وهي خطوة أثارت حفيظة دينكا فدانق، ودفعتهم لتمرير فكرة 28 ولاية التي نفذها الرئيس كير.

كان إنشاء وتفعيل مؤسسات تنفيذ الاتفاقية مرحلة صعبة أخرى اتسمت بالاجتهاد، وإعادة التفاوض، والتفسير، والمناورة بين الأطراف. انقضت مدة الفترة قبل الانتقالية دون تكوين المفوضيات الرئيسة. من جانبهم، لم يكن بمقدور مبعوثي إيقاد الخاصين، وضامني السلام، والاتحاد الأفريقي، والأمم المتحدة، والترويكا، والرئيس الجديد للجنة التقييم والرصد المشتركة، رئيس بتسوانا السابق فستوس موقاي، فلم يكن بمقدورهم فعل شيء، سوى حثّ مشار على الانتقال إلى جوبا والعمل على حلّ جميع القضايا العالقة، باعتباره جزءًا من الحكومة الانتقالية للوحدة الوطنية.

دخلت الحركة - في المعارضة في دوامة أخرى من أزماتها الداخلية، لأنها لم تكمل بعد تنظيمها الداخلي. لم تكن هناك سلطة تشريعية للتصديق على الاتفاق، وأمين عام لإدارة أنشطة الحركة المختلفة، والتي كانت حتى الآن من اختصاص مشار. كان هناك

صراع على القيادة وفي تكوين وفد المقدمة. بدأت بذور الفوضى تنمو، وقادت في النهاية لانقسام القيادة، وطرد مشار من جوبا بعد شهرين فقط من بدء تنفيذ الاتفاقية. لم يكن من الطبيعي أن يقود تعبان دينق قاي وفد المقدمة في حضور نائب رئيس الحرك، ألفريد لادو قوري. لكن الأمر مفهوم، ويعكس طبيعة العلاقات الثلاثية المذكورة سابقًا بين مشار، وتعبان دينق، ومدام أنجلينا تنج. مكنت هذه المهمة تعبان دينق من إبرام صفقات مع الرئيس كير، وسرعان ما ظهرت نتيجتها بتاريخ 8 يوليو 2016، في شكل قتال داخل القصر الرئاسي، بين الحراس الشخصيين لكير ومشار.

رفض الزعماء الإقليميون، تحت ضغط المبعوث الأمريكي الخاص دونالد بوث، وضع تحفظات على الحركة - في المعارضة، فيما يتعلق بالقضايا التي فشل وفد المقدمة في معالجتها مع حكومة سلفا كير. وشملت هذه المسائل تسليح وعدد القوة العسكرية التي سترسل إلى جوبا. فشل وفد المقدمة أيضًا في الاتفاق على ست نقاط حاسمة قبل تضمين الاتفاقية في الدستور الانتقالي لعام 2011، كشرط لبداية مشروع قانون دستوري للعام 2016، والذي سيكون أساس عمل حكومة الوحدة الوطنية الانتقالية. وفي اجتماع بتاريخ 31 يناير 2016، لم يطرح رئيس لجنة الرصد والمتابعة، فستوس موقاي، سوى وعده وفد المقدمة بحل المسائل العالقة بعد تشكيل الحكومة.

كان قرار وسطاء السلام بترك القضايا العالقة حتى تشكيل الحكومة الإنتقالية للوحدة الوطنية يعني أن وسطاء السلام،

والضامنين، والمجتمع الدولي، يهربون من مسؤولية تنفيذ وفرض الاتفاق بالروح والنص. يمكن إستنتاج شيئين من هذه الخطوة: أولاً، ازدراء ريك مشار من جانب القادة الإقليميين، خصوصًا مع اعتقاد كثيرين أنه بلا قضية، وبالتالي، لم يظهروا أي تعاطف معه، بل انسحبوا من إكمال واجبهم، في وقت كان للرئيس كير اليد العليا في تنفيذ الإتفاقية. لم يترك هذا الوضع أي خيار: كان على الحركة الشعبية- في المعارضة أن تناور سياسيًا ودبلوماسيًا للخروج من هذه الورطة. وكان مشار أمام خيارين: رفض الترتيب القاضي بتأجيل حل القضايا العالقة حتى تشكيل الحكومة، أو قبول الوضع على خطورته والسفر إلى جوبا. في 26 أبريل، أدى مشار اليمين الدستورية نائبًا أول للرئيس، وبعد ثلاثة أيام، في 29 أبريل، أدى الرئيس كير القسم قبل إجازة الدستور الإنتقالي لجنوب السّودان للعام 2016، والذي ينبغي أن يكون الأساس الدستوري والقانوني لحكومة الوحدة الوطنية الانتقالية. ستعمل الحكومة إذن دون دستور، أو بدستور 2011 المعدل في عام 2015 بهدف تمديد فترة ولاية كير. كان من الواضح أن الاتفاقية مهددة بعدم الإستمرار. وكانت علامات الغضب، والكراهية، وانعدام الثقة بائنة في وجوه ولغة جسد القادة.

كان وفد المقدمة في حالة اضطراب بسبب الصفقات السرية التي عقدها قائدهم تعبان دينق مع الحكومة. وشمل ذلك خرق الإجراءات المنصوص عليها بوضوح في الاتفاق فيما يختص بتوزيع الحقائب الوزارية بين الطرفين. أبرم تعبان صفقة مع نيال دينق لتمكين الحركة - في المعارضة من الفوز بحقيبة النفط لأنه أراد

الـوزارة لنفسـه. تفجـر الخـلاف بعـد رفـض مشـار تسـمية تعبـان وزيـرًا للنفـط، وبـدأت مـؤشرات الغليـان في فقـاك. كان ينبغـي عـلى مشـار أن يتـصرف بشـكل اسـتراتيجي، ويفـوت عـلى كـير وتعبـان فرصـة إجهـاض الإتفاقيـة. ولـو أنـه منـع إنشـاء تحالـف كـير- تعبـان، عـبر منـح الأخـير وزارة النفـط، لنجـح مشـار في وقـف الانهيـار المبكـر لحكومـة الوحـدة الوطنيـة الانتقاليـة والاتفاقيـة. تسـبب طمـوح تعبـان دينـق الجامـح في السـلطة، وغضبـه الشـديد بعـد حرمانـه مـن حقيبـة النفـط، في زيـادة حـدة الـصراع بـين مشـار والرئيـس كـير، وسرّع مـن وقـوع الكارثـة. إنّ تكلفـة منـح وزارة النفـط لتعبـان أقـل بكثـير مـن حرمانـه منهـا، طالمـا يضمـن حرمـان كـير مـن فرصـة خـرق الاتفاقيـة، ونشـوب قتـال الحـرس الرئـاسي في يـوم 8 يوليـو 2016، الـذي أسـفر عـن مـوت 400 ضابـط وجنـدي، ومـا تبعـه مـن هجـوم واسـع النطـاق عـلى مواقـع الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان- في المعارضـة بجبـل كجور في 10 يوليـو، ثـم الانهيـار التـام للحكومـة والاتفاقيـة، وبـدء الحـرب مـن جديـد. كانـت هـذه النهايـة المنطقيـة لعمليـة سـلام ليبراليـة في ظـلّ الظـروف الوطنيـة والإقليميـة السـائدة. يمكـن للمـرء افـتراض أن تلـك الأحـداث، والأربعـين يومًـا وليلـة التـي قضاهـا مشـار في ملاحقـة عسـكرية أثنـاء هروبـه إلى حـدود جمهوريـة الكونغـو الديمقراطيـة، قـد أنهـت إيمانـه بـأن اتفاقيـة السـلام هـي الحـل للنـزاع في الجنـوب السّـودان. لكـن لم يكـن هـذا هـو الحـال. ظـلّ إيمـان مشـار بـضرورة صنـع السـلام مـن خـلال المفاوضـات ثابتًـا. ورغـم ذلـك، ظـل يتـصرف كمحـارب، وينـشر بيانـات الحـرب، دون القيـام بمـا يتوافـق مـع هـذه البيانـات.

إن خطـوة تعبـان دينـق قـاي بإشـعال الحـرب لمجـرد أن مشـار حرمـه مـن حقيبـة النفـط في حكومـة الوحـدة الوطنيـة الانتقاليـة أمـرًا لا يغتفـر عـلى الإطـلاق. كـما أن ظهـور اسـم تعبـان دينـق ضمـن مـن أشـعلوا فتيـل 2013، ومـا حـدث في يوليـو 2016، يظهـر انـه مـن الطبيعـي الاعتقـاد أن لـه دور في التحريـض عـلى النـزاع بـين النويـر والدينـكا. ويُذكـر أيضًـا أن الرئيـس كـير كان قـد فصلـه في وقـت سـابق مـن منصـب حاكـم ولايـة الوحـدة. ولا أحـد يعلـم مـا إذا كان الفصـل مرتبطًـا بمزاعـم مـا قالـه للرئيـس، أو كانـت خدعـة وطعـمًا لإثـارة الحـرب. وهـو مـا يتطلـب مزيـدًا مـن التحليـل. لكـن كلا السـيناريوهين يؤكـدان أن تعبـان دينـق قـد يفعـل أي شيء لتحقيـق أهدافه السياسـية والعسـكرية.

منتدى إيقاد رفيع المستوى لتنشيط إتفاقية السلام

تحولت الاستفزازات الخطيرة التي أثمرت عنها مناوشات القصر بسرعة إلى حرب شاملة وقودها المدفعية، والدبابات، وطائرات الهليكوبتر الحربية، معلنة تجدد القتال بين الجيش الشعبي وقوات الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة. كان واضحًا أن اتفاقية تسوية النزاع قد انهارت، وأن حلّ الأزمة يتطلب اتفاقًا جديدًا أو توسّع نطاق الحريق. ورغم وجود أعضاء من أحزاب أخرى في الحكومة - المعتقلون السابقون في الحركة الشعبية لتحرير السّودان وأحزاب التحالف الوطني - لكن ذلك لم يمنح حكومة كير- تعبان تمثيلًا وطنيًا حقيقيًا. كما لم يكن إصرار رئيس لجنة الرصد و المتابعة المشتركة، الرئيس موقاي، أن الاتفاقية لا تزال قيد الحياة كافياً لإحلال السلام. فقد واصلت الحكومة هجماتها العسكرية ضد الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة، وسيطرت على بعض مواقعها، لا سيما في الضفة الغربية من أعالي النيل. لو اعترف موقاي بانهيار الاتفاقية بعد الانتهاكات المتكررة، لربما عملت الإيقاد والمجتمع الدولي بجدية لإنقاذها. كان الجيش الحكومي يسعى لحسم الجيش الشعبي - في المعارضة نهائيًا. أدى هذا إلى تصعيد غمر جنوب السّودان كله في حربًا إثنيّة. ظهرت المعارضة السياسية والمسلحة حتى في المناطق السلمية حينها، في الاستوائية وغرب بحر الغزال، ومع تزايد

انتهاكات الحكومة لإتفاق السلام، تدهور الوضع الإنساني بشكل أكبر. في يونيو 2017، اعترف الرئيس موقاي أن الإتفاقية معطوبة بشدة، لكنها لم تمت بعد. وهو تصريح أقرب للسخرية الخبيثة، خصوصاً مع الوضع في الإعتبار أن تفويضه يجعله شاهدًا عن إيقاد، والاتحاد الأفريقي، والأمم المتحدة، والمجتمع الدولي. وهو ملزم أن يعبر بصدق عما يحدث في جنوب السّودان. جاء تصريحه ذلك في وقت كانت فيه القوات الحكومية تقتل الأبرياء، وتدمر قراهم، ومزارعهم. وفي وقت كان حوالي مليون شخص يرحلون جنوبًا سيرًا على الاقدام إلى أوغندا لإنقاذ حياتهم. ومع ذلك، اقترح موقاي برنامجًا «لتنشيط» إتفاقية 2015.

جاء منتدى إيقاد رفيع المستوى لتنشيط إتفاقية السلام، بين حكومة جمهورية جنوب السّودان وجماعات المعارضة المكونة من أحد عشر جسمًا، دون مفاهيم أو أطر استراتيجية واضحة. ولا بد أن أحد مراكز البحث التابعة للدينكا ورائها: معهد سود أو مركز إيبوني، ثم فرضه الرئيس كير على المبعوث الخاص للإيقاد، السفير إسماعيل وايس، الذي لم يتمكن حتى من تحديد معنى التنشيط، ليوافق عليه قبل تنفيذه. لم تتمكن إيقاد ولا الترويكا من شرح كيف يمكن تنشيط إتفاقية دون مشاركة الموقِّع الرئيسي، أيّ الدكتور ريك مشار. لم ينفذ الطرفان، ولا سيما الجيش الشعبي لتحرير السّودان، أولى قرارت المنتدى القاضية بوقف الأعمال العدائية. كما فشلت الجلسة الثانية فشلًا زريعًا بعد رفض الوفد الحكومي التوقيع على المبادئ. في الجلسة التي عقدت في مايو 2018، قدم مبعوثو إيقاد الخاصين إلى الأطراف ما أسموه

«مقترح تجسير»، وهو ليس أكثر من نسخة عن موقف الحكومة من تنشيط الاتفاقية. رفضت الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة وتحالف المعارضة (SSOA) المقترح. المثير للدهشة كان رفض الوفد الحكومي عرض إيقاد الذي لا يختلف في شيء عن موقفها.

جاء ذلك على خلفية زيارة الرئيس موسيفيني إلى جوبا (بعد اجتماع دام سبع ساعات مع وفد الحركة - في المعارضة) لحضور اجتماع مجلس التحرير الوطني للحركة الشعبية لتحرير السّودان، الذي دعي خصيصًا لمناقشة إعادة توحيد الحركة الشعبية وتنفيذ اتفاقية أروشا. كان هدف فكرة إعادة توحيد الحركة الشعبية لتحرير السّودان، وتأجيلها لمدة 45 يومًا، هو إعاقة محاولات مجلس وزراء إيقاد إطلاق سراح مشار من الإقامة الجبرية في جنوب إفريقيا للمشاركة في عملية السلام التي تم تنشيطها. ومن الممكن استنتاج أن خطوات إعادة توحيد الحركة الشعبية عبر إتفاقية أروشا هي محاولة من كير وموسيفيني لنسف نجاح منتدى تنشيط الاتفاقية رفيع المستوى.

يقودني هذا إلى استنتاج مفاده، أن الوضع الرهيب الذي يعيشه جنوب السّودان وشعبه، هو نتاج سياسات النخبة السيئة. يحتاج قادة جنوب السّودان - القادة الوطنيون الحقيقيون وليس السياسيون الأنانيون - للنهوض ومعالجة هذا الوضع الفظيع. أما من يتسبب السلام والاستقرار في خسارة مصالحهم، ممن نراهم الآن يتسربلون ثوب دُعاة السلام، لن ينالوا جهدهم في عدم تحقيق السلام.

إصرار كير ومشار على تدمير البلاد

مـن الناحيـة النظريـة، تحـدث الحـرب بـين زعيمـين يمثـلان جانبـين في الــصراع ولا ينبغــي ان تندلــع الحــرب إلا بعــد اســتنفاد جميــع السُــبل الممكنــة لحــل خلافاتهــما. مــن متابعــة المشــهد الســياسي بجنـوب السّـودان، يبـدو أن الحـرب الأهليـة الحاليـة بـدأت كنـزاع بـين الرئيـس سـلفا كـير ميارديـت ونائبـه السـابق الدكتـور ريـك مشـار. لكـن النظـرة الفاحصـة تضطـر المـرء إلى طـرح سـؤال بـريء حـول مـا إذا كان الزعيـمان يمثـلان قطبـي الـصراع الـذي أشـعل فتيـل الحـرب. شـخصياً سـأجيب بالنفـي. يـأتي كـير ومشـار مـن نفـس قطـب الـصراع الـذي يضعهـم ضـد شـعب جنـوب السّـودان. المشـكلة في جوهرهـا هي خلافـات أيديولوجيـة داخـل الطبقـة الرأسـمالية الطفيليـة التـي يمثـل كلٌّ مـن كـير وريـك قمتهـا. الاختلافـات بـين الرجلـين شـخصية، لكـن تـم تصويرهـا زورًا كجـزء مـن التنافـس التاريخـي بـين الدينـكا والنويـر. وهنـا تكمـن وجهـة النظـر اليمينيـة الخاطئـة والمعتـادة للسياسـة.

أعتقــد أن الزعيمــين في علاقــة حــب - كراهيــة، مــما يجعــل كل منهــما يُعــرف نفســه في مــرآة الآخــر بطريقــة ديالكتيكيــة للــصراع بــين الأضــداد. يحتــاج كل مــن كــير ومشــار إلى بعضهــما البعــض. يعـرف الرئيـس كـير ويـدرك موقـف مشـار المتغطـرس المثـير للشـفقة وشــخصيته الســاذجة. ولهــذا عــرف مشــار أنــه في خطــر أقــل مــن قـادة الصـف الأول في الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان. يريـد كـير، لأغـراض نفسـية مرتبطـة بتاريـخ حـرب التحريـر الوطنـي، شـخصًا

مثل مشار ليكون ظله. ربما أراد كير أن يثبت أن بمقدوره أيضًا إدارة القتال وكسب المعارك. من الجدير بالذكر أنه بصفته قائدًا للجيش الشعبي لتحرير السّودان لم يفز كير أبدًا في معركة إبان فترة التحرير: كلما كُلف بقيادة معركة، جاءت النتيجة كارثية على الجيش الشعبي[1]. من ناحية أخرى، يحتاج مشار إلى كير رئيسًا له. ولأنه مدركًا لنقاط ضعفه السياسية والقيادية، يرغب مشار في البقاء مختبئًا وراء نقاط ضعف كير من أجل البقاء في السلطة. لا يريد أن يكون المسئول الأول حتى لا يتعرض للنقد. فقد عُرف عن مشار تجنبه الدائم تحمل اللوم على إخفاقاته. يمثل الزعيمان أسوأ تحالف للسذاجة وعدم الكفاءة السياسية في الحركة الشعبية لتحرير السّودان، وهما على استعداد للتضحية بالبلاد من أجل سياساتهما الإثنيّة. إن الحرب الأهلية التي تدور رحاها الآن، هي تعبير عن سعي الرجلين للعظمة، وطموحاتهما الشخصية الضيقة.

كان الاثنان في حالة إنكار دائم لوجود مشاكل خطيرة بينهما، رغم أن مواقفهما وأفعالهما تجاه بعضهما البعض تعكس ذلك. في الفترة التي سبقت المؤتمر القومي الثاني للحركة الشعبية لتحرير السّودان 2008، كان من الواضح للجميع أن كير قد قرر إبعاد مشار من التسلسل للقيادة، ومع ذلك، نفى الاثنان وجود مشكلة بينهما. مرة أخرى، في أبريل 2013، قام الرئيس كير، في تحول دراماتيكي للأحداث، بسحب السلطات المفوضة لنائبه مشار. وكان أن سارع قادة الحزب من أجل حل المشكلة، والتوفيق بين الزعيمين قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة. في لقاء مع اثنين

(1) بيبور (1984)، وورومبيك (1988)، والكرمك (1990-1991).

مـن الاسـاقفة والزعيـم السـابق أبيـل ألـير، أصرّ الزعيـمان عـلى أنـه لا توجـد بينهـما أي مشـاكل. ومعلـوم إنّ محاولـة حـل مشـكلة مـا دون الإعـتراف بوجودهـا لا تتعـدى مطـاردة الـسراب.

مـن هنـا جـاءت ضرورة تهدئـة الرجلـين مـن أجـل إنقـاذ شـعب جنـوب السّـودان مـن التدمـير الـذاتي. لكـن ثبـت أن هـذا خيـار غـير عمـلي، إن لم يكـن مسـتحيلًا، نظـرًا للطابـع غـير الديمقراطـي للحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان، وتـدني مسـتوى الوعـي السـياسي، مـما جعـل مـن المسـتحيل إيجـاد طريقـة عقلانيـة لحـل الخـلاف دون إثـارة النـزاع الـذي ادخـل الحـزب والبـلاد في حيـص بيـص: تحمُّـل قيـادة الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان الفاشـلة أو خطـر الـصراع والحـرب. دفـع هـذا الوضـع بعضنـا إلى مناقشـة هـذه المسـألة أولاً مـع مشـار، إذا رأينـا أنـه كرجـل مثقـف، سـيدرك قيمـة الحـدث، ويفكـر فيـه بعمـق، وربمـا يكـون أول مـن يضحـي مـن أجـل إنقـاذ البـلاد. لكنـه لم يكـن.

قبـل سـنوات، في ديسـمبر 2011، عرضـت حكومـة جمهوريـة كينيـا اسـتضافة وزراء حكومـة جمهوريـة جنـوب السّـودان لفـترة أربعـة أشـهر. ومـن المعـروف أن كينيـا مسـاهمة في اسـتكمال اتفاقيـة السـلام الشـامل، وبالتـالي، ولادة جنـوب السّـودان دولـة مسـتقلة ذات سـيادة. مـن المرجـح أن أعضـاء الحكومـة الكينيـة، برئاسـة مـواي كيبـاكي، شـاهدوا الأداء دون المسـتوى لحكومـة جنـوب السّـودان، وأخـذوا عـلى عاتقهـم محاولـة تصحيـح الوضـع ومسـاعدة حكومـة الجمهوريـة الفتيـة في تحسـين أدائهـا. كانـت فرصـة جيـدة لأول حكومـة في جنـوب السّـودان لتعلُّـم تعقيـدات العمـل التنفيـذي. أتاحـت لي الإقامـة في مومباسـا فرصـة لقـاء مشـار، ومناقشـته مسـألة يعتقـد بعضنـا أنهـا

تستحق المزيد من الاهتمام من جانب القيادة العليا للحركة الشعبية لتحرير السّودان. بعضنا ممن جاءوا وزراء في حكومة ما بعد الاستقلال في جمهورية جنوب السّودان كانوا قد قضوا جلّ الستّ سنوات من عمر الفترة الانتقالية في الخرطوم بحكم مناصبهم في حكومة الوحدة الوطنية. لذا لم يكن لدى معظمنا سوى فُرص ضئيلة للمشاركة على مستوى جنوب السّودان.

واحدة من هذه الأمور المهمة كانت العلاقة بين مشار والرئيس كير. بطبيعة الحال، تعد علاقة العمل الجيدة بين الرئيس ونائبه ذات أهمية قصوى في تناغم الحكومة واستقرار الدولة. بالنظر إلى تاريخ الحركة الشعبية لتحرير السّودان، والتنافس الإثنيّ في جنوب السّودان، كان من المهم والضروري أن يطور كير ومشار علاقات عمل جيدة لتمكين جنوب السّودان من الانتقال إلى دولة وأمة مستقرة ومسالمة. دفعني هذا إلى مناقشة مشار فكرة ترك العمل التنفيذي في الحكومة للرئيس كير، بينما يتولى هو ويركز اهتمامه على العمل السياسي وبناء الحركة الشعبية. كانت هذه محاولة لتبسيط وتحديد أدوار القيادة العليا للحركة. يركز الرئيس كير على الوظائف التنفيذية للحزب في الحكومة، والرفيق جيمس واني إيقا على الوظائف التشريعية للحزب في المجلس التشريعي لجنوب السّودان، بالإضافة إلى الوظائف التشريعية لمجالس الولايات، بينما يضع مشار كل طاقته في بناء الحزب وأجهزته على المستويات المختلفة، ويتولى الأمين العام الرفيق فاقان أموم المهام الإدارية للحزب. كانت الفكرة من توزيع المهام هذه هي تخفيف حدة التوتر والاحتكاك، الذي تتسبب به شخصية مشار المتغطرسة، في

كل مناسبة، كبيرة أو صغيرة، يحضرها الرئيس. كانت الفكرة هي تطييب النفوس وتقليل احتمالات الاصطدام أو الصراع.

لسوء الحظ، لم يستطع مشار تقدير القلق البالغ الذي أظهرناه حول طبيعة علاقة العمل السيئة بينهما. ولدهشتي، لم يتحمل مشار ولم يرحب بحديثي. كان يتوقع مني أن أتحدث باستخفاف ضد كير، وقول ما قد يستخدمه في دعم محاولته بلوغ القيادة. عرفتُ مشار منذ أيام الدراسة الجامعية، لكنني تعرفت عليه بشكل أفضل في الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان، خاصة بعد إعلان الناصر في عام 1991، ولم أتصور أنه قد يقف ضد فكرة تحول الحركة الشعبية إلى حزب سياسي قادر على دفع عمليات الهندسة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية في جنوب السّودان.

كان من الواضح أن الحالة التي أنتجت صراع 2008 لا تزال ماثلة في الحركة الشعبية، وكذلك في المجتمع. كانت السياسة الإثنيّة تلوث المناخ الاجتماعي والسياسي، ولا يبدو أن أحدًا يهتم. في مثل هذه الأوضاع يجب على القادة الكبار أن يأخذوا على عاتقهم تفادي وقوع كارثة. من هنا كان واجب كير ومشار التصرف بحكمة، وتجنب إنفجار بركان العنف في عام 2013. ورغم عزله من منصب نائب الرئيس، وغض النظر عن نظرته في أن القرار هو عداء شخصي أو خلاف ذلك، كان ينبغي على مشار فهم أن عزله لا يعني بالضرورة نهاية حياته السياسية، وأن الدولة أكبر وأكثر أهمية من أي فرد أو مجموعة أفراد وان شعب جنوب السّودان في مجمله أكثر أهمية من أي شخص أو مجموعة من القادة. لذلك، سيكون من غير المعقول التضحية بالشعب في حرب أو صراع لإبقاء فرد في

السلطة. في هذا الصدد، كان على مشار، الذي اعتبر نفسه مظلومًا، أن يأخذ زمام المبادرة لمخاطبة أسباب الغضب التي أجبرت كير على طرده من الحكومة. وإذا أعدنا صياغة ماو تسي تونغ، يمكننا القول أنه في الطبيعة، كما في المجتمع، الأضعف هم من يجب عليهم الاستسلام لإنقاذ أنفسهم، أو التراجع بغرض التقدم لاحقاً. أُؤمن بما لا يدع مجالا للشك، أنه كان بإمكان مشار منع الصراع الذي اندلع في ديسمبر 2013 في حال تجاوز كبريائه وشرع في حوار مع كير على مستوى الحركة الشعبية لتحرير السّودان، أو غادر في إجازة خارج البلاد لتخفيف حدة التوتر.

لدينا قادة مخضرمين، وزعماء دينيين، وأصدقاء لجنوب السّودان، مستعدون للتدخل وكسر تعنت كير. لكن مشار كان بحاجة أيضًا إلى من يكبح ويحيّد كلٌّ من زوجته أنجلينا تنج وتعبان دينق قاي لمداواة مرارتهما السابقة عندما أوقع الرئيس بينهما في الإنتخابات الولائية والتنافس على ولاية الوحدة. كان مشار بحاجة إلى إنقاذ نفسه وجنوب السّودان من هؤلاء الجشعين؛ تعبان وأنجلينا. فبعد صراعهما على قيادة ولاية الوحدة، تصالحا ووجها سيوفهما ضدّ كير. يجب على شعب جنوب السّودان، وإيقاد، والمجتمع الدولي، تحميل مسئولية الحرب التي اندلعت في ديسمبر 2013 على الرئيس كير، وأليو انيانق أليو، وتيلار دينق رينق، وفول ملونق أوان، وتعبان دينق قاي، وإيزيكيال لول قاتكوث، وأنجلينا تنج.

الرئيس كير، وملونق، وتعبان دينق، وأنجلينا هم من عجلوا مرة أخرى بحرب يوليو 2016، والتي شهدت مواجهة كير وتعبان ضد الحركة - في المعارضة ومشار، ونتج عنها انهيار حكومة

الوحـدة الوطنيـة الانتقاليـة، واتفاقيـة تسـوية النـزاع بجمهوريـة جنـوب السّـودان. لم يكـن القتـال في القـصر الرئـاسي أو في حـيّ الجبـل ليندلـع لـولا خـوف مشـار الشـديد مـن أنجلينـا، إلى جانـب افتقـاره التفكـير الاسـتراتيجي عندمـا رفـض تسـمية تعبـان دينـق وزيـرًا للنفـط، مـما أعـاد ذكريـات مـرارة المشـاحنات عـلى قيـادة بانتيـو بـين تعبـان وأنجلينـا. لـو تمتـع مشـار بالنزاهـة والمثابـرة للسـيطرة عـلى كل مـن تعبـان دينـق وأنجلينـا، لـكان بإمكانـه بـدء الحـوار مـع كـير وتجنـب الـصراع والحـرب. لسـوء الحـظ، كان مشـار مثـل كـير، الـذي كان هـو الآخـر تحـت سـيطرة مجلـس كبـار أعيـان الدينـكا وسـحرة فـول ملونق الذيـن يُعرفـون بسـادة رمـح الصيـد (Beny Bith). لم يسـتطع كـير تخليـص نفسـه مـن هـؤلاء كـما قـد يفعـل زعيـم حكيـم. مـن المثـير للقلـق معرفـة أن مصـير شـعب جنـوب السّـودان يعتمـد عـلى قـرارات قلـة مـن الأفـراد. وهـذا يعكـس الواقـع الموضوعـي لمسـتوى الوعـي الاجتماعـي والوعـي السـياسي المتـدني لـدى النـاس. لم تتحـرر غالبيـة جنـوب السّـودان بعـد مـن قبضـة العلاقـات الإثنيـة، والشـوفينيّة الإثنيّـة، والتعصُّـب. مـا زالـوا مغموريـن في الجهـل، والخرافـة، والأسـاطير. أليـس مـن الغريـب أن تظهـر سـيكولوجية وديماغوجيـة الأقنـان الإقطاعيـين وسـط المجتمعـات الأكـثر مسـاواة وتفتقـر إلى السـلطة الهرميـة؟ وهـذا دليـل عـلى أن حـرب التحريـر الوطنـي بقيـادة الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان لم تنجـح في تغيـير مجتمـع جنـوب السّـودان.

شـعب جنـوب السّـودان هـو الضحيـة في هـذه الحـرب العبثيـة. لقـد فقدنـا أرواح، وتـشرد الملايـين مـن الأبريـاء. كان مـن المسـتفز

سماع الرئيس موسيفيني، الذي تستضيف بلاده أكثر من مليون لاجئ من جنوب السّودان، بينما يسهم هو في نسف السلام في جنوب السّودان، وهو يتحدث ساخرًا لأعضاء مجلس التحرير الوطني للحركة الشعبية لتحرير السّودان، «أنا من يبيعكم حتى الموز والحليب». هذه ليست حرب عبثية فحسب، بل ولدت أيضًا ثقافة لامبالاة بين كلا الطرفين. لقد حان وقت التفكير في إنقاذ الناس أكثر من الحفاظ على السلطة السياسية. يجب أن يحتلّ النضال من أجل الحقوق والحريات المدنية مركز الصدارة في تفكيرنا السياسي. لقد فشل الكفاح المسلح كأداة للتغيير الاجتماعي في جنوب السّودان لأنه حدث خارج سياقه الإيديولوجي.

الفصل الرابع

ضرورة الثورة الوطنية الديمقراطية

يتمثل جوهر الاستعمار الجديد في أن الدولة الخاضعة له تبدو مستقلة من الناحية النظرية، وتتمتع بالزخارف السطحية للسيادة الدولية، بينما يخبرنا واقع الحال أن نظامها الاقتصادي، وبالتالي سياستها الواقعية، تتبعان للخارج.

-كوامي نكروما[1]

فشلت التسوية السياسية المُسماة اتفاق السلام الشامل 2005، التي توسطت فيه إيقاد بدعم من إدارة بوش، في وضع حدّ ومعالجة الدوافع الأساسية للصراع السّوداني الممتد لستة عقود. فقد أسهم تشكيل حكومة الشراكة في وضع الحركة الشعبية لتحرير السّودان بغتة أمام تجربة حكم وإدارة الدولة. وكما هو الحال دائمًا عندما يتم تجاوز مرحلة مهمة في التطور السياسي والإداري، كان من المحتم أن تنتهي مهمة قادة الحركة الشعبية لتحرير السّودان في الحكومة وإدارة الدولة إلى أخطاء وفشل جسيمين[2]. كان يجب أن تبدأ عملية التحضير لهذه المهمة مع تشكيل الحركة/ الجيش الشعبي، كمرحلة ضرورية لتطورها.

يبدو أن واحد وعشرون عامًا من الكفاح المسلح كانت مجرد تبديد للطاقة الثورية. وكما عبر ثورفالد ستولتنبرغ عن المسألة

(1) Kwame Nkrumah, Neo-Colonialism: The Last Stage of Imperialism (London: Thomas Nelson & Sons, 1965).

(2) لا يمكن للطالب الذي لم يكمل ثماني سنوات من التعليم الابتدائي أن يقدم نفس مستوى أداء الطالب الذي أنهى امتحانات القبول للجامعة.

ببلاغـة، فـإن قـادة الحـرب نـادرًا مـا يكونـون قـادة صالحـين للسـلام، والحريـة، والتنميـة؛ وتجربـة جنـوب السّـودان حالـة مأسـاوية في هـذا الصـدد»[1]. ينبغـي الاعـتراف أن الحركـة/ الجيـش الشـعبي خاضـت النضـال المسـلح والحـرب خـارج سـياقهما السـياسي والأيديولوجـي. كان ينبغـي أن تكـون حـرب التحريـر الوطنـي جزءًا مـن بناء واقـع اجتماعي جديـد في جنـوب السّـودان- دولـة وطنيـة ذات أنظمـة اجتماعيـة، واقتصاديـة، وسياسـية تختلـف عـن تلـك التـي كانـت سـائدة في ظـل أنظمـة الخرطـوم القمعيـة. هنـا سـيجد شـعب جنـوب السّـودان وضـع أفضـل مـن حيـث مخاطبـة التحديـات الأساسـية التـي تسـببت في انـدلاع الحـرب. لكـن اضطـر الشـعب إلى تحمـل حـرب أهليـة مدمـرة أخـرى لأن الحركـة لم تسـتصحب البعـد السـياسي والأيديولوجـي للثـورة.

ناقشـتُ هـذه الحقيقـة في القسـم السـابق. ظهـرت إخفاقـات حكومـة الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان مباشرة بعـد التوقيـع عـلى اتفاقيـة السـلام الشـامل في شـكل فسـاد وانعـدام للأمـن، لكـن، وبصورة أكـثر دراميـة في الحـرب الأهليـة الحاليـة، التـي اندلعـت، بالـكاد، بعـد ثـلاث سـنوات مـن الاسـتقلال. لقـد أثبتـت حقيقـة بـارزة مفادهـا أن خطـأ فادحًـا وقـع في الطريقـة التـي أدارت بهـا الحركـة/ الجيـش الشـعبي حـرب التحريـر الوطنـي. ناقشـتُ أيضًـا دوافـع الحـرب الأهلية الحاليـة، وخلصـتُ إلى أن عمليـة صنـع السـلام والاتفاقيـة الناتجـة عنهـا لا يمكنهـما حـلّ هـذا التناقـض الأسـاسي. وفي هـذا الصـدد أخطـأ الدكتـور ريـك مشـار في تمـرده، لأنـه بنـى تنظيـم الحركـة - في المعارضـة عـلى نفـس أسـس تقاسـم السـلطة والإصـلاح السـطحي للنظـام.

(1) Hanssen (2016), “Introduction”, p. 22.

يقـول الزعيـم مـاو تـسي يونـغ أن هـدف الحـرب هـو حـلّ التناقض، أو تمهيـد الطريـق لحلهـا. لم ينفـذ الرئيـس كـير العمليـات العسـكري في 15 ديسـمبر 2013 لأن الحـوار السـياسي داخـل الحركـة الشـعبية وصـل نقطـة اللاعـودة، بـل بسـبب رفضـه المشـاركة في العمليـة السياسـية الديمقراطيـة. أعاقـت هـذه الحـرب نضـج أدوات الـصراع السـياسي، ووجهـت النـاس في الاتجـاه الخطـأ صوب السياسـات للإثنيّـة والمناطقية. وعـلى نفـس المنـوال، فشـل تمـرد مشـار في اسـتصحاب طبيعـة الـصراع، بعـد أن مـشى عـلى خطـى كـير في الحـرب عـلى أسـس إثنيّـة ومناطقيّـة. تفاقـم الفشـل نتيجـة تجاهـل اقتراحـات تنظيـم ووضـع اسـتراتيجية مختلفـة عـن الطريقـة التـي أدار بهـا قرنـق حـرب التحريـر الوطنـي بمفـرده. أنتجـت هـذه الطريقـة الـصراع الثانـوي الـذي أدى إلى انـدلاع العنـف في ديسـمبر 2013. يحتـاج جنـوب السّـودان الآن إلى تحـول جـذري صـوب ثـورة وطنيـة ديمقراطيـة، تمثـل مرحلـة لا مفـر منهـا في سـبيل التنميـة الاجتماعيـة، الاقتصاديـة، والسياسـية.

في أبسـط تعريـف، تعـرف للثـورة أنهـا عمليـة تغيـير. يختلـف سـياق التغيـير الاجتماعـي مـن مجتمـعٍ لآخـر، امـا في سـياق جنـوب السّـودان، فالثـورة هـي العمليـة التـي مـن خلالهـا يحـدث تجـاوز كامـل للتخلـف الاجتماعـي، والاقتصـادي، والثقـافي للجماهـير مـن خـلال تطويـر وتحديـث قـوى الإنتـاج. لا ينبغـي الشـعور بالقلـق تجـاه عمليـة التحديـث، رغـم أن كثيريـن، وخاصـة تيـارات اليمـين والليبراليـين/ التقليديـين، يشـعرون بالخـوف عندمـا يسـمعون كلمـة ثـورة، خصوصًـا وأنهـم يفهمونهـا مـن منظـور العنـف. مـن هنـا نرغـب في طـرح سـؤال آخـر: مـا هـو نـوع العنـف الـذي يخشـونه؟

هنـاك ضرورة لوضـع العنـف في سـياقه؛ تحديـد مُسـبباته ومحركاته. يتجـلى العنـف في شـكلين: عنـف يمارسـه الطاغية ضد الشـعب في سـياق الإسـتغلال الإقتصـادي، والتمييـز الاجتماعـي، والاسـتبعاد السـياسي. وهـذا عُنـف قمعـي، ورجعـي، يجـب مقاومتـه. ثـم هنـاك أعـمال عنـف ترافـق مقاومـة الشـعوب للاضطهـاد. في كلتـا الحالتـين العنـف أمـر لا مفـر منـه. لـذا لا يتعـين عـلى النـاس خشـية العنـف الـذي يُمـارس ضدهـم في سـياق محاولتهـم اسـتعادة إنسـانيتهم، وكرامتهـم، وتقديرهـم الـذاتي. إنّ رفـض الثـورة بحجـة أنهـا تولـد العنـف خطـأ غـير مـبرر و لا يسـنده منطـق، ويتضمـن موافقـة عـلى الوضـع الراهـن بغـرض إعاقـة توعيـة الجماهـير.

الكلمـة الأخـرى هـي «الإيديولوجيـا». وهـو مُصطلـح يخيـف بعـض العنـاصر اليمينيـة المتطرفـة والليبراليـة، خاصـة تلـك التـي تنطلـق مـن خلفيـات تعليميـة كنسـيّة. يقولـون أن الأيديولوجيـة سـيئة لأنهـا مرتبطـة بالشـيوعية أو الإشـتراكية. هنـا مـرة أخـرى تصـور خاطـئ يُعزى إلى الجهـل والتحامـل، أو مـا يُعـرف في المُعجـم الانقليـزي التقدمـيّ، بالانغـلاق الفكـريّ. ورغـم أن الثـورة بداهـةً عمليـة إيديولوجيـة، فـإن مصطلـح «الأيديولوجيـا» ليسـت حكـرًا عـلى مدرسـة فلسـفية فكريـة مُعيّنـة؛ بـل يشـير إلى أفـكار مُصاغـة في سـياق منظـم ومنطقي. يسـتلزم هـذا أن تملـك كل ثـورة أيديولوجيـة تحددهـا. شـهد العـالم العديـد مـن الثـورات، الأمريكيـة، والفرنسـية، والبلشـفية، والصينيـة. حظـت كل واحـدة مـن هـذه الثـورات بأيديولوجيـا تتطابق مـع أهدافهـا ومبادئها. كـما أن الثـورة مسـألة حتميـة، خاصـة عندمـا يفشـل نظـام في إعـادة إنتـاج نفسـه؛ بحيـث يخـرج نظـام جديـد مـن رحـم النظـام القديـم.

الثورة في النظرية والتطبيق هي التغيير. تعني الثورة أن حدوث تغيير ذي مغزى، أو إحداث تغيير في حياة الناس، يتطلب مجموعة أفكار تتناسب والتحول الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي الذي يرغب الناس تحقيقه في حياتهم. تشكل مجموعة هذه الأفكار، المنظمة بطريقةٍ منهجية ومُنطقية، أيديولوجيا الثورة، وهي تلخص رؤية الثورة، وأهدافها، واستراتيجياتها، والنتائج المرجوة منها. لا شيء في هاتين الكلمتين - الثورة والأيديولوجيا - ما يخيف الجناح اليميني والليبرالي بأي شكل من الأشكال. يعكس هذا الخوف تبني هذه التيارات الموقف الأيديولوجي للطبقات المُستغِلة المرتبطة بالكومبرادورية الرأسمالية الإقليمية والدولية، والتي تتعارض مصالحها في إستخراج ونهب موارد جنوب السّودان مع مصالح الثورة الحقيقية.

بعد توضيح المخاوف التي لا أساس لها من الصحة وسط تيارات اليمين والليبراليين بشأن الثورة الهادفة لتغيير حياة شعب جنوب السّودان، سنتطرق إلى نوع الثورة التي يحتاجها شعب جنوب السّودان، أو يجب عليه القيام بها، ولماذا يجب عليهم ذلك. أولًا دعونا نلقي نظرة فاحصة على الوضع الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي الذي يسم غالبية سكان جنوب السّودان.

يكشف لنا التأمل السمات التالية: يتبع الجزء الأكبر من الناس نمط حياة تقليدي في قرى ريفية أو مستوطنات منفردة[1]. لقد عاشوا هكذا منذ زمن سحيق. يحرثون الأرض لإنتاج الغذاء وغيرها

(1) تعيش بعض التجمعات التقليدية (شلو، وأوتوهو «لاتوكو»، وتوبوسا) في تجمعات كبيرة أقرب إلى مدن صغيرة. بينما يبني الدينكا، والنوير، وبعض مجتمعات الاستوائية منازل منعزلة. كما يبني الدينكا والنوير معسكرات للماشية تجمع مختلف الرعاة.

مـن ضرورات الحيـاة، أو يربـون الماشـية. تضـم البـلاد عـدد قليـل مـن البلـدات، كانـت مـن قبـل مواقـع اسـتعمارية، أو رئاسـات إداريـة، أو مراكـز تجاريـة. هنـاك قليـل مـن الطـرق غـير المعبـدة تربـط هـذه البلـدات، مـع صعوبـة الوصـول إلى معظـم أجـزاء البلـد. الوضـع الاجتماعـي والاقتصـادي في البلـدات ليـس أفضـل حـالًا. مـع عـدد قليـل مـن المـدارس والمرافـق الطبيـة في المـدن والبلـدات الكبـيرة. لا توجـد صناعـات، مـا يعنـي أن القـوى الإنتاجيـة الوطنيـة لا تـزال مُتخلفـة. في هكـذا ظـروف، حيـث تكـون جميـع المـؤشرات الاجتماعيـة والاقتصادية سـلبية، يُصنّـف شـعبنا بـين أفقـر شـعوب العـالم. هـذا الواقـع البائـس، الـذي ينبغـي أن يثـير مشـاعر كل قائـد جنـوب سـوداني، هـو المُشـكلة أو التناقـض الأسـاسي، ويتمظهـر في تناقضـات ثانويـة مثـل الحـرب الأهليـة الحاليـة الناجمـة عـن الـصراع حـول السـلطة بـين النُخـب السياسـية، أو النزاعـات التقليديـة التـي يسـببها التنافـس عـلى الأرض، والمـاء، والمراعـي، وسرقـة الماشـية.

تمتلـك المجتمعـات الزراعية-الرعويـة مثـل توبوسـا، وديدينغـا، وأوتوهـو، ومنـداري، ودينـكا، ومـورلي، ونويـر، وشـلك قطعـان مـن المـواشي. في الواقـع، يحسـب البعـض قطعانهـم بمئـات أو الآلاف مـن الأبقـار، والخـراف، والماعـز، والإبـل. لمـاذا عـلى الرغـم مـن كل هـذه الـثروة يعتبرهـم العـالم فقـراء، بـل أنهـم أحيانًـا يظهـرون مثـل أشـخاص يائسـين في أمـسّ الحاجـة إلى تدخـل إنسـاني دولي؟ السـبب أنهـم لم يحولـوا هـذه المـوارد الحيوانيـة إلى ثـروة أو قيمـة إقتصاديـة في شـكل نقـدي؛ أيّ لم يطـوروا قواهـم الإنتاجيـة. لا يمكـن لشـكل الملكيـة هـذا أن يجعلهـم أثريـاء، لأنهـم يحتفظـون بهـذه المـوارد كأصـول ثقافيـة،

فقـط لإظهـار المكانـة الاجتماعيـة، وفي أحسـن الأحـوال يسـتخدمونها مهـرً في الـزواج. وطالمـا كانـت هـذه المـوارد مجـرد أصـول ثقافيـة، لـن تسـاعد شـعوبنا في توفـير المـوارد الماليـة الضروريـة للتبـادل أو شراء ضروريـات الحيـاة الأخـرى مثـل الملابـس والسـيارات، والسـكن اللائـق. يفـسر لنـا هـذا لمـاذا يطلـب سـكان القـرى مـن ذويهـم ممـن يعملـون في الحكومـة أو القطـاع الخـاص المسـاعدات الماليـة. لـن يبيعـوا أبـدًا أيًـا مـن مواشـيهم، لأنهـم يعتـبرون بيـع الماشـية أمـرًا مخزيًـا. لكـن كيـف نصـم مـن يمتلـك 100 رأس مـن الماشـية فقـيرًا. هـذا هـراء. الصحيـح القـول أن منهجيـة تربيـة الماشـية هـي مـا تجعلـه فقـيرًا. إنـه «فقـر ثقـافي». لذلـك علينـا تغيـير تصـور هـذا الواقـع، وهذا مـا نعنيـه بالثورة.

ومـن أجـل تغيـير هـذا الواقـع لا بـدّ القـول أن جنـوب السّـودان يتمتـع بإمكانـات طبيعيـة هائلـة. نجـد العديـد مـن المـوارد المعدنيـة الهامـة مثـل الذهـب، والكروميـت، والأسبسـتوس، والمـاس، سـواء عمـل النـاس في اسـتخراجها أو احتفظـوا بهـا في باطـن الأرض. ومـع ذلـك، فـإن عائـدات النفـط هـو المـورد الوحيـد الـذي يتدفـق إلى خزائـن الحكومة. تقـع معظـم أراضي جنـوب السّـودان في أقاليـم السـافانا والاسـتوائية، وتتمتـع بوفـرة الغابـات الطبيعيـة والأشـجار المُسـترزعة في أجـزاء مـن الاسـتوائية وغـرب بحـر الغـزال. يمكـن اسـتخدام هـذه الغابـات في توفـير الأخشـاب والصمـغ، كـما أنهـا مؤئـلًا طبيعيًـا لحيـاة بريّـة هائلـة، بجانـب قيمتهـا الجماليـة كواجهـات سـياحة. لـن ننـسى أيضًـا نهـر النيل وروافـده السـوباط، بحـر الغـزال، ويـاي، بمـا تحتويـه مـن ثروة سـمكية ضخمـة ومـوارد مائيـة أخـرى. عـلاوة عـلى وجـود مسـاحات شاسـعة مـن الأراضي الخصبـة المناسـبة للإنتـاج الزراعـي الآلي بجنـوب السّـودان.

كل هـذه المـوارد سـتظل مجـرد إمكانـات حتـى تُسـتغل وتكتسـب قيمـة اقتصاديـة. وتقـع مسـؤولية هـذا عـلى عاتـق حكومـة جمهوريـة جنـوب السّـودان مـن حيـث وضـع السياسـات، وتخطيـط التنميـة، والتشريـع. هـذه المسـألة في جوهرهـا قضيـة سياسـية وتتطلـب فهـمًا واضحًـا يرتبـط بالنضـال مـن أجـل الاسـتقلال وحـرب التحريـر الوطنـي. يكمـن جوهـر الاسـتقلال والسـيادة في السـلطة، والتحكـم في وإدارة الحيـاة الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية للشـعب. فالاسـتقلال والسـيادة يعنيـان أن حكومتنـا الوطنيـة، بصفتهـا ممثلـة للشـعب، تملك السـلطة عـلى كل شيء داخـل أراضي جنـوب السّـودان، وتمـارس هـذه السـلطة مـن خـلال تشريعـات، وقوانـين، ولوائـح، ومبـادئ توجيهيـة.

شـكلت الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان حكومـة جنـوب السّـودان في عـام 2005، وهـي خطـوة مثلـت ذروة نضالهـا مـن أجـل التحـرر الوطنـي، وأصبـح لهـا تبعًـا لذلـك سـلطة دسـتورية، وسياسـية، وأخلاقيـة عـلى شـعب جنـوب السّـودان. تلقـت حكومـة جنـوب السّـودان مـا بـين 4 إلى 5 مليـارات دولار أمريـكي سـنويًا مـن عائـدات النفـط. كان بمقـدور هـذا المـال تحقيـق تنميـة اجتماعيـة واقتصاديـة في جنـوب السّـودان، وإنشـاء مشـاريع بنى تحتيـة: مدارس، ومستشـفيات، وطـرق، وكهربـاء، وسـكن لائـق؛ بالإضافـة إلى مشـاريع الخدمـات الاجتماعيـة والتنميـة الاقتصاديـة. إن فشـل الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان، وحلفاؤهـا في حـزب المؤتمـر الوطنـي والأحـزاب السياسـية الأخـرى في حكومـة جنـوب السّـودان، في توفـير التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة للشـعب يعـود لسـبب بسـيط، وهـو إسـتحالة تحقيـق هـذه المشـاريع دون وجـود قيـادة ذات أيديولوجيـا ثوريـة تضـع نصـب

عينهـا معالجـة التخلـف الاجتماعـي، والاقتصـادي، والثقـافي. افتقـرت قيـادة جنـوب السّـودان هـذه الأيديولوجيـا. وقـد ذكـرت أنفًـا التحـول الأيديولوجـي الـذي قـام بـه قـادة الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان، وكيـف ارتبطـت مصالحهـا، بعـد اتفـاق السـلام الشـامل، بالسياسـات الاقتصاديـة والماليـة لمؤسسـات بريتـون وودز (البنـك الـدولي وصنـدوق النقـد الـدولي)، وتركـت جنـوب السّـودان وشـعبه في فقـر مدقـع.

مـاذا نسـتنتج مـن هـذا؟ انحـرف قـادة الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان عـن أيديولوجيـة التحريـر، ومفهـوم ورؤيـة السّـودان الجديد، و نتـج عنـه تحالـف بـين قيـادات الحركـة والقـوى ذات المصلحـة في اسـتخراج ونهـب مـوارد جنـوب السّـودان، وليـس تحقيـق التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة للبـلاد وشـعبها. وهـذا يفـسر سـبب عـدم وجـود مشـاريع تنمويـة، أو تطويـر البنـى التحتيـة الماديـة، رغم إسـتلام جنـوب السّـودان لأكـثر مـن خمسـين مليـار دولار أمريـكي مـن عائـدات النفـط خـلال عـشر سـنوات (-2005 2015). إن التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة التـي تضـع الجماهـير في قلـب السياسـة العامـة هـي وظيفـة التوجـه الإيديولوجـي للحكومـة، وهـو مـا أشرنـا إليـه عندمـا تحدثنـا عـن أن وقـت الثـورة قـد حـان في جنـوب السّـودان. لكـن قبـل الـشروع في شرح العلاقـة بـين الحكومـة والتنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة في جنـوب السّـودان، سـنتطرق لتجربـةٍ مغايـرة.

ظهـرت جمهوريـة الصـين الشـعبية بعـد إنهـاء الاحتلال الاسـتعماري والإقطـاع في عـام 1949، بعـد انتصـار الشـيوعيين بقيـادة مـاو تسي تونغ عـلى الحكومـة القوميـة. وإلى الآن لا يـزال معظـم الصينيـين فلاحـين،

وبالتـالي، مثلهـم مثـل شـعبنا في جنـوب السّـودان يمكـن اعتبارهـم فقـراء. كانـت هنـاك بقايـا مـن خصائـص نمـط الإنتـاج الإقطاعـي، مثـل الملكيـة الخاصـة لـلأرض، وعلاقـات الإنتـاج الإقطاعيـة، التـي حررتهـا الحكومـة الشـيوعية مـن خـلال الثـورة الزراعيـة. لم يكـن لـدى الصـين شركات تصنيـع كبـيرة، إذ لم تكـن الصـين قـد حققـت ثورتـه الصناعيـة. ومـع ذلـك، شرع الصينيـون، بقيـادة الحـزب الشـيوعي، في التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة، بـدءًا مـن تحقيـق ثـورة زراعيـة وصناعيـة لمعالجـة الأمـن الغـذائي والاحتياجـات الأخـرى للسـوق المحليـة. ثـم، في عـام 1966، أطلـق الصينيـون الثـورة الثقافيـة لتمكـين الشـعب الصينـي مـن الاسـتفادة مـن التقـدم في حقـول المعرفـة، والعلـوم، والتكنولوجيـا، مـن أجـل خلـق الشـخصية الصينيـة. تعـد الصـين اليـوم ثـاني أكـبر اقتصـاد في العـالم دون المـرور مـن خـلال نمـط الإنتـاج الرأسـمالي. لكـن علينـا ألا ننـسى التكلفـة البشريـة الضخمـة، والصدمـات النفسـية التـي رافقـت الثـورة الثقافيـة في الصـين، والتـي تعكـس ضرورة رسـم كل أمـة مسـارًا ثوريًـا يناسـب شـعبها.

في أفريقيـا كان لدولـة مـا بعـد الاسـتعمار خيارين: النظام الرأسـمالي أو المسـار غـير الرأسـمالي لتحقيـق تطـوره الاجتماعـي والاقتصـادي، رغم إنهـما لم يكونـا خيارِيـن بالمعنـى الدقيـق للكلمـة. كان جوهـر النضـال مـن أجـل الاسـتقلال هـو التحرر مـن السـيطرة الأجنبيـة والاسـتعمارية، مـا يعنـي ضـمان الحـق السـيادي في السياسـة العامـة، والسـيطرة عـلى القـوى المنتجـة الوطنيـة، وتعزيـز العدالـة الاجتماعيـة والأخـوة وسـط الجماهـير. أنتـج الاسـتعمار برجوازيـة وطنيـة زائفـة، ربطـت دولـة مـا بعـد الاسـتعمار بالـدول المتقدمـة في علاقـة غـير متكافئـة. والاسـتعمار

الجديـد، الـذي اسـتمر في اسـتغلال المـوارد، واسـتخراجها، ونهبهـا، هـو نقيـض للدولـة الوطنيـة الديمقراطيـة التـي شُـيّدت في أوجّ الثـورة.

خلقـت حكومـة جمهوريـة تنزانيـا المتحـدة «اشـتراكية أوجامـا» القائمـة عـلى القيـم المجتمعيـة الإفريقيـة. تتكـون تنزانيـا مـن 124 إثنيـة، وهـي الدولـة الوحيـدة في إفريقيـا التـي طـورت فيهـا البرجوازيـة الوطنيـة الصغـيرة قيـمًا متجـذرة في وعـي الجماهـير. حيـث يحظـر القانـون اسـتخدام الإثنيـة في السـعي إلى السـلطة أو التعبئـة السياسـية. اسـتخدم الأب المؤسـس للجمهوريـة، المعلـم جوليـوس نيريـري، سـحر الثقافـة الموحـدة في لغـة مشـتركة أصليـة (السـواحيلية) لبنـاء الأمـة التنزانيـة. يمكـن ملاحظـة اختـلاف التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة في تنزانيـا مـع تلـك الموجـودة في جمهوريـة كينيـا المجـاورة، وذلـك مـن حيـث الوعـي الاجتماعـي، والثقافـة الوطنيـة، والتماسـك. إذ رغـم احتـكام كينيـا في جـزء كبـير مـن تاريخهـا المسـتقل لنظـام الحـزب الواحـد، إلا أن السياسـة انتظمـت، والسـلطة مُورسـت عـلى أسـاس إثنـيّ. تصـف ديباجـة دسـتور 2010 أن كينيـا دولـة ديمقراطيـة ليبراليـة متعـددة الأحـزاب، وفقًـا لدسـتور 2010، لكنهـا اشـتهرت أيضًـا بشـدة وشـيوع الإسـتقطاب الإثنـي في ممارسـتها السياسـية، وذلـك بسـبب الإقصـاء السـياسي والإثنـيّ، التهميـش الاقتصـادي، والتمييـز الاجتماعـي.

بالعـودة إلى جنـوب السّـودان، كان الوضـع أشـبه بمعظـم دول أفريقيـا جنـوب الصحـراء، خصوصًـا تلـك التـي اضطـرت الدخـول في مفاوضـات مطولـة مـع القـوى الاسـتعمارية مـن أجـل التحـرر. لم يتـصرف قـادة الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان كـما لـو كانـوا هـم وشـعب جنـوب السّـودان قـد تشـاركوا كفاحًـا ثوريًـا مسـلحًا. لكـن

هـذا لم يكـن مفاجئًـا، بسـبب اغـتراب هـذه النخـب عـن الجماهـير، وتحولها إلى طبقـة نخبويـة منعزلـة، منشـغلة بإيجـاد السُـبل الممكنـة لتراكـم الـثروة بـأسرع الطـرق. هـذا الميـل للـثراء السريـع لا يسـمح بمعالجـة أمـراض التخلـف الاجتماعـي، والاقتصـادي، والثقـافي للشـعب. وهـو يفـسر لمـاذا شرع القـادة في تبجيـل الـذات، والفسـاد، ونهـب خزينـة الدولـة، بـدلًا مـن توفـير أساسـيات التنميـة الاقتصاديـة.

افتقـر قـادة الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان، ورفاقهـم من حزب المؤتمـر الوطنـي والأحـزاب السياسـية الأخـرى، إلى مبـاديء توجههـم نحـو تلبيـة تطلعـات الشـعب في الحريـة، والعدالـة، والازدهـار، والإخاء. قـد يُعـزى هـذا، وخاصـة بالنسـبة لقـادة الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان، إلى الابتعـاد الجـذري عـن مفاهيـم ومضامـين الثـورة بعـد مرحلـة حـرب التحريـر الوطنـي. بمجـرد تـولي السـلطة في 2005، بـدأ قـادة الحركـة الشـعبية في اتبـاع سياسـات اليمـين الليـبرالي، مـن خـلال تمكـين سياسـات وأيديولوجيـات اقتصاديـة مثـل السـوق الحـرّ، وإلحـاق اقتصـاد الكفـاف البائـس بجنـوب السّـودان بالنظـام الرأسـمالي العالمـي، دون وجـود طبقـة رأسـمالية قـادرة عـلى قيـادة التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة للبـلاد.

كان الافـتراض هـو أن بمقـدور الطبقـة البرجوازيـة الوطنيـة الزائفـة، وتتألـف مـن النخبـة السياسـية والعسـكرية التـي نشـأت مـن حـرب التحريـر الوطنـي، امتـلاك رأس مـال لاسـتثمار، وتطويـر، واسـتغلال إمكانـات المـوارد الطبيعيـة في قطاعـات الزراعـة، والتعديـن، والخدمات، والصناعـة. لكـن هـذه الطبقـة تفتقـر إلى رأسـمال خـاص، لأنهـا لا تتحكـم في وسـائل الإنتـاج، لـذا اسـتمدت سـلطتها مـن السـيطرة عـلى

الدولـة ومواردهـا. وبسـبب طبيعـة علاقتهـا بالدولـة والكمبرادوريـة الرأسـمالية الإقليميـة والعالميـة في تحالـف نهـب المـوارد الطبيعيـة لجنـوب السّـودان، لا تـزال هـذه الطبقـة طفيليـة في جوهرهـا، ولـن تتمكـن مـن البقـاء عـلى قيـد الحيـاة إلا مـن خـلال إمتصـاص مـوارد الدولـة وتحويلهـا خـارج البـلاد. بالتـالي هـي غـير قـادرة عـلى قيـادة الدولـة نحـو التنميـة الاجتماعيـة الاقتصاديـة.

شـهدنا في السـنوات العـشر الأخـيرة (-2005 2015) انخفاضًـا مطـردًا في المـؤشرات الاجتماعيـة والاقتصاديـة لجنـوب السّـودان، إلى الحـد الـذي أصبحـت فيـه جميعهـا سـلبية. صحيـح أن الحـرب قـد تسـببت في توقـف إنتـاج النفـط وزيـادة الإنفـاق الحكومـي، إلا إن السـبب الرئيـس لهـذا هـو السياسـات الاقتصاديـة السـيئة التـي تبنتهـا الحركـة الشـعبية منـذ عـام 2005. وهـي سياسـات تتجاهـل تنميـة قطاعـات الزراعـة والـثروة الحيوانيـة في العمليـة الاقتصاديـة.

الفشـل في توفـير التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة ينعكـس عـلى المسـتوى السـياسي في شـكل صراع على السـلطة. لقد تداخلت السـيطرة عـلى سـلطة الدولـة ومواردهـا الماليـة والاقتصاديـة في عقـدة خطـيرة مـع السياسـات الإثنيـة، لـذا ليـس مـن المسـتغرب أن شـهد جنـوب السّـودان، مبـاشرة بعـد الاسـتقلال، تصاعـد قوميـة الدينـكا الإثنيـة، وأيديولوجيتهـا السـاعية للهيمنـة والسـيطرة. وجـاء ظهـور مجلـس أعيـان الدينـكا حـول سـلفاكير في إطـار مسـاعي الدينـكا للسـيطرة عـلى الدولـة، وحولـت جنـوب السّـودان إلى ديكتاتوريـة شـمولية. أدى ذلـك إلى إغـراق البـلاد في أزمـة اجتماعيـة، واقتصاديـة، وسياسـية عميقـة، وقـاد مـن ثـم إلى الحـرب الأهليـة وتعطيـل العمـل الإنسـاني.

لـن يكـون مـن السـهل عـلى جنـوب السّـودان الخـروج مـن هـذه الأزمـات طالمـا القـوى السياسـية في الحكومـة والمعارضـة لا زالـت تعيـد تمـارس نفـس اللعبـة السياسـية التـي تنتهـي بتقاسـم السـلطة وإعـادة نفـس النمـوذج السـطحي للنظـام منـذ عـام 2005. ظـل النظـام يتجاهـل الجماهـير، وبالتـالي ولـد صراعـات في أشـكال ومسـتويات مختلفـة. يجـب الاعـتراف أن الظـرف الثـوري حـاضر الآن بجنـوب السّـودان. ويظهـر ذلـك في فشـل كـير الواضـح في توفـير المـال الـلازم لتسـيير حكومتـه. جديـر بالذكـر أن العاملـين في الخدمـة المدنيـة لم يتقاضـوا رواتبهـم منـذ ثمانيـة أشـهر بينـما تخـوض الحكومـة حربًـا. تـدل الحـرب الأهليـة التـي اجتاحـت البـلاد بأسرهـا، والعـدد الكبـير مـن حامـلي السـلاح، عـلى رفـض عـام لقيـادة سـلفا كـير. يحـدث هـذا حتـى في مناطـق الدينـكا في البحـيرات، وواراب ببحـر الغـزال. فالحـرب الدائمـة بـين آقـوك وأفـوك في قوقريـال، أو بـين ريـك ولوانـج جيينـق في تونـج أو داخـل آقـار، والتـي خلفـت آلاف الأرواح، تنبـه إلى وجـود خطـأ مـا في النظـام. لكـن نظـرًا للجهـل وعـدم القـدرة عـلى قـراءة الواقـع مـن المنظـور الصحيـح، لا تجـد الغالبيـة طريقـة للتعبـير عـن سـخطهم مـن النظـام إلا مـن خـلال اسـتبطان اسـتيائهم وممارسـة العنـف في مـا بينهـم. لا تحمـل المجتمعـات السـلاح إلا مـن أجـل الدفاع عـن وجودهـا وحريتهـا، لكنهـا فعلـت ذلـك بفضـل الصراعـات الثانويـة التـي يثيرهـا نظـام كـير في كل مـكان في جنـوب السّـودان. وهـو مـا يطـرح سـؤالاً بلاغيـاً آخـر.

في مسـتوى آخـر، نـرى نزعـة انفصاليـة قويـة بـين النخـب السياسـية الاسـتوائية، وهـي تعبـير عـن القوميـة الإثنيّـة مـن منظـور مناطقـيّ،

يعـرف الإسـتوائية ككيـان واحـد عـلى الرغـم مـن تبايـن التشـكيلات الاجتماعيـة والاقتصاديـة. نفـس النزعـة الانفصاليـة تصـدر عـن جبهـة الخـلاص الوطنـي (NAS)، وما يسـمى بـ»السّـودانيين الجنوبيين أصحاب الشـأن» (شرق الاسـتوائية، ووسـط الإسـتوائية، وغـرب الاسـتوائية، وغـرب بحـر الغـزال)، وهـي مدفوعـة جزئيًـا بعدائهـا للحركـة/ الجيـش الشـعبي - في المعارضـة، واعتراضهـا عـلى وجـود هـذه القـوة العسـكرية في الاسـتوائية، وهـو سـلوك يعكـس موقفهـا العـام تجـاه الدينـكا والنويـر[1]. تنبـع هـذه الميـول مـن رغبـة القـادة في الوصـول إلى السـلطة بأقـصر الطـرق، وتجنـب تعقيـد وصعوبـات الخـوض في الصراعـات السياسـية السـائدة. كـما تعـبر عـن نيـة بلـوغ السـلطة عـبر الانتـماءات الإثنيّـة والمناطقيـة الضيقـة. إن إسـتراتيجية تجزئـة الشـعب عـلى أسـس إثنيّـة وإقليميـة لـن تحـل المشـكلة الكامنـة التـي أدت إلى الحـرب الأهليـة في جنـوب سـودان.

لا توجـد تناقضـات جوهرية بين شـعب جنـوب السّـودان، المنتظمين اجتماعيًـا وثقافيًـا في تكوينـات إثنيـة. لقـد تعايشـوا وتسـاكنوا معًـا منذ أزمنـة سـاحقة، وبالتـالي لا تعـاني مـن مشـكلة في الحيـاة المشـتركة. ليس هنالـك تناقضـات واضحـة بـين النويـر والدينـكا، أو بينهـم والاسـتوائيين. التناقـض الجوهـري هـو بين جماهير شـعب جنـوب السّـودان، المنتظمة الآن في تشـكيلاتها الاجتماعيـة السياسية-العسـكرية، والدكتاتوريـة التـي نشـأت عنهـا طبقـة رأسـمالية طفيليـة تحـت قيـادة الرئيـس سـلفا كـير ميارديـت. لذلـك، فـإن الميـول المذكـورة أعـلاه، والتـي تجنـح إلى عـزل أو فصـل أهـل الاسـتوائية وغـرب بحـر الغـزال عـلى إعتبـارات وهميـة

(1) مـن مقـال رأي حـول اتفـاق السـلام المنشـط لتسـوية النـزاع في جنـوب السّـودان، نشرتُـه عـلى وسـائل التواصـل الاجتماعـي بتاريـخ 15 أكتوبـر 2017.

عـن أخوتهـم المواطنـين في الأجـزاء أخـرى مـن جنـوب السّـودان، سـببها الافتقـار التـام للمعرفـة العلميـة للواقـع الموضوعـي مـن جهـة، والنيـة لإسـتغلال جهـل العامـة مـن ناحيـة أخـرى.

إنّ معالجــة الوضــع الحــالي للحــرب ومنــع انهيــار الدولــة، والانهيـار الاقتصـادي، والأزمـة الإنسـانية، تتطلـب تضافـر الجهـود مـن قبـل جميـع سـكان جنـوب السّـودان، وتجـاوز التقسـيمات الإثنيـة والمناطقيـة. سـعت محـاولات تقسـيم نضـال الشـعب عـلى طريقـة مـا يسـمى بـ»السّـودانيين الجنوبيـين أصحـاب الشـأن» إلى اكتسـاب شرعيـة سياسـية مـن خـلال تقسـيم جنـوب السّـودان وشـعبه إلى الاسـتوائية وغـرب بحـر الغـزال مـن جهـة، وبقيـة البـلاد مـن جهـة أخـرى. إنـه اتجـاه ضـار ويجـب عـلى الوطنيـين محاربتـه.

مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية

دخل جنوب السّودان بعد الاستقلال مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية، وبدأ مسارًا جديدًا في التنمية الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية. وهي مرحلة جمعت كلّ القوى الاجتماعية والسياسية التي كافحت من أجل تعزيز وتوطيد استقلال البلاد وتحرير القوى الوطنية المُنتجة. ربما تتطلب هذه النقطة مزيدًا من الشرح. نالت المحافظات الجنوبية استقلالها مع بقية أجزاء السّودان في عام 1956. لكن شعب جنوب السّودان رفض وقاوم هذا الانتقال، أي تصفية الاستعمار عبر الاستيعاب (الأسلمة والتعريب)، لينال استقلاله في يوليو 2011[1].

تجدر الإشارة إلى أن فشل النخبة السياسية الشمالية، التي يهيمن عليها العرب، في معالجة التناقضات الكامنة في التعددية الإثنيّة، والدينية، واللغوية، والثقافية للسودان، فضلاً عن التفاوت، الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي الناجم عن التنمية غير المتكافئة منذ فترة الاستعمار، جعلت السّودان يعاني ويلات الحروب والصراعات التي انتهت بتفكيكه. ماحدث كانت نتيجة الفشل في الدفع بأجندة الثورة الوطنية الديمقراطية، وسعي النخبة السياسية المهيمنة، بالتعاون مع البرجوازية الوطنية، إلى دفع البلاد في مسار التنمية الرأسمالية، بالإضافة إلى تعريف هوية الأمة في إطار إسلامي

(1) استعرتُ عبارة «تصفية الاستعمار عن طريق الاستيعاب» من كتاب، لماذا يذهب الرفاق إلى الحرب: سياسة التحرير واندلاع الصراع الأكثر دموية في إفريقيا (أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 2016) ، بقلم فيليب روسلر وهاري فيرهوفن.

عـروبي. نتـج عـن كل ذاك تعظيـم الفروقـات الاجتماعيـة، وبـروز الصراعـات السياسـية، ومـن ثـمّ الحـروب الأهليـة. وهكـذا أضاعـت الدولـة فرصـة معالجـة المشـاكل الأساسـية المتعلقـة بالفقـر، والجهـل، والأميّـة. جـاءت حـروب التحريـر التـي خاضهـا الشـعب تعبـيرًا عـن الـصراع بـين الشـعب والطبقـات الحاكمـة التـي فشـلت في مواءمـة مصالحهـا الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية مـع مصالـح الجماهـير.

إن الثـورة الديمقراطيـة الوطنيـة هـي مجمـوع عمليـات الهندسـية الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية التـي تنجزهـا القـوى السياسـية والاجتماعيـة مـن أجـل تعزيـز الاسـتقلال الوطنـي والمشـاركة الأخويـة؛ وإعـلاء الحـس الوطنـي، وتعزيـز حريـة الجماهـير والعدالـة الاجتماعية. تعمـل الثـورة الديمقراطيـة الوطنيـة عـلى تطويـر وتحرير القـوى المنتجة الوطنيـة مـن جميـع أشـكال السـيطرة الأجنبيـة . وتتمثـل مهمتهـا في معالجـة التناقـض الأسـاسي الـذي ينعكـس في الفقـر، والجهـل، والأميـة، والخرافـة التـي تغمـر وعـي الجماهـير. كـما تضـع موضـع السـؤال التناقضـات الثانويـة المتأصلـة في الميـول والتحيـزات الاجتماعيـة، والإثنيـة، واللغويـة، والدينيـة، والثقافيـة، لجنـوب السّـودان.

وعـلى هـذا النحـو، فـإن القـوى السياسـية والاجتماعيـة الثوريـة والديمقراطيـة هـي وحدهـا القـادر عـلى قيـادة الثـورة الديمقراطيـة الوطنيـة. وهـذا بفضـل ايديولوجيتهـا ووعيهـا الثـوري، ومعرفتهـا بقوانـين التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة للمجتمـع، وانضباطهـا والتزامهـا تجـاه الشـعب. إن الضعـف الـذي ينعكـس في قلـة التنظيـم والوحـدة الإيديولوجيـة لهـذه القـوى السياسـية والاجتماعيـة الثوريـة والديمقراطيـة، يفـسر سـبب عـدم انطـلاق الثـورة الديمقراطيـة الوطنية،

رغـم توفـر الظـروف الموضوعيـة لاندلاعهـا في جنـوب السّـودان منـذ بدايـة الجولـة الثانيـة مـن الحـرب في 1983. كـما أن هيمنـة القـوى اليمينيـة والليبراليـة الجديـدة عـلى حركـة التحـرر الوطنـي منـذ بداياتهـا، تسـببت في تمـرغ الحركـة في وحـل الإيديولوجيـات الرجعيـة والإثنيّـة.

كان انـدلاع العنـف في ديسـمبر 2013، رغـم طابعـه الإثنـي، فرصـة لإشـعال الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة. وذلـك لأنـه وفـر ظروفًـا مواتيـة لرفـع الوعـي الثـوري بـين المقاتلـين والجماهـير. إن مذبحـة النويـر في جوبـا، والتـي أدت إلى تعبئـة جماعيـة ضـد النظـام، كانـت بمثابـة سلسـلة قيـدت الحـراك بتفاسـير أسـاطير النويـر المرتبطـة بقيادة مشـار، وحالـت دون تطـور الحركـة الشـعبية- في المعارضـة إلى ثـورة اجتماعيـة قـادرة عـلى إحـداث تحـول في الدولـة والمجتمـع. وكانـت النتيجـة عـدم قـدرة قادتهـا مواصلـة النضـال بطريقـة علميـة، واضطـروا في نهايـة الأمـر إلى تفضيـل توقيـع اتفاقيـة سـلام مـع الحكومـة بوسـاطة إيقـاد.

ثورة وطنية ديمقراطية أم سلام إيقاد؟

إن الفشل، أو بالأحرى رفض، قيادة الحركة / الجيش الشعبي - في المعارضة بناء وهيكلة قواتها السياسية والعسكرية، هو ما أجبرها على مفاوضات السلام مع حكومة سلفا كير ميارديت. يأتي فراغ التفاوض على اتفاقية سلام (سلام ليبرالي) من حقيقة أنه يترك الواقع القمعي كما هو. ليس هذا فقط، فقد برهن رفض الرئيس كير التوقيع على اتفاقية تسوية النزاع في جنوب السّودان أن الاتفاق كان تحت رحمة ديكتاتور، ظل ينتهكها كيفما شاء حتى انهارت أخيرًا بعد القتال داخل القصر الرئاسي في جوبا بتاريخ 8 يوليو 2016.

جدد القتال في جوبا الحرب؛ ليس فقط في أعالي النيل وجونقلي، ولكن أيضًا في مناطق بعيدة عن النزاع مثل الاستوائية وبحر الغزال. يخبرنا تحليل هذه الديناميات أن اتفاقية السلام لم تكن سوى تقاسمًا للسلطة بين الطرفين، وأهملت مخاطبة مخاوف الناس المتعاظمة بشأن الشمولية في عمليات صنع القرار. إحدى القضايا الأساسية التي أثارها سكان وسط الاستوائية، وغربها، وغرب بحر الغزال، كانت المطالبة بإضفاء طابع قومي على القوات المسلحة. أثار رفض كير إنشاء مراكز في تلك المناطق لتجميع أبنائهم وبناتهم ممن أرادوا الانضمام إلى القوات المسلحة شكوكهم في التهميش المتوقع، ومن ثم الدعوة إلى التسلح الذاتي، طالما يُنظر إلى هذه القوات على أنها تعبير جوهري عن السلطة. إن

الطابع الوطني للجيش وقوات الأمن في بيئة متعددة الأعراق مثل جنوب السّودان أمر هام، وهو شرط أساسي للتوافق الاجتماعي وصنع السلام. أدت هيمنة النوير المفرطة الجيش الشعبي لتحرير السّودان، بعد استيعاب الميليشيات، إلى خلل في تكوين السلطة، والذي تسبب بدوره في عدم الاستقرار على المستويين الاجتماعي والسياسي، وفي النهاية اندلاع العنف في ديسمبر 2013.

كان من الواضح أن اتفاقية تسوية النزاع بجمهورية بجنوب السّودان لن تصمد لأنها لم تخلق التوازن الاجتماعي والسياسي المطلوب، ولم تستطع التحكم في الواقع الذي أوجدته الحرب الأهلية. لذلك كان استئناف الحرب أمرًا لا مفر منه، ناهيك عن أن القوى التي أصرت على مواصلتها (كير / تعبان / ملونق) لم تملك القدرة السياسية والعسكرية على تحقيق انتصار عسكري واضح. وقد أدى ذلك إلى تصعيدها، وانتشارها في مناطق جديدة في الاستوائية وغرب بحر الغزال، مع ظهور وانتشار جماعات المعارضة المسلحة.

يعكس تكاثر الجماعات السياسية التي تعارض ديكتاتورية جوبا الإثنيّة و الكليبتوقراطية، حقيقة مفادها أن شعب جنوب السّودان لا يرغب في تكرار تجربة الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان إبان حرب التحرير الوطني. أدى اندلاع عنف ديسمبر 2013 إلى خلق ظروف الثورة الاجتماعية في جنوب السّودان، ولن يستغرق الأمر طويلًا قبل اندماج مجموعات المعارضة في ائتلاف أوسع، هدفه تحقيق التحول الاجتماعي في عموم جنوب السّودان. إن ظهور مجموعات اجتماعية وسياسية مختلفة، تكافح من أجل

التغيـير الاجتماعـي هـو تمهيـد لثـورة وطنيـة ديمقراطيـة. يمثـل هـذا ابتعـاد عـن منهجيـة الحركـة/ الجيـش الشـعبي خـلال حـرب التحريـر الوطنـي، وأيضًـا عـن منهـج الحركـة/ الجيـش الشـعبي - في المعارضـة. لم تملـك الحركتـان أهـداف سياسـية واضحـة، رغـم حرصهـما عـلى ممارسـة الوصايـا عـلى الجميـع. بهـذا المنظـور، فـإن عمـل المنتـدى رفيـع المسـتوى عـبر الاتفاقيـة هـو محاولـة لتقويـض الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة. وبـدلًا مـن منـح قـوى المعارضـة الوقـت الـكافي للتنظيـم والمواءمـة، والتوحـد في جبهـة قـادرة عـلى إحـداث التغيـير، حرصـوا عـلى خيـار حكومـة الوحـدة الوطنيـة الانتقاليـة والمحاصصـة.

يدعـو السـياق الاجتماعـي والسـياسي الجديـد جميـع القـوى الثورية الوطنيـة الديمقراطيـة المعارضـة، السياسـية والمسـلحة، إلى تشـكيل إتحـاد يمكنهـم مـن العمـل الجماعـي ضـد النظـام. هنـاك حاجـة للاعـتراف المتبـادل، وقبـول الآخـر، باعتبـار الجميـع أصحـاب مصلحـة متسـاويين، رغـم الاختلافـات السياسـية والأيديولوجيـة. سـيؤدي ذلـك إلى إجـماع حـول عمليـات التنمية الاجتماعيـة، والاقتصادية، والسياسـية، بهـدف معالجـة قضايـا الفقـر، والجهـل، والأميـة، التـي يعانيهـا شـعب جنـوب السّـودان. هـذا هـو الخـط الأسـاسي للعمـل السـياسي، ويشـمل الفلاحـين، والعـمال، وصغـار رجـال الأعـمال، والمثقفـين. ومـن جميـع هـؤلاء ستتشـكل الجبهـة الوطنيـة الديمقراطيـة الثوريـة (NDRF)، مسـلحين ببرنامـج سـياسي، يشـمل جميـع جوانـب الحيـاة الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية لشـعب جنـوب السّـودان.

الهـدف السـياسي الاسـتراتيجي للثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة هـو تدمـير الدولـة الشـمولية، الإثنيـة، الكليبتوقراطيـة التـي أقامهـا كـير

في جنـوب السّـودان، وتشـييد دولـة وطنيـة ديمقراطيـة عـلى أنقاضهـا. سـتظهر هـذه الدولـة الوطنيـة الديمقراطيـة في سـياق النضـال مـن أجل الحريـة، والعدالـة الاجتماعيـة، والمسـاواة، والازدهـار، وتعكـس أسـمى تعابـير الأخـوة في جنـوب السّـودان. حيـث تكـون المواطنـة هـي أسـاس العلاقـات بـين الناس، ويسـود احـترام وتعزيز حقوق الإنسـان الأساسـية، والحريـات السياسـية والمدنيـة، عـلى النحـو المنصوص عليها في الدسـتور.

سـيكون هـذا التطـور خروجًـا جذريًـا عـن التطـور الكلاسـيكي للدولـة. تنـص الماديـة التاريخيـة عـلى أن الدولـة تطـورت مـن سـياق المجتمـع، لترتفـع وتصـير في علاقـة هرميـة مـع ذلـك المجتمـع. لكـن نمـوذج ظهـور الدولـة هـذا وتطورهـا تسـبب في معانـاة بشريـة كبـيرة. إن الوضـع الحـالي في جنـوب السّـودان، كـما هـو الحـال في العديـد مـن بلـدان أفريقيـا جنـوب الصحـراء الكـبرى، هـو إرث لهـذا البنـاء والتطـور والدولـة في هـذا السـياق نظـام قمعـي. الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة هـي عمليـة مدروسـة واعيـة لتفكيـك هـذه الدولـة. تقـوم الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة ببنـاء دولـة تضـم جميـع الطبقـات الاجتماعيـة التـي سـاهمت في بنـاء هـذه الدولـة، وبالتـالي، تظـل هـذه الطبقـات وتتطـور في علاقـة أفقيـة مـع بعضهـا البعـض. في هـذه الحالـة، وبمجـرد هزيمـة الدولـة القمعيـة مـن قبـل الجبهـة الديمقراطيـة، واسـتيلائها عـلى السـلطة، سـتبدأ تنفيـذ البرنامـج الثـوري الوطنـي الديمقراطـي، ومعالجـة التناقضـات الأوليـة والثانويـة التـي أعاقـت الجماهـير عـلى مـرّ السـنين. تجسـد الدولـة الوطنيـة الديمقراطيـة أعـلى تطلعـات شـعب جنـوب السّـودان، وسـتُمكّنهم مـن تحقيـق الحريـة، والعدالـة، والأخـوة، والازدهـار بشروطهـم الخاصـة.

أوضحت سابقًا أن بروز القومية الإثنيّة هو أحد محركات الحرب الأهلية الحالية. يتناقض هذا التوظيف السلبي للإثنيّة جذريًا مع المعطيات الإثنيّة، والدينية، والاجتماعية، والثقافية في جنوب السّودان. جاءت القومية الإثنيّة بسبب نزوع الرئيس كير لتعزيز هيمنة الدينكا في توزيع السلطة السياسية والاقتصادية في البلاد. يجب أن نذكر أنفسنا أن جنوب السّودان يضم 67 قومية أو مجموعة قومية، ذات أوزان ديموغرافية مختلفة، وتعيش مستويات متنوعة من التنمية الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية. وهذا يعني أن الانسجام الاجتماعي والسلام لا يتحققان إلا عندما تُدخل الإدارة السياسية هذه القوميات والجماعات القومية ضمن عمليات الهندسة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية للدولة. ويعكس التاريخ المعاصر للسودان وجنوب السّودان أن الإقصاء السياسي، والتمييز الاجتماعي، والتهميش الاقتصادي، والاستغلال من العوامل الحاسمة في الصراعات والحروب السابقة.

إحدى ضرورات تحويل الحرب الأهلية الحالية إلى ثورة وطنية ديمقراطية هو السلوك المخيف لكلا من كير ومشار، وخاصة أثنتة الصراع السياسي الداخلي في الحركة الشعبية لتحرير السّودان. هي خطوة أدت لتأليب المجتمعات ضد بعضها البعض. ينحدر كير ومشار من نفس التكوين الاجتماعي والأيديولوجي، لذا من السهل عليهما مخاطبة اختلافاتهما السياسية بعقلية إثنيّة. وهو ما يتضح من خلال تجنيد مليشيات الدينكا مثل «لنحمي الرئيس» و«مثيانق أنيور» لمحاربة النوير نيابة عن النظام، ومليشيا الجيش الأبيض لمحاربة الحكومة نيابة عن الدكتور مشار.

وهـذا هـو الجانـب المزعـج مـن الحـرب الأهليـة الحاليـة. حيـث لم تدمـر النسـيج الاجتماعـي الـذي بـدأ يتكـون عـبر الـزواج والتفاعـل الاجتماعـي فحسـب، بـل دمـرت أيضًـا رأس المـال الاجتماعـي الـذي ربـط هـؤلاء الأشـخاص معًـا لعـدة عقـود، ومكّنتهـم مـن مواجهـة أعدائهـم المشـتركين. إن مسـألة القوميـة الإثنيّـة في جنـوب السّـودان هـي أزمـة وطنيـة خطـيرة، تتطلـب معالجـات سريعـة عـلى المسـتويات الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية.

يتنـاول برنامـج الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة المسـألة الإثنيـة مـن منظـور علمـي يسـتهدف تصحيـح المظـالم التاريخيـة، والتصـورات الخاطئـة والمواقـف النفسـية التـي تؤثـر عـلى العلاقـات الاجتماعيـة والسياسـية الحاليـة في البـلاد. يرتكـز هـذا النهـج عـلى تطبيـق مبـدأ العدالـة، وتعنـي في الأسـاس المسـاواة والإنصـاف في توزيـع المـوارد الطبيعيـة والتنميـة المتكافئـة مـن أجـل تحقيـق الـثروة. هـذا عـلى المسـتوى الاقتصـادي، ولكنـه يحـدث أيضًـا عـلى المسـتوى السـياسي لأن الاقتصـاد، كـما يقولـون، هـو سياسـة مكثَّفـة. إن قـرار تنفيـذ مـشروع تنمـوي اقتصـادي في بقعـة معينـة، هـو في الجوهـر قـرار سـياسي هدفـه تطويـر المنطقـة وإحـداث تحـول في حيـاة الجماهـير. هـذا يذكرنـا بقـرار نظـام عبـود إنشـاء مصنـع سـكر الجنيـد في سـهل البطانـة بشـمال السّـودان، بـدلاً مـن منقـلا في إقليـم الإسـتوائية جنـوب السّـودان، رغـم تأكيـد دراسـات الجـدوى أن كلفـة الإنتـاج أرخـص في حـال نُفـذ المـشروع في منقـلا. كان هـذا المـشروع الاقتصـادي قـرارًا سياسـيًا للنظـام القمعـي بحرمـان إثنيـات البـاري، والبـيري والمُنـداري مـن التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة، غـض النظـر عـن الجـدوى

الاقتصاديـة للمـشروع. سـتقوم الدولـة الوطنيـة الديمقراطيـة بمراعـاة العدالـة في مشـاريع التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة في البـلاد.

مـن الـضروري أن تمنـح الدولـة الوطنيـة الديمقراطيـة لـكل مجموعة إثنيّـة حـق المشـاركة في الحيـاة الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية عـلى المسـتوى القومـي. هـذا بالإضافـة إلى أي مشـاريع خاصـة تعـزز فهمهـا لمكونـات السـلطة في الدولـة. إن قـدرة كل مجموعـة عـلى الاسـتفادة مـن المـوارد الماديـة والثقافيـة بالبـلاد تزيـل أسـباب التمييـز، والهيمنـة، والسـيطرة التـي تمارسـها القوميـات الكبـيرة. تضمـن الدولـة الوطنيـة الديمقراطيـة تزويـد الجميـع بالمـوارد الماديـة والتكنولوجيـة اللازمـة لتطويـر لغاتهـم وثقافاتهـم لتمكينهـم مـن التنافـس عـلى المسـتوى الوطنـي. مـن الناحيـة العمليـة، هـذا يعنـي شروع الدولـة الوطنيـة الديمقراطيـة في حملـة تنويـر وتثقيـف سـياسي بهـدف رفـع الوعـي الاجتماعـي والسـياسي للمواطنـين، بجانـب إنشـاء بنيـة تحتيـة ماديـة في جميـع أنحـاء البـلاد، تسـاعد في إحـداث تغيـير جـذري في مواقفهـم وتصوراتهـم الاجتماعيـة للواقـع، والاسـتفادة مـن القيمـة الاقتصاديـة الكامنـة في مواردهـم.

إن تغيـير مواقـف النـاس وتصوراتهـم الصحيحـة للواقـع الموضوعـي هـو أمـر أسـاسي لتحريـر الجماهـير مـن الجهـل والخرافـة. ليـس فقـط مـن أجـل التطـور الواعـي لقـوى الإنتـاج الوطنيـة، ولكـن أيضًـا بهـدف مكافحـة المعتقـدات، والعـادات، والممارسـات القديمـة، التـي تشـكل قاعـدة التمييـز الاجتماعـي. بحيـث يتمكـن النـاس مـن تصـور الروابـط المشـتركة التـي تربطهـم، مثـل الحـس القومـي المشـترك، والـذي بـكل تأكيـد سـيتغلب عـلى الارتبـاط المفـرط بالعشـيرة، والقبيلـة، والمنطقـة.

بهـذا تتعـزز الهويـة المشـتركة بمفاهيـم الارتبـاط الأخـوي والوطنـي، ويشـعر الجميـع بالمواطنـة المتسـاوية. إن معالجـة مسـألة الإثنيّـة / القوميـة هـو الهـدف الرئيـسي لتحويـل الحـرب الأهليـة إلى ثـورة تنهـي الكراهيـة والعـداوات الإثنيّـة التاريخيـة التـي اسـتغلها النظـام الشـمولي لتفتيـت النـاس عـلى أسـس إثنيّـة. وطالمـا كان اسـتهداف الأبريـاء عـلى أسـاس إثنـيّ هـو نتيجـة مبـاشرة لسياسـات النظـام الإثنيّـة، إذن مخاطبتهـا هـو شرط ضروري لنجـاح الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة. إنـه مفتـاح السـلام والوئـام الاجتماعـي، ومفهـوم «الوحـدة في التنـوع»، الـذي هـو حجـر زاويـة تشـكيل الدولـة وبناء الأمـة في جنوب السّـودان. بحيـث تذهـب الممارسـات البدائيـة والأبويـة في فهـم المجتمـع والدولـة إلى مزبلـة التاريـخ.

كذلـك تخاطـب الدولـة الوطنيـة الديمقراطيـة سـؤال الإثنيّـة / القوميـة عـلى المسـتويين الاجتماعـي والثقـافي، بهـدف محاربـة التقاليـد والمعتقـدات والممارسـات البالية المتأصلـة في الواقع الاجتماعـي: ونقصد الممارسـات والتقاليـد التـي تميـز أفـراد دون الآخريـن، وتجردهـم مـن إنسـانيتهم، ولا سـيما النسـاء والفتيـات. تـرى مجتمعاتنـا في المـرأة سـلعة يتـم اسـتبدالها بالماشـية، والخنازيـر، أو المـال في شـكل مهـور. تتعـارض هـذه الممارسـة مـع حقـوق المـرأة الأساسـية، ولا سـيما حـق الطفلـة في تلقـي التعليـم واختيـار شريكهـا في الحيـاة. كـما تتعـارض مـع حقوقهـا السياسـية والمدنيـة في القيـادة. إن مـا يسـمى التمييـز الإيجـابي، أيّ إعطـاء المـرأة نسـب معينـة في التمثيـل السـياسي والاجتماعـي، هـو شـكل مـن أشـكال العنصريـة يفـترض أن المـرأة أدنى مـن الرجـل، وبالتـالي، تحتـاج معاملـة خاصـة. بينـما الاختلافـات

المفترضة بين الرجل والمرأة هي في الأساس اجتماعية وسياسية في مجتمع يسيطر عليه الذكور. من هنا تكون إحدى أولويات الثورة الوطنية الديمقراطية هي تحرير المجتمع من التقاليد البغيضة التي تميز الناس على أساس الجندر.

يتطلب تغيير الطريقة التي يتواصل بها الناس مع بعضهم البعض عمل أكثر من تغيير ظروفهم المادية؛ كما تتطلب إرادة سياسية قوية لمكافحة الجهل، والتعصب الإثنيّ، والشوفينية. هي إذن ليس مهمة سهلة. إحدى الطرق التي تعالج بها الدولة الوطنية الديمقراطية هذه المشكلة، هي نشر المعرفة، وإدخال نظام التعليم الابتدائي الشامل والإلزامي، بالإضافة إلى حملات محو الأمية كبار السن. يُعد هذا من أهم مكونات الثورة الوطنية الديمقراطية. ورغم أن نسبة الأمية في جنوب السّودان حوالي 70 %، إلا أن الثورة الوطنية الديمقراطية تمنح فرصة نادرة للاستفادة من تجارب الثورة الكوبية وتجربة إثيوبيا في محو الأمية. ومعلوم أن معرفة القراءة والكتابة تمكن الناس من تطوير المهارات وتسخير التكنولوجيا والتقنيات في إحداث تغيير نوعي في حياتهم.

يجب أن ترافق التدابير المذكورة تشريعات تجرم التنميط الإثنيّ أو المناطقيّ. ليس من السهل التخلي عن العادات السيئة، وقد يستغرق الأمر بعض الوقت حتى يتخلى الناس عنها ويمحوا من عقولهم الكلمات والأسماء المهينة. كانت لدينا تجربة في جمعية شباب بحر الغزال للتنمية أثناء حرب التحرير. اتخذنا حينها قرارًا بمبادرة الشباب بحظر ومحاربة التنميط الإثنيّ أو القبلي التي تتجلى في استخدام كلمات أو أسماء مهينة، مثل لفظة «فرتيت»،

أو إطلاق أسماء خاطئة على الجماعات الإثنية[1]. وكان أن رفضت مجموعات «لو» و«بيلي» منادات الدينكا لهم بلفظة جور. فكلمة جور (jur) في لغة الدينكا تعني حرفياً «أجنبي»، ما يعني أن جماعات «لو» و«بيلي» وافدين حديثين للمناطق المجاورة للدينكا، بينما العكس هو الصحيح، لأن الدينكا هم الذين هاجروا إلى تلك الأرض. كانت الفكرة من هذه المناقشات هي تفادي الأسماء التي تنزع الطابع الإنساني عن الأفراد، وضرورة أن ننادي بعضنا البعض بالأسماء الملائمة. في هذا الصدد، انتقدت جمعية تنمية شباب بحر الغزال قادة الحركة الشعبية لتحرير السّودان في ممارسة سلوك الاستعماريين عن طريق تغيير أسماء المناطق، كما في كوش الجديدة «New Kush» ونيو سايت New Site "»، لتحل محل أسماء قبيلة الديدنقا الأصلية لهذه المناطق، هيمان (Heiman) وناتينقا (Natinga) على التوالي.

أهمية معالجة مسألة الإثنيّات / القوميات على المستويات الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية أمر بالغ الأهمية، يرتبط بشكل عضوي بالوعي الاجتماعي والسياسي للشعب، كما يقلل من حدة التناقضات على المستوى السياسي. لاحظنا في الثقافات السياسية في الاقتصاديات المتقدمة أن التنافس على السلطة نادرًا ما يُترجم إلى عنف، عكس الحال في العديد من البلدان الأفريقية. إن الجهل وانعدام الوعي السياسي من جانب الجماهير، وضعف المؤسسات، وسلعنة الإثنية في السوق السياسية من قبل النخبة، تجعل التنافس على السلطة قنبلة موقوتة. ترتبط عمليات محو

(1) تُستخدم لفظة فرتيت لوصف حوالي 25 مجتمعًا إثنيًا في منطقتي غرب واو وراجا بغرب بحر الغزال.

الأميـة، والقـدرة عـلى القـراءة والكتابـة، بمفاهيـم الوعـي الاجتماعـي والسـياسي، إذ يجـب أن تتضمـن هـذه العمليـات بالعمـل عـلى معرفـة النـاس حقوقهـم وواجباتهـم. لـذا لا تنفصـل معالجـة مسـألة الإثنيّـة مـن قضيـة محاربـة الجهـل. هـما أمـران مترابطـان، ومـن صميـم الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة.

وهـذا يقودنـا إلى قضيـة معالجـة الفقـر، والـذي يعتـبر عائقًـا كبـيرًا أمـام السـعادة البشريـة في جنـوب السّـودان. الفقـر هـو حالـة الحرمـان الشـديد مـن الغـذاء، والميـاه النظيفـة، والسـكن اللائـق، والخدمـات الطبيـة والتعليميـة، والبيئـة النظيفـة و يجعـل الحيـاة بائسـة وقصـيرة. إنـه تعبـير عـن التخلـف الاجتماعـي، والاقتصـادي، والثقـافي الـذي ينعكـس في المـؤشرات الاجتماعيـة والاقتصاديـة للدولـة. الغالبيـة العظمـى مـن سـكان جنـوب السّـودان مزارعـون قرويـون، يعيشـون أنمـاط حيـاة فلاحيـة، أو رعويـة، أو مختلطـة. وهـو مـا يجعـل الزراعـة الدعامـة الاقتصاديـة للشـعب ووسـيلة توليـد الـثروة، وبالتـالي يكـون التخلـف الزراعـي المحـرك الأسـاسي للفقـر في جنـوب السّـودان. فيـما يـلي سـنتحرى ونحـدد نطـاق ومحـركات الفقـر في جنـوب السّـودان.

الفقـر في جنـوب السّـودان هـو تعبـير عـن سياسـات التخلـف التـي انتهجهـا الاسـتعمار في المقاطعـات الجنوبيـة للسـودان، فضـلًا عـن التنميـة غـير المتكافئـة. وهـي سياسـة أتقنتهـا، وتعمـدت تنفيذهـا، الحكومـات الوطنيـة التـي يهيمـن عليهـا العـرب، بهـدف منـع انفصـال جنـوب السّـودان. في عـام 1947، أنشـأت الإدارة الاسـتعمارية مجلـس مـشروع الاسـتوائية (Equatoria Project Board) لتطويـر الإمكانـات الزراعيـة في وسـط وغـرب الاسـتوائية. ومـع اسـتقلال السّـودان كان

مـشروع أنـزارا الزراعـي ينتـج بالفعـل النسـيج، والصابـون، والسـكر، وزيـت الطعـام، والأخشـاب. كان نموذجـا للتنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة و حسـنت ظـروف الحيـاة في أرض الأزانـدي. أدخلـت زراعـة القطـن لتغذيـة أقسـام الحلـج والغـزل، وهـذا غـيّر بالفعـل اقتصـاد الأزانـدي مـن خـلال تحقيـق مداخيـل نقديـة لسـكان المنطقـة. في نفـس السـياق أنشـئ مجمـع منقـلا لصناعـة السُـكّر والصناعـات الزراعيـة.

مـن الـضرورة معرفـة ان مسـببات الفقـر في جنـوب السّـودان هـي التخلـف في وسـائل الإنتـاج، والتـي يجـب مقاومتهـا مـن خـلال الاسـتخدام السـليم لـلأرض، وتوظيـف أدوات الحراثـة، مـن أجـل دعـم إنتـاج المحاصيـل الغذائيـة والنقديـة. تعـاني أجـزاء كثـيرة مـن البلـد مـن «فجـوة غذائيـة» دائمـة، مـما يشـير إلى أن العائـد مـن إنتـاج المحاصيـل السـنوي لا يكفـي النـاس حتـى مجـيء موسـم الحصـاد التـالي. وذلـك لأن الممارسـة الزراعيـة تعتمـد عـلى الطبيعـة وتقلبات الطقـس، والعمل اليـدوي، والبـذور التقليديـة، مـما يجعـل زراعـة الكفـاف غـير متوقعـة ومحفوفـة بالمخاطـر. وهـذا النـوع مـن الإنتـاج الزراعـي لا يمكـن أن يولـد فائضًـا يمكـن للفلاحـين بيعـه مقابـل شراء الضروريـات الأخـرى.

أثنـاء المجاعـات لا يكـون أمـام الفلاحـين سـوى خياريـن: بيـع الماشـية، أو الاعتـماد عـلى أقاربهـم في المـدن، ويظلـون هكـذا في دائـرة جـوع مفرغـة دائمـة. تتطلـب معالجـة هـذه المشـكلة حسـم الأمـن الغـذائي في البـلاد، مثـل ضروريـة إدخـال الأدوات الزراعيـة الحديثـة لتعزيـز الإنتـاج في المحاصيـل الغذائيـة والنقديـة. مـن الممكـن ايضًـا إدخـال الزراعـة الآليـة والمرويـة عـلى نطـاق واسـع في جميـع أنحـاء

جنـوب السّـودان مـن أجـل الإنتـاج التجـاري للمحاصيـل الغذائيـة: الـذرة الرفيعـة والشـامية، والأرز، والشـعير والفـول؛ وكذلـك المحاصيـل النقديـة مثـل السمسـم، وعبـاد الشـمس، والقطـن، والفـول السّـوداني. يجـب أن يبـدأ تحديـث الزراعـة بأسـتخدام أدوات ميكانيكيـة بسـيطة (محـراث الثـور) الـذي يفهمـه المزارعـون ويمكنهـم إدارتـه بأنفسـهم في الحيـازات العائليـة الصغـيرة (أقـل مـن عـشرة فدادين).

ربمـا يكـون مـن الصعـب اسـتخدام محـراث الثـور في الإنتـاج الزراعـي ، خاصـة لـدى المجتمعـات التـي تبجـل أو تمجـد حيـازة البقـر. ومـع ذلـك، فـإن الـضرورة الناتجـة عـن المجاعـة وانعـدام الأمـن الغذائي أجـبرا النـاس في المـاضي عـلى اسـتخدام الماشـية في الإنتـاج الزراعـي. في عـام 1998، في أعقـاب المجاعـة المدمـرة التـي قتلـت عـشرات الآلاف في بحـر الغـزال، قـام الفلاحـون، الذيـن كانـوا حتـى الآن مترددين أو ومعاديـن لاسـتخدام الماشـية في الإنتـاج الزراعـي، بتقديـم الثـيران مـن أجـل التدريـب عـلى اسـتخدامها في الحقـول، وبالفعـل وجـدوا أنهـا مربحـة وأنتجـوا محاصيـل فائضـة، وتمكنـوا لاحقًـا مـن بيـع فائـض المحصـول، وزيـادة عـدد قطعانهـم. يتطلـب التغيـير نـشر الوعـي: الإعـتراف بأهميـة الأمـن الغـذائي مـن خـلال التعلُّـم المشـترك وتمكـين الرُعـاة، ودفعهـم إلى تغيـير نظرتهـم التقليديـة واسـتخدام ماشـيتهم في الزراعـة.

تقـوم الثـورة الزراعيـة عـلى توظيـف العلـوم والتكنولوجيـا لزيـادة الإنتاجيـة وفائـض في هـذا القطـاع الاقتصـادي. إن تحديـث الإنتـاج الزراعـي مـن خـلال اسـتخدام التكنولوجيـا، وإدخـال تقنيـات الـري في بعـض المناطـق الجافـة، يقلـل بالتأكيـد مـن نقـاط الضعـف التـي

تسببها تقلبات الطقس. ويضمن للمزارعين زيادة المحاصيل، مما يستوجب الوصول إلى الأسواق المحلية، والإقليمية، والدولية. بهذه الطريقة يمكن لجنوب السّودان الاستفادة من الإمكانات الهائلة في إنتاج البذور الزيتية (سمسم، عباد الشمس، بذور القطن، والفول السّوداني)، والصمغ، والأخشاب، والذرة الرفيعة الشامية، وغيرها من المحاصيل. أهم جانب للثورة الزراعية هو إدخال تكنولوجيا الصناعات التحويلية وزيادة قيمة عائد الزراعة. وهذا يعني إنشاء منشآت صناعية زراعية لمعالجة المواد الخام، وتصنيع المنتجات للأسواق المحلية والعالمية، وتوفير فرص عمل، يكون نتيجتها تطور طبقة عاملة متطورة وواعية، وقادرة على تعزيز التنمية، والمشاركة في الهندسة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية للدولة.

القطاع الرعوي والبدوي، في جميع أنحاء العالم، هو الأكثر تخلفًا، ومحافظةً، ومقاومة للتغيير. يجب أن تولي الثورة الوطنية الديمقراطية اهتمامًا كافيًا بهذا القطاع. تشير التقديرات إلى أن جنوب السّودان يضم أكثر من 12 مليون رأس من الماشية، وملايين الخراف والماعز. لكن النظرة التقليدية ترى في هذه القطعان أصولًا ثقافية وليس اقتصادية. يجب أن تخاطب الثورة الزراعية البعد الاجتماعي الثقافي، من أجل تحويل هذه الثروة الحيوانية الهائلة إلى موارد اقتصادية وتجارية، وإدخال الأساليب الحديثة والعلمية في تربية الحيوانات. يتطلب تحقيق هذا إحداث قطيعة تامة مع طرق تربية الحيوانات التقليدية، من خلال إنشاء مزارع تعاونية واسعة النطاق تضع في حسبانها المحافظة على البيئة. إن تطوير وتحديث قطاع الثروة الحيوانية له قيمة ثورية إضافية، مثل حل

عـلاج بعـض الممارسـات التقليديـة السـلبية وسـط المجتمعـات الزراعية، والرعويـة، والبدويـة، والتـي تؤثـر سـلبًا عـلى الحقـوق الأساسـية للمـرأة والطفـل، إذ لا يحـرص المزارعـون و القرويـون عـلى إرسـال أطفالهـم، وخاصـة الفتيـات، إلى المـدارس.

تقـع جنـوب السّـودان ضمـن المنطقـة الاسـتوائية، ولديها مسـاحات شاسـعة مـن الغابـات والمـزارع الطبيعيـة، وبصـورة أساسـية أشـجار الأخشـاب الصلبـة مثـل التيـك، والماهوقنـي، والسـيدرلا، خاصـة في غـرب بحـر الغـزال، وأجـزاء مـن شرق الاسـتوائية. يمكـن العثـور عـلى الغابـات الطبيعيـة المكونـة مـن شـجرة الأكاسـيا السـنغالية و(الصمـغ) في أعـالي النيـل، وشـمال بحـر الغـزال، وشرق الاسـتوائية. ينتـج شـمال أعـالي النيـل مـا يقـرب مـن 45 % مـن إنتـاج العـالم مـن الصمـغ. لـذا فـإن تطويـر الغابـات والحفـاظ عليهـا جـزء مهـم مـن برنامـج الثـورة لحمايـة البيئـة، ولكنهـا أيضًـا مصـدرًا للـثروة. هـذه الغابـات والأراضي الرطبـة موطنًـا لحيـاة بريـة غنيـة، تضيـف قيمـة اقتصاديـة سـياحية للبـلاد. مـن الأهميـة ربـط السـياحة والحيـاة البريـة بالحفـاظ عـلى البيئـة وحمايتهـا، لا سـيما فيـما يتعلـق بظاهـرة تغـير المنـاخ. سـتكون هـذه مسـاهمة الثـورة في الحـد مـن التدهـور البيئـي.

يتمتـع نهـر النيـل، وروافـده، والأراضي الرطبـة التـي تخلقـه، بمـا في ذلـك منطقـة سُـود (بحـر الجبـل)، بإمكانيـات هائلـة في تربيـة الأحيـاء المائيـة: الأسـماك، والزواحـف والنباتـات، مـما يسـاهم في الأمـن الغـذائي ليـس فقـط لسـكان الأنهـار، ولكـن للآخريـن أيضًـا. مـن الـضروري تطويـر وتحديـث هـذا القطـاع مـن أجـل تغيـير حيـاة مـن يعيشـون عـلى طـول هـذه المجـاري المائيـة. يجـب إدخـال الأسـاليب والتقنيـات

العلميـة، بمـا في ذلـك الطُـرق الحديثـة في تربيـة الأسـماك. ونظـرًا لأن نهـر النيـل وروافـده توفـر وسـائل رخيصـة النقـل والاتصـالات، فمـن الـضروري تجريـف أحواضهـا بشـكل دوري للحـد مـن الطمـي الـذي يعـوق قنواتـه.

تمثـل النقـل والإتصـالات مشـكلة في أجـزاء مختلفـة مـن جنـوب السّـودان بسـبب نقـص شـبكات الطـرق المعبـدة. وهـذا يعنـي صعوبـة الوصـول إلى معظـم أجـزاء البـلاد خـلال مواسـم معينـة مـن السـنة. تتمثـل إحـدى أولويـات الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة في بنـاء شـبكات الطـرق، والجسـور، والسـدود، مـن أجـل ربـط البـلاد وتسـهيل وصـول السـكان إلى الخدمـات الاجتماعيـة والاقتصاديـة. كـما أن لهـا بعـد سـياسي هـام، وهـو ربـط لُحمـة النـاس، وتعزيـز التماسـك والسـلام الوطنيـين. مـن المهـم ملاحظـة أن تطويـر وتشـييد البنيـة التحتيـة الماديـة تـأتي في مقدمـة الثـورة الصناعيـة. ويمثـل إنتـاج الطاقـة محـركًا للتصنيـع في جنـوب السّـودان. هنـاك إمكانـات هائلـة لإنتـاج الطاقـة الكهرومائيـة في الأنهـار والجـداول في جميـع أنحـاء جنـوب السّـودان، يجـب عـلى الحكومـة تسـخيرها وتوزيعهـا مـن خـلال بنـاء خطـوط نقـل الطاقـة إلى كل أجـزاء البـلاد. تشـمل مصـادر الطاقـة الأخـرى، الطاقـة الشمسـية، وطاقـة الريـاح، والمـوارد البيولوجيـة، والتـي مـن شـأنها تعزيـز الطاقـة الكهرومائيـة. إن حصـول الجميـع عـلى الكهربـاء مـن أولويـات الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة.

يرتبـط تطويـر البنيـة التحتيـة الماديـة بتوفـير السـكن اللائـق للنـاس في المناطـق الحضريـة والريفيـة. سـيكون مـن الـضروري تغيـير أنمـاط المسـتوطنات الانفراديـة المشـتتة التـي تمارسـها بعـض المجتمعـات

مـن خـلال برامـج إنشـاء مراكـز حضريـة وقُـرى نموذجيـة مـن أجـل تحسـين نوعيـة حيـاة النـاس. ومـن الـضروري إشراك القرويـين في الثـورة الثقافيـة في سـبيل إبـراز ثقافـة وطنيـة تقدميـة.

التعليـم العـالي هـو المحـرك الرئيـسي للتنميـة الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والثقافيـة مـن خـلال إنتـاج المعرفـة ونقلهـا، ولـه دور كبـير في الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة. سـتكون هنـاك حاجـة لإرسـاء الديمقراطيـة، وجعـل التعليـم العـالي في متنـاول الجماهـير. ومـن الـضروري بنـاء حـرم جامعـي عـلى مسـتوى عالمـي، وكليـات فنيـة، ومعاهـد للفنـون التطبيقيـة، مـن أجـل توفـير تعليـم عـالي الجـودة، وتخريـج مهنيـين وقـوة عاملـة متخصصـة، خاصـة في المؤسسـات الإنتاجيـة، يقـع عـلى عاتقهـا تسريـع عمليـات التصنيـع والتحديـث في جنـوب السّـودان.

يجـب أن تؤسـس الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة لسياسـة قائمـة عـلى الأفـكار والبرامـج العمليـة، بـدلاً عـن الشـخصنة والمحسـوبية السياسـية كـما حـدث في جنـوب السّـودان عـلى مـدى الثلاثـة عقـود الماضيـة. تظهـر أهميـة ومكانـة الأيديولوجيـا في الهندسـة الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية في جنـوب السّـودان في عمليـة بنـاء الدولـة القائمـة عـلى مبـادئ الحريـة، والعدالـة الاجتماعيـة، والازدهـار، والأخـوة، وقيـم احـترام الحقـوق والحريـات الأساسـية للإنسـان، مـما يسـهم في محاربـة ظواهـر القبليـة، والفسـاد، والانحـلال.

الثـورة الديمقراطيـة الوطنيـة هـي عمليـة تنطـوي عـلى مراحـل مختلفـة. ناقشـت في هـذا الكتـاب فشـل الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان- في المعارضـة في تحويـل الحـرب الأهليـة إلى ثـورة

وطنيـة ديمقراطيـة. ينبـع هـذا الفشـل مـن حقيقـة أن أجنـدة قيادتهـا لم تتمحـور حـول التغيـير الاجتماعـي، بـل السـلطة. حـول الرئيـس كـير الـصراع عـلى السـلطة في المكتـب السـياسي للحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان إلى صراع عسـكري أشـعل الحـرب الأهليـة، بينـما رفـض مشـار تحويـل العـدوان العسـكري إلى ثـورة شـاملة لشـعب جنـوب السّـودان بـكل انتماءاتهـم الإثنيّـة والمناطقيّـة، فاضطـر إلى وقـف الحـرب والتفـاوض عـلى اتفاقيـة سـلام مـع الحكومـة.

لم يصمـد السـلام الموقـع في أغسـطس 2015، بسـبب رفـض الرئيـس كـير مشـاركة السـلطة مـع مشـار. وقـد أدت صعوبـات التنفيـذ لإذكاء نـار الحـرب مـرة أخـرى، وانهيـار الاتفاقيـة. وبعـد مـا يقـرب مـن عامين مـن المماطلـة، والانتهازيـة، والتسـويف، عـلى أمـل أن يقـضي كـير عـلى خصمـه عسـكريا، خـرج وسـطاء الإيقـاد بمـا يسـمى بالمنتـدى عـالي المسـتوى لتنشـيط اتفـاق تسـوية النزاعبجمهوريـة جنـوب السّـودان. شـملت أهدافـه إعـادة الإلتـزام بوقـف إطـلاق النـار، والتنفيـذ الكامـل والشـامل لنصـوص الاتفاقيـة، ووضـع جـدول زمنـي منقـح وواقعـي لتنفيـذ الاتفاقيـة، حتـى بلـوغ مرحلـة الانتخابـات الديمقراطيـة بنهايـة الفـترة الانتقاليـة. وضـع المنتـدى أهدافًـا غـير واقعيـة، لا سـيما مـدة الفـترة الانتقاليـة (30 شـهرا) قبـل موعـد الانتخابـات. منح هـذا الترتيب الرئيـس كـير فرصـة أخـرى لتمديـد فـترة ولايتـه التـي تنتهـي في مايـو 2015، بعـد أن مـدّ فترتـه بعـد شـنه حـرب ديسـمبر 2013. ينبغـي أن يضـع النـاس في اعتبارهـم أنـه دون تحـول جـذري في النظـام الإثنـيّ، الشـمولي، الديكتاتـوري لـن يكـون مـن الممكـن إجـراء انتقـال سـلمي للسـلطة، سـواء عـن طريـق الانتخابـات الديمقراطيـة أو الليبراليـة.

تكمـن أهميـة المنتـدى رفيـع المسـتوى لإعـادة تنشـيط الاتفاقيـة في إمكانيـة فـرض وقـف دائـم للأعـمال العدائيـة، وجعـل السياسـة، والسياسـة الديمقراطيـة خاصـة، تحتـل مركـز الصـدارة في الهندسـة السياسـية لمـا بعـد الـصراع، ووسـيلة تخليـص البـلاد مـن المقاومـة المسـلحة الرجعيـة التـي أنتجـت أمـراء الحـرب، ونقـل البـلاد إلى سـاحة النضـال السـياسي، تكـون فيـه للطاقـات العقليـة (الفكريـة والمعرفيـة)، بـدلاً مـن الجسـدية (العنـف والجيـش) اليـد العليـا. ومـع ذلـك، يجـب أن ننتبـه إلى أن المنتـدى وأي اتفـاق ينشـأ عنـه قـد أن يعيـدان نفـس الظـروف التـي أدت إلى قتـال يوليـو 2016.

يجـب النظـر إلى أي اتفـاق تحققـه القـوى الاجتماعية والسياسـية في المنتـدى كمرحلـة نضاليـة مـن أجـل الديمقراطيـة، والحريـة، والعدالـة، والازدهـار. لقـد بلغنـا هـذه المرحلـة بسـبب إخفـاق الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان- في المعارضـة في بنـاء قواتهـا العسـكرية وخلـق برنامـج سـياسي مـن شـأنه توحيـد القـوى الاجتماعية والسياسـية التـي تكافـح ضـد النظـام الإثنـي، الكليبتوقراطـي، الشـمولي. يمثـل مـا يقـوم بـه المنتـدى فرصـة لعـودة القانـون والنظـام، وسـيمكن القـوى السياسـية الاجتماعيـة والديمقراطيـة مـن إعـادة تجميـع صفوفهـا، والتنظيـم، مـن أجـل مواصلـة النضـال وإكـمال الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة. إن القـوى الثوريـة، لمـا في ذلـك قـوى الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة، لـن تتخـلى عـن أدواتهـا النضاليـة، بـل تشـحذها مـن أجـل الهجـوم النهـائي عـلى النظـام. يجـب أن تسـتغل القـوى الثوريـة الفـترة الفاصلـة في الدراسـة، والتعلـم، والتنظيـم، ووضـع اسـتراتيجيات وتكتيـكات جديـدة للـصراع. وقـد وضحـت لنـا التجربـة الأخـير إن

الجماهير مستعدة للتضحية من أجل قضية الحرية والعدالة.

المهمة العاجلة هي العمل من أجل الوحدة التنظيمية والسياسية لقوى المعارضة، وبناء إجماع حول ائتلاف هدفه الديمقراطية وإنقاذ البلاد. يتكون التحالف، ونطلق عليه اسم الجبهة الوطنية الثورية الديمقراطية (NDRF) من جميع القوى السياسية الاجتماعية والديمقراطية والثورية في جنوب السّودان. وهو كيان له بيان، وبرنامج سياسي، ودستور، يستخدم الأساليب القانونية والدستورية للنضال. وهو ما يعني ضرورة أن يكون لكل عضو مؤسّس وجود قانوني مسجل لدى لجنة الأحزاب السياسية.

إن تنظيم المجتمع والاقتصاد هو القصد من وراء كل ثورة هدفها تغيير ظروف التخلف الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي. والهدف الأساسي للثورة الوطنية الديمقراطية هو بناء دولة حديثة في جنوب السّودان، ويعني ضمنًا تطور مجتمع مثقف، وسلمي، ومتناغم، قائم على المعرفة في جنوب السّودان. مجتمع يتميز بالأتمتة الفعالة للزراعة، والصناعة، والإنتاج، من خلال التطبيق الفعال للمعرفة في مجالات العلوم والتكنولوجيا. فالثورات الزراعية، والصناعية، والثقافية مكونات أساسية للثورة الوطنية الديمقراطية، بقيادة العناصر الثورية والوطنية من البرجوازية الصغيرة. ومن المهم التأكيد على «العناصر الوطنية» لأن البرجوازية الصغيرة بطبيعتها ليست طبقة مستقرة. وعلى حد تعبير أميلكار كابرال، لكي تقود البرجوازية الصغيرة الجماهير يجب أن تنتحر طبقيًا، وتُبعث مع الفلاحين والعمال الثوريين. عندما اقترحنا تحويل الحرب الأهلية إلى ثورة وطنية ديمقراطية كان هدفنا هو تثوير

وإضفاء الشرعية على الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة، لأنها نشأت في ظروف تخترقها المذابح الإثنيّة، والانتقام، والثأر المضاد. كان من الضروري رسم خط بين الحرب الرجعية والثورية من حيث الأيديولوجيا، والأهداف السياسية الاستراتيجية، والتنظيم، وأساليب النضال، وبكل تأكيد القوانين واللوائح.

بدأت الثورة بالفعل في المناطق التي كانت فيها للحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة السيطرة المادية على الأراضي والسكان. لكن هيمنة الجناح اليميني الرجعي في قيادته أعاق نمو الوعي الاجتماعي والسياسي لدى الجماهير. وهكذا خاضت الحركة الشعبية- في المعارضة الحرب من أجل أهداف سياسية واهية، تتمثل في تقاسم السلطة وإصلاحات سطحية في النظام. واستندت التعبئة السياسية على عسكرة السكان دون توعيتهم سياسيًا. وفي هذا السياق، فشلت الحركة الشعبية - في المعارضة في بناء مجتمع مُضاد يختلف عن المجتمع القبلي والمُضطهد في ظل النظام الشمولي. لن تسعى الثورة الوطنية الديمقراطية للقتال من أجل الاستيلاء على السلطة في جوبا فقط، ولكن لتغيير المجتمع بما يتوافق مع عملية هندسية اجتماعية وسياسية منتظمة.

لا يمكن توريث القيم، والمواقف، والثقافة المشتركة، بل هي نتيجة تطور وتنظيم القوى الاجتماعية للإنتاج. تكمن أهمية الثورة الوطنية الديمقراطية، تحت قيادة القوى الديمقراطية التقدمية، في وضع أيديولوجيا تُرسي وتعزز الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج، مما يمنح الدولة الديمقراطية السيطرة على وسائل الإنتاج الرئيسة. سيتم تدريب الناس على استيعاب هذه المفاهيم، والبدء

في ممارستها في أقرب وقت ممكن. يجب على قيادة الثورة الوطنية الديمقراطية أن تترجم هذه الأفكار في برنامج وإطار سياسي، وفق استراتيجيات واضحة من أجل تحقيق الأهداف السياسية للثورة.

تخضع المحتويات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، لسياق زمني محدد. تكمن الأهمية الاستراتيجية للعمل العسكري في إضعاف قاعدة النظام الشمولي، وأجهزته العسكرية والأمنية القمعية، وتدميرها في نهاية المطاف. ومع ذلك، سيكون من الضروري مواءمة العمل العسكري والانتصارات ضد العدو مع العمليات الاجتماعية والسياسية، من حيث رفع مستويات الوعي الاجتماعي والسياسي. يجب بناء علاقات تضامن بين المقاتلين والجماهير، وكذلك مشاعر الوحدة وتجاوز الحدود الإثنيّة والمناطقية. والهدف من هذا هو تصحيح الأخطاء التي ارتكبت خلال حرب التحرير الوطني، عندما انقلب الجيش الشعبي ضد الأشخاص الذين ادعى أنه يحارب من أجل تحريرهم. يؤدي النضال المشترك ضد الديكتاتورية الاستبدادية الإثنيّة إلى تطور ثقافة وطنية مترفعة عن الإثنيّة، والعشائرية، والشوفينيّة، والتعصب. يضمن حدوث هذا خلو المستقبل ممن يتفاخر بتحريره الجماهير، وذلك كون الجميع قد شارك فعلًا في العمليات الاجتماعية، والسياسية، والعسكرية التي أدت إلى تدمير النظام. بهذا تكون هذه الثورة مشروعًا تشاركيّاً.

الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج

يخشى اليمينيون، والنيوليبراليون، والمدافعون عن الرأسمالية في جنوب السّودان من فكرة الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج، التي تقترح تشكيلًا اقتصاديًا، ويحاولون تجنب الحديث عنها. من الضروري شرح هذا المفهوم والفلسفة الكامنة وراءه. فالحقيقة الموضوعية هي إن جنوب السّودان دولة متخلفة اجتماعيًا، واقتصاديًا، وثقافيًا. لا توجد مصانع خاصة، أو مخططات زراعية واسعة النطاق، أو خطوط سكة حديد، أو مصانع توليد كهرباء. ولن تكون موجودة في جنوب السّودان، ببساطة، لأنه لا يوجد رأس المال اللازم لإنشائها. راكم الرأسماليون الطفيليون من السّودانيون الجنوبيون ثرواتهم عبر الفساد والسرقة الصريحة من الخزائن العامة، وبدلاً عن تطوير الاقتصاد الوطني والاستثمار فيه، خزنوا هذه الأموال المسروقة خارج البلاد.

تعيش الرأسمالية الطفيلية في جنوب السّودان مرحلة تراكم، واستغلال، ونهب بدائي، دون الاهتمام بتوظيف المال المنهوب أو العمل على تجديد الثروات الطبيعية المستغلة، بينما تركز الكومبرادورية الرأسمالية العالمية اهتمامها في جني أرباح ضخمة بأقل تكلفة، من خلال وكلائها الإقليميين. ويتضح هذا في سعي رأس المال العالمي في الاستثمار في المواقع التي بلغت مستوى معين من التنمية الاجتماعية والاقتصادية من حيث البنية التحتية المادية والمالية (البنوك وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات)، وذلك للحصول

على عائدات سريعة على الاستثمارات. لن يأتي أي مستثمر، مهما كان ثريًا، لإنفاق المال في جنوب السّودان في حال اضطر لبناء الطرق وتوليد الكهرباء المطلوبة لتنفيذ مشاريعه، بل يفضلون التوجه لدول أخرى تتوفر فيها هذه المرافق، وبتكلفة أقل. و لن يأت مستثمر لإنشاء مصنع أسمنت من الأحجار الجيرية الضخمة في كبويتا، بسبب عدم وجود مشاريع طاقة. وهو ما يعني أن على حكومة جنوب السّودان وحدها الاستثمار في البنية التحتية المادية (الطرق، والطاقة، ووسائل النقل) لتمكين تطوير واستغلال هذه الثروات.

يمنع الجهل والتحيز الناس من هضم مفاهيم معينة، وبالتالي يولد سوء تفاهم غير مبرر. من المهم أن نضع مفهوم الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج في سياقها. يعنى هذا المفهوم سيطرة الدولة، وليس الطبقة الرأسمالية الطفيلية، ووكلائها الإمبرياليين، على وسائل الإنتاج، من أجل تغيير حالة التخلف الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي لشعب جنوب السّودان.

هذه هي المهمة التي تقع على عاتق قوى الثورة الوطنية الديمقراطية. وتتمثل رسالة هذه القوى في مخاطبة قضايا التخلف، على العكس من دُعاة الاقتصاد الليبرالي وأيديولوجيات السوق الحرة التي تُديم الفقر، والجهل، ومحركات الصراع الأساسية في جنوب السّودان. لقد استمرت حالة الفقر والجهل هذه منذ الفترة الاستعمارية لأن البرجوازية الصغيرة المهيمنة التي ورثت الدولة الاستعمارية الجديدة غير قادرة على تطوير الاقتصاد. ليس ذلك فحسب، بل ربطت البلاد أيضًا بالكومبرادورية الرأسمالية

الإقليمية والدولية، الساعية لاستخلاص ونهب الموارد الطبيعية لجنوب السّودان. يوضح هذا كيف بددت هذه الفئة خلال 12 عامًا أكثر من 50 مليار دولار أمريكي تلقتها جنوب السّودان من عائدات النفط.

إن المعرفة الواضحة للإمبريالية، باعتبارها علاقة غير متكافئة تاريخية بين الدول الفقيرة (الجنوب) والدول الغنية (الشمال)، ضرورية في نقاش موضوع الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج. السمات البارزة في هذه العلاقة، الضرورية لعملية التحرر الوطني في جنوب السّودان، هي أنها تسمح لبلدان الشمال الغنية والقوية بالتحكم والتأثير من أجل مصالحها في السياسات الاجتماعية والاقتصادية لجنوب السّودان، وخاصة في ميدان تنمية واستغلال الموارد الطبيعية. يتضح هذا عندما ننظر في تدخل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي في توجيه السياسات المالية والنقدية لحكومة جنوب السّودان بين أعوام -2005 2015، وكانت النتيجة هي شلّ الشعب وترك الدولة مفلسة. وكان دور الطبقة الرأسمالية الطفيلية هي هذه العملية هو مساعدة مؤسسات بريتون وودز والكومبرادورية الرأسمالية الإقليمية والدولية من خلال سيطرتها على أجهزة الدولة وتمكين النظام الشمولي، الإثني، الكليبتوقراطي في عهد الرئيس كير.

من المؤكد إن علاقة جنوب السّودان بالإمبريالية العالمية، من خلال النخبة الرأسمالية الطفيلية من البرجوازيين الصغار، لا تولد سوى الفقر، والجهل، والأمية في جنوب السّودان. أثبتت هذه الطبقة عجزها وعدم اهتمامها بقيادة تنمية هدفها انتشال الجماهير من الفقر المدقع. فقط من خلال سيطرة الدولة على

مشـاريع التنميـة الاقتصاديـة الكـبرى، سـتتمكن جنـوب السّـودان وشـعبها مـن الخـروج مـن حالـة الفقـر هـذه. سـتوفر الدولـة المـوارد الماليـة والاقتصاديـة لتوفـير الخدمـات الاجتماعيـة مثـل الصحـة، والتعليـم، والنقـل، والاتصـالات، بالإضافـة إلى الخدمـات الإرشـادية في قطاعـات الزراعـة والـثروة الحيوانيـة. كـما سـتلتزم الدولـة بتشـييد البنيـة التحتيـة الماديـة لتحديـث الإنتـاج الزراعـي وتربيـة الحيوانـات.

إن الملكيـة المشـتركة لوسـائل الإنتـاج، وخاصـة المشـاريع الصناعيـة والزراعيـة الكبـيرة، هـو قـرار سـياسي وأيديولوجـي للثـورة. يقـع جنـوب السّـودان وشـعبه في أسـفل سـلم التنميـة البشريـة، ولا يمكـن الخـروج مـن هـذه الوضعيـة إلا مـن خـلال مؤسسـات، وجعلهـا في قلب التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة، وذلـك مـن خـلال وضـع أدوات وأطـر التخطيـط الاسـتراتيجي للتنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة في يـد أجهـزة الدولـة، مـا مـن شـأنه تحقيـق التنميـة العادلـة لجميـع أنحـاء البـلاد. عـلى عكـس نمـوذج التنميـة الرأسـمالية، حيـث تظـل بعـض المواقـع خـارج الرقابـة، بسـبب اهتـمام الرأسـماليين بجنـي الأربـاح فقـط، والاسـتثمار في مـا يضمـن تسريـع الحصـول عـلى الأربـاح.

الأرض هـي أهـم وسـيلة إنتـاج. ومسـألة الأرض وملكيتهـا جـزء أسـاسي مـن الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة. يؤكـد الدسـتور الانتقـالي لجنـوب السّـودان (2011) عـلى الملكيـة الجماعيـة لـلأرض، مـما يعنـي اسـتهجان العديـد مـن المجتمعـات للملكيـة الخاصـة لـلأراضي. في مملكـة شـلو عـلى سـبيل المثـال، يمتلـك الملـك الأرض بتفويـض مـن شـعب. ومـع ذلـك، هنـاك تناقـض كامـن في مسـألة اسـتخدام مـوارد الأراضي وملكيتهـا، لا سـيما في المناطـق الزراعية-الرعويـة الريفيـة.

مـن أجـل تجنـب الـصراع داخـل المجتمعـات، وبينهـا وبـين الدولـة، في المناطـق التـي تضـم منشـآت اقتصاديـة كبـيرة، يجـب عـلى الدولـة الوطنيـة الديمقراطيـة إصـدار تشريعـات تعـزز الثـورة الزراعيـة، والاسـتخدام الرشـيد لـلأراضي، مـع مراعـاة المخـاوف البيئيـة.

إن جنـوب السّـودان مسـتعد لتحقيـق ثـورة ديمقراطيـة وطنيـة. الأمـر الـذي يظهـر بوضـوح في جهوزيـة العوامـل الموضوعيـة في شـكل التخلـف الاجتماعـي، والاقتصـادي، والثقـافي للشـعب، والـذي يتجـلى في فقـره المدقـع، وجهلـه، وأميتـه، وخرافاتـه. وقـد أدت هـذه الظـروف إلى قمـع وعـي الشـعب، ومنعـه مـن الإدراك الصحيـح للواقـع الـذي يطحنـه. وزاد تعقيـد المشـكلة بعدمـا أجـبرت الحـرب الأهليـة الحاليـة النـاس عـلى تسـليح أنفسـهم للقتـال مـن أجـل البقـاء، مـما يضيـف عامـل موضوعـي آخـر مهـم لانـدلاع الثـورة.

إيقاد، المنتدى رفيع المستوى، الثورة الوطنية الديمقراطية

توقف النضال المسلح بقيادة الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة بحلول أبريل 2014. استمرت حالة الجمود العسكري هذه حتى بعد القتال داخل القصر الرئاسي في الأول من يوليو 2016. ورغم ضعف المعارضة المسلحة، فشلت الحكومة في تحقيق نصر عسكري كامل، لكنها أجبرت الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة على الانخراط فيما يشبه حرب العصابات. لم تضف جماعات المعارضة الأخرى، التي ظهرت بعد انهيار اتفاقية تسوية النزاع بجمهورية جنوب السّودان، قيمة للمعارضة باستثناء الاقتتال الداخلي والارتباك. بالإضافة إلى اصطياد الجنود والسلاح من الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة. كان ضعف المعارضة نتيجة مباشرة لغياب الأجندة والأهداف المشتركة، مما أسهم في إضعاف موقفها من النظام الشمولي الإثني.

أدى ضعف المعارضة بقادة الإقليم والمجتمع الدولي إلى السماح ضمنيًا لسلفا كير بحسم الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة عسكريًا؛ وشمل ذلك حبس مشار في جنوب إفريقيا. لكن رغم الهزيمة الواضحة لقوى المعارضة، تصاعد لهيب الحرب، وابتلع المناطق التي كانت آمنة. والنتيجة هي تفاقم الأزمة الإنسانية. ودون إدراك خطورة دعم الديكتاتور، اقترح إيقاد

فكـرة المنتـدى رفيـع المسـتوى لإكـمال تنفيـذ اتفـاق تسـوية النـزاع بجمهوريـة جنـوب السّـودان. كان مـن غـير المعقـول أن يتحـدث قـادة إيقـاد عـن تنشـيط الاتفاقيـة بينـما لا زالـوا يعترفـون بشرعيـة حكومـة الوحـدة الوطنيـة الانتقاليـة بقيـادة كـير وتعبـان، وتصديـق مزاعـم تنفيـذ الاتفـاق. تمثلـت نقـاط ضعـف وسـاطة إيقـاد في انقسـام قادتهـا. لم يخـف الرئيـس الأوغنـدي موسـيفيني انحيـازه للرئيـس كـير. كان واضحًـا إن هـدف منتـدى إيقـاد رفيـع المسـتوى، والـذي نظَّـر لـه مثقفـو الدينـكا، هـو التأكيـد عـلى شرعيـة سـلفا كـير رئيسًـا لجنـوب السّـودان. اسـتمد كـير شرعيتـه مـن الاتفاقيـة الـذي رفضـه في بدايـة 2015، وأبطلـه في يوليـو 2016 بمعاونـة عمـلاءه في الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان- في المعارضـة. إنتهـى أجـل الاتفاقيـة في 17 مايـو 2018، رغـم عـدم تنفيذهـا. ومـا لم تدركـه وسـاطة إيقـاد هـو أن كـير لم يكـن ليقبـل أبـدًا بـأي تقاسـم للسـلطة، لأنـه ملتـزم بمـشروع هيمنـة إثنيّـة عـلى السـلطة. وهـو مـشروع يسـتلزم إحـداث اضطـراب إنسـاني هائـل للمجتمعـات الإثنيـة الأخـرى وإفقارهـا مـن خـلال تدمـير قاعدتهـا الاقتصاديـة.

شـملت الأهـداف المعلنـة للمنتـدى رفيـع المسـتوى، ضمـن جملـة أمـور، الإلتـزام بوقـف إطـلاق النـار الدائـم، في الوقـت الـذي كانـت فيـه الحكومـة في حالـة هجـوم في جميـع مواقـع الحـرب. لم تتوقـف الحكومـة أبـدًا عـن القتـال منـذ 15 ديسـمبر 2013، وإسـتمرت في الهجـوم باسـتخدام تشـكيلة متنوعـة مـن المليشـيات القبليـة التابعـة لهـا وحـركات تمـرد شـمال السّـودان. عـلاوة عـلى ذلـك، فـإن الرئيـس كـير غـير مهتـم باتفاقيـة سـلام يشـارك فيهـا السـلطة مـع مشـار أو أي

زعيم متمرد آخر، مما يعني وجود شرط مسبق يؤجج الحرب إلى ما لا نهاية. تهدف وساطة إيقاد إلى تحقيق التنفيذ الكامل والشامل لإتفاقية تسوية النزاع بجمهورية جنوب السّودان بأي شكل وطريقة، لكنها في جوهرها ظلت تحمي كير من الجرائم الغادرة والشائنة التي ارتكبها نظامه. على سبيل المثال، كانت الأطراف بالفعل في عملية تنفيذ للاتفاقية عندما هاجم الرئيس كير سكن مشار ومواقع الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة في العاصمة جوبا. وكما قال رئيس وفد الحكومة للمنتدى، نيال دينق نيال، في بيانه الافتتاحي مع بدء التفاوض «لا يمكننا تحمل نفس تشكيل السلطة السابق وعودة النائب الأول السابق في منصبه مرة أخرى، وإلا فإن ديسمبر 2013 ستتكرر مرة أخرى». كان هذا تهديدًا أن الحرب ستندلع مرة أخرى إذا فرضت وساطة إيقاد مشار على كير مرة أخرى مثلما فعلوا في 2015. لقد كانت توقعات إيقاد للمنتدى رفيع المستوى غير واقعية، خصوصًا في إصرارها على التنفيذ الكامل والشامل للاتفاقية.

وعلى ذات المنوال، لم يكن من الممكن وضع جدول زمني واضح و واقعي قابل للتنفيذ حتى موعد الانتخابات الديمقراطية بنهاية الفترة الانتقالية. من الواضح أن فكرة الانتخابات الديمقراطية في بيئة لا تستطيع فيها الأطراف تحقيق وقف دائم لإطلاق النار هي احتمال غير قابل للتنفيذ. يؤكد هذا أن وساطة إيقاد افتقرت إلى تفكير استراتيجي مستقل حول الوضع في جنوب السّودان باستثناء ما تقدمه الحكومة لدبلوماسييها وبيروقراطييها. في الواقع، لم يبن مبعوثو إيقاد الخاصين مشاوراتهم مع الأطراف على تحليل ذكي

للوضع أو فكرة واضحة عما يريدون تحقيقه من خلال المنتدى رفيع المستوى. كان بإمكان معرفة واضحة بالسياق دفع وساطة إيقاد إلى مطالبة الأطراف وأصحاب المصلحة بتقديم أفكار حول كيفية حل الأزمة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والإنسانية الأليمة في البلد. وبالتالي، بدلاً من مناقشة قضايا الحكم وتقاسم السلطة، كان ينبغي على اجتماع أديس أبابا مناقشة تنفيذ البرنامج السياسي الذي وضعه الأطراف.

ماذا بعد المُنتدى المُنشط رفيع المستوى؟ هذا سؤال محوري في المرحلة التي يدخلها جنوب السّودان، سواء كان هناك اتفاق سلام أم بدونه. أرادت إيقاد أن يكون ختام المنتدى الرفيع المستوى هو اجتماع مباشر بين الرئيس كير ومشار. وكان الصراع السياسي على السلطة هو الموضوع الرئيسي منذ عام 2013. إن وجود عدد هائل من اليمنيين داخل الحركة/ الجيش الشعبي - في المعارضة يخنق العمل النضالي من أجل الثورة الاجتماعية. ومع ذلك، فإن الصراع لا ينتهي بمجرد توقف القيادة عن خوض النقاش. فطالما محركات النزاع قائمة من المرجح أن يُعاد إنتاج الأزمة. ومن هنا تأتي ضرورة وجود خيار الثورة الوطنية الديمقراطية على جدول أعمال القوى التقدمية والديمقراطية في جنوب السّودان، وفرض وجودها في مركز الخطاب الاجتماعي والسياسي عاجلًا أم آجلًا. مع الوضع في الاعتبار الاستفادة من المنتدى المنشط رفيع المستوى وضغط المجتمع الدولي، في تهيئة البيئة المناسبة لتوقيع اتفاق سلام، يحترم فيه المقاتلون وقف الأعمال العدائية، ويلتزمون بتشكيل حكومة الوحدة الوطنية الانتقالية.

قـد يفيـد الانفـراج المتوقـع القـوى السياسـية الاجتماعيـة والديمقراطيـة التقدميـة مـن إعـادة التجمـع والتنظيـم، ومواصلـة النضـال مـن أجـل التغيـير الاجتماعـي. لا تـزال العوامـل الذاتيـة ومحـددات الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة ضعيفـة مـع غيـاب القيـادة اللازمـة. ومـع ذلـك، سـتؤدي الديناميكيـات السياسـية الداخليـة في جنـوب السّـودان، والبيئـة الإقليميـة والدوليـة المتغـيرة، إلى ظهـور قيـادة تدفـع العمليـة الثوريـة خطـوة إلى الأمـام. كـما أن الحاجـة إلى التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة وتغيـير ظـروف الفقـر، والجهـل، والأميـة، سـتخلق وعيًـا اجتماعيًـا وسياسـيًا يمكّـن النـاس مـن المطالبـة ليـس فقـط بظـروف معيشـية أفضـل وخدمـات اجتماعيـة كافيـة، ولكـن أيضًـا تحديـد ماهيـة نظـام الحكـم في البـلاد، في سـياق تطويـر القـوى المنتجـة الوطنيـة، مـما يعـزز روابـط الحريـة، والعدالـة، والأخـوة، وتـلاشى الروابـط الإثنيّـة، وبالتـالي، توحـد الجماهـير عـلى أسـس مختلفـة، وتقدميـة وغـير شـخصية.

ما العمل؟

إن النضال من أجل التغيير الاجتماعي ليس قصة سهلة، خاصة في وضع مثل جنوب السّودان، حيث تسيطر عصابة يمينية بدائية على الدولة، والمجتمع والاقتصاد، مع انتشار الفقر والجهل اللذان تستغلها الكارتلات اليمينيّة لضرب التعاضد بين الناس، وتقسيمهم على أسس إثنيّة ومناطقيّة، وشغلهم عن قضيتهم، وغرس الفتنة فيما بينهم. شهدنا ذلك في المدارس والجامعات، حيث قام النظام بتشجيع الجمعيات الإثنيّة، والعشائرية، والمحلية، وتمويلها بهدف تقسيم الناس وإفساد تضامنهم. كان القتال في جامعة جوبا بين تنظيمات اجتماعية تنتمي للدينكا ضد جمعيات تنتمي للاستوائيين، جزءًا من هذه السياسة. وقد تكرر ذلك في جامعة بحر الغزال في مدينة واو.

حتى المجلس التشريعي لجنوب السّودان، أحد أركان الدولة، ليس بمنأى عن المشاعر الإثنيّة. تسبب صراع القوة الطائش داخل الحركة الشعبية لتحرير السّودان في استحالة تطوير نظام حكم يعترف بالجدارة في التعليم، والخبرة المهنية، والممارسة. سعى القادة إلى طرق مختصرة توصلهم إلى مواقع السلطة، وعملوا على إحباط أي نظام يشجع أو يعزز الشفافية في المجال العام. وفي عام 2009، رفضت قيادة الحركة الشعبية لتحرير السّودان المبادئ التوجيهية في تحديد كوادر الحركة بالمجلس التشريعي. وكانت النتيجة أن أُنتُخب أفراد أمين لم يبارح أفقهم العقلي والفكري القرى التي

جـاؤوا منهـا. وبسـبب الجهـل والميـل الإثنـيّ الصريـح، لم يتمكـن المجلـس التشريعـي مـن إنجـاز عملـه في الإشراف ومحاسـبة السـلطة التنفيذيـة، بمـن في ذلـك الرئيـس، الـشيء الـذي كان سـيمنع انـدلاع الحـرب الأهليـة دون شـك.

اسـتغلت النخبـة السياسـية في جنـوب السّـودان، كـما هـو الحـال في بلـدان أخـرى، جهـل الجماهـير لمصالحهـا الأنانيـة، خاصـة خـلال الانتخابـات. إن الجماهـير عـلى اسـتعداد للتضحيـة بـكل شيء، حتـى أرواحهـم، مـن أجـل «ابـن» المنطقـة. بينـما هـو في الواقـع ابـن الطبقـة الرأسـمالية الطفيليـة التـي تتغـذى عـلى دمـاء الجماهـير. لا تضـع البرجوازيـة الصغـيرة أي اعتبـار للفقـراء والمضطهديـن. هـي طبقـة تكـرس جـل اهتمامهـا في السـلطة والـثروة، ولـن تـتردد في إقحـام الجماهـير في حـرب حاميـة تحـت سـتار القبيلـة، بينـما ترغـب فقـط في حمايـة مناصبهـا وثرواتهـا. لنأخـذ تعبـان دينـق قـاي مثـال. لقـد حـثّ جنـود النويـر في الحـرس الرئـاسي عـلى القتـال ضـد الدينـكا في 15 ديسـمبر 2013، بينـما هـو الآن النائـب الأول للرئيـس كـير. جميعهـم مـن نفـس الطينـة. سرعـان مـا نسـوا عـشرات الآلاف مـن النسـاء، والأطفـال، والمسـنين الذيـن قتلـوا في هـذا الجحيـم. لـن تتـضرر النخبـة خـلال صراعهـا عـلى السـلطة، نشـهد فقـط يمـوت الأبريـاء.

إن الأزمـة الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية التـي يعانيها جنوب السّـودان ليسـت حصريـة عليـه. هـي تتجـلى في كل مـكان يوجـد فيهـا انقسـام حـاد في توزيـع الـثروة والفـرص، في السـياقات حيـث يوجـد عـدد قليـل «يملكـون» كل شيء مقابـل عـدد ضخـم «لا يملكـون» أيّ شيء. تحـاول النخبـة السياسـية قصـارى جهدهـا في طمـس هـذا التمييز

الحـاد باسـتخدام الأجنـدة الإثنيـة مـن أجـل بلـوغ السـلطة. يبثـون السـذاجة وسـط الجماهـير الجاهلـة والفقـيرة، ويخبرونهـم كذبًـا أنـه «قـد حـان دوركـم كي تأكلـوا طيـب الطعـام»: بينـما يأكلـون بمفردهـم في فنـادق فاخـرة بعيـدة عـن أنظـار الجماهـير بعـد توقيعهـم عـلى معاهـدات وقـف المعـارك. وفي هـذا لا يوجـد فـرق بـين الحكومـة والمعارضـة، إذ تتـصرف البرجوازيـة الصغـيرة بنفـس الطريقة، وتسـتخدم فـن الخـداع لترضيـة طموحهـا في السـلطة.

تكفـي نظـرة خاطفـة عـلى جماعـات المعارضـة لمعرفـة افتقارهـا أجنـدة واضحـة للتغيـير. تتحـدث كل برامجهـا وبياناتهـا عـن السـلطة وكيـف تُـدار الحكومـة. وغالبـاً مـا يفشـلون في وضـع خطـة تحقـق الهـدف بعـد وصولهـا سـدة السـلطة. كيـف يمكنهـم إدارة وضـع مـا بعـد الـصراع وهـم لا يفقهـون شـيئًا في السـياق الاجتماعـي والاقتصـادي لجنـوب السّـودان؟ تعـاني هـذه البرجوازيـة الصغـيرة فقـرًا أيديولوجيًـا، ولا يفهـم طبيعـة أزمـات جنـوب السّـودان سـوى الجنـاح اليسـاري مـن البرجوازيـة الصغـيرة (الماركسـيين، والشـيوعيين، والاشـتراكيين، والديمقراطيـين الاجتماعيـين) وهـم مـن يعـول عليهـم في قيـادة جنـوب السّـودان صـوب طريـق التنميـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة، ووضـع الجماهـير في مركـز عمليـات الهندسـة الاجتماعيـة، والاقتصاديـة، والسياسـية للدولـة. هـذا هـو جوهـر عمـل هـذا الجنـاح ودوره في الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة.

ينقلنـا هـذا إلى السـؤال البلاغـي: مـا العمـل؟ هنـاك مهـام كبـيرة وصعبـة تنتظـر القـوى الديمقراطيـة الثوريـة في جنـوب السّـودان. أولاً، رفـع مسـتوى الوعـي الاجتماعـي والسـياسي، إذ مـن المسـتحيل القيـام

بثورة دون إلغاء العقول القديمة والأفكار الرجعية. يجب أن يتم ذلك من خلال التنوير والتعليم السياسي للجماهير، باعتبارها الوسيلة الأهم في محاربة الشوفينية، والإثنيّة، والتعصب، وتوحيد جماهير شعبنا. يتوقف نجاح حملة التنوير هذه على تحقيق السلام، والاستقرار، وسيادة حكم القانون، لتمكين الناس من ممارسة حرياتهم، والتمتع بالحقوق المنصوص عليها في الدستور. بصفتنا وكلاء التغيير الاجتماعي يجب علينا القيام بهذه المهمة بإلتزام واجتهاد.

المهمة الثانية الأكثر أهمية هي التنظيم. من المستحيل القيام بعمل سياسي دون تنظيم سياسي. إنه أمر أساسي لنجاح الثورة. يجب أن نفهم التنظيم في سياق كونه وسيلة للعمل، حيث تقوم القطاعات المختلفة - نساء، وشباب، ومزارعين، ورعاة، ومثقفين - بتنظيم مجالاتهم التجارية والمهنية، للعمل على تحقيق الهدف المشترك: تحرير شعبنا من الفقر، والجهل، والأمية، والخرافات. هذا يمثل، ويعكس واقع «الوحدة في التنوع». وهو ما يؤكده الديالكتيك، أن الأجزاء تشكل الكلّ، بينما الكل هو انعكاس لأجزائه. لا يمكن التقليل من أهمية التنظيم، فهو أساس الوحدة والانضباط الأيديولوجي في كل حركة أو تشكيل اجتماعي وسياسي. كما أن التنظيم يضمن الالتزام والإستعداد للتضحية.

إن النضال من أجل تنفيذ مشروع الثورة الديمقراطية الوطنية ليس منفصلًا أو مختلفًا عن النضال اليومي لشعبنا من أجل حقوقه وحرياته الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية التي نصّ عليها الدستور. لم يكن النضال من أجل التغيير الاجتماعي ممكنًا

في بيئة النضال المسلح وعسكرة المجال السياسي، وهو ما عزز فشل قيادة الحركة/ الجيش الشعبي خلال حرب التحرير الوطني، بسبب تفضيلهم العسكرية على الفكر والسياسة. لقد جعلت النخبة مفاهيم المقاومة المسلحة مجرد سلم للسلطة، دون مراعاة المصالح الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية للجماهير. بحيث يجعل كل من يعتلي المسرح السياسي من نفسه رئيسًا وقائدًا عامًا، حتى إن كان دون ثقل أو قوة تدعمه. يجب أن يكون واضحًا من البداية أن الانفراج المتوقع في حالة نجاح المنتدى المنشط رفيع المستوى في مهامه يجب أن يُوظف لتأسيس نظامًا سياسيًا يسمح بحرية التنظيم والتعبير، حتى تتسنى للقوى السياسية إستغلال الفرصة في نضالها، ومن ثم التخلي النهائي عن الكفاح المسلح لصالح الكفاح السياسي.

من الأمور الحاسمة في تحديد نجاح المنتدى في مهمته، هو احتمال تعنت كير وعناده في رفض مشاركة مشار في الحكومة الانتقالية. وهو الوضع الذي يعني استمرار الحرب إلى ما لا نهاية. لذا من الضروري دراسة هذا الإحتمال والخروج بإستراتيجيات مناسبة لمخاطبته.

الخاتمة

قصة رحلتي إلى وعن الحركة الشعبية- في المعارضة

لا يقـاس الإنسـان بمواقفـه في القضايـا العاديـة بـل في أوقـات الشـدة والجـدل الأخلاقـي.

- مارتن لوثر كينغ[1]

يتمحـور النشـاط السـياسي حـول التغيـير و يمكـن للنضـال مـن أجـل التغيير الاجتماعي الإيجابي أن يكون إغراءً شخصيًا أو مصدر إلهام سياسي. فـما يقـود الناشـط السـياسي لنصرة أي قضيـة، ليس الموقف الشـخصي أو المكسـب المـادي، بـل الظلم الـذي يدفع المـرء للعمل على تغيير أسـبابه. ليـس مـن المـبرر أن تبقـى غـير مبـال في المواقـف التـي تثـير المشـاعر الإنسـانية. ومن غير الملائم إلقاء اللوم أو انتقاد من يحتجون على الظلم.

سـأروي هنـا قصـة انضمامـي إلى تمـرد ريـك مشـار، ولـن أتقبـل أي توبيـخ بخصوصهـا، لأن أحـداث ديسـمبر 2013 كانـت كافيـة أن تثقـل الـروح بالحُـزن، لدرجـة بـات معهـا مـن المسـتحيل البقـاء في موقـع الحِيـاد. كان منظـر الشـاحنات وهـي تحمـل جثـث الآلاف مـن النويـر الأبريـاء نقطـة تحـول بالنسـبة لي. حتـى الآن لا توجـد أرقـام رسـمية لعـدد القتـلى، لكننـي متأكـد أنهـا تتجـاوز بكثـير الارقـام المتداولـة. بأخـذ شـهادات الأقـارب الناجيـين مـن المجـزرة وبعـض شـهود العيـان، أعتقـد أن عـدد القتـلى في جوبـا يتجـاوز 24000.

(1) Quoted from James Comey, A Higher Loyalty: Truth, Lies, and Leadership (New York: Flatiron Books, 2018).

رفض العديد من زملائي من قبيلة شلو (الشلك) قراري بدعم الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة، بمن فيهم ابن أخي الجنرال جيمس بوقو، والذي قتلته ميليشيات دينكا فدانق لاحقاً في عام 2015. حتى إنهم ذكّروني شقيقاتي، بيرو وسيرو نيابا، اللتان ذُبحتا، مثل العديد من الشلو الأبرياء، على يد الجيش الأبيض في ملكال في فبراير 2014. إلا إنني كنتُ أنظر إلى المصير المشترك لجنوب السّودان. كما كان قرارًا يتناقض مع النقد الذاتي الذي اتخذته بشأن انضمامي إلى التمرد ضد قيادة الدكتور جون قرنق للحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان بعد إعلان الناصر في أغسطس 1991 (نيابا، 1997).

في المواقف الحرِجة، مثل أحداث 16 و 19 ديسمبر 2013، يصعب التصرف بشكل عقلاني أو بحذر، أو التفكير في الإهتمام بالنفس والعائلة. لم يخطر ببالي حينها أنني أعرّض نفسي وعائلتي للخطر عندما واصلت كتابة وإجراء مقابلات إذاعية حول الأحداث الرهيبة. كاد أمن الدولة أن يرفض السماح لحفيدي نيابا، البالغ من العمر ستة أشهر، بالصعود على متن طائرة متوجهة إلى كينيا عبر مطار جوبا. وعلمتُ لاحقًا، أن الرئيس كير أمر قواته بحماية شخصي ومدام ريبيكا نياندينق دي مابيور. لقد كُنّا تحت المراقبة الأمنية منذ المؤتمر الصحفي لمشار وأعضاء المكتب السياسي للحركة الشعبية لتحرير السّودان الذي عقد في 6 ديسمبر.

وفي يوم الاثنين 16 ديسمبر، اعتقلت الشرطة جميع الرفاق الذين شاركوا في المؤتمر الصحفي، بل وقام بعضهم، مثل جون لوك جوك، بتسليم نفسه لمركز شرطة بولوك بمجرد علمه أن

الشرطـة تبحـث عنـه. كان كل مـن مشـار، وأنجلينـا تنـج، وتعبـان دينـق قـاي، وألفريـد لادو قـوري قـد هربـوا حينهـا. كنـتُ حُـرًا طـوال تلـك الفـترة، وفي تواصـل مـع العـالم الخارجـي عـبر شـبكة الإنترنـت ووسـائط التواصـل الاجتماعـي، حتـى أننـي أجريـتُ بعـض المقابـلات مـع بي بي سي. كان الوقـت عيـد الكريسـماس، وأنـا أجـري مقابلـة مـع الإذاعـة الوطنيـة العامـة، ومقرهـا واشـنطن، عندمـا أحاطـت أربـع سـيارات تويوتـا محملـة برجـال مسـلحين برشاشـات، تحـت قيـادة اثنين مـن كبـار ضبـاط الشرطـة، مقـر إقامتـي. بـذل الضابـط قصـارى جهـده لكبـح جـماح الشرطـة وتفـادي حـدوث اضطـراب داخـل المنـزل بينـما خرجـتُ لأعـرف سـبب وجودهـم.

- «نحـن هنـا لاصطحابـك معنـا»، قـال اللـواء سـعيد شـاؤول وهـو يقـدم التحيـة العسـكرية

- سألته، «لماذا تؤدي التحية العسكرية لمعتقل؟».

- أجاب، «لأنك وزير»

كان وزيـر الداخليـة، أليـو أنيانـق أليـو، قـد هاتفنـي قبـل أربعـة أيـام وأخـبرني أننـي قيـد الاعتقـال، وأن الشرطـة في طريقهـا لمنـزلي، لكنهـم لم يأتـوا. علمـتُ لاحقًـا أن أليـو كان عازمـاً عـلى اعتقـالي أو تصفيتـي، مثلـما أراد قتـل الآخريـن. ويقـال إنـه قابـل الرئيـس كـير وأخـبره بنيتـه إعتقـالي مثـل بقيـة الرفـاق، فقـال لـه الرئيـس سـلفا: «إذا أراد أدوك الاستشـهاد، فلـن يتـم الأمـر عـلى يـدي». أعتقلـتُ، وقضيـت أمسـية عيـد الميـلاد بصحبـة زمـلائي السـابقين في مجلـس الـوزراء السـابق. كانـت نزهـة سياسـية لطيفـة.

كانت نزهة بالمعنيين المجازي والحرفي. ففي ظهيرة اليوم التالي، جاء ضابط الأمن وأخبرنا أن ضيوف رفيعي المستوى في المكان لزيارتنا. اتضح لاحقًا أن الضيوف هم رئيس الوزراء الإثيوبي هايلي مريم ديسالين، والرئيس الكيني أوهورو كينياتا، مع وزراء خارجية الدولتين، والطاقم الأمني لكليهما، برفقة الوزيران د. برنابا مريال بنجامين، الشؤون الخارجية، وأليو أنيانق أليو، وزير الداخلية. لا بد أنهم كانوا في جوبا تلبية لدعوة الرئيس كير لحضور الجلسة الاستثنائية لرؤساء دول وحكومات إيقاد، المقرر عقدها في 27 ديسمبر في نيروبي، ثم استأذنوا الرئيس كير في مقابلة «مُخططي الانقلاب».

تحدث زعيما إيقاد عن مدى انزعاج الإقليم بشأن الوضع السياسي المتقلب في جنوب السّودان. ووعدوا ببذل قصارى جهدهم لحل القضايا وإعادة البلاد للوضع الطبيعي. كما أكدوا أن محنتنا لن تستغرق وقتًا طويلًا. تحدث إنابةً عنا كلّ من فاقان أموم، ودينق ألور، وجون لوك، وحاولوا تأكيد براءتنا، والتأسف على الخسائر الفادحة في الأرواح، وتدمير الممتلكات، وكذلك تطلعنا لتدخل قادة المنطقة في مساعي حل الصراع. أمضينا الأمسية في مزاج مرح، معتقدين أن تدخل المنطقة سيعجل بإنهاء الصراع.

عند حوالي الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، الموافق الأربعاء 27 ديسمبر، جاء اللواء سعيد شاوول ليبلغني إنه سيعيدني إلى منزلي، وإن اعتقالي كان خطأ، وإنه مُجبرًا على مرافقتي لمكتب الوزير أولًا. أخبرني أليو عندما قابلته إن الرئيس أمر بعودتي إلى منزلي لأنني بريء.

سألتُ الوزير عن سبب اعتقالي، وأجابني أنه بسبب حضوري المؤتمر الصحفي للتحضير للإنقلاب الذي عُقد يوم 6 ديسمبر. عدتُ وسألتُه عن عدم اعتقالي في نفس اليوم مع البقية طالما كان حضور المؤتمر الصحفي هو السبب. تحجج أليو بعدم معرفة الشرطة مكان سكني.

ولأن جهل الشرطة لمكان إقامتي في جوبا عذرًا غريبًا، علمتُ أن الجدل مع الوزير أليو لن يفيد أبدًا. قررتُ المغادرة. أوصلتني دورية شرطة لحيّ الجبل حيث أسكن في قطعة أرض مساحتها 20 × 20 مترًا. سأروي قصة منزلي يومًا ما. بعد ثلاثة أيام من لقائي أليو أنيانق في مكتبه، أمرني ضابط أمن بالنزول من متن طائرة متجهة إلى مدينة دبي، حيث كنت أنوي الانتقال بعد حصولي على تصريح إقامة وعمل لمدة ثلاث سنوات في إمارة الشارقة. صادر رجل الأمن جواز سفري، وأخبرني أنني قيد الإقامة الجبرية لأنني أكتب ضد الحكومة.

بعد تدخل قادة إيقاد، أطلق الرئيس كير سراح سبعة من السياسيين الـ11 المعتقلين: دينق ألور، وجون لوك، وكوستي مانيبي، والدكتور سيرينو أوفوه هيتينق، وقير شوانق، ومدوت بيار يل، وشول تونق مايای. سمح لهم بالسفر إلى كينيا، حيث استضافتهم الحكومة في نيروبي، بينما ظلّ أربعة رفاق في المُعتقل، وهم: باقان أموم، والجنرال أوياي دينق أجاك، ود. مجاك دي أقوت، والسفير إيزيكيل لول قاتكوث. وقررت الحكومة فتح قضية ضدهم. كانت لحظة مربكة بالنسبة لي: لم أكن جزءًا من المعتقلين السياسيين ومع ذلك كنتُ قيد الإقامة الجبرية. تم تقديم المعتقلين الأربعة

إلى المحكمة، ولكن سرعان ما وضح أن الحكومة تخسر القضية، وبالتالي، قررت سحبها. أُطلق سراح الأربعة، وسُمح لهم بالسفر إلى كينيا. في المطار، وبينما نتجه نحو طائرة نيروبي، أخبرني مسؤولون حكوميون كينيون كانوا يرافقون القادة الأربعة أنني لستُ جزءًا من صفقة السماح للمحتجزين السياسيين بالسفر إلى نيروبي. تركني زملائي في المطار، متسائلين عن وضعي، وما الذي يمكن فعله لإخراجي من الإقامة الجبرية.

قررتُ تحدى أمر الإقامة الجبرية في منزلي في حيّ الجبل. كنتُ أخرج بعض الأحيان لمقابلة الأصدقاء، أو حضور المناسبات وطقوس الجنازات الخاصة بالأقارب والأصدقاء، أو تناول وجبة في سنترال بوب حيث تذهب النخبة لتزجية الأوقات و شرب قنينة بيرة أو اثنتين. أتذكر مقابلتي مع أشخاص يتسألون عن «متى عدتَ؟». السؤال الذي كنتُ أجيبه دائماً بالتوضيح إنني «لم أذهب إلى أيّ مكان». وفي إحدى الأيام، قال شخص لم يصدق إجابتي: «بيتر، لا تكذب. لقد كنتَ تتحدث على «بي بي سي»، وكتبتَ مقالات مثيرة في وسائط التواصل الاجتماعي. إن كنتَ لا تزال هنا فعلاً، يجب أن يكون سلفا كير شخصًا جيدًا!». كان من المؤسف كيف أن الظروف الصعبة يمكن أن تغير الناس بسرعة. وضح لي من موقف البعض أنه إذا قرر سلفا كير قتلي بسبب احتجاجاتي اللفظية والإلكترونية، فمن المؤكد أن ذلك سيكون خطأي؛ أو بعبارة أخرى، أنني سأكون دمرتُ حياتي طوعاً!.

كانت المنطقة من حيّ الجبل حيث أسكن واحدة من أكثر المناطق تلوثًا في جوبا. لم يهتم مجلس المدينة أبدًا بنظافة هذه

البيئـة. انتـشرت القمامـة، والدخـان، والضوضـاء، والروائـح الكريهـة بدرجـة لا تطـاق. ورغـم كـوني وزيـرًا في الحكومـة، لم يسـتجيب مجلـس مدينـة جوبـا إزاء احتجاجـي المتواصـل عـلى تلـوث المنطقـة. تغـير هـذا الوضـع فجـأة بعـد قتـال ليلـة 15 ديسـمبر. وتـم «تطهـير وتعقيـم» المنطقـة الواقعـة بـين مقـر الجيـش ومكتـب الأمـن القومـي. اختفـت الأكـواخ التـي ترشـح بموسـيقى الجـاز، وترشـح بالدخـان والضوضـاء، كـما اختفـت بيـوت الدعـارة والبـارات غـير المرخصـة المحيطـة بمنزلي في اليـوم التـالي للقتـال بينـما حـزم التجـار والباعـة الأوغنديـون أمتعتهـم وعـادوا إلى ديارهـم.

تيقنـت أننـي سأتسـبب في مـوتي إذا سـمحتُ للضغـط، والاكتئـاب، واليـأس، والغضـب بالتسـلل إلى روحـي. حاولـتُ تفـادي كل هـذه طـوال فـترة السـتة أشـهر وأنـا في الإقامـة الجبريـة في منـزلي بحـيّ الجبـل. لم يخاطـر سـوى الأصدقـاء الحقيقيـون بزيـارتي خـلال هـذه الفـترة، حتـى إننـي أتذكـر يـوم خرجـتُ في نزهـة إلى سـنترال بـوب وهـرب مـن لقـائي زميـل سـابق: لم يكـن يريـد أن يـراه النـاس (تُقـرأ الأمـن) برفقتـي. في غضـون الثلاثـة أشـهر الأولى خـلال الإقامـة الجبريـة، تمكنـتُ مـن تدويـن كتـاب وضحـتُ فيـه بالتفصيـل، مـا حـدث في الفـترة التـي سـبقت انفجـار 15 ديسـمبر، وذكـرتُ في مقدمتـه أننـي سـأكون محظوظًـا في حـال طُبـع الكِتـاب وأنـا عـلى قيـد الحيـاة. دونـتُ هـذه الخاطـرة لأننـا نجونـا بالفعـل مـن ثـلاث حـوادث إطـلاق نـار كثيـف في المنطقـة: كان الأول في ليلـة 15 ديسـمبر؛ والثـاني تبـادل نـيران بـين جنـود الجيـش الشـعبي؛ والثالثـة عندمـا هاجـم الجيـش الشـعبي منـازل ثلاثـة مـن كبـار ضبـاط النويـر: سـيمون قاتويـج دوال، وتومـاس

مابـور دوال، وغابرييـل قاتويـج شـان الشـهير بـ(تانغينـج). كان سـماع إطـلاق النـار طـوال الليـل والنهـار، ومشـهد دبابـة T-72 المتوقفـة عـلى بعـد أمتـار قليلـة مـن منـزلي، يتخللـه ملـل الإقامـة الجبريـة.

زاد هـذا الخطـر المسـتمر مـن رغبتي في الخـروج من جوبـا، خصوصًا عندمـا رفـض مديـر عـام الأمـن القومـي اسـتعادتي جـواز سـفري، عندمـا رغبـتُ في السـفر إلى نـيروبي بعـد عمليـة أُجريـت لزوجتـي. وعـلى الرغـم مـن مغـادرتي المنـزل لبضـع سـاعات والتجـول في المدينـة، إلا أننـي مُنعـتُ مـن مغـادرة جوبـا. كـما لم تـرق لي فكـرة التوجـه لمعسـكرات حمايـة المدنيـين التابعـة للأمـم المتحـدة. وفي إحـدى الأيـام، بينـما اسـتمع لمحطـة إذاعيـة تبـث في جوبـا، علمـت بوفـاة البروفيسـور بـول كولـوك في الولايـات المتحـدة. وهـو زميـل ورفيـق نضـال منـذ أيـام دراسـتنا الجامعيـة. عرفـتُ أن رفاتـه نُقلـت إلى جوبـا، و في طريقهـا للدفـن في مسـقط رأسـه برومبيـك. ذهبـتُ لحضـور الصلـوات في جوبـا، وأتيحـت لي الفرصـة للتحـدث. في نهايـة خطـابي طلبـتُ مـن العائلـة تأمـين مقعـد لشـخصي عـلى مـتن الطائـرة التـي سـتأخذ الجثـمان إلى مدينـة رومبيـك، ووافقـت الأسرة عـلى الطلـب بعدمـا عـرف مجتمـع آقـار في جوبـا العلاقـة الوطيـدة التـي ربطتنـي بالفقيـد.

تقـررت الرحلـة يـوم الجمعـة 27 يونيـو. ناقشـتُ موضـوع رحلـة رومبيـك مـع زوجتـي التـي عـادت مـن رحلتهـا العلاجيـة في كينيـا. ودعمـت ذهـابي. ثـم اتصلـتُ بصديـق في نـيروبي لإبلاغـه أننـي سـوف أسـافر إلى رومبيـك. فكـر لوهلـة، ثـم أخـبرني إن بمقـدوره ترتيـب طائرة تنقلنـي مـن هنـاك في حـال أردتُ مغـادرة البـلاد. وربطنـي في الحـال بالشـخص الـذي سـيرتب رحلتـي فـور وصـولي.

وصلت مطار جوبا حاملًا حقيبة سفر توحي بإقامة طويلة ، مع العلم أن طائرتنا ستعود إلى جوبا في نفس اليوم. حاولت التبرير أن من الضروري بالنسبة لي حمل أشياء معينة في الحقيبة، لكنهم لم يصدقوا حجتي. شعرتُ أنني مجبر على إخبارهم عن تجربتنا في الجيش الشعبي لتحرير السّودان، والتحجج أننا في موسم الأمطار، وقد يحدث ما هو غير متوقع. انطلقنا متأخرين قليلاً، وبعد وصولي رومبيك تحركتُ صوب مكان الدفن. وبعد مراسم الدفن، أقلعت الطائرة نحو جوبا قبل أن تعود بعد 15 دقيقة فقط، بسبب أعمال الصيانة اليومية في مطار جوبا. على أن تستأنف الرحلة صباح اليوم التالي.

أمضينا الليل هناك. لم أستطع التوراي عن الأنظار حتى لا أفضح نفسي وتشعر المجموعة أنني أخطط لأمر ما. لم أكن متأكدًا مما إذا كان أي شخص في حكومة ولاية البحيرات يعرف نية هروبي من جوبا. قضيتُ يوم السبت في الغرفة، لا أخرج إلا للطعام حتى انتهيت من ترتيب الأمر مع صديقي في نيروبي. أذكر أننا تجنبنا المكالمات التلفونية، واستخدمنا تطبيق سكايب، حتى حصلتُ على جميع التفاصيل، من رقم تسجيل الطائرة وإسم الطيار.

يوم الأحد هو يوم جيد للأنشطة السرية. أعتقد أنه اليوم الذي لا تستيقظ فيه حكومة جنوب السّودان ومؤسساتها قبل الساعة 11 صباحًا، ويذهبون إلى الكنيسة مباشرة. كان مصدري قلقي الحقيقي هو وجود ضابط الأمن في مهبط الطائرات. لكن اتضح أنه هنا فقط لتحصيل الرسوم من الطيار. أقلعنا دون توقف لمدة خمس ساعات ونصف الساعة من رومبيك إلى مطار

ويلسون في نيروبي. كانت رحلة غير قانونية بكل المقاييس، بل تُعتبر خيانة لأنها انتهكت أمن جنوب السّودان في تحدٍّ لحظر السفر المفروض عليّ بأوامر من كير. علمتُ لاحقًا أن الأجهزة الأمنية أطلقت العنان لغضبها على الطيار الكيني المسكين ومديره الأوكراني، الذين أمضوا نحو شهرين في الزنازين.[1]

لاحظتُ لاحقاً سخرية المسألة. لقد سافرتُ خارج البلاد من رومبيك هاربًا من الأمن القومي بكل سهولة، والتي يجب أن تكون مهمة مستحيلة مع الوضع في الاعتبار أن وحدات الأمن القومي لا بد أن تكون على أهبة الاستعداد في جميع أركان البلاد للقبض على كل من يحاول الهروب عبور الحدود دون تصريح. وهو ما يجعلنا نؤكد أن الأمن القومي لا ينجز المهام التي أسّس من أجلها، وهي حماية البلاد من التهديدات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، سواء كانت داخلية أو خارجية، من خلال جمع المعلومات وتحليلها بعناية. إن الأمن القومي في جنوب السّودان، على عكس نظرائه في العديد من البلدان، يعمل فقط على خدمة وحماية الرئيس، وينشط في العاصمة فقط. ولا وجود له خارج العاصمة. وهذا يفسر كيف تمكنتُ من السفر من رومبيك إلى نيروبي، ويدفعني لطرح تساؤلات عن عدد المواطنين والأجانب الذين فروا من البلاد بهذه الطريقة، منتهكين الأمن القومي.

يعتقد البعض أن وظيفة الأمن القومي هي تخويف وإبتزاز ضحاياهم من المواطنين والأجانب. بينما يستمتع أفراد الأمن

(1) أبلغني بذلك الجنرال لازاروس سومبيو، مبعوث إيقاد الخاص للهيئة بمحادثات السلام في جنوب السّودان، عندما التقينا في أديس أبابا.

بإقامة ووجبات مجانية، وأحيانًا بعلاقات جنسية غير مشروعة في الفنادق والنزل. كما أنهم موجودون في كل مشروع خاص أو عام، ويكشفون عن أنفسهم دائمًا كضباط أمن، ربما لتغطية عمليات الاحتيال المالية واسعة النطاق التي تحدث تحت أعينهم. في معظم الحالات هم عملاء للفساد، وبالتالي يخلقون حالة من «انعدام الأمن الوطني»، بالنظر إلى عدد مقاولي رعاة البقر الذين اختفوا بملايين الدولارات نقدًا. رغم إنني سافرتُ إلى مدينة رومبيك في بادرة احترام لصديقي وزميلي، لكنني استغلتها أيضًا لإحراج من منعوني السفر، وأجبروني على النزول من طائرة متجهة إلى دبي في رحلة عمل، بحيث فقدتُ تصريح إقامة لمدة ثلاث سنوات، وتغيرت خططي في نهاية الأمر.

قرار الانضمام إلى الحركة الشعبية- في المعارضة

بعيدًا عن متناول جهاز أمن كير صار بإمكاني تنفيذ خططي. اتخذتُ قرار الانضمام إلى المعارضة قبل مغادرتي جوبا بفترة طويلة. أتذكر نقاشي مع صديق ألماني جاء لزيارتي أثناء الإقامة الجبرية. كنت أحتج على قرار الترويكا بتسمية المعتقلين السياسيين في مجموعة مستقلة لمواجهة كل من الحركة الشعبية/ كير والحركة الشعبية/ مشار في مفاوضات السلام في أديس أبابا رغم ان المعتقلين السياسيين لم يشاركوا في الحرب. كانت حجتي أنه من أجل التوصل إلى تسوية سلمية، من الأفضل أن يقتصر الأمر على طرفين فقط، مع إمكانية أن يساهم المعتقلون السياسيون في تحقيق السلام عبر الانضمام الى مجموعة مشار. كما أنهم كانوا مع مشار حتى تاريخ 15 ديسمبر 2013. كان في رأيي أن قرار الترويكا يسهم بطريقة ما في تعقيد عملية السلام.

أن قرار انضمامي إلى الحركة/ الجيش الشعبي - في المعارضة، حتى عندما كنتُ تحت الإقامة الجبرية في جوبا، لم يكن مدفوعًا بالرغبة في حل سلمي للصراع عبر وساطة إيقاد. وأبعد من ذلك: لقد انضممتُ إلى الحركة - في المعارضة، لأنني رأيتُ فيها فرصة تحقيق ما فشلت فيه الحركة الشعبي لتحرير السّودان، وأقصد أهداف حرب التحرير الوطني. لا يزال تحليلي للوضع في جنوب السّودان هو أن الأزمة الحالية نشأت عن فشل قيادة الحركة/

الجيش الشعبي لتحرير السّودان، أو بالأحرى رفضها متابعة أجندة الثورة الديمقراطية الوطنية من أجل معالجة التخلف الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي في جنوب السّودان. أطراف الحرب الأهلية ليس الدينكا والنوير، كما يرى البعض. كما أنها ليست حربًا بين كير ومشار، كتعبير عن الصراع على السلطة في القيادة العليا للحركة الشعبية. إن الحرب الأهلية هي معركة بين الطبقة الرأسمالية الطفيلية التي تتكون من الحركة الشعبية لتحرير السّودان وحزب المؤتمر الوطني، وشعب جنوب السّودان.

يتطلب حل هذا التناقض نقلة نوعية في الفكر السياسي لقيادة الحركة/ الجيش الشعبي - في المعارضة ومجموعة المعتقلين السياسيين. وهو تحول بدونه لن يكونوا قادرين على تحقيق فهم صحيح للواقع الموضوعي، وتصميم برنامج سياسي يعالج هذا التناقض. وهذا يعني الوحدة السياسية والتنظيمية لجميع القوى الاجتماعية المعارضة للنظام الشمولي الذي سعى إلى استخدام القوة لحل النزاعات السياسية داخل الحزب. إن رفض مجموعة المعتقلين السياسيين السابقين الانضمام إلى مشار، مفضلين تشكيل مجموعة منفصلة بمزاعم أنهم لن يلوثوا أيديهم بدماء الأبرياء، شكل عقبة كبيرة أمام وحدة المعارضة، وخدم دون قصد نوايا وإستراتيجية كير في تشتيت المعارضة. لذا حسمتُ أمري، وقررتُ السفر إلى أديس أبابا للقاء مشار، زعيم الحركة - في المعارضة.

كنتُ على اتصال بمشار وفريق التفاوض أثناء وجودي في جوبا. أصررتُ على أن الطريقة الوحيدة لممارسة الضغط على كير وحكومته هي حرمانه ماليًا واقتصاديًا من موارد الحرب. لذا

اقترحتُ أن تسيطر الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة على حقول النفط بدل المعارك القتالية التي ليس لها قيمة استراتيجية. لم يأخذ أحد بنصيحتي. وأدركتُ لاحقًا أن هناك صدعًا بين مشار وزوجته أنجلينا من جهة، وتعبان دينق من جهة أخرى. وغض النظر عن سبب الخلاف، كان من الواضح أنهم يتبنون أجندة مختلفة. عندما وصلتُ أديس أبابا في بداية جلسة المفاوضات الثالثة لمحادثات السلام بوساطة إيقاد، لم يكن تعبان دينق، كبير مفاوضي الحركة - في المعارضة، موجودًا هناك. وكان أن تزامن مجيئي أديس أبابا وانضمامي إلى الحركة - في المعارضة مع مجيء إيزيكيل لول قاتكوث، بعد تخليه عن مجموعة المعتقلين السياسيين السابقين والتحاقه بمشار. بسبب ما يبدو أنها دوافع إثنيّة، وأقصد كونه ينتمي للنوير.

من المهم ملاحظة أن الحركة كانت في أغلبها من النوير، وهذا أمر مفهوم بسبب الأحداث في جوبا في ديسمبر 2013 و يُعتبر إيزيكيل لول قاتكوث وتعبان دينق قاي من المُحرضين على القتال داخل كتيبة تايقر ليلة الأحد 15 ديسمبر. ولو لم يتم اعتقاله واحتجازه، لكان من المرجح أن ينضم لول قاتكوث إلى التمرد. بالتالي كان أن تحولت المسألة إلى الانتقام من المجزرة الإثنيّة ضد النوير في جوبا، رغم أن الانتقام والانتقام المضاد لن يحلا المشاكل الأساسية الكامنة في جنوب السّودان. كنتُ آمل في قيادة حرب هدفها تحقيق أهداف وطنية أوسع من خلال ثورة وطنية ديمقراطية. لم يكن هذا التحول الثوري الجذري بحاجة إلى مفاوضات سلام والتفاوض مع كير، بل تنظيمًا أفضل من

حيث تحديد الأهداف السياسية للحرب، وبناء جيش، وهياكل، ومؤسسات سلطة الشعب. كان من المهم والضروري أن تخطط الحركة - في المعارضة لصراع طويل الأمد من أجل تمكين التغيير في البيئة الريفية، من خلال برنامج يقدم الخدمات الاجتماعية، وبناء قاعدة اقتصادية للثورة. كان رأيي أن مفاوضات السلام مع النظام لن تعالج المشاكل الأساسية في جنوب السّودان، ولن تؤدي إلا إلى استدامة تلك الظروف، وزيادة تأجيج الصراع. لقد اتضح لي في الأسابيع القليلة الأولى من إقامتي في أديس أبابا أن قيادة الحركة - في المعارضة ليس لديها رغبة سوى عقد اتفاقية سلام من شأنها أن تسمح بالعودة إلى جوبا لتقاسم السلطة مع كير.

بدأتُ أفهم حينها لما اختار مشار إسم الحركة - في المعارضة، على الرغم من أنه كان يعلم جيدًا أن دائرته في النوير تكره هذا الاسم. وفهمتُ أيضًا لماذا أحاط نفسه بالناشطين السياسيين ورفض بناء جيش: أراد مشار أن تتوسط إيقاد في عودته إلى جوبا نائبًا للرئيس كير. وحتى عندما كلفني بصياغة الوثائق الأساسية للحركة الشعبية لتحرير السّودان- في المعارضة، مثل البيان، والدستور، والتنظيم الداخلي، ومدونة قواعد سلوك الأعضاء، كنتُ أعرف أنه يريد إبقائي منشغلًا حتى لا أشركه في أيّ مناقشات أيديولوجية. ماطل مشار في مناقشة محتوى الوثائق، وبدلاً عن ذلك شرع في إعادة صياغة الوثائق عبر إسقاط العبارات التي تعارض أيديولوجيته اليمينية.

ما يوحد الناس في أي صراع هي الأفكار، وليس لون بشرة المرء أو شلوخه. من هنا تأتي ضرورة مناقشة الأزمة للتوصل إلى توافق

في الآراء حـول أهـداف الكفـاح المشـترك. إنطلاقـاً مـن هـذا المبـدأ، قمـتُ بصياغـة الوثائـق الأساسـية للحركـة - في المعارضـة. وفي مرحلـة مراجعـة المسـودة، قـام مشـار وهـنري أودوار بحـذف مـا أعتبرتُـه الهـدف السـياسي الاسـتراتيجي للحركـة حتـى قبـل مناقشـة الأعضـاء للمسـودة. كنـتُ حـددتُ الحركـة عـلى أنهـا جـزء مـن القـوى الثوريـة الوطنيـة الديمقراطيـة، وأن هدفهـا السـياسي الاسـتراتيجي هـو الإطاحـة بالنظـام لبنـاء دولـة ديمقراطيـة وطنيـة بجنـوب السّـودان. وغضبـتُ مـن حـذف هـذا الجـزء مـن النظـام الأسـاسي. فـإن لم تكـن الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان- في المعارضـة قـوة ثوريـة، فـما الحاجـة إذاً إلى ديمقراطـي ثـوري عـلى شـاكلتي في صفوفهـا؟ دعـم العديـد مـن الشـباب والشـابات، وخاصـة مـن شـاركوا في نضـالات الحركـة الطلابيـة في السّـودان، فكـرة تحويـل الحـرب الأهليـة إلى ثـورة وطنيـة ديمقراطيـة لتصحيـح الفكـرة الشـائعة وسـط أفـراد جيـش النويـر الأبيـض أن الحركـة - في المعارضـة جـاء بغـرض الانتقـام مـن المذبحـة الإثنيّـة ضـد النويـر في جوبـا.

انعقـد المؤتمـر الأول للحركـة في مدينـة فقـاك في نوفمـبر- ديسـمبر 2014. وحـضره أكـثر مـن 5000 شـخص، بمـن فيهـم أنـاس مـن المهجـر. كانـت هـذه فرصـة مشـار لتقديـم رسـالته السياسـية للمؤتمـر، وشرح الأسـباب الجذريـة للحـرب، وكذلـك أهدافهـا واسـتراتيجياتها. المثـير للدهشـة أن مشـار لم ينتهـز هـذه الفرصـة للتحـدث عـن العوامـل التي تسـببت في القتـال في جوبـا. وأمـر بـدلًا مـن ذلـك بانخـراط المؤتمريـن في جلسـات مناطقيـة، وعشـائرية، وإثنيّـة مصغـرة لمناقشـة التعيينـات وشـغل المناصـب. وكانـت النتيجـة أن تبـدد حـماس المجتمعـين، وعـاد

كثيرون إلى ديارهم ترافقهم خيبة أمل من قيادة الحركة. من الصعب معرفة ما إذا كان أول مؤتمر له هدف غير تأكيد قيادة مشار. تفرق المؤتمرون دون مناقشة أو اعتماد الوثائق الأساسية، الأمر الذي وضع مشار في موقف ضعيف كزعيم، بالنظر إلى أن الحركة كانت بلا دستور، وفي مرحلة أقرب للمهزلة، بسبب انعدام المبادئ والممارسات الديمقراطية.

جدير بالذكر أن المؤتمر جاء بعد اتفاق أروشا الهادف لإعادة توحيد الحركة الشعبية، والذي حضرته الفصائل الثلاثة للحركة: الحركة الشعبية في الحكومة (كير)، والحركة الشعبية في المعارضة (مشار)، والمعتقلون السابقون (باقان أموم). كان المؤتمرون في فقاك ضد فكرة إعادة توحيد الحركة الشعبية بكل وضوح لأن ذلك يعني استمرار قيادة كير. لكن العلاقة بين مؤتمر إعادة التوحيد ووساطة السلام في إيقاد أخمدت هذا العداء. كانت فكرة إعادة توحيد الحركة الشعبية من بنات أفكار كير. ودون فهم الدوافع الكامنة وراء فكرة التوحيد، وافق مشار على إرسال وفد إلى أروشا، وتكليف دوار توت دوار وشخصي برئاسة الوفد. لكنه رفض الإجابة على أسئلتنا عن الهدف من التوحيد.

على هامش الجمعية العامة للأمم المتحدة في سبتمبر 2014، طلب الرئيس كير من رئيس جمهورية تنزانيا المتحدة ندوقو جاكايا كيكويتي المساعدة في إعادة توحيد فصائل الحركة الشعبية لتحرير السّودان الثلاثة المتناحرة. وألزم الرئيس كيكويتي الأمين العام للحزب الحاكم في تنزانيا، تشاما تشا مابيندوزي، بهذه المهمة الشاقة. شاقة لأن كير لم يكن صادقًا بشأن إعادة توحيد الحركة،

لـذا بـدى الأمـر إهانـة لنظـيره التنـزاني[1]. هـذا لأنـه حتـى بعـد أن وقعـت الفصائـل عـلى اتفـاق إعـادة توحيـد الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان بتاريـخ 21 يناير 2015، وكذلـك عـلى الاتفـاق بشـأن تسـوية النزاعفـي جنـوب السّـودان (ARCISS)، رفـض كـير إعـادة الرفيـق باقـان أمـوم لمنصبـه أمينـاً عامـاً للحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان. إن أهميـة وفائـدة إعـادة توحيـد الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان، إذا توفـرت إرادة سياسـية مـن جميـع الأطـراف، لـن تكمـن في إعـادة التوحيـد نفسـها، بـل في تخفيـف حـدة الـصراع بـين الفصائـل، لتمكينهم مـن التفـاوض وتوقيـع اتفـاق سـلام بنوايـا حسـنة. غـير هـذا لـن يكـون هنـاك طائـل مـن إعـادة توحيـد الحركـة الشـعبية.

ليـس مـن السـهل التوسـط في السـلام بـين أطـراف متفاوتـة في ميـزان القـوة العسـكرية. وقـد اتفـق الجميـع عـلى صعوبـة عمـل مبعـوثي إيقـاد في التوصـل لصيغـة حـول تقاسـم السـلطة. كان مـن الأسـهل لـو أن الحركـة - في المعارضـة أثبتـت قدرتهـا العسـكرية لدرجـة تشـكيل تهديـد لسـلطة كـير. أمـا اعتـماد المبعوثـين الخاصـين لمبـدأ الشـمولية، وجمـع كل أصحـاب المصلحـة في اتفاقية تفاوضيـة، فقد أدت لتعقيـد العمليـة. ونتـج عنهـا فكـرة وجـود حكومـة انتقاليـة للوحـدة الوطنيـة تضـم جميـع أصحـاب المصلحـة، وبالتـالي تعقيـد المفاوضـات. وحولـت تركيـز الأطـراف إلى نسـب تقاسـم السـلطة. مـن المهـم الإشـارة إلى انقسـام قـادة إيقـاد وفقًـا لمـا تمليـه عليهـم مصالحهـم الأمنيـة،

(1) حاولـت أحـزاب الجبهـة الثوريـة الديمقراطيـة الشـعبية الإثيوبيـة، والمؤتمـر الوطنـي الأفريقـي دعـم المصالحـة وإعـادة توحيـد الحركـة الشـعبية لتحريـر السّـودان قبـل حتـى محادثـات السـلام عـبر إيقـاد. لكـن مشـار رفـض هـذه المبـادرة بحجـة أن الحـرب مسـتعرة، وإنـه يفضـل محادثـات سـلام عـلى محادثـات مصالحـة وإعـادة توحيـد الحركـة الشـعبية.

الوطنيــة، والاقتصاديــة، والسياســية المتنافســة في جنــوب السّــودان. وقـد تـرك هـذا الأمـر المبعوثـين الخاصـين بـلا خيـار عمـلي سـوى فـرض مسـودة اتفـاق عـلى جميـع الأطـراف.

في الوقـت الـذي تشـكلت فيـه حكومـة الوحـدة الوطنيـة الانتقاليـة في 29 أبريـل 2016، كانـت الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحرير السّـودان- في المعارضـة في حالـة مـن الفـوضى. إن الطريقـة الفضفاضـة التـي أدار بهـا مشـار الحركـة، إلى جانـب افتقـاره إلى التفكـير الاسـتراتيجي، مكـن كـير، عـبر تعاونـه مـع تعبـان دينـق قـاي، مـن قطـع الطريـق أمـام الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان- في المعارضـة . وبعـد أقـل مـن شـهرين مـن تشـكيل الحكومـة اندلعـت الحـرب مـرة أخـرى. كشـف الهجـوم المنسـق عـلى مواقـع الحركـة/ الجيـش الشـعبي - في المعارضـة في العاصمـة جوبـا نقـاط ضعفهـا السياسـية، والاسـتخبارية، والتنظيميـة. قاتلـت قـوات الجيـش الشـعبي - في المعارضـة بشـجاعة، وتمكنـوا مـن إلحـاق ضرر كبـير بقـوات كـير، مـن حيـث القتـلى مـن الجنـود والمعـدات المدمـرة[1]، هـذا رغـم الخلـل في القيـادة، وغيـاب التخطيـط الاسـتراتيجي.

ظهـر هـذا الضعـف خـلال الانسـحاب مـن جوبـا، والـذي تكبـدت فيـه قـوات الحركـة - في المعارضـة خسـائر فادحـة وهـي في طريقهـا إلى الحـدود مـع جمهوريـة الكونغـو الديمقراطيـة، بسـبب خطـأ فـادح ارتكبـه مشـار الـذي كان عـلى تواصـل مـع مايـكل شـينقجيك، المسـؤول عـن الإمـدادات العسـكرية للحركـة بالخرطـوم، دون أن يعلـم أنـه حول

(1) يُقـدر عـدد القتـلى بـين ميليشـيات الدينـكا «مثيانـق أنيـور» بحـوالي 3000 جنـدي، كـما تـم تدمـير 12 دبابـة APC في جوبـا ومـا حولهـا.

ولائـه للقائـد تعبـان دينـق قـاي. كان مشـار يرسـل إحداثيـات موقعـه للضابـط شـينقجيك عـلى أمـل تلقـي إسـقاط جـوي مـن الإمـدادات، دون أن يـدرك أنـه يرسـل هـذه المعلومـات إلى جوبـا مبـاشرة عـبر تعبـان دنيـق، الـذي ينقلـه بـدوره إلى الاسـتخبارات العسـكرية. وبـدلاً مـن تلقـي إمـدادات، هاجمـت طائـرات حربيـة وطائـرات بـدون طيـار تابعـة للجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان مواقعـه. لم يـدرك مشـار أنـه يتعامـل مـع عـدوه رغـم حـدوث ذلـك عـدة مـرات.

قامـت حكومـة السّـودان، لأسـباب إنسـانية، بإخـلاء مشـار وقلـة مـن حراسـه الشـخصيين مـن الكونغـو ونقلهـم إلى الخرطـوم شريطـة ألا يمـارس أي نشـاط سـياسي، بمـا في ذلـك إجـراء مقابـلات أو التحـدث إلى الصحافـة أثنـاء وجـوده في السّـودان. كان تحـت حمايـة أمنيـة صارمـة. ومـع ذلـك، اجتمـع المكتـب السـياسي للحركـة - في المعارضـة في الخرطـوم في سـبتمبر 2016، لكـن بعـد فـوات الأوان، وبعـد أن خـرج مـن حسـابات الأجنـدة الإقليميـة. تقـرر في هـذا الاجتـماع أن تقـوم الحركـة ببعـض الخطـوات الإسـتراتيجية لجـذب الانتبـاه الإقليمـي والـدولي. ورغـم الطبيعـة السريـة والاسـتراتيجية لهـذه القـرارات، وجـه مشـار بنـشر هـذه القـرارات عـلى الإنترنـت وفي مواقـع التواصـل الاجتماعـي. كـما أصرّ عـلى عـدم الأخـذ نصيحتنـا، وقـرر السـفر إلى جنـوب إفريقيـا لإجـراء استشـارة طبيـة كان يمكـن تتـم في الخرطـوم. بالنظـر إلى أن الرئيـس كـير لم يتخـل حينـذاك عـن نيـة قتلـه، كان مـن الخطـر عـلى مشـار السـفر كمسـافر عـادي، كـما أنـه لم يحلـل بشـكل صحيـح موقـف إدارة أوبامـا بعـد أن أجـبر وزيـر الخارجيـة جـون كـيري منطقـة إيقـاد عـلى الاعـتراف بتعبـان دينـق قـاي نائبًـا أول للرئيـس.

لم يرغب الرئيس جاكوب زوما، ولا نائبه سيريل رامافوزا، مقابلة مشار عندما وصل جنوب أفريقيا. ارتبكت خطط سفر مشار في نوفمبر 2016، وطُرد من الخرطوم وأديس أبابا، وتبع ذلك اعتقاله واحتجازه في جنوب أفريقيا. وهذا بسبب عزم الإدارة الأمريكية وقادة إيقاد على نفي مشار عن جنوب السّودان.

مأزق الحركة الشعبية- في المُعارضة

وجدت الحركة الجيش الشعبي لتحرير السّودان- في المعارضة نفسها في وضع حرج بعد احتجاز مشار في جنوب أفريقيا. لم تدخل الحركة منعرجًا صعبًا فحسب، بل فضح غيابه أيضًا إفتقادها الديمقراطية في تعاملاتها السياسية. ومع غياب مشار، لم يعد للحركة من يتخذ القرارات أو يوجهها في وقت شهدت تزايد الشكوك. نعم، كان مشار قد نجح في الهرب عبر أدغال جنوب السّودان من مطاردة كير الساخنة مستخدمًا فيها طائرات بلا طيار من طراز إريك برنس بلاكووتر، وطائرات هليكوبتر الجيش الشعبي لتحرير السّودان، وكتائب المشاة. لكنه الآن قيد الإقامة الجبرية بجنوب إفريقيا، بينما انشق نائبه الفريد لادو-قوري، والأمين العام د. ضيو مطوك دينق وول، وانضما لجماعة تعبان دينق قاي، الذي كان قد أصبح وقتها جزءًا من حكومة جوبا.

كنتُ برفقة ستة أعضاء في المكتب السياسي للحركة - في المعارضة بنيروبي عندما اندلع القتال. قررنا تشكيل أنفسنا في مجموعة عمل لمواصلة تنفيذ الوظائف السياسية والدبلوماسية للحركة، وكذلك لإطلاع منطقة إيقاد والمجتمع الدولي على تطورات الأوضاع في جنوب السّودان. ومع ذلك، لم يقدر مشار الخطور، بل تعامل بإزدراء مع ما كنا نفعله نيروبي أثناء هروبه نحو الحدود مع الكونغو. لم تكن للحركة الشعبية في المعارضة أي قيادة، لذا حاولنا توفير قيادة مؤقتة لملء الفراغ الناشئ عن غياب مشار. لسوء

الحـظ، لم يرغـب بعـض أعضـاء المكتـب السـياسي في القيـام بـأيّ تحـركات سياسـية أو دبلوماسـية في غيـاب مشـار، وظنـوا أن اتخـاذ مثـل هـذه الخطـوة بمثابـة إنقـلاب عـلى مشـار. بهـذا المُنطـق، نسـفوا اقتراحًـا بتشـكيل لجنـة مـن خمسـة أعضـاء داخـل المكتـب السـياسي للاضطـلاع بمهـام الحركـة، بالتعـاون مـع مجلـس القيـادة العسـكرية تحـت قيـادة رئيـس الأركان العامـة. كانـت الفكـرة أن لا تتأثـر الحركـة بغيـاب مشـار، وتفـادي تعطيـل المهـام السياسـية والعسـكرية والدبلوماسـية للحركـة.

مـا مـرت بـه الحركـة - في المعارضـة بجوبـا، ومحنـة مشـار هـي أمـور متوقعًـة طالمـا لا زالـت عنـاصر التناقـض الأسـاسي موجـودة. يحـدث هـذا عندمـا يعطـل العـدو جـزءًا أو كل قيـادة حركـة التمـرد في عمليـة عسـكرية مفاجئـة، أو حملـة اعتقـال يسـيطر بموجبهـا عـلى مركـز عملياتهـا. في مثـل هـذه الحالـة، يكـون مـن واجـب مـن لم يقعـوا ضحيـة الأسر أن يسـتمروا في النضـال. عـلى سـبيل المثـال، حُظـر نشـاط الحـزب الشـيوعي السّـوداني في حقبـة مـا، و أُعتقـل سـكرتيرها العـام، ومـع ذلـك، اسـتمر النشـاط السـياسي للحـزب في الخفـاء، واسـتمر في توجيـه الحركـة الجماهيريـة. في السـياق الأفريقـي، واصـل قـادة المؤتمـر الوطنـي الأفريقـي، الذيـن بقـوا طلقـاء داخـل جنـوب أفريقيـا أو خارجهـا، نضالهـم حتـى تـم الإفـراج عـن نيلسـون مانديـلا وزملائـه المحتجزيـن في جزيـرة روبـن. هـذا هـو معنـى التنظيم والانضباط سـواء كان في حـزب، أو حركـة تحريـر، أو جبهـة مقاومـة. وقـد نجـح النضـال خـارج السـجون في حشـد الدعـم الجماهـيري داخـل جنـوب إفريقيـا وفي جميـع أنحـاء العـالم حتـى أطلـق نظـام الفصـل العنـصري مانديـلا

ورفاقه. وحتى مع التضامن الدولي الضخم من أجل إطلاق سراحه، استغرق الأمر بعض الوقت لإقناع العناصر داخل المنظمة، بجانب سوء الحالة الصحية للقائد أوليفر تامبو، ليوافق مانديلا أخيرًا على تولي قيادة حزب المؤتمر الوطني الأفريقي. هذا هو معنى مبدأ القيادة الجماعية في المنظومة الديمقراطية، حيث يكون أي فرد قائدًا، ويخرج القادة من زنازين السجن أو يعودون من المنفى ليصبحوا رؤساء أو وزراء بعد أن يحقق مرؤسيهم أهداف النضال.

القرار الذي اتخذناه في يوليو 2016 في نيروبي بتشكيل مجموعة عمل تُبقي جذوة الحركة الشعبية لتحرير السّودان حية كان سليمًا. وتمكنا من إرسال وفد لحضور اجتماع الاتحاد الأفريقي في العاصمة الرواندية كيغالي، رواندا، المخصص لمناقشة الأوضاع في جنوب السّودان. وكذلك اجتماع لجنة الرصد والمتابعة بالخرطوم، واجتماع إيقاد في أديس أبابا. هذه ممارسة سياسية طبيعية: عندما يواجه الناس مناخًا مفرط السلبية يجب عليهم مواصلة النضال بكل الوسائل المتاحة.

أردنا القيام بنفس الخطوات أثناء الهجوم العسكري والدبلوماسي الواسع الذي قامت به الحكومة، والذي شهد استيلاء قوات الحكومة على معظم مواقع الحركة، بما في ذلك مقرها في فقاك، إلا إنه سرعان ما اتضح لنا أسباب ترقية مشار بعض الأفراد للمكتب السياسي: فقط بدافع الولاء الشخصي لعرقلة أي أفكار غير صادرة من مشار.

تعكس لنا حالة الحركة - في المعارضة، الوضع العام لعلاقات السلطة السياسية والديمقراطية لدى النخبة السياسية في جنوب السّودان. وهي علاقة يحكمها الافتتان بالقوة الشخصية الذي

يطغى على المبادئ والممارسات الديمقراطية المعروفة في جميع أنحاء العالم، مع ميل النخبة لشخصنة السلطة لدرجة بعيدة في السخف. يتضح هذا من سلوك مشار، وكيف عمل على «سلعنة الولاء»، والتصرف كما لو أن استمرار الحركة مرهونًا بشخصه. فقد أصر على إدارة الحركة من مقر إقامته الجبرية على بعد آلاف الأميال، متمسكًا بصفته رئيسًا وقائدًا عامًا. أدار مشار الحركة عبر التواصل الإلكتروني مع أعضاء الحركة في الميدان، وداخل مخيمات حماية المدنيين، وفي شرق أفريقيا والديسابورا، و تجاهل بازدراء مقترح تشكيل لجنة من المكتب السياسي لإدارة الحركة مؤقتًا، بل ورأى فيها انتزاعًا لسلطته.

عندما تتوقف حياة وبقاء حزب أو حركة سياسية على قائد فردي أو مجموعة من القادة، وعندما يتسبب احتمال غيابهم المؤقت إلى موت التنظيم، نتأكد حينها أن مثل هذه الحركة لم تصل بعد مستوى غير شخصي من التنظيم. وهذا ما حدث في الحركة - في المعارضة، التي كانت تُدار بالتمني بدلًا من التفكير الاستراتيجي. مستخدمًا وسائل التواصل الاجتماعي ومجموعات واتساب، أحكم مشار قبضته على الحركة التي وصلت طريقًا مسدودًا (من الناحية العسكرية). وبدأ في إصدار قرارات زائفة تخص تعيينات، وترقيات، وتسمية حكام الولايات، ومفوضي المقاطعات، وممثلي الحركة في الخارج، بالإضافة لبعض الإداريين. كان يُدير جميع المهام السياسية، والدبلوماسية، والعسكرية للحركة، ويتواصل مباشرة مع صغار الضباط في الميدان دون إحترام سلسلة القيادة وأحبط مشار بسلوكه هذا كل الجهود الممكنة لإطلاق

سراحـه مـن إقامتـه الجبريـة[1].

تسـبب احتجـاز مشـار، والنقـص في الخدمـات اللوجسـتية، وهبـوط الـروح المعنويـة واللامبـالاة التي ضربـت صفوف الحركـة، في تمكن قوات الحكومـة مـن اسـتعادة معظم الأراضي التي كانت تحت سـيطرة الجيش الشـعبي - في المعارضـة، بمـا في ذلـك، القيـادة في فقـاك و نتـج عـن هذه الهزائـم فـرار جزء من القوات كما انشـقت بعض القوات في مملكة شـلو (الفرقـة الأولى)، وعـلى وجـه التحديد كبـار الضباط، مدفوعـين بالإحباط مـن عـدم وجود تخطيط اسـتراتيجي. أما في الاسـتوائية، فقـد ترك العديد مـن أبنـاء الاسـتوائية الحركـة- في المعارضـة، وانضمـوا إلى التنظيـمات الجديـدة التـي تشـكلت هنـاك، مثـل جبهـة الخـلاص الوطنـي (NAS)، والحركـة الوطنيـة للتغيـير في جنـوب السّـودان (SSNMC). و بحلـول نهايـة عـام 2017، لم تعـد مـن أسـباب للاسـتمرار السـياسي والعسـكري للحركـة سـوى إصرار بعـض القـادة الملتزمـين مـن جهـة، وسياسـات كـير الإثنيـة التـي جعلتهـا حـرب الدينـكا ضـد الجماعـات الإثنيّـة الأخـرى في جنـوب السّـودان. أسـهمت تصرفـات مشـار في جعـل قـادة الإقليـم والمجتمـع الـدولي ينظـرون إلى الحركـة/ الجيـش - في المعارضـة كقـوة عسـكرية سياسـية عـلى وشـك الفنـاء. لقد كان فشـلًا زريعًـا، أدى لتكاثر جماعـات المعارضـة السياسـية والمسـلحة، والتـي فضلـت إدارة حركاتهـا بصـورة منفصلـة ومسـتقلة، بـدلًا عـن الإنضـمام للحركـة - في المعارضـة.

(1) عندمـا احتاجـت قـوات الحركـة/ الجيـش الشـعبي لتحريـر السّـودان- في المعارضـة للدعـم العسـكري، كان مـن الممكـن أن يتـم ذلـك مـن خـلال تفويـض خطـي مـن مشـار للجنـة عـبر المكتـب السـياسي لإجـراء الاتصـالات اللازمـة للحصـول عليهـا، حتـى تتمكـن الحركـة مـن تحقيـق أهدافهـا الاسـتراتيجية، بمـا في ذلـك حقـول النفـط. كانـت الخطـوة سـتظهر لا جـدوى احتجـاز مشـار في جنـوب إفريقيـا، مـما يـؤدي إلى إطـلاق سراحـه.

العلاقة مع مجموعات المعارضة الأخرى

كانت الحركة - في المعارضة أكبر حركات المعارضة المسلحة بكل المقاييس، لكن عابها هيمنة النوير الإثنية وقيادة ريك مشار. ويمكن ربط هذا بالتحليلات التي ذكرناها عن السياسة والإثنيّة. يؤكد هذا الأمر أن من تمردوا لاحقًا لم ينضموا للحركة، وذلك بسبب طبيعة قيادة مشار وإدارته للحركة كمؤسسة عائلية. ورغم وجود قوات الجيش الشعبي - في المعارضة في أنحاء الاستوائية وغرب بحر الغزال، إلا إن مشار أشرف على تعيين قادته بطريقة شخصية، ومعظمهم من النوير، في تجاهل وتهميش للقيادات العسكرية والسياسية في هذه المناطق.

أثار ذلك مسألة طبيعة العلاقة بين الحركة وجماعات المعارضة الأخرى، في المجالين السياسي والعسكري. كان من السذاجة الافتراض أن جماعات المعارضة الناشئة ستنضم إلى الحركة الشعبية- في المعارضة لمجرد أنها تسيطر على بعض أجزاء من جنوب السّودان. والنتيجة هي أن قرر كل سياسي العمل بشكل مستقل، مما أدى لاحقًا لخسائر في الأرواح بشمال أعالي النيل عندما اندلع القتال بين قوات الجيش الشعبي - في المعارضة والحركة الوطنية الديمقراطية (NDM)؛ وفي ولاية الاستوائية الوسطى مع قوات جبهة الإنقاذ الوطني (NAS). كان من الممكن تفادي الخسائر لو تصرف السياسيون بحكمة، لكن اتضح أنهم يفتقرون لأبجديات العمل السياسي، وليس لديهم خبرة في بناء التحالفات.

أذكر عندما كنت مسؤولًا عن مجموعة في نيروبي، أنني واجهتُ

ردود أفعال معادية من زملائي بعد قرارنا حضور اجتماع استشاري لقوى المعارضة دعا له الدكتور لام أكول. اتهمني البعض بمحاولة تسليم الحركة للدكتور لام أكول، وقاطعوا الاجتماع التشاوري بحجة رفض مشار مشاركتنا في الاجتماع. كانت حجتهم غير معقولة، لأنه وبحلول 20 أغسطس 2016، موعد نهاية المشاورات، كان مشار لا يزال هارباً في أدغال جنوب السّودان دون قدرة على التواصل مع العالم الخارجي. على الرغم من الجدل الدائر حول مشاركتنا، أقر الاجتماع التشاوري جميع أفكارنا في بيانه الختامي. كان هذا إنجازًا سياسيًا مهمًا، لا سيما فيما يتعلق بالتضامن الذي أبدته تلك الجماعات مع الحركة - في المعارضة، وقلقها على وضع مشار' في مثال جلي على إمكانية التفاهم بين جماعات المعارضة. وقد كان أن شكل الاجتماع التشاوريّ بداية تشكُّل تحالف المعارضة بجنوب السّودان.

لا يوجد حزب أو حركة سياسية ترفض المناقشات السياسية. يمثل رفض النقاش خطرًا كبيرًا على بقائها السياسي. وهنا تجسدت مشكلة الحركة، التي أدت إلى شلها في أعقاب احتجاز مشار في جنوب إفريقيا. كان القصد من تجميد نشاط الحركة هو الضغط لإطلاق سراحه، إلا إنه أدى عن غير قصد إلى عزل الحركة. رهن مشار المشاركة في أيّ منتدى بإطلاق سراحه، وكان أن رفضت الحركة دعوة المشاركة في اجتماع للمعارضة تحت رعاية الحكومة الكينية، في بلدة نياهوروروا، لأن زعيمها رهن الاعتقال[1]. لم يخطر ببال هنري أودوار أن الاجتماع قد يكون وسيلة للضغط على قادة الإقليم للإفراج

(1) كانت حكومة جمهورية كينيا هي مقرر قمة إيقاد حول النزاع في جنوب السّودان. وجاء الاجتماع في إطار جهود كينيا لإحلال السلام في جنوب السّودان، وهو الاجتماع الذي اقترح أن تقوم المعارضة بتوحيد موقفها.

عـن مشـار. كان قـرار عـدم قـدرة الحركـة عـلى المشـاركة في أي نشـاط سـياسي بسـبب اعتقـال مشـار غـير منطقيًـا. ومثّـل رفـض المشـاركة بدايـة التباطـؤ، والعزلـة، والعـداء تجـاه حركـة فرضـت نفسـها معارضـة للنظـام الشـمولي. بلـغ الأمـر ذروتـه عندمـا رفضـت قيـادة الحركـة التوقيـع عـلى ميثـاق المعارضـة بعـذر أن الميثـاق يصـف اتفاقية تسـوية النزاعبجمهوريـة جنـوب السّـودان بالوثيقـة المحتـضرة أو الميتـة. كانـت حُجـة مضللـة، خصوصًـا وأن المكتـب السـياسي للحركـة كان قـد أعلـن مـوت الاتفاقيـة في اجتماعـه عـام 2016. السـبب الحقيقـي وراء الرفـض هـو الخـوف مـن العمـل كجـزء مـن تحالـف المعارضـة في غيـاب مشـار، وإصرار الحركـة عـلى قيادتـه جناحـي المعارضـة: العسـكري والسـياسي.

انتقـدتُ في حـوار داخـلي بالمكتـب السـياسي الطريقـة الخرقـاء التـي أدار بهـا الرفيـق أودوار، نائـب الرئيـس، علاقـات الحركـة مـع جماعـات المعارضـة الأخـرى، كـما دحضـتُ تأكيداتـه أن إدارة أوبامـا عاقبـت الحركـة - في المعارضـة بسـبب قرارهـا إعـلان الحـرب عـلى حكومـة الرئيـس كـير. أثـارت انتقـاداتي إسـتياء الدكتـور ريـك مشـار، وقـرر تسريـب الوثيقـة للصحافـة بغـرض تشـويه صـورتي أمـام الـرأي العـام للنويـر، وهـو مـا حـدث بالفعـل. حيـث واجهـتُ ردود فعـل معاديـة. حاججـت أودوار إن الإدارة الأمريكيـة عاقبـت الحركـة عـلى تصرفهـا بطريقـة «نويراويّـة»، وقصـدتُ الإعـلان عـن نيتنـا شـنّ الحـرب[1]. ومـا

(1) مـن بـين جميـع الجماعات الإثنيّة في جنوب السّـودان، ينفرد النويـر بجرأة الإعلان عن نيتهم شـن حـرب حتـى قبل أن يعدوا أنفسـهم. حدث هذا في ديسـمبر 2013، عندما بـدأ بضعة ضباط وعسـاكر مـن النوير بتنسـيق مـن تعبان دينـق قـاي بالهتـاف «Ban ngieny ke Jieng»، والذي يمكـن أن يُترجـم حرفيـا إلى (نحـن ذاهبـون لمحاربة الدينـكا)، الأمر الذي دفع مجلـس كِبار أعيان الدينـكا للعمـل عـلى تصعيـد نزعـة القوميـة الإثنيّة للدينـكا، التي نتجـت عنها الجرائـم المروعة.

كان مـن مشـار إلا أن أمـر بعـزل أو تهميـش كل عضـو في المكتـب سـياسي عـلى تواصـل مـع شـخصي.

يؤكـد واقـع العديـد مـن البلـدان الأفريقيـة طغيـان دور الأغلبيـة الإثنيّـة في تحديـد مـن يتقلـد السـلطة في أيّ منظومـة سياسـية، وهـي نفـس الحقيقـة البديهيـة التـي تقـوم عليهـا الحركـة - في المعارضـة. إن تـدني مسـتوى الوعـي السـياسي بـين مـن يزعمـون دعـم التغيـير الاجتماعـي في مجتمـع إثنـيّ، يـؤتي ثمـاره في مثـل تلـك الحـالات السـخيفة التـي يديـر فيهـا فـرد حركـة متمـردة مـن إقامتـه الجبريـة عـلى بعـد آلاف الأميـال. عـلى الرغـم مـن أن العديد مـن أعضـاء الحركة مـن قبيلـة النويـر يعلمـون لا جـدوى إدارة الحركـة مـن الاحتجـاز، إلا أنهـم لـن يوافقـوا عـلى أي قيـادة غـير مشـار. وهـذا مـا يؤكـد فكـرة ضرورة قيـادة النويـر لأي معارضـة لحكومـة تسـيطر عليهـا الدينـكا في جنـوب السّـودان. تنبـع هـذه الـضرورة مـن فكـرة «دورنـا في أن نحكـم»، والشـعور أن السياسـة القوميـة وسـلطة الدولـة منتظمـة عـلى أسـس إثنيّـة.

هـذه الاسـتقطابات الإثنيـة والمناطقيّـة لا بـد أن ترتـد عاجـلاً وليـس آجـلاً، لا سـيما في غيـاب أهـداف وطنيـة واضحـة داخـل المجموعـات السياسـية المختلفـة. لهـذا السـبب كـثرت الأجسـام المعارضـة السياسـية والمسـلحة، وعـلى وجـه الخصـوص الميليشـيات القبليـة التـي يسـتخدم أعضاؤهـا العنـف في تحقيـق أهدافهـم. خطـورة هـذا التصـور هـو أنـه يركـز عـلى السـلطة و تقاسـمها بـدلًا مـن معالجـة التناقضـات الكامنـة للفقـر والجهـل في المجتمـع، ودون تحـدي النظـام القمعـي، كـما يجعـل السياسـات الوطنيـة أمـرًا غـير مجـدي، ويُدخـل البـلاد في أزمـة دائمـة.

إنه وضع يسمح ببروز الشوفينية والتعصُّب الإثني، وسيادتها على الأجندة الوطنية، ويمنع بالتالي من تطور المجتمع المدني.

المجتمع في جنوب السّودان ذو طابع قبلي، ومن المستحيل تجاوز طبيعة تكوينه الاجتماعي السياسي بسهولة، لكن بمقدورنا العمل على محاربة الشعارات الخطيرة على شاكلة «وُلد ليحكم»، و»فرصة قبيلتنا»، حتى نضمن ارتقاء الأفراد المحظوظين لقمة السلطة. نعم من حق كل شخص الطموح في حُكم البلاد، لكن لا يجب أن يكون ذلك على أساس إثني، بل بناء على خطوات قانونية وديمقراطية راسخة، لتفادي إدخال البلاد في حالة فوضى وفقدان السيطرة على الحكم. يمثل الوضع الحالي فرصة للقوى الاجتماعية والسياسية المتنافسة، والمعارضة للرئيس سلفا كير ونظامه. فرصة حقيقية لممارسة الديمقراطية «داخل» منظومتها، وكذلك «خارج» المنظومة في علاقتها بالجماعات الأخرى، بهدف التوصل إلى إجماع حول وسائل النضال الجماعي ضد النظام الشمولي. فمن غير المعقول، بل ومن السذاجة، أن يتوقع أي شخص في قيادة الحركة/ الجيش الشعبي - في المعارضة، أن تتبع كل قوى المعارضة مشار، وتؤيد فكرة «حان دور النوير لحكم جنوب السّودان». كان رفض الحركة- في المعارضة التوقيع على ميثاق تحالف المعارضة في جنوب السّودان مُحرجًا ويشبه تصرفات حكومة كير، حتى لو جاء عن غير قصد، وذلك لأنه جاء نتيجة تفكير قصير المدى. وبالنظر إلى كونها أكبر مجموعات المعارضة من حيث العدد، فقد خسرت الحركة برفضها فرصة قيادة تحالف المعارضة والتأثير على قراراته.

الاستقالة من الحركة الشعبية- في المعارضة

ذكرتُ هنا أنه من بين جميع الأشخاص الذين انضموا إلى ريك مشار في مغامرته الجديدة لقيادة جنوب السّودان، كنتُ الشخص الوحيد الذي كان معه في إعلان الناصر في عام 1991. مع هذا الشعور غير المريح بالذنب، يجب أن أعترف مرة أخرى بخطئي في التقدير عندما انضممتُ إلى صفوف الحركة – في المعارضة في يوليو 2014. وبعد أربع سنوات من النضال من أجل تنمية الوعي، وبناء فهم علمي للتناقضات الأساسية الكامنة وراء الحرب الاهلية، ومحاولة وضع برامج سياسي لإحداث نقلة جذرية، أدركتُ في النهاية صعوبة العمل السياسي مع مشار.

أولا، مشار غير مخلص، وفاسد، ومتعصب للنوير رغم ادعائه للقومية، ويفتقر للمبادئ الأساسية للعمل المنظم. لهذا قاد الحركة على طريقة مسرح الرجل الواحد. حتى حينما كان محتجزًا في جنوب أفريقيا، كان على نائبه ضمان إذنه في كل صغيرة وكبيرة. بالتالي هو غير قادر على تقديم نموذج أخلاقي في القيادة، والاهتمام بمن يقودهم، أو تقديم مثل في الصدق، والسلوك، والالتزام. ودائمًا يفضل الأطر غير الرسمية على المؤسسية، ويتجاهل التسلسل القيادي في الجيش عبر التواصل مع صغار الضباط بدلًا من قادتهم، مما خلق خلافات وعدم انضباط بين مختلف الرتب. حتى عندما يوفد مندوبين من قادة وكوادر الحركة لحضور المؤتمرات والاجتماعات، يفضل تلقي المخرجات بطريقة القيل

والقال عبر جواسيسه في الوفد، بدلا عن إستلام تقرير من رئيس الوفد. لذا من الطبيعي ان يواجه كل من يعمل بمهنية ونظام صعوبة في العمل مع مشار.

الصعوبات الكامنة وراء الصراع المسلح في جنوب السّودان، وفي الحركة الشعبية لتحرير السّودان (1983– 2005)، والحركة - في المعارضة، كانت ولا زالت بسبب شن حروب دون سياق أيديولوجي. ونتيجة ذلك، انتهت الحركتين بنفس النتيجة. نخب سياسية وعسكرية لا يهمها سوى السلطة والثروة. هذا هو أساس النقد الذاتي لتجربتي، لأن هدفي لم يكن أبدًا السلطة أو الثروة، بل النضال من أجل إحداث التغيير الاجتماعي: كانت مساهمتي ستكون أفضل إن إخترت النضال من الداخل، مع العديد ممن يعيشون في ظلّ النظام القمعي الدكتاتوري. إكتشفتُ أن الحركة - في المعارضة مجرد مكان للمضاربة السياسية والبحث عن الريع، وليست حركة ثورية من شأنها أن تلهم التضحية والالتزام بقضايا التغيير الاجتماعي. يفسر شيوع المضاربات السياسية وجود أعضاء في المكتب السياسي غير قادرين على المناظرة والنقاش السياسي حول قضايا الحركة والبلاد. ومن الغريب كيف أنهم وصلوا أعلى هرم الحركة دون أي معرفة و خبرة سياسية.

كان رفض مشار اعتبار الحركة جزءًا من الثورة الوطنية الديمقراطية محيرًا بالنسبة لي إلى حد كبير. وهو تصرف نابع من خلط في تفكيره السياسي المتأرجح بين اليمين الأيديولوجي والاعتقاد في أساطير النوير التقليدية المتمركز حول نبوءة نقوندينق. من المؤسف إن مشار يعتقد في إمكانية حدوث التغيير بالتمني، وهو

ما يفسر تردده في وضع خطة وأهداف سياسية واضحة للحركة، وبناء إستراتيجية لتنظيم الحرب ضد النظام. وهو بهذا جعل من الصعب تحديد رؤية للنضال، وبناء جسم يسترشد بمبادئ، وبرنامج، وقيم مشتركة.

انخرطتُ في صفوف الحركة في عام 1986، وجئتُ للحركة - في المعارضة لإيماني في إمكانية توظيف الحرب الأهلية في إحداث تحول في حالة التخلف الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي التي يعيشها شعب جنوب السّودان. هذا هو السبب الأساسي في انضمامي للتمرد، وإلا كنتُ أخترت تفادي متاعب مغادرة جوبا في يوليو 2014. كانت الحركة والشعب في حاجة لكفاءة سياسية، وتنظيم عسكري من أجل هزيمة نظام كير العدواني، وخلق الظروف الملائمة لمستقبل أفضل. وكان بإمكان الحركة - في المعارضة التحول لأداة في خدمة الشعب، في سبيل تحقيق هذا الهدف السياسي. لذا، كانت الحركة، بجانب جيشها، في حاجة لبرنامج وخطاب سياسي يهدف لتعبئة، وتنوير، وتوحيد الجماهير. خطاب قادر على إنتاج ثقافة وطنية تنافح التعصب، والشوفينية الإثنيّة، وتمقت الفساد، وتتمسك بحماية حقوق الإنسان والحريات الأساسية المنصوص عليها في الدستور.

معظم القادة السياسيين، والكوادر العسكرية، وكبار الضباط الذين انشقوا، وغادروا الحركة - في المعارضة، وانضموا لحكومة كير أو أسسوا حركة جديدة، كانوا هاربين من عناد وغطرسة مشار التي تبين في الطريقة التي يعامل بها من يختلفون معه عدم تردده في دفع الناس نحو الهاوية. وعلى الرغم من أنني كنتُ

اتمتع بمكانة كبيرة في الحركة حينذاك، إلا أن مشار أسقط اسمي من لائحة الوفد المكلف بحضور مفاوضات إيقاد للسلام، وذلك بسبب انتقاداتي المتكررة محاولاته إدارة الحركة من مقر إقامته الجبرية في جنوب أفريقيا.

شهد عام 2015، انشقاق عدد من السياسيين والعسكريين عن الحركة - في المعارضة، منهم غابرييل شانقسون، وغابرييل يوال دوك، وتيموثي توت شول، وكبار ضباط الجيش مثل بيتر قديت ياك، وغابرييل تانق قينج، وشول قاقا. اختلفتُ مع هؤلاء حينها لإيماني إن مغادرة الحركة لن تحلّ التناقضات السياسية والتنظيمية. اعتقدتُ في ضرورة بقائهم في الحركة، والعمل على تجاوز المعضلات، من أجل الفائدة العامة، وحتى تستفيد الحركة وأعضائها. لكنني اكتشفتُ خطأ تقديراتي لاحقًا.

تشبه مستوى وطريقة قيادة وتنظيم الحركة - في المعارضة محكمة قروية يتناقش فيها الحاضرون الشخصيات والأحداث بدلًا عن الأفكار والاستراتيجيات. إن طريقة قيادة مشار تجذب الانتهازيين وسماسرة السياسة. ورغم أنه لا زال زعيم حركة تمرد، كان مشار يطرح ويحدد من سيتولى الحقائب الوزارية، ومن هم كبار ضباط الجيش والشرطة. وعندما يعد الزعيم بالمناصب على أسس شخصية، سواء حقائب وزارية أو رتب عسكرية عليا، يصير من الصعب معارضته أثناء النقاش حول المسائل السياسية أو الأيديولوجية. وغالبًا ما يخسر من يعارضه، ليس بسبب قوة حجة الزعيم، بل بسبب التشجيع الأعمى الذي يجده من الموعودين بالامتيازات والمكافآت. أصرّ شانقسون وغيره على مواقفهم، بينما لم

يتبقى لمن ظلوا في صفوف الحركة- في المعارضة، بمن فيهم شخصي، خيار سوى الإستقالة و السعي وراء أجندة وطنية للتغيير.

النضال السياسي من أجل البلاد يجمع بين الناس و ليس بالضرورة تحت مظلة جسم سياسي واحد. فهمت الآن رفض كل من باقان أموم وبقية المعتقلين السياسيين السابقين مثل الدكتور لام أكول، وجوزيف باكاسورو، وتوماس سيريلو، وغيرهم ممن تمرد على نظام كير، الانضمام للحركة - في المعارضة. ما يلزم توضيحه هو أنني لم أقدم استقالتي لأسباب شخصية، بل بسبب مباديء أيديولوجية، وإنطلاقاً من إيماني في قدرة الجماهير على إحداث التغيير متى تم تسليحهم بأدوات أيديولوجية صحيحة.

المصير

لا يتحـدد النضـال مـن أجـل التغيـير بفـترة معينـة، هـو عمليـة مسـتمرة، لأن الأوضـاع الجديـدة تولـد تناقضـات جديـدة، والتـي في المقابـل تحتـم النضـال لمواجهتهـا. سـيثور الشـعب طالمـا اسـتمرت أوضـاع التخلـف الاجتماعـي، والاقتصـادي، والثقـافي في جنـوب السّـودان، ويناضـل مـن أجـل التصـدي لتلـك التناقضـات. لذلـك، لا تعنـي إسـتقالتي مـن الحركـة - في المعارضـة التخلـي عـن النضـال، بـل تهـدف لإجـتراح أدوات سياسـية و أيديولوجيـة جديـدة.

ناقشـتُ في الفصـل الرابـع مفهـوم الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة، وعرفتهـا باعتبارهـا أداة ضروريـة لتغيـير الأوضـاع الرجعيـة. ولتحقيـق أهـداف الثـورة الوطنيـة الديمقراطيـة، مـن المهـم الإنطـلاق مـن معرفـة علميـة بالعمليـات الاجتماعيـة والاقتصاديـة. ليـس هـذا الأمـر هبـة أو منحـة، بـل يتطلـب مجهـود، وتعلـم، ومعرفـة جيـدة بالواقـع الاجتماعـي. لهـذا السـبب، فـارق بعضنـا طريـق التمـرد، مـن أجـل مواصلـة النضـال بوسـائل مختلفـة، عـبر التعبئـة الاجتماعية والسياسـية، بغـرض تنميـة الوعـي الاجتماعـي والسـياسي للجماهـير، وتنويرهـم بحرياتهـم وحقوقهـم السياسـية.

عـاش شـعب جنـوب السّـودان مرحلتـين انتقاليتـين خـلال تاريخـه. مـن عهـد الاسـتعمار والهيمنـة إلى بنـاء الدولـة والأمـة، لكـن للأسـف دون تحقيـق سـلام، وتنميـة وطنيـة، وقـوة منتجـة. لهـذه الأسـباب بقـى الشـعب فقـير، جاهـل، وعُرضـة لخـداع النخـب، ثـم التـشرذم

عـلى أسـس إثنيّـة ومناطقيّـة. نحـن بحاجـة لفهـم أن العلاقـات الإثنيّـة، والسياسـات الإثنيـة، كـما يمثلهـا مجلـس كبـار أعيـان الدينـكا، ومجلـس كبـار أعيـان النويـر، شـلو، والبـاري، وجميـع التكتـلات والجمعيـات الإثنيّـة، هـي مجـرد أدوات للقهـر والاسـتغلال. هـؤلاء الشـيوخ، مثلهـم والنخـب السياسـية و العسـكرية، ورجـال الأعـمال، مجـرد سـفاحين يجـب محاربتهـم بالتعليـم. وفي هـذا المسـعى، يجـب أن نُظهـر التضامـن مـع مـن قضـوا الخمـس سـنوات الأخـيرة في الكفـاح مـن أجـل القانـون والشرعيـة، ووقفـوا ضـد قمـع الحقـوق والحريـات الأساسـية. ومـن الـضرورة أن يسـتمر نضالنـا مـن أجـل الحـق في التنظيـم وحريـة التعبـير ممثـلًا في الحريـات الصحافيـة.

المصادر

Achebe, Chinua (1983) *The Trouble With Nigeria*. Heinemann Educational Books, Johannesburg.

Alier, Abel (1990) *Southern Sudan: Too Many Agreements Dishonoured*. Ithaca Press, London.

Beshir, Mohammed Omer (1968) *The Southern Sudan: Background to Conflict*. Hurst, London.

Cabral, Amilcar (1966) *The Weapon of Theory*. Published in Speeches and Writings, Monthly Review Press, New York, London.

Chabal, Patrick (2003) *Amilcar Cabral: Revolutionary Leadership and People's War*. Africa World Press. Trenton and Asmara.

De Waal, Alex (2015) *The Real Politics of the Horn of Africa: Money, War, and the Business of Power*. Polity Press, Cambridge.

Epstein, Helen C. (2017) *Another Fine Mess: America, Uganda, and the War on Terror*. Columbia Global Reports. New York.

Fanon, Franz (1963) *The Wretched of the Earth*. Grove Press, New York.

Garang, Joseph Ukel (1961) *The Dilemma of Southern Intellectuals: Is it justified?* Monologue published by the Ministry of Southern Affairs, Khartoum, 1970.

Hanssen, Halle Jørn (2017) *Lives at Stake: South Sudan During the Liberation Struggle*. Skyline, Oslo.

Johnson, Douglas H. (2015) *South Sudan: Past Notes and Records*. Africa World Books, Wanneroo, Australia.

Johnson, Hilde F. (2015) *South Sudan: The Untold Story from Independence to the Civil War*. I.B. Tauris, London.

Khalid, Mansour (1990) *The Government They Deserve: The Role of the Elite in Sudan's Political Evolution*. Routledge, London.

Markakis, John (2012) *National and Class Conflict in the Horn of Africa*. Shama Books. Addis Ababa.

Nkrumah, Kwame (1965) *Neo-colonialism: The Last Stage of Imperialism.*

Thomas Nelson & Sons, London.

rEFErEncES

Nyaba, P.A. (2018) *The Curse of Elitism*. In Amir Idris (ed.), *South Sudan: PostIndependence Dilemmas* (pp. 19–37). Routledge, London, New York.

(2014) *South Sudan: The Crisis of Infancy*. CASAS, Cape Town.

(2010) *South Sudan: The State We Aspire To*. CASAS, Cape Town.

(2000) *The Politics of Liberation in South Sudan: An Insider's View*. Fountain Publishers, Kampala.

PaanLuel Wël Media (2013) *The Genius of Dr. John Garang de Mabior: The Essential Writings and Speeches of the Late SPLM/A's Leader, Dr. John Garang de Mabior,* vols. 1 & 2.

Tandon, Yash (2015) *Trade is War: The West's War Against the World*. OR Books, New York and London.

Thomas, Edward (2015) *South Sudan: A Slow Liberation*. Zed Books, London.

Wa Thiong'o, Ngũgĩ (1981) *Detained: A Writer's Prison Dairy*. Heinmann, Nairobi.

Wai, Dunstan (1973) *The Southern Sudan: The Problem of National Integration*. Frank Cass, London.

Young, John (2017) "Isolation and Endurance: Riek Machar and the SPLM/AIO in 2016–17." Small Arms Survey, Graduate Institute of International and Development Studies, Geneva.

(2012) *The Fate of Sudan: The Origins and Consequences of a Flawed Peace Process*. Zed Books, New York and London.

الفهرس

الإهداء..... 7

شكر وتقدير 9

تصدير 11

تمهيد 15

المقدمة 19

الفصل الأول 39

النُخَب، السياسات الإثنيّة، الدولة المعطوبة 41

تطور العمل السياسيّ في الجنوب 51

نشأة الازدواجية الاجتماعية والسياسية 55

النُخبة، والازدواجية الاجتماعية والسياسة، وتحديات الانتقال 91

الفصل الثاني..... 113

الثورة الزائفة..... 115

هل كانت الحركة الشَّعبيّة نسخة جديدة عن حزب سانو؟..... 139

سيطرة العسكرتاريا: ثقافة الخوف والأنانية..... 151

التخريب السياسيّ والأيديولوجي للثورة..... 157
تصاعد القومية الإثنيّة داخل الحركة الشعبية 187
الإنحراف الأيديولوجي اليميني ورحلة السلام 205
الفساد داخل الحركة الشعبية:ظهور الطبقة الرأسمالية الطفيلية 221
الحركة/ الجيش الشعبي لتحرير السّودان: الثورة الزائفة 243
الفصل الثالث.....259
حرب أهلية ليست حتمية..... 261
من الشائعة إلى السردية الخطرة..... 267
جنوب السّودان ومأزق صراع القادة 273
كيف ولماذا نفّذ سلفاكير مخططه؟..... 295
التحضير للعمل العسكري ضد مشار 301
معركة الحرس الرئاسي ومذبحة النوير 311
تمرد ريك مشار..... 319
سلعنة التمرُّد 327
فشل سلام إيقاد 345
منتدى إيقاد رفيع المستوى لتنشيط إتفاقية السلام 351

إصرار كير ومشار على تدمير البلاد 355

الفصل الرابع.....363

ضرورة الثورة الوطنية الديمقراطية 365

مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية 381

ثورة وطنية ديمقراطية أم سلام إيقاد؟..... 385

الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج..... 407

إيقاد، المنتدى رفيع المستوى، الثورة الوطنية الديمقراطية 413

ما العمل؟..... 419

الخاتمة 425

قصة رحلتي إلى وعن الحركة الشعبية- في المعارضة..... 427

قرار الانضمام إلى الحركة الشعبية- في المعارضة..... 439

مأزق الحركة الشعبية- في المُعارضة..... 449

العلاقة مع مجموعات المعارضة الأخرى 455

الاستقالة من الحركة الشعبية- في المعارضة..... 461

المصير 467

المصادر 469

Willows House
منشـــــورات
ويلوز هاوس
WH
TM